محمد ﷺ

سنوات مكة
دراسة نقدية

الدكتور
وجدي الفيشاوي

مُحَمَّد ﷺ

سنوات مكة
دراسة نقدية

الدكتور
وجدي الفيشاوي

المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي،
والشوق مَرْكبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي،
والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي،
والرضا غنيمتي، والفقر فخري، والزهد حرفتي،
واليقين قوَّتي، والصدق شفيعي، والطاعةُ حَسَبي،
والجهاد خُلُقي، وقُرَة عيني في الصلاة.

محمد بن عبد الله
النبي ﷺ

إلى أمي وأبي

رَوْحُ و رَيْحَانُ

"فلَنَقُصنَّ عليهم بعلْمٍ"

تصـــدير

في كتابنا **موسى في الأساطير الإسرائيلية** عالجنا حياة موسى وفكره من وجهة نظر إسرائيلية، وأظهرنا بوضوح شديد كيف زيف اليهود أحداث التوراة ٠ ونحن في تحليلنا لشخصية هذا النبي الإسرائيلي وتعاليمه، لم نخرج أبدا عن نطاق الكتب الخمسة المنسوبة إليه والمسماة بالتوراة، والتي أثبتنا بالدليل الذي لا يرقى إليه شك أن موسى لم يكتبها كما يدعي اليهود٠

وفي كتابنا **لا تصلبوا المسيح** قدمنا دراسة في الفكر المسيحي، وعرضنا آراء بعض كبار رجال الدين المسيحي، فضلا عن آراء المتعمقين في الفكر الديني من الدارسين المسيحيين الذين أنكروا ألوهية المسيح ، وتمادى أحدهم فأعلن أن المسيح لم يضف شيئا للفكر الإنساني وهذا معناه أننا ناقشنا آراء المسيحيين أنفسهم فيما يختص بشخصية المسيح ومنهج فكره، وجوهر تعاليمه ٠ على أننا قد استبعدنا تماما من تلك الدراسة كل ما يمت للإسلام بصلة وللمسلمين بنسبة – كما فعلنا في كتاب موسى– حتى لا يقال دين ضد دين وفكر ضد فكر، حاشا لله٠

وفي كتابنا هذا: **محمد: سنوات مكة**، نقدم دراسة نقدية نركز فيها على موضوعين جوهريين، الأول: مناقشة ما جاء في بعض كتب التراث عن حياة النبي ورسالته ٠ وإثبات لا معقوليته، والمطالبة بحذفه لأنه لا يضيف شيئا لشخصية النبي ولا لجوهر رسالته، كما أنه لا سند له في القرآن أو في صحيح الحديث الشريف ، ومن أمثلة ذلك .

– الحكاية التي رواها الطبري وملخصها أن البيت الحرام أُهبط لآدم من السماء إلى الأرض كي يطوف حوله، وكان "ذلك ياقوتة واحدة أو درة واحدة " حتى إذا أغرق الله قوم نوح رفعه إلى السماء ٠ وهذه الحكاية لا دليل عليها ولا سند لها .إنها تنتمي إلى عالم الأساطير ٠ والإسلام بالذات دين لا يعتمد على الأساطير، إنه دين يقوم في جوهره على التأمل والتدبر والتفكير٠

– حكاية الملك الذي نزل من السماء ومعه"طست من الذهب"،ذهب به إلى مكة وملأه من ماء زمزم،ثم شق صدر النبيﷺ وغسل داخله. ويقول أنس: وكنت أري أثر المخيط في صدر النبي٠

– الادعاء بأن النبي أخبر من حوله أن أمه وأباه وجده عبد المطلب، هم جميعا في النار٠

- ما يقال عن أن النبي قد طلب من ربه أن يحيي آمنة (أم النبي). فأحياها الله، فآمنت. ثم ماتت من جديد.

- ادعاء بعض السفهاء أن السيدة خديجة زوجة النبي، عندما أبطأ جبريل على النبي فترة انقطاع الوحي، قالت له : ما أرى ربك إلا قد قلاك.

- تنطع بعض السخفاء من ضعاف العقول بالقول إن النبي عندما انقطع الوحي صعد إلى قمة جبل كي يلقي بنفسه. وهذا معناه أن النبي قد حاول الانتحار.

- حكاية " الغرانيق العلا" التي جاء ذكرها في **تاريخ الطبري والطبقات الكبرى** لابن سعد والتي استغلها المستشرقون في محاولة لإثبات أن نبي التوحيد قد أشرك مع الله آلهة أخرى، أي قبل بالشرك وأقره، ثم تراجع بعد ذلك عندما وجد أنه لن يكسب الكثير. وجهل بعض كتبة التراث هو الذي أعطي المستشرقين هذه الفرصة كي يهاجموا الإسلام ونبي الإسلام. ولقد فندنا مختلف الآراء في هذا المجال وأثبتنا عدم صدقها.

- تحديد عدد جماعة الجن الذين استمعوا إلى النبيﷺ وهو يتلو القرآن عند عودته من الطائف، وذكر أسمائهم وتحديد مكان إقامتهم. وهذا سخف مضحك.

- القول بأن العروج يجب أن يكون مستويا بغير تعريج وهو مجرد قول غبي يغلب عليه طابع التهريج.

- ما جاء في ابن هشام وابن سعد والطبري عن الجني الذي تغني بأبيات من الشعر غناء العرب ليلة هاجر النبي، وامتدح الجني في قصيدته النبي وصاحبه وذكر أم معبد التي مر النبي بخيمتها وحلب شاتها العجفاء. والقصيدة - كما يذكر كتبة التراث - كتبها وتغني بها الجني. ونحن للأسف لا نعرف شيئا عن شعر الجن ولا عن شعراء الجن. ولقد أثبتنا أنه انتحال نابع عن قصور في المنطق وانحطاط في الفكر.

- القول بأن جبريل كان يظهر في صورة رجل من أهل "المدينة" اسمه دحية الكلبي. وهو قول كان لابد من مناقشته مع إلقاء الضوء على طبيعة الملك.

وما ذكرناه لا يزيد عن كونه مجرد أمثلة وهي قليل من كثير، ولقد عرضناها وناقشناها وأصدرنا عليها ما نراه من أحكام نقدية موضوعية دون خشية أو رهبة.

وعلى من لا يتقبل آراءنا أن يناقشها بالمنطق العقلاني، لا بالتشنج والصراخ، وتوجيه تهم الشرك والإلحاد، والتكفير. هذا المنطق نرفضه، لأنه منطق الجهلة والغوغاء.

أما النقطة الجوهرية الثانية التي ركزنا عليها في هذه الدراسة فقد تمركزت حول ادعاءات المستشرقين واتهاماتهم التي انهالوا بها على الإسلام وعلى نبي الإسلام.

وهذه بعض الأمثلة :

– أن إبراهيم وإسماعيل لم يذهبا أبدا إلى الحجاز وأن ما يروي عن بناء إبراهيم للكعبة لا يزيد عن كونه مجرد أسطورة ٠لقد ذاع هذا القول منذ انتشار روح العداء ضد الإسلام في القرون الوسطي ٠ لكن المثير للدهشة حقا هو أن يتشبع بهذا الرأي مفكر كالدكتور طه حسين. فيفرزه على الورق ويعلنه على الناس، مدعيا أنه من نتاج بحثه المستفيض وفكره الأصيل وعبقريته الفذة ٠ ولقد كشفنا عن المصدر الذي نقل عنه الدكتور طه نقلا يكاد يكون حرفيا، كما ناقشنا رأي الدكتور طه عن "استغلال الإسلام للأسطورة ". وأثبتنا فساده ٠ لم يكتف الدكتور طه حسين بالسرقة الأدبية لكنه تبجح واتهم الإسلام بالاستغلال ٠ وكان علينا أن نكشف زيف فكره ونميط اللثام عن فساد منهجه٠

– أن الراهب بحيرا هو الذي لقن محمدا تعاليم اليهودية المعقدة وطقوس المسيحية الغامضة ٠ ولقد أفردنا لمناقشة هذا الرأي عدة صفحات توصلنا في نهايتها إلى لا معقوليته٠

– الإشارة إلى ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة على أنه واحد من أكبر "أساتذة" محمد وأنه هو الذي علم محمدا القراءة والكتابة وتعاليم اليهودية والمسيحية كما جاءت في الكتب المقدسة.

ولقد ابتلع الشيخ خليل عبد الكريم هذا الطعم – في غباء وجهل وعماء – وبنى عليه نظريته الخائبة التي تقوم في جوهرها على أساس أن ورقة بن نوفل والسيدة خديجة هما اللذان قاما بـ "صناعة النبي" ٠ ودون أن نكفر الشيخ خليل – فهذا ما لا نملكه ولا ندعي أن لنا عليه سلطان – ناقشنا نظريته وأسقطناها هي والأساس الذي قامت عليه٠

– الرأي المضحك للدكتور هنري ستب Stubbe ،وهو يدعي أن محمدا حارب في صفوف "المسيحيين في سوريا" تحت قيادة "عمه أبي بكر" [؟] وأظهر عبقرية حربية نادرة، ثم رحل بعد ذلك إلي الإسكندرية، وغاص في أدغال أفريقيا، ومنها سافر إلى أسبانيا حيث حاول نشر مبادئه ومعتقداته٠ هذا الجهل المثير للاشمئزاز يجسده دكتور يقال إنه كان أستاذا بجامعة أكسفورد ٠ ورغم ذلك ناقشناه بمنطق الأحداث وأثبتنا كذبه٠

– الادعاء بأن محمداﷺ كان من كبار العلماء وكان متبحرا، على وجه الخصوص. في علم "الفلسفة الطبيعية"٠

– القول بأن محمدا كان خبيرا في علم تحضير الأرواح والتنجيم واللغات، وقد تم تنصيبه ملكا.

– اتهام محمد بأنه كان مصابا بالصرع ٠ وهي قضية كبيرة ناقشناها بالتفصيل وهدمنا كل أركانها وبرهنّا على زيف ادعائها .

– الافتراء بالقول إن فترة انقطاع الوحي كانت مجرد قناع اتخذه محمدﷺ كي يتيح لنفسه فرصة البحث في "الكتب المقدسة" .

- هلوسة أحد أصحاب الخيال المريض من المستشرقين الذي يؤكد أن محمدا قتل بحيرا غدرا،لأنه خاف أن يأتي يوما "ويظهر سر لغز محمد، وقد كان نجاحه يتوقف على هذا السر"٠

هذه مجرد أمثلة مما أوردناه في كتابنا، ولقد ناقشناها بالمنطق الهادئ والحجة القائمة على أدلة ثابتة قاطعة يستحيل إنكارها، دون إثارة عداء أو كراهية أحد أو اتهامه بالزندقة أو الكفر، أو مهاجمة دينه أيا كان هذا الدين، فالإسلام دين سلم وسلام ٠ ٠ سلام مع النفس، وسلام مع الآخرين .

يهدي الله لنوره من يشاء والله ولي التوفيق٠

وجدي الغيشاوي

فيلا الكرمتان — طنطا

السبت: ٢٠٠٣/١/٢٥

الفصل الأول : مدخل
ما قبل محمد

الفصل الأول مدخل
ما قبل محمد
-١-
جغرافية بلاد العرب

شبه الجزيرة العربية، أو ما يعرف عموما باسم "جزيرة العرب" تحتل مكانا وسطا في نصف الكرة الأرضية الذي يشمل آسيا وأفريقيا وأوربا. أي أنها بمنزلة القلب من ذلك العالم القديم.

مساحة شاسعة من الأرض، تزيد عن مليون ميل مربع، حيث تلتقي آسيا وأفريقيا، تساوي تقريبا مساحة كل من أسبانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا. أي ما يقرب من ثلث مساحة أوربا.

محيط من الرمال .. سفينته الوحيدة هى الجمل .. أرض موحشة في أغلب أجزائها. . صامتة، ساكنة، شحيحة . . جبالها عابسة، ورمالها ممتدة حمراء حارقة . . أنهارها جافة أغلب أيامها، لكن حيث يوجد الماء توجد الخضرة والنماء: أشجار الفاكهة والنخيل والتوابل تزدهر.

قاحلة تلك البلاد، رغم أن الماء يكاد يكتنفها من كل جانب فهى تُحد من الجنوب بالمحيط الهندي، ومن الغرب بالبحر الأحمر، ومن الشرق بخليج فارس ونهرَيْ دجلة والفرات . . أمَّا في الشمال فتقع فلسطين وبادية الشام.

ويفرض السؤال نفسه : "العرب"، ذلك الاسم الذي اشتق منه وصف شبه الجزيرة فأصبحت "عربية" من أين جاء؟

يرى الدكتور السيد سالم أن لا أحد يعرف على وجه الدقة متى استعمل لفظ "عرب" للدلالة على معنى قومي يتعلق بالجنس العربي . . ويضيف : إن القرآن الكريم هو أول مصدر ورد فيه لفظ العرب للتعبير بوضوح عن هذا المعنى، مما يدل على وجود كيان قومي خاص يشير إليه هذا اللفظ قبل نزول القرآن الكريم بوقت لا يمكننا تحديده .... وواضح أن القرآن الكريم هو أقدم مصدر عربي وردت فيه صيغتا: أعراب وعرب، فقد ورد فيه لفظ "أعراب" عشر مرات كما وردت لفظة "عربي" إحدى عشرة مرة [1].

١- د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ **العرب قبل الإسلام**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٢، ص ٤٤-٥٤.

لكن الدكتور هنري ستب Henry Stubbe، الأستاذ بجامعة أكسفورد. يقول: لم يأخذ العرب إسمهم من "أرابوس Arabus " ابن " أبولّو Apollo" كما يتخيل بعض القدماء من كتاب اليونان، لكنه أشتق من "عربة Araba " إحدى مقاطعات بلاد العرب بالقرب من يثرب، حيث استقر إسماعيل — كما يعتقد البعض – في بداية الأمر ٠ ومنذ ذلك الحين أطلقت الكلمة على شبه الجزيرة كلها فأصبحت "عربية" وغدي سكانها "عربا" ٠ وهى جزء من أنبل أجزاء قارة آسيا [٢]٠

ويضيف د٠ ستب : في البداية لم تكن لغة العرب تختلف كثيرا عن العبرية، أو على الأقل السريانية، حتى استخدم من يُسمي "يعرب yaarab " اللغة العربية ٠ ولم يعرف العرب الكتابة إلا قبل مولد "محمد " بزمن وجيز [٣]٠

تنقسم بلاد العرب إلى خمسة أقسام كبري، هى : تهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن ٠ وفي كتابه، **تاريخ العرب قبل الإسلام** يحدد د٠ سيد سالم موقع كل منها باختصار شديد:

١– تهامة :تشمل المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر من اليمن إلى العقبة شمالا، ويحجزها عن داخل شبه الجزيرة سلسلة جبال السراة، أعظم جبال العرب٠ وقد سميت تهامة بهذا الاسم من التهم، وهو شدة الحر وركود الريح، لشدة حرها وركود ريحها ٠ ٠ ولانخفاض أرض تهامة سميت بالغور ٠٠٠٠ ومن مؤرخي العرب من يجعل مكة من تهامة [٤]٠ ومن تهامة أيضا ينبع والحديبية وتبوك[٥]٠

٢– نجد :هى الهضبة الوسطي في شبه الجزيرة العربية وتمتد شرق جبل السراة الذي يجتاز قلب بلاد العرب، وتعلو سطح البحر بحوالي ثلاثة آلاف قدم، وفيها كانت تقيم قبيلة غطفان ٠ وتحيط الصحراء بنجد إلا من الجنوب حيث تقع اليمامة، وبها سكن بنو حنيفة وفيهم إدعى النبوة مسيلمة الكذاب[٦]٠

٣ـ الحجاز :ما بين نجد وتهامة، وهو جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام، وسُميَّ بهذا الاسم لأنه يحجز بين نجد وتهامة[٧]٠

2- Dr. Henry Stubbe, An **Account of the Rise and Progress of Mahometanism, with the Life of Mahomet**, Afzal Chambers.,Lahore, P.58.

3- Stubbe, P . 60 .

4- المألوف أن مكة من الحجاز .

5- د . السيد سالم ، ص ٧١ .

6- Maulana Muhammad Ali , **The Religion of Islam** , National Publication and Printing House , U.A.R .,n. d., P.5.

7- د . السيد سالم ، ص ٧٢

وقد ورد ذكر الحجاز في "التوراة" باسم "باران" أو "برية باران " وأهم مدن الحجاز هى مكة والمدينة والطائف.

ومكة، رغم جدبها وصخريتها، هى أشهر مدن الحجاز. إذ بها الكعبة المشرفة في قلب المسجد الحرام، وإليها منذ أزمان سحيقة كانت تشد الرحال حيث تقام شعائر الحج كل عام . كما أنها كانت مركزا حيويا لتجارة القوافل، كما سنشرح بالتفصيل فيما بعد.

وعلى بعد حوالي مائتين وسبعين ميلا شمال مكة تقع يثرب، وهى على عكس مكة لا تشكو جدبا، وتتميز بمزارعها النضرة كثيرة الكروم والفاكهة، وجوها ألطف من جو مكة خصوصا في فصل الشتاء . ويرجع تأسيسها إلى عام ٢٦٠٠ ق. م. ، حيث سكنها العمالقة ومن بعدهم اليهود ثم الأوس والخزرج[٨]. ويقال إنها سميت "يثرب" نسبة إلى يثرب ابن قانية بن مهلائيل . . بن سام بن نوح، وهو أول من نزلها عند تفرق ذرية نوح . ويقال أيضا إن اسم "يثرب" مأخوذ من "الثرب" بمعنى الفساد أو التثريب أي المؤاخذة بالذنب . وذكروا أن النبي نهى عن تسمية يثرب بيثرب،وسماها طيبة وطابة كراهية للتثريب [٩].

أما الطائف فتقع في الجنوب الشرقي لمكة وتبعد عنها حوالي خمسين ميلا . ولموقعها الفريد فوق قمة جبل "غزْوان"، وجودة هوائها ووفرة مائها وخصوبة أرضها وكثرة بساتينها، أصبحت المصيف العام لأشراف الحجاز.

٤- العروض : تشمل اليمامة والبحرين وما والاهما، وقد سميت عروضا لأنها تعترض بين اليمن ونجد والعراق [١٠].

٥- اليمن :وتقع أقصى جنوب بلاد العرب، وهى من أكثر المناطق العربية خصوبة. ومن أقدمها حضارة وتمدينا . وربما سميت "اليمن" من "اليمن" والبركة لوفرة خيراتها وتميز زروعها وثمارها.

وفي الطرف الجنوبي لبلاد اليمن تقع حضرموت على امتداد ساحل المحيط الهادي، وعاصمتها صنعاء، وميناؤها عدن . وفي شمال صنعاء تقع "نجران" وفيها انتشرت النصرانية قبل ظهور الإسلام، ومنها قدم وفد النصارى وحظي بالمثول بين يدي النبي . وفي شمال نجران تقع "عسير" وسط الربع الجنوبي من بلاد العرب.

8- مولانا محمد علي ، ص ٧ .
9- د . السيد سالم ، ص ٣٣٢ .
10- نفس المرجع ، ص ٧٣ .

ولا يوجد في شبه جزيرة العرب أنهار تستحق الذكر. غير أن بها جداول قليلة مبعثرة هنا وهناك . وأهم معالمها سلسلة الجبال المعروفة بـ " جبل السراة". وهى تخترق وسطها من الجنوب إلى الشمال. وأعلى قمة فيها ترتفع إلى ثمانية آلاف قدم[١١].

أما عن المناخ فهو. بوجه عام. جاف شديد الحرارة في الصيف قارص البرودة في الشتاء، مع ندرة الأمطار في أغلب الأنحاء، وهذا سبب تصحر مساحات شاسعة من شبه الجزيرة.

وقديما اشتهرت بلاد العرب بذهبها وفضتها وأحجارها الثمينة، وتوابلها . أما المحصول الرئيسي فهو التمر الذي يعتبر غذاء رئيسيا وضروريا لكافة السكان.

- ٢ -

أقسام العرب

تشكل الطبيعة، برمالها وصخريتها وندرة أمطارها وقسوة الحرارة في معظم الأرجاء، حياة سكان بلاد العرب، إذ يتكون أغلبهم من البدو سكان الخيام، الهائمين في الصحراء من واحة إلى واحة، ومن بئر ماء إلى بئر ماء، في صحبة جمالهم وجيادهم وقطعان الغنم والماعز، وقد أثرت فيها قسوة الحرارة وشدة الجفاف فاعتراها الهزال.

والعرب ساميون، وهم بذلك ينتمون — كما يقول إ . ر . بايك E. R. Pike — إلى ذلك الفرع "العظيم" من البشرية الذي يتضمن اليهود .. ولا نعرف على وجه التحديد من أين جاءوا في البداية، إذ لم تترك أجيالهم المتتابعة أية علامة تذكر في صفحات التاريخ القديم.

ويضيف بايك: لكن منذ ما يقرب من ألف وثلاثمائة عام، فرض هؤلاء العرب أنفسهم فجأة على التاريخ كغزاة منتصرين في معظم أرجاء العالم . . وفيما يزيد قليلا عن مائة عام أصبحوا سادة لإمبراطورية تمتد من المحيط الأطلسي إلى حدود الصين . . وما يثير الدهشة حقا هو أن كل ذلك الذي حدث بدأه رجل واحد عاش أغلب أيام حياته مجهولا، يقابل أحيانا بالاستخفاف وأحيانا بالسخرية . . **لكن حدث شيئاً ما** .... وفي أخر عشر سنوات من حياته أصبح سيد بلاد العرب . وبعد موته ازدادت قوته واتسع نفوذه أكثر وأكثر.

إنه واحد من أعظم شخصيات التاريخ . . أتباعه يقدرون بمئات الملايين من كل أنواع البشر، أبيضهم وأسودهم وأصفرهم . . يؤمنون به ويبجلونه، لا على أنه "نبي"، ولكن على أنه هو "النبي" . . هذا الرجل اسمه محمد [١٢].

١١- مولانا محمد على ، ص ٥ .

12- E. R.Pike ,**Mohammed :Prophet of the Religion of Islam** ,Weidenfeld & Nicolson, LTD ,1968, P 6.

وقبل أن نناقش ما قاله بايك وغيره من المستشرقين عن "محمد والإسلام"، لابد وأن نلقي نظرة شاملة على العرب وأقسامهم أو طبقاتهم في عمق القدم ٠ ٠ نظرة في الجذور التي أنبتت مرحلة ما يسمى بـ "الجاهلية" ما قبل الإسلام٠

ومادمنا قد ذكرنا "الجاهلية"، فلابد وأن نقدم لها تعريفا واضحا بسيطا يجلو ما قد يتبادر إلى ذهن البعض من سوء فهم. فالجاهلية لا تعني بالضرورة الجهل أو عدم المعرفة أو غياب التمدين والحضارة ٠ وهذا معناه — كما يقول الأستاذ أحمد أمين — أنها ليست حتما من الجهل الذي هو ضد العلم. لكن من الجهل الذي هو السَّفَه والغضب والأنفة ٠ كلمة الجاهلية، إذن : تدل على الخفة والأنفة والحمية والمفاخرة، وهى أمور أوضح ما كانت في حياة العرب قبل الإسلام.ـ فسميَّ العصر "الجاهلية" [١٣]٠

ولفظ جاهلي — كما يقول الأستاذ العشماوي — لا يعني عدم معرفة الله بإطلاق ٠ ٠ إنه قد يعني الحمية والغضب السريع واقتراف المظالم[١٤]٠

وهذه المرحلة في تاريخ بلاد العرب لا تتجاوز المائة والخمسين عاما السابقة على ظهور الإسلام ٠

ويذهب المؤرخون إلى أن العرب القدامى ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١– العرب البائدة٠

٢–العرب العاربة٠

٣–العرب المستعربة٠

فالعرب البائدة هم الذين بادوا بفعل عوامل الطبيعة كالرمل الزاحف والبراكين الحارقة وما نتج عنها من اختفاء العمران وتدمير البنيان ويقال إن قوم عاد وثمود كانوا ينتمون إلى العرب البائدة ٠

أما العرب العاربة : فإنهم بنو قحطان وهم عرب اليمن، ومنهم "جرهم" الذين كانوا باليمن ثم انتقلوا إلى الحجاز وأقاموا مع إسماعيل وأمه عليهما السلام [١٥]٠

وينسب العرب المستعربة أو المتعربة إلى عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم ٠ ٠ فهم بنو إسماعيل، وقد سموا بالعرب المستعربة لأن إسماعيل عندما نزل مكة كان يتكلم العبرانية، فلما صاهر قبيلة جرهم اليمنية تعلم العربية[١٦]٠

13- أحمد أمين ، **فجر الإسلام** ،الهيئة العامة للكتاب ،القاهرة ،٢٠٠٠ ،ص ١١٠ .

14- المستشار محمد سعيد العشماوي ،**الخلافة الإسلامية**، سينا للنشر ،القاهرة ،الطبعة الثانية ،١٩٩٢ ،ص ٣٧

15- الإمام الشيخ أحمد حسن الباقوري ،**السيرة المحمدية في ظلال القرآن** ،مؤسسة آمون الحديثة للنشر والتوزيع، القاهرة ،١٩٨٩ ، ص١٣ .

16- د . السيد سالم ، ص ٤٩ .

وهكذا فإنه من الممكن القول بأن عرب شبه الجزيرة كانوا ينقسمون إلى قسمين أو إلى فريقين :عرب الشمال وهم العدنانيون، ويطلق عليهم أيضا: النزاريون أو المضريون. وعرب الجنوب وهم اليمنيون أو القطحانيون ٠

كان القحطانيون يعيشون في الجنوب،أي في أرض اليمن المشهورة بخصوبتها وازدهارها وكان العدنانيون يقيمون حول مكة. حتى اجتمع الأمر إلى قبيلة قريش بزعامة قصى بن كلاب. فاستقرت في مكة ذاتها ٠

يقول الأستاذ العشماوي إن العرب كانوا يميزون بعضهم عن بعض. فيضع عرب اليمن القحطانيون عمائم صفر ويرفعون رايات صفر، بينما يضع عرب عدنان (المكيون) عمائم حمر ويرفعون رايات حمر ٠ وكان كل فريق يرفع راياته في الحرب التي كانت دائما أبدا مستعرة بينهما[١٧].

هذا معناه أن العداء كان مستحكما بين القحطانيين والعدنانيين ٠ وأصل هذا العداء، على ما يظهر — كما يقول الأستاذ أحمد أمين — هو : ما بين البداوة والحضارة من نزاع طبيعي ٠ وكان توالي الحوادث والوقائع الحربية يزيد في العداء ويقوي بينهم روح الشر ومن أوضح المثل على هذا ما كان من العداء الشديد بين أهل المدينة- الأوس والخزرج— وهم على ما يذكر النسابون يمنيون، وأهل مكة وهم عدنانيون [١٨] ٠

ويورد الدكتور طه حسين آراء الرواة فيما يختص بالعرب العاربة والعرب المستعربة وتعلم إسماعيل اللغة العربية ونسيانه لغة أبيه وهى العبرانية ٠ ٠ ويحلل هذه الآراء ويناقشها ويخلص إلى أنها لا تزيد عن كونها ضربا من ضروب الأساطير ٠

يقول الدكتور طه : أما الرأي الذي اتفق عليه الرواة أو كادوا يتفقون فهو أن العرب ينقسمون إلى قسمين: قحطانية منازلهم الأولى في اليمن، وعدنانية منازلهم الأولى في الحجاز ٠ وهم متفقون على أن القحطانية عرب منذ خلقهم الله فُطروا على العربية فهم العاربة، وعلي أن العدنانية قد اكتسبوا العربية اكتسابا، كانوا يتكلمون لغة أخري هى العبرانية أو الكلدانية، ثم تعلموا لغة العرب العاربة فمحت لغتهم الأولى من صدورهم وثبتت فيها هذه اللغة الثانية المستعارة ٠ وهم متفقون على أن هذه العدنانية المستعربة إنما يتصل نسبها بإسماعيل بن إبراهيم ٠ وهم يروون حديثا يتخذونه أساسا لكل هذه النظرية، خلاصته أن أول من تكلم العربية ونسي لغة أبيه إسماعيل بن إبراهيم ٠٠٠٠إن قصة "العاربة" و"المستعربة" وتعلم إسماعيل العربية من جرهم، كل ذلك حديث أساطير لا خطر له ولا غناء فيه[١٩].

17- محمد سعيد العشماوي ، ص ٣٩ .

18- أحمد أمين ، ص ١٤ .

19- الدكتور طه حسين ، في الشعر الجاهلي ، مطبعة دار الكتب المصرية ،القاهرة ،١٩٢٦ ،ص ٢٤-٢٩ .

-٣-

الحالة الاجتماعية

انقسم العرب في شبه الجزيرة العربية، من الناحية الاجتماعية إلى قسمين : البدو والحضر، أو ما يطلق عليهم عادة أهل الحضر وأهل الوبر.

كان أهل الحضر يعيشون حياة مستقرة — أو شبه مستقرة — في مدن أو قري مثل الطائف ويثرب وخيبر، ويعملون بالزراعة والصناعة والتجارة، يتمتعون بقدر طيب من الرخاء والهناء، رغم ما ينشب بينهم أحيانا من معارك تعكر صفو ما ينعمون به من هدوء واستقرار.

أما أهل الوبر، أو ما يطلق عليهم الأعراب أو العربان أو الأعاريب أو البدو وهم الأكثر عددا، فقد كانوا ينتشرون في البادية يواجهون الصحراء العارية بحثا عن نبع ماء أو واحة خضراء . . يحطون رحالهم ويضربون خيامهم حيث تقودهم أقدارهم . . يعيشون على ما يحصلون عليه من ماشيتهم . . يشربون ألبانها ويأكلون — في حالة الضرورة القصوى — لحومها، ويغزلون من صوفها ملابس ومفارش . . وفي فيافي الصحراء لا يعجزون عن أن يجدوا ما يقيم أودهم إذا ما اشتد بهم البلاء، فهم لا يتورعون عن أكل الجراد إذا ما وجد، والتهام ما يصادفهم من بري الحيوان مهما كانت دونيته، ولا مانع من الاقتيات بأوراق الأشجار إن وجدت بجوار بئر أو في بقعة خضراء.

لم يدفعهم ضيق العيش إلى القنوط واليأس والاستسلام لقسوة الأقدار . . على العكس خلق ذلك منهم أرواحا ثائرة متمردة متنمرة لا تعبأ بما يواجهها من أخطار.

إن البدوي لا يتورع أبدا عن السرقة والنهب والقتل في سبيل المحافظة على الحياة . إن الإغارة على الآخر وقتله معناها إضافة للقاتل، ذلك لأنه يحصل على ما للمقتول من حيوانات ونساء وأطفال . كان الاقتتال قدرا خطته ظروف البدوي من أجل الحفاظ على الحياة التي قد يفقدها في لمحة وهو يحاول الحفاظ عليها، فالبدوي — كما يقول البعض — إما قاتل وإما مقتول.

العشائر والقبائل: في هذا المجتمع البدوي المتناثر، كانت كل مجموعة أسر تربطها قرابة الدم أو قرابة النسب تشكل عشيرة، وتتقارب العشائر وتتماسك في وحدة أكبر فتصبح قبيلة . ويختار لكل قبيلة شيخ . . يُختار بالإجماع بواسطة رؤساء العشائر، وذلك لحكمته وشجاعته ومروءته وجوده وما يجب أن يتحلى به الزعيم القائد من فضائل الصبر والعطاء والإيثار.

الفرد وحده في مجتمع الصحراء مقضي عليه . . لابد من الانضمام لقبيلة أو عشيرة . .

هذا هو الطريق الوحيد لضمان الاستمرارية والبقاء والمقابل هو الولاء ٠ ٠ الولاء المطلق والتضحية بلا حدود في سبيل أمن وسلامة كل فرد من أفراد القبيلة محافظة على اسمها وسمعتها وشرفها٠

ولقد أصبحت القبيلة بالنسبة للفرد — كما تقول كارين أرمسترونج — هي القيمة المقدسة : إذ لم يكن لدي العرب أية فكرة عن الحياة الأخرى ولم يكن للفرد قَدَرُه المتفرد أو مصيره الخالد ٠ وكان لون الخلود الوحيد المتاح للرجل أو المرأة هو خلود القبيلة واستمرار روحها ٠ فواجب كل فرد غرس المروءة لضمان بقاء القبيلة ٠ وهكذا كانت القبيلة ترعى ذاتها فحسب ٠ فالمنتظر من رئيسها أن يرعى الضعفاء من أعضاء مجموعته، وأن يتولى توزيع ممتلكاتها وبضائعها بالتساوي بينهم ٠ وكانت الأريحية من الفضائل المهمة، إذ كان رئيس القبيلة يدلل على قوته وثقته بنفسه (ومن ثم على قوة قبيلته) بالكرم الفياض والسخاء البالغ، سواء لأفراد قبيلته أو لحلفائه وأصدقائه في الجماعات القبلية الأخرى[٢٠]٠

ليس معنى هذا أن كل الأعراب كانوا أعضاء في قبائل يدينون لها بالولاء والوفاء ويقاتلون في سبيلها حتى النصر أو الموت ٠ دوما كان هناك من يخرج عن المألوف،والذين خرجوا عن المألوف في هذه الحالة هم أفراد بلا عشيرة أو قبيلة،أي بلا انتماء ٠٠ فقراء، تعساء، لصوص٠ هؤلاء هم الصعاليك: كانوا يعيشون جائلين في القفار والبوادي متحللين من كل رابطة أو خلق،مُستخفِّين بأي مبدأ أو قيمة،طالبين رزقهم من الصيد والغزو والنهب والسلب[٢١] ٠

ربما يكون هذا النوع من بدو الصحراء هو الذي دفع "بيرتون Burton " إلى أن يصف البدوي بأنه مخلوق منحط : لا يمكن الوثوق به ٠ لقد ولد خائنا ٠ إنه لا يرتبط بقسم ولا يعرف الشفقة ٠ إنه يجمع ما بين قسوة القط ووحشية الذئب[٢٢]٠

والرأي السابق لا يختلف كثيرا عن رأي ابن خلدون الذي يرى في البدوي طبيعة متوحشة نهَّابة غادرة : إنهم لطبيعة التوحش الذي هم فيه أهل انتهاب وعبث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مُغالبة ولا ركوب خطر، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر، والقبائل المتنعة عليهم — بأوعار الجبال — بمنجاة من عبثهم وفسادهم، وأما البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية ٠ ٠ فهي نهب لهم يرددون عليها الغارة والنهب إلى أن يصبح أهلها مُغلَّبين لهم [٢٣]٠

20- كارين أرمسترونج ، **محمد** ، ترجمة د. فاطمة نصر و د. محمد عناني ، الطبعة الثانية ، شركة سطور ، القاهرة ،١٩٩٨ ص ٩١.

21- العشماوي ، ص ٥٥ .

22- P .De Lacy **Johnstone, Muhammad and His Power**,T. T. Clark ,Edinburgh ,1901,P .10.

23- أحمد أمين ، ص ٥٢ .

ويقرر الأستاذ أحمد أمين أن القبائل البدوية كانت في نزاع دائم ٠ وقد تتحالف القبيلة مع قبيلة أو قبائل أخرى للإغارة على حلف آخر أو لرد غارة ٠ ٠ وقد تمر الأجيال وتنسى القبائل المتحدة أسماءها وشخصياتها، وتنضم تحت اسم واحد هو اسم أقواها، ثم قد يزعمون فيما بعد أنهم من أب واحد وأم واحدة [٢٤]٠

طبقات المجتمع القبلي :ينقسم المجتمع القبلي الجاهلي إلى ثلاث طبقات اجتماعية طبقة الصرحاء، وطبقة الموالي، وطبقة العبيد٠

والصرحاء هم أبناء القبيلة الذين يرتبطون فيما بينهم برابطة الدم، وهم جمهور القبيلة ودعامتها٠ ٠ يهبون لتلبية نداء القبيلة والتضامن معها ظالمة كانت أو مظلومة ٠ والقبيلة نظير ذلك تسبغ عليهم حمايتها، وتمنحهم حق التصرف — كالإجارة على سبيل المثال — لكنها لا تبيح لهم الخروج على تقاليد القبيلة وأعرافها، فإذا سلك الفرد سلوكا شائنا يسئ إلى سمعة القبيلة ويجلب عليها العار، نبذته القبيلة وأخرجته منها، فيعتبر خليع قبيلته ٠ عندئذ يلجأ إلى قبيلة أخرى فيعتبر جارا لها أو مولي من مواليها، أو يلجأ إلى الصحراء ويعيش على قائم سيفه وحد نصله ويصبح صعلوكا من صعاليك العرب٠

أما طبقة الموالي فيدخل فيها الحلفاء، وهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم وفصلتهم عنها وتبرأت منهم لجرائم ارتكبوها، ثم دخلوا في قبيلة أخرى على أساس الموالاة بالجوار ٠ ٠ كما يدخل في طبقة الموالي أيضا العتقاء، أي الذين كانوا في الأصل عبيدا ثم أعتقوا٠

كان لهؤلاء الموالي، سواء كانوا حلفاء أو عتقاء، نفس حقوق أفراد القبيلة التي يوالونها وعليهم نفس الواجبات ٠ لكن **رابطة الجوار** كانت موقوتة، فهى تبقي ببقاء الجار في كنف مجيره وتحل بخروجه، وفي هذه الحالة يعلن المجير أنه في حل من حمايته ٠ لكن **رابطة الحلف** تبقى، فهى رابطة قوية غير مؤقتة ٠ وكانت هناك أحلاف فردية وأحلاف جماعية، كأن تتحالف قبيلة مع قبيلة أخرى، والحلف في هذه الحالة أشبه بمعاهدة ٠ ٠ أما القبائل التي اعتمدت على نفسها ولم تدخل في أحلاف فقد سميت جمرات العرب، وذلك لثقتها وإيمانها بشجاعة أبنائها٠

وأخيرا تأتي طبقة الرقيق التي كانت تؤلف طبقة كبيرة في المجتمع القبلي في الجاهلية ٠ ٠ والرقيق إما أبيض أو أسود، ومعظمهم يشتري من الأسواق، وبعضهم يجلب من أسرى

24- أحمد أمين ، ص ١١ .

الحرب . وكان العدد الأعظم من الرقيق عبيدا سودا يعرفون بالأحابيش. يستقدمون من الحبشة أو السودان . . وكان في إمكان العبد أن يعتق إذا قام بعمل خارق أو أدى خدمة عظيمة لسيده تبرر عتقه وتحريره[٢٥] .

الشعراء والكهان :كان لكل قبيلة شاعرها أو شعراؤها، وكان للشاعر الفذ مكانة تكاد تقترب من مكانة أصحاب الرسالات في مجتمعات أخرى . وربما اعتقد البعض، أو ربما اعتقد الشاعر نفسه أنه ملهم تنطقه بما يقول قوى خفية لا بشرية . . "جنيٌّ" يسيطر عليه عندما تعتريه "الحالة" فيتحرك لسانه وينطق بما لا يستطيع الآخرون الإتيان بمثله . كانوا يبجلون الشاعر ويجلونه ويضعونه في مكانة سامقة، لما كان له في نفوسهم من تأثير مسيطر أخاذ كأنه السحر.

وكان الشاعر هو المتحدث باسم القبيلة، يتغنى بأمجادها، ويمجد انتصاراتها، ويهاجم أعداءها ويبعث في نفوسهم الخشية والرهبة بهجائه لهم، وقد تنصب عليهم كلماته وكأنها لعنات تنذر بكوارث ساحقة ماحقة وشر ما بعده شر.

لقد اكتسب الشعر أهمية جوهرية في الحياة السياسية والاجتماعية في بلاد العرب . وكما تقول كارين أرمسترونج . كان قرض الشعر من المهارات ذات الأهمية الفائقة التي يعلى العرب من قيمتها . ولما كانت الأمية سائدة في شبه الجزيرة، كان الشعراء يقومون بإلقاء أشعارهم شفاهة . وكانوا يشعرون أن جنيا يسكنهم، وهو من الجان التي كانوا يظنون إنها تسكن البيداء . والواقع أن العرب كانوا يعتقدون أن الشعر نشاط فوق مستوي البشر، بل كانوا يرون أيضا أن له طاقات سحرية . و" اللعنات" الصادرة من فم شاعر ملهم قد تكون لها عواقبها الوخيمة على العدو . وكان الإحساس بأن الشاعر تتملكه قوة "أجنبية" شائعا في كل زيارة للوحي الشعري [٢٦].

ربما يرجع هذا النوع من التفكير إلى قصور في ثقافة الإنسان العربي في العصر الجاهلي . ويدعى "مولانا" محمد علي أنه لم يكن للعرب ثقافة تذكر . . وولدت الجهالة والخزعبلات والعقائد الفاسدة . وقد انكبوا على مختلف المعتقدات الغريبة والشاذة، فاعتقدوا في وجود العفاريت والأرواح الشريرة التي كانوا يتقون شرورها بحرق البخور في الأماكن المهجورة،وإليها ينسبون وقوع بعض الأمراض التي لبسوا التعاويذ والرقي دفعا لها[٢٧].

ولا نتفق مع ما قال به "محمد علي" من اتهام عرب ما قبل الإسلام بالجهل والجهالة

25- د . السيد سالم ، ص ٣٨٣ – ٣٨٥ .
26- كارين أرمسترونج ، ص ٩٥ .
27- مولانا محمد علي ، ص ٢٤ .

والإغـراق في توافـه الخزعبلات التي تغيب العقل وتميت المنطق . لا نعتقد أن هذا الرأي قد حالفـه التوفيق أو الصواب . إن جدالهم الذي يصوره القرآن، كما يقول الدكتور طه حسين، يتسـم بـالقوة ويشـهد لأصـحابه بالمهـارة . . لم يكونـوا جهـالا ولا أغبـياء ولا غلاظـا ولا أصـحاب حـياة خشـنة جافية، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة.

وهـنا يجـب أن نحـتاط، فـلم يكـن العـرب كلهم كذلك، ولا يمثلهم القرآن كلهم كذلك، وإنمـا كـانوا كغيرهـم من الأمم القديمة وككثير من الأمم الحديثة منقسمين إلى طبقتين: طبقة المستنيرين الذيـن يمـتازون بالـثروة والجاه والذكاء والعلم، وطبقة العامة الذين لا يكاد يكون لهم من هذا كله حظ [٢٨].

فـإذا مـا انتقلنا من الشعراء إلى الكهان، نجد أن بينهم قاسما فاعلا مشتركا، ألا وهو تأثير الجـان . فالشـاعر— مـن وجهة نظر الجاهلي — يسكنه جنِّي، والكاهن أيضا يخضع خضوعا كلـيا لـتأثير الجـان . لكـن الكـاهن لم يكـن يحظى بنفس المكانة المتميزة التي كان يتمـتع بها الشاعر.

كـان الكاهن في أغلب الأحوال لا يزيد في منزلته عن منزلة العراف أو المتنبئ، يلجأ إليه الـبدوي في بحـثه عـن جمل شارد أو شاة ضائعة، وكذلك إذا أراد معرفة الطالع عند الإقدام على عمل معين : سفر أو تجارة أو زواج، على سبيل المثال . وكان الكاهن المتنبئ في أغلب الأحـيان، إن لم يكن في كل الأحيان، دَعِيٌّ يُحاول أن يخفي جهله بالنطق بعبارات غامضة مبهمة يهمهم بها للمستمع إليه كي يؤولها بذكائه أو بجهله أو كما يشاء.

- ٤ -

القيم الأخلاقية

الإنسـانية القبلية :كانت القيم الأخلاقية السائدة في النظام القبلي، فترة ما قبل الإسلام، نتاج تجربة وتراث يتمسك به أفراد القبيلة ولا يحيدون عنه، وكان لهذا التراث قوة العقيدة وسطوة القانون.

ويطلق " إسبوزيتو Esposito " على هذا النظام عبارة "الإنسانية القبلية " التي لا تنبع أصـلا مـن قـوة الإيمـان بإلـه، لكنها تضرب بجذورها في عمق التراث القبلي . وكان أهم ما يمـيز هـذه الإنسـانية القبلـية ويـبرزها فضيلة الرجولة التي كانت تظهر وتتأكد في الشجاعة

28- د . طه حسين ، ص ٢٠ .

في القتال والولاء للأسرة وحماية أفرادها، والكرم والصبر والمثابرة — باختصار شديد مقاومة كل ما يمس شرف الأسرة والقبيلة [٢٩].

المُرُوَّة أو الرجولة. إذن، هي أهم ما يميز عرب الصحراء ولقد أجاد " ر ٠ أ ٠ نيكلسون R. A. Nicholson " وصفها عندما قال : إنها الشجاعة في القتال والصبر على المكاره والإصرار على الأخذ بالثأر وحماية الضعيف وتحدي القوي ٠ وهذه الفضائل مطلوبة، بل وضرورية، لنجاح القبيلة في صراعها من أجل الوجود في الصحراء٠

ويعلق "مونتجمري وُت Montgomery Watt " على رأي نيكلسون بقوله : إن مفهوم الشجاعة عند البدوي يختلف عن مفهومنا لها، فالعربي لا يؤمن بالمخاطرات التي لا ضرورة لها ٠ إنه يتجنب الأخطار والمواقف الصعبة كلما أمكنه ذلك، إلا إذا حدث ما يثير دمه ٠إن الحياة الصحراوية صعبة قاسية في حد ذاتها وليست في حاجة إلى المزيد من الصعوبة والقسوة ٠٠٠٠ والقوى على أية حال على استعداد لحماية الضعيف طالما اعترف الضعيف بفضل القوي وعلو منزلته ورفعة مكانته [٣٠].

ومن فضائل البدوي — إلى جانب ما ذكر من مُروة وبسالة وشجاعة في مواجهة الأخطار — كرمه وحسن ضيافته، وقد كانا دوما مثار إعجاب في الصحراء، ومازالا حتى الآن من أهم فضائل الإنسان العربي ٠ وكرم العرب في تاريخهم القديم مشهور ومشهود له ٠ وسيرة حاتم الطائي وأريحيته وفرط جوده وعطائه لا ينكرها من عاصره ولا من جاء بعده من أجيال، ويكفي القول أن النبي قد أحسن معاملة ابنة حاتم الطائي عندما وقعت في الأسر وكرَّمها احتراما لسيرة أبيها العطرة وما كان له من أفضال يتحدث عنها العرب٠

ومن أهم صفات العربي، أيضا، الولاء والوفاء والدفاع عما يؤمن بأنه حق ٠ ومن الناحية المثالية المتوارثة، كان على الفرد أن يسرع بتقديم يد العون والمساعدة إذا ما طلب منه ذلك دون جدل أو مناقشة، أي دون أن يسأل عن الدوافع والأسباب، فالفرد مسئول عن القبيلة كما أن القبيلة مسئولة عن الفرد ٠ وعلى الفرد أن يلبي نداء قبيلته، مُقدِّما كل ما يملك من مال وسلاح ومضحيا بنفسه لو استدعي الأمر ذلك، حتى لو اختلفت رؤيته للأشياء مع رؤية زعيم القبيلة وشيخها ٠ وفي مواقف الخطر لا وقت للتردد الذي قد يلحق الهزيمة ويورث العار ويقضي على تقاليد القبيلة وما غرسته في قلوب أبنائها من نبل وشجاعة

29- John Esposito, **Ialam : The Straight Path**, Expanded Edition, Oxford University Press, New york ,1991 ,pp .5-6 .

30- W. Montgomery Watt, **Muhammad at Mecca**, The Clarendon Press, Oxford, 1953, p.20.

وتضحية وإيثار.

في هذا المجال يقول الدكتور هيكل :لم يكن أهل البادية يقيمون على ضيم يراد بهم. بل كانوا يدفعونه بقوتهم. فإن لم يستطيعوا دفعه تخلوا عن مواطنهم وارتحلوا . . ومن ثم نجمت في هذه القبائل خلال الكرم والشجاعة والنجدة وحماية الجار والعفو عند المقدرة[٣١].

الأخذ بالثأر :لكن هذه العفو عن المقدرة. ما كان ليمنعهم أبدا من الاستعداد دوما للأخذ بالثأر ضد أي إساءة تلحق بالقبيلة مهما كان قدرها . لم تكن هناك سلطة عامة. لم يكن هناك قانون يخضع له الجميع، بل كان لكل قبيلة أعرافها . وعلى ذلك فقد كان أفضل سبيل لضمان أمن القبيلة، هو استعدادها للدفاع عن نفسها ورد أي اعتداء يقع عليها أو على أي فرد منها : ويقابل الاعتداء بالاعتداء والنهب بالنهب، والقتل بالقتل.

هذا هو قانون الصحراء الذي يضمن الحد الأدنى من الأمن الاجتماعي . وعلى المعتدى قبل أن يقوم باعتدائه أن يفكر بعمق لو استطاع، لأن رد الفعل لن يتأخر طويلا وعلى القاتل ألا يسرع بامتشاق الحسام، لأنه بعد ساعات أو أيام قد يصبح هو أيضا في عداد الموتى . . يلحق القاتل بالمقتول، لأن القانون هو قانون الدم . . الدم بالدم . . ولا مساومة إلا بقبول الدِّيَة، وحتى هذه قد تعافها نفوس الكبار.

أما إذا نجح القاتل في الهرب — والصحراء واسعة شاسعة كي يعيش حياة التشرد واللصوصية والصعلكة، فإن قبيلته بأجمعها لن تنجو من القصاص .

وعلي شيخ قبيلة القتيل أن لا يتوانى عن الأخذ بالثأر، بمعنى أنه لابد وأن يقود قبيلته في سعيها الحتمي للانتقام، لأنه إن لم يفعل ذلك سقطت هيبته وضاعت كرامته وامتهن كبرياؤه، بل وكبرياء القبيلة كلها التي لن يتردد أي فرد من قبيلة أخرى في قتل من يشاء من أفرادها غير مكترث برد الفعل، وذلك لأنه في حالة سقوط الكبرياء يسهل أن تستحل الحرمات ويعمل السيف في رقاب من يشاء . لهذا كانت قضية الأخذ بالثأر مسألة حياة أو موت بالنسبة للقبيلة وشيخها .

السلب والنهب: إلى جانب الإغارة من أجل الأخذ بالثأر، كانت هناك الإغارة من أجل السلب والنهب . وتعتقد كارين أرمسترونج أن ذلك كان بمثابة عمل دائم، بل يكاد يكون رياضة قومية .ففي زمن الشدة كان أفراد القبيلة يقومون بالإغارة على ارض إحدى القبائل المعادية أملا في الحصول على الغنائم من جمال أو ماشية أو غير ذلك من البضائع . وكانوا يتجنبون إراقة الدماء قدر الطاقة، لأن من شأن ذلك الأخذ بثأر القتلى . وكذلك لم يكن

31- الدكتور محمد حسين هيكل، **حياة محمد** ، دار المعارف، القاهرة ،الطبعة الثانية والعشرون ، ٢٠٠٠ ، ص ٧٩ .

السطو يعتبر منافيا للأخلاق. إلا إذا قمت بسرقة بضائع أقربائك أو حلفائك ٠ وكانت الغزوات تتضمن قدرا معقولا من الثراء وكان معناها أن الأغذية والبضائع المتاحة. مهما تكن قليلة، يمكن أن تتقاسمها الجماعات التي تتنافس للحصول عليها، ولو كان ذلك يتسم بالفظاظة وبالحصول عليها دون مجهود[٣٢] ٠

ويرى الدكتور السيد سالم أن حب القتال كان مغروسا في نفوس العرب في الجاهلية. حتى تحول إلى شغف بالسيطرة والغلبة عن طريق البغى والبطش والمبادرة بالعدوان. ولا يمكن التوصل إلى الحق والسيطرة إلا عن هذا الطريق ٠٠٠٠ وقد ذهب العرب في الجاهلية إلى اعتبار الظلم والبغي الطريق الوحيد الذي يصل المرء بواسطته إلى الحق، فالحق هو القوة أو الحق في جانب القوة[٣٣] ٠

الأشهر الحرم :ولشدة المعارك وكثرتها وتواصلها في بعض الأحيان، اتفق العرب فيما بينهم على أربعة أشهر يحرم فيها القتال، أطلقوا عليها اسم "الأشهر الحرم"، وهى: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ٠

ورغم ذلك فقد كانوا يكسرون القاعدة ويخرجون عما اتفقوا عليه، بمعنى أنهم كانوا ينسئون الشهور أي يؤخرونها ويحرمون مكانها أشهرا يحل فيها القتال٠

وقد يرى البعض في هذا السلوك شريعة وحشية لا تسمح بالبقاء إلا للأقوياء، وما كان للضعفاء من سبيل إلا أن يقهروا ويستعبدوا أو يموتوا ٠ وهذه لا تحتسب للعربي القديم كفضيلة إنما هى رذيلة تضاف إلى الكثير من رذائل الجاهلية ٠

الخمر والمقامرة :كانوا يعاقرون الخمر، وهى إحدى الرذائل التي انغمسوا فيها بشكل ملحوظ وميئوس من إصلاحه، بل إن مسألة الإصلاح هذه لم ترد على فكر أحد، فقد كانت الخمر إحدى ملذات حياتهم لدرجة أن أصبحت ضرورة لا غناء عنها ٠٠ إدمان ٠ ٠ يشرب الأعرابي إلى حد الثمالة فيسكر ٠ ٠ يغيب عن الوعي فلا يدرك معنى ما يقول، ويقدم على فعل ما قد يندم عليه أشد الندم بعد أن يستعيد توازنه ويعود إليه وعيه ٠ لم يكن بيت — أو خيمة — يخلو من جرار الخمر٠

أما إذا سمح الوقت للتسلية والمغامرة، فلا مانع من المقامرة مع "المخامرة" ٠ وقد يقود هذا السلوك إلى دمار ما بعده دمار، ففي حالة فقدان الوعي قد يقامر المخمور بكل ما يملك حتى الرداء الذي يستره، وقد يقامر بزوجته أو ابنته، تؤخذ جارية حتى سداد الدين، وقد

32- كارين أرمسترونج ، ص ٩٣ .
33- د . السيد سالم ، ص ٣٦٤ .

لا يستطيع السداد.

وكان من تأثير الخمر على البدوي القديم أن غلظ قلبه وضحل فكره وتولدت في أعماقه شتي الخزعبلات والعقائد الفاسدة. فاعتقد في وجود العفاريت والأرواح الشريرة وربما تخيلها في حالة سكره.

انعدام الثقافة :هذا إلى جانب الموروث من انعدام الثقافة، فلا شئ يذكر عن الزمن الجاهلي سوى ما تبقي من شعره،وحتى هذا قد ينكر البعض أصالته. فقد كانت الروح- على سبيل المثال – لا تزيد عن كونها مخلوق ضئيل يندس في الجسد عند الميلاد، ويذهب ناميا، وعند الوفاة تغادر الروح الجسد لكنها تظل هائمة حول قبره . بل ويعتقدون أيضا – في زمن الجهالة الضحل – أن الروح البشرية إذا فاضت تقمصت جسد طائر يسمونه"الهامة"، يظل حائما فوق القبر، فإن كان الميت مقتولا أخذ الطائر في النواح صائحا : اسقوني، اسقوني . . إلى أن يؤخذ بثأره.

ومن غريب المعتقدات أن من يؤمنون بالبعث منهم، أي بالعودة بعد الممات، كانوا يربطون إلى قبر المتوفى جملا، ويتركونه حتى يموت جوعا .وهم على يقين من أن ذلك الذي مات، سيجد – يوم يبعث – جمله إلى جوار قبره فيركبه – بعد البعث – ويبدأ حياته من جديد [٣٤].

ومن خزعبلاتهم المألوفة أنهم كانوا يتطيرون . كان التطير شائعا، فإن مرت الطير من اليمين إلى اليسار يتشاءمون، أما إذا مرت من اليسار إلى اليمين فيتفاءلون، وهكذا يقدمون على فعل الشيء أو لا يقدمون، يفعلون أو لا يفعلون . فإذا ما اضطربت الأمور أمامهم، ربما لتضارب حركة الطير، ذهبوا إلى المنجمين والعرافين واستمعوا إلى ما يقولون.

كما لجأوا إلى الأزلام : وهى القداح التي كانت في الجاهلية مكتوب عليها الأمر والنهي افعل أو لا تفعل .كان الرجل منهم يضعها في وعاء، فإذا أراد سفرا أو زواجا أو أمرا مهما. أدخل يده في الوعاء – بعد إجالتها وتحريكها – فأخرج منها زلما .فإن خرج الأمر مضي لشأنه، وإن خرج النهى كف عما اعتزم ولم يفعله . والاستقسام بالأزلام يراد به معرفة قسم الإنسان، أي حظه ونصيبه [٣٥].

مكانة المرأة :أما عن المرأة في الجاهلية فقد كانت مكانتها تثير الرثاء لم يكن لها أية قيمة اجتماعية، إذ كان يمكن التعامل بها ومقايضتها كأي بضاعة أو ماشية، كما كانت

34- محمد علي، ص ٢٥ .

35- د . محمد حسين هيكل، ص ٣٣٨ .

تُورَّث ويحصل عليها من له حق الميراث . ولم يكن عدد الزوجات محددا، وكان للرجل الحق في أن يتخذ من الزوجات أي عدد شاء.

وهذا معناه — كما يقول محمد علي — أن المرأة نزلت مكانا حقيرا في المجتمع العربي. فإذا أغضينا عن أغاني العشق والهيام والتغزل في محاسن الحبيبة، وكلها وليدة الشبق الجنسي، فإن المرأة لم تكن تعامل بخير مما تعامل به السوائم [٣٦].

ولقد كان للزواج في الجاهلية صور متعددة، نورد منها :

١-الزواج كما نألفه اليوم :وذلك بأن يتوجه الرجل إلى أهل المرأة فيخطبها ويحدد لها مهرا، ثم تزف إليه في حفل يحضره أهل الزوجين .

٢- زواج المتعة: وهو أن يحدد الرجل للمرأة مهرا معينا على أن يعيش معها فترة محدودة، فإذا انقضت رحل عنها ولم يعد زوجا لها . ويعترف الرجل بأبنائه من هذا الزواج ويكون لهم حق الميراث .

٣-زواج السبى: وذلك بأن يتزوج الرجل امرأة وقعت في السبى بعد إحدى الغزوات، والمرأة المختارة في هذه الحالة لا يحق لها المطالبة بمهر . ولقد شاع هذا الزواج في الجاهلية واستمر بعد ظهور الإسلام.

٤- زواج الإماء :كان من حق السيد أن يتزوج أمته إذا ما راقت له، لكنه لا يلحق أبناءها بنسبة ولا يساويهم بأبنائه من حرائر النساء . كان أبناء هذا الزواج يعتبرون عبيدا، وكان من حق الأب الذي أنجبهم أن يمنحهم حريتهم لو شاء ذلك .

٥- الإستبضاع : وذلك بأن يسمح الرجل لزوجته بمجامعة رجل معين يتفقان عليه، وذلك من أجل الذرية أو تحسين النسل . ونعتبره ضربا من ضروب الدعارة .

كانت الدعارة مهنة معروفة، منتشرة ومعترف بها، وعلى خيام الداعرات كانت ترتفع رايات حمراء . . كن يلقبن بصاحبات الرايات الحمراء . ومعظم السبايا الحسناوات كن يرغمن على احتراف البغاء وكسب المال لسادتهن من هذا الطريق الشائن الذي يدمر شرف المرأة وفضيلتها.

كان الأسلوب الجاري في العلاقات الجنسية — خارج نطاق الزواج — من أبشع وأفحش ما يكون . وكانت مغامرات الحب وقصص العلاقات الأثيمة تروى في جرأة وقحة — دون أي شعور بالخجل — في منظومات غاية في البذاءة.

لم يكن هناك حد لتعدد الزوجات اللائى يستطيع الرجل أن يعاشرهن، كما أشرنا من قبل . لكن بجانب جمع الحليلات كان باستطاعة الرجل — إن شاء — أن يحتفظ بأي

36- محمد علي ، ص ٢٠ -٢١ .

عدد من الخليلات.

في مقابل ذلك، كان من حق المرأة أن تجمع بين أكثر من زوج في آن واحد. وهى ظاهرة شاعت بين العرب في ذلك الزمان وقد يصل العدد إلى عشرة أزواج . وكان الرجل في هذه الحالة هو الذي يذهب إلى خيمة المرأة،لكن لا يجتمع رجلان داخل الخيمة في وقت واحد. كان الذي يصل أولا يغرس عصاه في الرمال أمام باب الخيمة، وفي هذا إعلان لباقي الأزواج أن المرأة ليست بمفردها . . عليهم أن ينصرفوا . .أن يعودوا في وقت آخر.

لم يكن من المهم معرفة من هو والد الطفل في حالة الإنجاب . وقد تجمع المرأة أزواجها جميعا بعد الإنجاب وتشير إلى واحد منهم قائلة : هذا ولدك . ولا يعترض أحد .كان الطفل في أغلب الأحيان ينسب لأمه.

ومن غرائب الأمور أن المرأة المتزوجة،إذا ما توفى زوجها، كانت تعتبر جزءا من الميراث، أي من تركة المتوفى . كان للوارث مطلق الحرية في أن يتصرف في أمرها كيفما شاء: إن شاء تزوجها وإن شاء زوجها لمن يختاره لها أو يفرضه عليها . ولقد كان باستطاعة الابن أن ينكح أرملة أبيه باعتبارها جزءا من الميراث.

وكان أسلوب الطلاق لا يقل في فوضويته وبشاعته عن بعض أساليب الزواج، إذ كان بإمكان الرجل أن يطلق زوجته ثلاثا ثم يعود فيدخل بها دون استيفاء عدتها . وأحيانا يقسم ألا يقربها، وأحيانا يظاهر منها، فيحرمها على نفسه ويتركها معلقة، لا هى بالزوجة ولا هى بالطليقة[٣٧].

وتفضيل البنين على البنات عند عرب الجاهلية كان أمرا طبيعيا في مجتمع ذكورى عماده الرجل. فالرجل هو شيخ القبيلة وقائدها، وهو الفارس المقاتل، وهو الزوج المسيطر، وهو صاحب المواقف الفاصلة في مجتمع الصحراء، وهو في حاجة إلى بنين يقفون إلى جانبه، يجد فيهم قوة ومنعة وعزوة في الصراع من أجل البقاء.

كان الرجل إذا بشر بالأنثى امتقع وجهه وتملكه الحزن والغضب واستغرقه التفكير فيما يفعل بها: هل يحتفظ بها ويتحمل مسئوليتها حتى يستوى عودها فتتزوج من يتحمل مسئولية وجودها،مع ما في ذلك من مخاطرة واحتمالات السبى والمذلة والهوان والإملاق؟ .. أم يتخلص منها ساعة ولادتها،فيدفنها في الأرض ويهيل عليها الرمال وهى على قيد الحياة؟

وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت؟!

لم يفكر البدوي في الإجابة على مثل هذا السؤال . كان بغضه للأنثى عند ولادتها

37- محمد على ، ص ٢١ .

يعمى بصيرته ويشل ملكة التفكير فيه، لدرجة أن يقوم بحفر حفرة بيديه في الرمال، يلقي فيها ابنته الصارخة الناحبة ٠ ٠ يدفنها حية ثم يسوي عليها الأرض، وكأنه يحاول ن يخفي عاره ومهانته٠

أحيانا كان يحدث إتفاق صريح عند عقد الزواج على قتل السلالة من الإناث، وفي مثل هذه الحالة يصبح من واجب الزوجة الأم أن ترتكب هذه الفعلة الوحشية بنفسها، دون أن تهتز أعماقها وهي تزهق حياة قطعة من وجودها،وكأنها هي قطعة من صخر الصحراء، بلا وعي ولا إدراك ولا إحساس٠

ويذكر البعض، كما يروي د٠ السيد سالم، أن عادة وأد البنات نشأت بادئ ذي بدء في ربيعة ٠ ٠ لما أغير عليهم سُبيت لهم بنت أمير لهم، فاستردها بعد الصلح، فخُيِّرت بين أبيها ومن هي عنده، فاختارت من هي عنده وآثرته على أبيها فغضب [الأب] وسنَّ لقومه الوأد ففعلوه غيرة منهم ومخافة أن يقع لهم بعد مثل ما وقع، فشاع ذلك بين العرب٠

ورغم ذلك فقد وجد بين العرب من يحب بناته ويعطف عليهن ويدللهن ٠ وربما يرجعون ذلك إلى ضعفهن وحبهن لآبائهن ٠ بل وذهب البعض في اعتزازه ببناته أن كان يكني باسم واحدة منهن، فكان ربيع بن رباح والد زهير الشاعر يكني بأبي سلمي، والنابغة الذبياني كان يكنى بأبى أمامة [٣٨] ٠

- ٥ -

المعتقدات الدينية

إذا ما انتقلنا من الحالة الاجتماعية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام إلى الحالة الدينية، نجد أنه لم يكن هناك فراغ ديني، بل معتقدات شتي واتجاهات متفرقة لا تجمع على معبود واحد ٠

كان هناك من يعبدون الكواكب،ومن يعبدون الحجر، ومن يعبدون الشجر،ومن يسجدون للنار،ومن يعرفون شيئا عن اليهودية أو النصرانية،ومن يرون أنهم على دين إبراهيم٠

وفي أسلوب دقيق رشيق، يلخص الإمام الشيخ أحمد حسن الباقوري تلك الحالة بقوله :كانت للعرب في جاهليتها معتقدات شتي، يجرى بعضها مجرى الشريعة والمذهب وهي الديانات، ويجرى بعضها الآخر مجرى الأعراف والعادات وهي الأوابد ٠

فأما ديانتهم فقد كانت من الكثرة بمكان ٠كان منهم عبدة الأصنام وهم الغالبية العظمي، وعقيدتهم تقوم على الاعتراف بالخالق وإنما عبدوا الأصنام لكي تقربهم إلى الله زلفى ٠

38- د . السيد سالم ، ص ٣٩٦ .

وكان منهم من يعبدون الشمس والقمر والنجوم يتخذونها قربة إلى الله لأنها من دلائل عظمته وباهر آياته ٠ وكان منهم من يعبدون الملائكة طمعا في خيرها والشياطين خوفا من شرها ٠ وكان منهم دهريون ينكرون الخالق ٠ ويعتقدون أن الطبيعة تحيي والدهر يفني ٠ وكان منهم يهود في اليمن تحولوا إلى يثرب، ونصارى في الشمال في ربيعة وغسان وفي الجنوب في نجران ٠ وكان منهم قلة موحدون سرت إليهم بقايا ملة إبراهيم وهم الحنفاء[٣٩].

وتدعى كارين أرمسترونج أن بلاد العرب قبل الإسلام كانت تعتبر منطقة لا رب لها[٤٠].

وهذا تشخيص تنقصه الدقة، ويتنافى مع الواقع المعاش في تلك الفترة ٠ فالرسالة التوحيدية التي جاء بها الإسلام وبشر بها محمد — كما يقول "جون اسبوزيتو John Esposito " في كتابه عن الإسلام — لم تنتشر في فراغ : لقد ازدهر التوحيد في الحضارتين السامية والفارسية واستمر لعدة قرون قبل أن تبدأ رسالة محمد ٠٠٠٠ إن الكتب المقدسة لأنبياء اليهودية والمسيحية والزرادشتيه كان لها جذور ووجود منذ أمد طويل في تلك المجتمعات ٠ ورغم الاختلافات الواضحة بين هذه الديانات الثلاثة إلا أنها تشترك في عقيدة توحيدية ظاهرة وهي: أن الله واحد٠

لقد وجدت صور للتوحيد في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام جنبا إلى جنب مع الشرك القبلي ٠كانت هناك مجتمعات يهودية ومسيحية قبل ظهور محمد ٠ في يثرب وخيبر عاشت مجموعات يهودية اشتهرت بالزراعة والتجارة ٠ وبينما استقر بعض المسيحيين في مكة، فإن أغلب المجتمعات المسيحية كانت تعيش في المحيط الخارجي لوسط شبه الجزيرة العربية، على طول طرق القوافل في الشمال والجنوب٠

ولقد نتج الاتصال بالتوحيد عن طريق قوافل التجارة التي جاءت بالتجار الزرادشتيين واليهود والمسيحيين إلى مكة وهى مركز تجارى مزدهر، وكذلك من سفر التجار من أهل مكة طولا وعرضا في مختلف الأنحاء٠

وأخيرا فإنه كان هناك موحدون عرب،فترة ما قبل الإسلام ٠٠ كان يطلق عليهم الحنفاء، ويصورهم القرآن والتراث الإسلامي على أنهم سلالة إبراهيم وابنه إسماعيل [٤١]. " قل صدق الله فاتبعوا ملّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين" (سورة آل عمران: ٩٥) ٠

هذا معناه أن شبه الجزيرة العربية لم تكن أرضا لا رب لها،كما تدعى كارين أرمسترونج٠

39- الإمام الشيخ أحمد حسن الباقوري ، ص ١٣ –١٤ .

40- كارين أرمسترونج ، ص ٨٥ .

41- Esposito ,pp . 6- 7 .

كان العرب قبل الإسلام يعرفون كلمة "الله" ويستخدمونها . وطبقا لما هو مسجل في القصائد والتراث القديم. فإن العرب قبل الإسلام كانوا يؤمنون بوجود "الله"، ويقسمون بالله. وكان قسمهم بالله يتردد مع أنفاسهم. كل ما في الأمر أنه لم يكن لديهم مفهوم واضح لإله واحد [٤٢].

ويعبر مونتجري وُت عن نفس الرأي تقريبا بقوله : من المحتمل أنه قبل زمن محمد كان وثنيو مكة يستخدمون كلمة "الله" للدلالة على كبير آلهة الكعبة، بنفس الطريقة التي كان يشير بها أهل الطائف إلى معبودتهم " اللات" أي الإلهة، مؤنث إله [٤٣].

كلمة "الله" كما يقول " إ. ر. بايك E. R. Pike " هي اختصار لكلمة "إيل"، أي "إله" . وكان العرب يستخدمونها قبل محمد بزمن طويل.

لكن محمد هو الذي أعطاها أهميتها القصوى . إن "الله" عند العرب الوثنيين كان هو الإله الرئيسي بين آلهة أخرى كثيرة . أما "الله" الذي دعى إليه محمد فقط كان هو "الله" الواحد الذي لا شريك له ولا إله آخر معه [٤٤].

ويرى "آرثر جيفري Arthur Jeffery " أن كلمة "الله" تمت استعارتها من اللغة الآرامية، واستخدمت قبل الإسلام وأصبحت مألوفة في لغة العرب [٤٥].

ولنحاول الآن تبيان كيفية دخول هذه العقائد الدينية إلى بلاد العرب وكيفية انتشارها ومدي تأثيرها.

اليهودية: فإذا ما بدأنا باليهودية، بصفتها أول الديانات السماوية التي أشار إليها الإسلام واعترف بها، نجد أنها انتشرت في بلاد العرب قبل ظهور الإسلام بعدة قرون، بعد أن هاجر اليهود إليها فرارا من اضطهاد الحكم الروماني الذي كان يسيطر على منطقة الشام. لقد تم هدم هيكلهم "المقدس "عام ٧٠ ميلادية، هدمة "تايتس Titus " قيصر الرومان، ثم طردهم بعد ذلك من فلسطين عام ١٣٥ م، ففر معظمهم إلى اليمن وإلي منطقة الحجاز حيث أقاموا لهم مستعمرات في يثرب وخيبر وفدك ووادي القري وتيماء.

وقد اشتهر اليهود في مستعمراتهم تلك بالزراعة والتجارة والصياغة والحدادة وصناعة السلاح . أصبح بعضهم على قدر كبير من الثراء بحيث عاشوا في قلاع محصنة (أُطم) بها

42- Betty Kelen ,**Muhammad , The Messenger of God** ,Thomas Nelson Inc. Publishers, New york,1975,p.37.

43-Montgomery watt , **Muhammad at Mecca** .p 26 .

44- E.R. Pike , p.74 .

45- Arthur Jeffery, **Islam : Muhammad and His Religion**, The Library of Liberal Arts. The Bobbs Merill Company , New york,1958,p.85.

ما يكفيهم من مؤن وعتاد وسلاح، لمواجهة الخطر إذا ما داهمهم الأعداء.

ورغم تعاملهم مع المجتمع العربي المحيط بهم وتحدثهم العربية. إلا أنهم ظلوا متمسكين بلغتهم العبرية التي كانوا يقرأون بها كتابهم المقدس(التوراة)إلى جانب التعاليم الموجودة في "التلمود"، كما كانوا يذهبون إلى"المجمع" كل يوم سبت لقراءة مقاطع من التوراة والاستماع إلى درس أو موعظة يلقيها واحد من بينهم . كانوا يصلون ثلاث مرات في اليوم. ويتوجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس، ويصومون يوم عاشوراء(العاشر من شهر تشرين).

لكنهم رغم ذلك لم يحاولوا دفع أو إغراء من حولهم كي يعتنقوا اليهودية، ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن دينهم هذا مقصور عليهم، بمعنى أنهم أصفياء الله وأن شعبهم رغم كل معاناته وتشرذمه هو شعب الله المختار .

كانت أهم القبائل اليهودية البارزة قبل ظهور الإسلام هى : بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة . وقد تعايشوا مع قبيلتي الأوس والخزرج اللتين نزحتا إلى يثرب من أرض اليمن حوالي عام ٣٠٠ ق. م . وقد كانت العلاقة بين اليهود والأوس والخزرج طيبة أول الأمر،ثم ساءت بعد ذلك، وأوقع اليهود بين القبيلتين العربيتين فقامت بينهما المعارك حتى ظهور الإسلام . وسنناقش هذا الموضوع بالتفصيل عند الحديث عن هجرة النبي.

ويرى الأستاذ أحمد أمين، في كتابة **فجر الإسلام**،أن اليهود نشروا، في البلاد التي نزلوها في جزيرة العرب،تعاليم التوراة وما جاء فيها من تاريخ خلق الدنيا،ومن بعث وحساب وميزان، ونشروا تفاسير المفسرين للتوراة وما أحاط بها من أساطير وخرافات كالتي أدخلها — بعدُ — من أسلم من اليهود مثل كعب الأحبار ووهب بن مُنَبِّه وأضرابهما . وكذلك كان لليهود أثر كبير في اللغة العربية،فقد أدخلوا عليها كلمات كثيرة لم يكن يعرفها العرب،ومصطلحات دينية لم يكن لهم بها علم،مثل جهنم والشيطان وإبليس ونحو ذلك[٤٦].

ونرى أن أهم تأثير لليهود في عرب يثرب وما حولها هو حديثهم المستمر عن قرب ظهور نبي ينتصرون به عليهم، لأنهم هم أهل "الكتاب"وقد خصوا بظهور الأنبياء من بينهم، أي من بني إسرائيل . وعلى ذلك، فعندما سمع عرب الأوس والخزرج عن ظهور نبي بمكة أسرعوا إليه، سارعوا إلى مبايعته والإيمان بما جاء به : لن تقتصر النبوة على نبي إسرائيل، سيكون لهم هم أيضا نبي .

ومنذ تلك اللحظة الحاسمة الفارقة، يبدأ التاريخ الذي يسجل بداية انتشار الإسلام من يثرب، مدينة النبي، إلى كل بقاع الدنيا التي نجحت رايات الإسلام في الوصول إليها .

46- أحمد أمين ، ص ٤٢ .

المسيحية: أما عن المسيحية فقد دخلت الحبشة حوالي عام ٣٢٠م، وهناك وجدت قبولا وانتشارا لدرجة أن أصبحت الدين الرسمى للبلاد ٠ ومن الحبشة أخذت الإرساليات المسيحية تتدفق إلى شبه الجزيرة العربية، ووجدت أرضا خصبة في اليمن ٠ وكان من جراء ذلك أن تنصرت مقاطعة نجران (بين عسير وصنعاء) بأسرها، وبذلك أصبحت أهم مراكز المسيحية في بلاد اليمن ٠

وعندما استولت الحبشة على اليمن، واصبح أبرهة الأشرم هو الوالي من قبل النجاشي، بنى فيها عدة كنائس من أهمها وأشهرها كنيسة "القليس" التي أنفق الكثير على بنائها، وزخرفها بالذهب والفضة والأحجار الثمينة، وعلق فيها صلبانا من ذهب وفضة، وهى كنيسة يدعى البعض أنه لم يُر مثلها في زمانها ٠ وكان من أهم الأهداف التي دفعته إلى بنائها — كما يقول كتاب السيرة — هو أن يصرف إليها حج العرب، كما كتب بذلك إلى النجاشي ٠ ونناقش هذه النقطة بالتفصيل في نهاية هذا الفصل٠

كان يعزز نشاط الدعوة إلى المسيحية في بلاد العرب ويشد من أزرها، النفوذ السياسي للدولتين المسيحيتين المجاورتين، وهما مملكة الحبشة في الغرب والدولة الرومانية القيصرية في الشمال٠

وفي شبه جزيرة العرب كان هناك نفوذ لفرقتين كبيرتين من الفرق المسيحية وهما: النساطرة واليعاقبة٠

يعتقد النساطرة أن للمسيح طبيعتان: طبيعة بشرية(الناسوت) وطبيعة ربانية (اللاهوت) ٠ لكن الراهب نسطورس خرج عن إجماع النساطرة بقوله إن المسيح ليس ابنا لله بالحقيقة إنما البنوة مجازية، إذ هو ابن بالنعمة والمحبة لا بالألوهية، فاجتمع مجمع "أفسس " الأول سنة ٤٣١ ليبطل قوله، ويكفروه كشأنهم في كل من يجهر برأي[٤٧]٠

أما اليعاقبة فقد كانوا يؤمنون بان المسيح هو الله، بمعنى أن الله والإنسان إتحدا في طبيعة واحدة هى المسيح٠

وكانت هناك فرقة ثالثة — أقل تأثيرا من الفرقتين السابقتين إذ يعتبرها المسيحيون من الفرق المارقة — وهى المُنُوفستية التي يعتقد أصحابها أن للمسيح طبيعة واحدة وهى طبيعته الإلهية٠

انتشرت النسطورية في الحيرة من أرض العراق، وانتشرت اليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام، كما أقيمت لها بعض الصوامع في وادي القرى٠

ولا يمكن لأحد أن يدعي أن المسيحية لم يكن لها تأثير في بلاد العرب، فقد كان القسس

47- الإمام محمد أبو زهرة ، **خاتم النبيين** ، المجلد الأول ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ٢٥ .

والرهبان يردون الأسواق، يتحدثون ويعظون ويبشرون ويدعون — على عكس اليهود — إلى اعتناق المسيحية.

ومن الثابت تاريخيا أنه كان بمكة — قبل الإسلام — قلة من النصارى. فبعض رقيق الحبشة الذين عاشوا في مكة كانوا على دين المسيح، وكذلك بعض الروم . ولا يجب أن ننسي أن بناءً روميا ونجارا قبطيا قد اشتركا في بناء الكعبة عندما قررت قريش هدمها وإعادة بناءها قبل الإسلام . كما أعلن بعض القرشيين، من أمثال ورقة بن نوفل، اعتناقهم النصرانية.

يقول " الفريد جيوم Alfred Guillaume " : إنه من الموثوق به تاريخيا أنه عندما دخل محمد مكة منتصرا عام ٦٣٠ م، وجد صورا للمسيح والعذراء ضمن صوَر أخرى مرسومة على جدران الكعبة، ولقد أمر بإزالة كل الصور ماعدا ما يخص مريم وابنها[٤٨].

لقد كان للنصرانية تأثيرها في بلاد العرب فترة ما قبل الإسلام، إذ لا يمكن إنكار أنها ولّدت في بعض العرب ميلا إلى الاعتكاف والتأمل، وربما إلى الرهبنة وبناء الأديرة. ويقال: إن حنظلة الطائي فارق قومه ونَسَك وبنى ديرا بالقرب من شاطئ الفرات، ويعرف هذا بدير حنظلة، وترهب فيه حتى مات . ويذكرون أن قُسَّ بن ساعدة كان يتفقر القفار، ولا تكنه دار . . ويأنس بالوحوش والهوام . ويقولون : إن أمية بن أبي الصلت كان قد نظر في الكتب وقرأها، ولبس المسوح تعبدا[٤٩].

الصابئة والمجوس: هنا يجب أن نذكر أيضا أنه كان بين العرب قوم يعبدون الكواكب كالشمس والقمر والزهرة والمريخ، وكان لكل معبود هيكلا يقصده الأتباع . كانوا يصلون في اليوم ثلاث مرات، قبل شروق الشمس وعند الغروب والصلاة الثالثة فيما بينهما وقت الظهيرة، وكانوا — فيما قيل— يركعون ويسجدون . كان مركز هذه الشريعة حرَّان فيما بين النهرين في أرض العراق، واستمرت — كما يقول محمد سعيد العشماوي — حتى القرن العاشر الميلادي. ويضيف العشماوي أنه لا يعرف على وجه التحديد اشتقاق اسمهم: قيل إنه من اللفظ العبري صباؤت بمعني الملائكة أو الجنود السماوية، كما قيل إنه من لفظ "سابي "المصري" [٥٠].

ويرى البعض أن أصل دين هؤلاء الصابئة يرجع إلى أخذهم كل ما هو حسن في ديانات العالم، بعد أن أخرجوا منها كل ما هو قبيح — في رأيهم — قولا وعملا.

48- Alfred Guillaume, **Islam** ,Penguin Books , Middlesex, England , 1971 , p .14 .

49- أحمد أمين ، ص ٤٥ .

50- العشماوي ، ص ٦٠ .

من هنا جاءت تسميتهم بالصابئة. أي الخارجين. لأن في سلوكهم هذا خروج عن التقيد بإجماع ما جاء في أي دين.

ولقد ورد ذكر الصابئة في القرآن الكريم أكثر من مرة. ففي "سورة البقرة" نقرأ قوله تعالي " إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون " (الآية ٦٢) .

وفي "سورة المائدة " أيضا يرد ذكرهم في قوله تعالي : "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (الآية ٦٩) . ويرد ذكر الصابئين في القرآن للمرة الثالثة في قوله تعالى: " إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شئ شهيد" (سورة الحج :١٧).

يعتبر الصابئون من الأقدمين، إذ كان لهم وجود أيام "إبراهيم "عليه السلام، وهم لا يعترفون بالأنبياء والرسل ويعتبرونهم بشرا لا يتميزون عن بقية البشر في شئ . يقولون: إن الأنبياء مثلنا في النوع ولهم نفس شكلنا ونشاركهم في المادة، وهم يأكلون ما نأكل ويشربون ما نشرب ولهم نفس هيئتنا، إنهم بشر مثلنا فلماذا نطيعهم[٥١].

" ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون " (سورة المؤمنون : ٣٤).

المجوس والزنادقة وإلي جانب الصابئة في بلاد العرب، وجد المجوس والزنادقة . والمجوسية هى عبادة النار، وقد انتقلت إلى العرب عن طريق الفرس في "الحيرة "، واعتنقها بعض عرب الجاهلية في "تميم " .كما انتقلت الزندقة إلى العرب عن طريق الحيرة أيضا، واعتنقها كمذهب بعض القرشيين وذلك لا تصالهم ببلاد فارس عن طريق التجارة.

والزندقة— كما يقول الدكتور السيد سالم — نوعان :زندقة ثنوية،وهى القول بالنور والظلمة،ومنها المزدكية والمانوية والزرادشتيه،وزندقة دهرية لقول من يؤمن بها بالدهر .وقد وردت الإشارة إليهم في القرآن الكريم في قوله تعالي: "وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر"(سورة الجاثية: ٢٤). وهم قوم أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفنى [٥٢].

الوثنية: والآن نصل إلى عبادة الأوثان في شبه الجزيرة العربية وكانت مكة — حيث ولد الرسول عليه الصلاة والسلام — من أهم مراكزها .

51- د . عبد الرحمن بدوي ، **دفاع عن القرآن ضد منتقديه** ، الدار العالمية للكتب والنشر، القاهرة ، ١٩٩٩، ص ٩٠.

52- د . السيد سالم ، ص ٤٢٨ .

يقول كُتَّاب السيرة إن العرب من أولاد إسماعيل كانوا على ملة أبيهم إبراهيم، يؤمنون بإله واحد. لكن إيمانهم، على مر الزمن، غدا سطحيا لا تعمق فيه، فهم يحجون ويطوفون حول الكعبة ويتمسحون بأحجارها يلتمسون منها البركة، دون إحساس راسخ أو إيمان عميق بجدية ما يفعلون.

ويذكر أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بنى إسماعيل : إنه كان لا يظعن من مكة ظاعن — حيث ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد — إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم، تعظيما للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمنا منهم بها وصبابة بالحرم وحُباً له .. ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان[٥٣] .

يقال إن أول من نصب الأوثان كان عمرو بن ربيعة، وهو لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزْدىّ، وهو أبو خزاعة، وقد تولى أمر مكة وحجابة البيت بعد أن قاتل "جرهما" وأجلاهم عن البيت . ثم إنه مرض مرضا شديدا، فقيل له : إن بالبلقاء من الشام حَمَّة إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ . ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال : ما هذه ؟ قالوا: نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو . فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا .فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة[٥٤] . ودعا العرب إلى عبادتها.

ويقال أيضا — فيما يقال — إن عمرو بن لحي هذا كان كاهنا وكان له رَئِىٌّ من الجن، وقد بلغ من الشرف وعلو المكانة والتوقير والتبجيل ما لم يبلغه في الجاهلية أحد . ويروى الأستاذ العشماوي أن عمرا قد أتي لكل قبيلة بصنم لمعبودهم ووضعه في الكعبة ليجمعهم جميعا، ويجعل من كعبة مكة مثابة للعرب كلهم. وكان الحجاج يلبون قائلين "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك "،لكن عمرا أضاف إلى التلبية :" إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك"، فتبعه العرب في ذلك . وظلت تلك تلبية الحجاج حتى أعادها الإسلام إلى صيغتها الأولي[٥٥] . ورغم أن عمرو بن لحي هو أول من أحضر الأصنام ودعا العرب إلى عبادتها، إلا أنه لم يكن صانعا لها ولم ينحتها.

يزعم الرواة أن أول صنم تم نحته في تاريخ البشرية يرجع إلى قابيل بن آدم، ذلك أنه لما

53- أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، **كتاب الأصنام**، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ،٢٠٠٠ ، ص ٦ .

54- نفس المرجع السابق ، ص ٨ .

55- العشماوي ، ص ٤٢ .

مات آدم عليه السلام جعله بنو شيث بن آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه آدم بأرض الهند . وكان بنو شيث يأتون جسد آدم في المغارة فيعظمونه ويترحمون عليه. فقال رجل من بني قابيل بن آدم: "يا بني قابيل !! إن لبني شيث دوارا يدورون حوله ويعظمونه. وليس لكم شئ "، فنحت لهم صنما. فكان أول من عملها[٥٦].

هذا معناه، إذا ما أخذنا بهذا الرأي، أن عبادة الأصنام بدأت وانتشرت بين أبناء آدم في بداية الخلق . وهو رأي لا يستطيع أحد أن يثبت خطأه أو صوابه لأنه لا دليل عليه. ربما أبدعته قريحة كاتب واسع الخيال.

لكن يذهب البعض إلى أن قوم نوح، لا قوم آدم، هم أول من عبد الأصنام، وأن الناس قبلهم كانوا على التوحيد والإيمان، لا يعرفون وثنية ولا يعبدون أصناما . الدليل الذي يقدمونه هو : ما ذكره الله جل ثناؤه في كتابه العزيز مخبرا عن قوم نوح: "قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا ما لم يزده ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبارا. وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وَدًّا ولا سُواعا ولا يغوث ويعوق ونَسْرا . وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا" (سورة نوح : ٢١ — ٢٤).

يقول المفسِّر إن الأسماء السابقة: ودٌّ وسُواع ويغوث ويعوق ونسْرا، كانت أسماء لأناس صالحين، أو أسماء لملائكة مقربين، أراد قوم نوح أن يتذكروا أعمالهم الصالحة فاتخذوا لهم تماثيل، زعما منهم أنهم بذلك لا ينسون ذكراهم ويأنسون بهم في صالح الأعمال . ومع مضي الزمان عبدت هذه الأوثان . . وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد[٥٧].

وقد تدنى العرب حتى وصلوا الحضيض في عبادتهم عندما عبدوا الحجارة والأشجار وتلال الرمال .كانوا يخرون ساجدين أمام أية قطعة جميلة من الحجر يصادفونها في الطريق، فإذا ما أعجزهم العثور على مثل هذا الحجر عبدوا كومة من الرمال بعد أن يكونوا قد حلبوا ناقتهم عليها[٥٨].

لم تكن هذه الأشياء تقدس لذاتها، ولكن لاعتبارها مسكنا للآلهة، بمعنى أن أرواح الآلهة قد حلت بها. وعلى ذلك فقد لجأوا إليها اعتقادا منهم أن المنة الإلهية لا يمكن أن تتم إلا بواسطتها وشفاعتها . لقد اتخذوها وسيلة يتقربون بها إلى الله: يخرون أمامها ساجدين، ويطوفون من حولها، يتقدمون إليها بالقربان، وينزلون لها عن جزء من نتاج

56- الكلبي ، ص ٥١ .
57- الشيخ محمد علي الصابوني ، **النبوة والأنبياء** ، مكة المكرمة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠ ، ص ١٣٧.
58- محمد على ، ص ١٥ .

أراضيهم وأنعامهم.

ومن المفيد أن نبيّن الفرق بين الأصنام والأوثان والأنصاب والطواغيت .

١- **الصنم** : هو ما كان على شكل إنسان من خشب أو ذهب أو فضة.

٢- **الوثن** :هو ما كان على شكل إنسان لكن من الحجارة .

٣- **النُّصُب** :عبارة عن صخرة بلا شكل معين، يقدسها العربي الجاهلي لجمال شكلها أو لاعتقاده أنها من أصل سماوي، ينصبها أمام الحرم أو أمام بيته أو يأخذها معه في أسفاره، يجرى عليها أوضاع العبادة، ويطوف حولها كما يطوف بالكعبة.

٤- **الطواغيت**: كانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب وتهدى لها كما تهدى للكعبة، وتطوف بها كما تطوف بالكعبة، وتنحر عندها كما تنحر عند الكعبة . ويقال إنه كان لبني الحارث بن كعب "كعبة" بنجران يعظمونها، وإنه كان لإياد كعبة أخرى في أرض بين الكوفة والبصرة[٥٩].

كان من النادر أن تخلو دار في مكة من صنم أو وثن أو نصب يتقربون إليها ويذبحون عندها، يرجون خيرها ويخشون غضبها، وإذا ما أقدم أحدهم على السفر تمسح بها أو طاف حولها، طلبا للبركة والتوفيق فيما هو خارج من أجله .وإذا عاد كان أول ما يفعله هو نفس ما أقدم عليه عند السفر من تمسح أو طواف أو تقديم قربان . كانوا يعتبرونها الوسيط بينهم وبين الله، عبادتهم لها زلفى يتقربون بها إليه، لكنهم بمرور الوقت عبدوها هي ونسوا الله.

من بعض ما عبده العرب في وثنيتهم، نورد الآتي على سبيل المثال لا الحصر:

١- **هُبل** :كان هو الأعظم بين الآلهة الوثنية، التي بلغ عددها ما لا يقل عن ثلاثمائة وستين صنما . احتل هبل مكان الصدارة في وسط الكعبة بجانب البئر الذي كانت تخزن فيه العطايا . ويقال إنه كان في شكل رجل، منحوتا من صخرة عقيقية حمراء .كانت يده اليمنى مفقودة عندما أدركته قريش، وعلى ذلك فقد صنعوا له يدا أخرى من الذهب الخالص.

وكان أول من نصبه خريمة بن مُدْركة بن مضر، وكان يقال له هبل خريمة .وكان في جوف الكعبة قدام هبل سبعة أقْدُح. . فإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفرا أو عملا أتوا هبل فاستقسموا بالقداح عنده، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه. وعند هبل ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله[٦٠]، كما سيرد ذكره فيما بعد.

59- الكلبي ، ص ٤٤- ٤٥ .

60 - الكلبي ، ص ٢٨ .

٢- **مَنَاةُ** :كان أقدم الأصنام كلها – كما يقول الكلبي -- وكان منصوبا على ساحل البحر بقديْد بين المدينة ومكة، عظّمه العرب جميعا وذبحوا له وأهدوا إليه، وكانت الأوس والخزرج أشد العرب إعظاما له، ويذكر الأستاذ العشماوي أن مناة كانت إلهة قضاء الموت، وكانت تتمثل في صخرة على ساحل البحر الأحمر تراق عليها دماء الذبائح، وكانت تعظمها قبائل الأزد والأوس والخزرج.

٣- **اللات**: غالبا ما يقال إنها تأنيث لكلمة "الله". وهي أحدث من مناة، كانت صخرة مربعة، وكان سدنتها من ثقيف بنو عتّاب بن مالك، وكانوا قد بنوا عليها بناءً، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها.

٤- **العُزى** :وهي أحدث من اللات ومناة، وكانت تمثل في شجرات في وادي نخلة عن يمين الذاهب إلى العراق من مكة.

٥- **إساف ونائلة**:كان إساف تمثالا في صورة رجل ونائلة تمثالا في صورة امرأة، ويقال إنهما مُسخا حجرين لاقترافهما الإثم داخل الكعبة، وعلى ذلك فقد تم وضعهما عند الكعبة كي يتعظ بهما الناس، فلما طال مُكثهما وعبدت الأصنام، عُبدا معها، وكان أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم، فنقلت قريش الذي بلصق الكعبة إلى الآخر، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما.

يروي الكلبيّ أن إساف ونائلة (رجل من جرهم يقال له إساف بن يَعْلي، ونائلة بنت زيد من جرهم)وكان يتعشقها في أرض اليمن فأقبلوا حجاجا، فدخلا الكعبة، فوجدا غفلة من الناس وخَلْوةَ في البيت، ففجر بها في البيت،فمسخا، فأصبحوا فوجدوهما ممسوخين، [فأخرجوهما] فوضعوهما موضعهما، فعبدتهما خزاعة وقريش، ومن حج البيت بعدُ من العرب [٦١].

٦- **مناف** :وبه كانت قريش تسمي عبد مناف، ولا يدري أحد أين كان ولا من نصبه.

٧- **الفلْس** :صنم طيِّيء وقد بعث النبي علياً فهدمه.

٨- **وَدٌّ**:يقال حمله عوف بن غُدرة إلى وادي القرى وأقامه بدُومة الجندل وسمى ابنه عبد وَدٍّ، وهو أول من سمى عبدود، ثم سمت العرب بعده، وجعل عوف ابنه عامرا سادنا له، فلم يزل بنوه يسدنونه حتى جاء الإسلام وهدمه خالد بن الوليد.

61- الكلبي ، ص ٨ .

٩- سُواع :كان في أرض ينبع وكان سدنته بنو لحيان.

١٠- يعوق: كان في قرية بالقرب من صنعاء.

١١- نسْر :اتخذته حِمْير إلها لها.

١٢- سُعير: صنم اتخذته عَنَزَة.

١٣- سعد :كان بساحل جده لمالك وملكان، ابني كنانة.

١٤- ذو الخَلَصَة : كانت مروة بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التاج، وكانت بتبالة، بين مكة واليمن، على مسيرة سبع ليال من مكة[٦٢].

١٥- مجاود الريح ومطعم الطير: كان على جبلي الصفا والمروة صنمان، أحدهما يسمى مجاود الريح والآخر يسمى مطعم الطير [٦٣].

إلى جانب كل هذه الآلهة التي ازدحمت بها شبه الجزيرة العربية عمَّرت الوثنية الصحراء بأعداد غفيرة من الجن، منهم الخيِّر ومنهم الشرير، وكانوا يعتبرونهم وسطاء فوق طبيعيين بين الله والإنسان.

ويرى "فرانسيسكو جابر ييلي Francesco Gabrieli " إن الإسلام استوعب فكرة الجن هذه، وجعلهم — أي الجن — يخضعون مع الإنسان لسلطان الله [٦٤].

ورغم تقديس العرب لأصنامهم، إلا أنهم كانوا في بعض الأحيان يستخفون بها ويسخرون منها، بل ولا يتورعون عن إهانتها وتحقيرها إلى حد التبول عليها . وفي زمن المجاعة كان الوثني لا يتردد مطلقا في أن يأكل إلهه المعبود، إن كان مصنوعا من مادة يمكن أكلها، ثم يصنع غيره إذا ما تيسرت الأمور وتغيرت الأحوال.

من أمثلة الاستخفاف بتلك الآلهة ما رواه مالك بن حارثة، قال: كان أبي يبعثني باللبن إليه، أي إلى وَدٍّ، فيقول: اسْقه إلهك . وبدلا من أن يسقي إلهه اللبن الذي أرسله به أبوه،كان يشربه هو، غير عابئ أو مكترث بما قد يفعله به ذلك "الإله" وبالطبع، ما كان ذلك "الإله"بمستطيع أن يفعل شيئا.

ويحكي الكلبيّ : لما أقبل امرؤ القيس بن حُجر، يريد الغارة على بني أسد، مر بذي

62- أنظر الكلبي ، ص ٣٧ -٤٢ .

63- Abu Hasan Ali ,**Muhammad Rasulullah :The Life of Prophet Muhammad** , Academy of Islamic Research and Publications, Lucknow ,India ,1979,p. 90.

64- Francesco Gabrieli , **Muhammad and the Conquests of Islam** ,Translated from Italian by Virginia Luling and Rosamund Linell ,World University Library ,Weidenfeld and Nicolson ,London ,1968, p.39.

الخلصة (وكان صنما بتبالة وكانت العرب جميعا تعظمه. وكانت له ثلاثة أقدح : الآمر. والناهي. والمتربص) فاستقسم عنده ثلاث مرات. فخرج "الناهي" . فكسر القداح. وضرب بها وجه الصنم. وقال : "عضضت بأير أبيك !لو كان أبوك قتل. ما عوقتني ثم غزا بني أسد فظفر بهم [٦٥].

لقد سبَّ امرؤ القيس إلهه ولطم وجهه، ثم أقدم على ما نهى عنه، ونجح فيما خرج إليه . وقد أثبت بصورة عملية أن ما كان يعبد لا يستحق أن يعبد.

وقد بال الثُّعْلُبان على رأس "سواع"، ذلك الصنم الذي كان يعبده، استخفافا وتحقيرا وإذلالا له . وفي ذلك قال العرب :

إله يبول الثُّعْلُبان برأسه .. لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب !!

الحنيفية :ولقد وُجد بين العرب من رفض عبادة الأصنام رفضا قاطعا وحاولوا قدر ما سمحت لهم ظروفهم أن يتبعوا ملة إبراهيم : أولئك هم الحنفاء.

ويوصف إبراهيم عليه السلام في القرآن بأنه "ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين " (سورة آل عمران: ٦٧) والمقصود بكلمة "حنيف" في هذا النص القرآني هو ذلك الذي رفض عبادة الأصنام، لكنه عاش في زمن قبل ظهور الديانات الرئيسية[٦٦]. وإبراهيم هو الذي سُمى بالاسم في هذا المجال .وعلى ذلك فالحنيفية تنسب إلى إبراهيم الذي عاش حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وتحنف أى مال عن دين قومه ورفض ما يعبدون من دون الله.

ويرى الأستاذ العشماوي أن :الحنيفية لفظ مأخوذ من لفظ"حنيف "العبري . وكان اليهود يطلقونه على كل من يختتن دون أن يعتنق اليهودية — وأطلقه العرب على الشيء أو الشخص المستقيم .وقيل إن من كان على دين إبراهيم فهو حنيف عند العرب، وقيل الحنيف من سنته الاختتان . فلما جاء الإسلام سموا المسلم حنيفا[٦٧].

الحنيفية أكبر وأشمل وأخطر بكثير مما أورده الأستاذ العشماوي فهى في جوهرها رفض عقائدي لفكر وشعائر ودين . وتكمن خطورة هذا السلوك في أن من يتبعه قد يخاطر بوجوده كله، كما حدث في حالة زيد بن عمرو الذي أرغمه أخوه غير الشقيق — خطاب بن نفيل — على ترك مكة عندما أعلن صراحة أنه لا يؤمن بعبادة الأصنام، ولن يؤمن بها، ذلك لأنها

65- الكلبي ص ٤٣.

66- Betty Kelen , p .112.

67- العشماوي

مجـرد حجارة لا قيمة لها. لا تضر ولا تنفع. ولا تغني ولا تفقر، ولا تحيى ولا تميت ٠ ٠ هـى نفسها جماد. لا حياة ولا روح فيه ٠ وكان من نتيجة هذا الموقف الذي اتخذه. والفكر الـذي أعلـنه، أن طـرده أخـوه الخطـاب مـن مكـة وحرَّم عليه دخولها، فارتحل إلى العراق ثـم إلى سـوريا في رحلـة بحـث عـن الحقـيقة ٠ وداوم التـنقل والترحـال. حـتى لفظ أنفاسه الأخيرة في الصحراء٠

الحنيفـية هـى دين إبراهيم وإيمانه وصموده وإرادة التحدى النابعة من التمسك بالعقيدة، والاسـتهانة بالخطـر. في سـبيل مـا يؤمـن بـه، حتى ولو كان هذا الخطر هو قذفه في محيط من النيران كي تلتهمه ألسنة اللهب٠

وتـورد كـارين أرمسـترونج رأي مـؤرخ فلسطيني مسيحيى يدعى سوزومينوس الذي يقول فـيما يخـتص بالحنيفية :إن بعض العرب أعادوا اكتشاف دين إبراهيم القديم وظلوا يدينون بـه في زمـنه، وهـو زمـن سـحيق ٠ ٠وإن شـئنا الدقـة العلمـية فـإن إبراهـيم لم يكن يهوديا ولا مسيحيا، إذ كان يعيش في وقت سابق على التوراة التي أتي بها موسى إلى بني إسرائيل ٠ وسوف نجد أن بعض العرب كانوا يحاولون ممارسة دين إبراهيم في بلاد العرب في الوقت الذي كان النبي محمد يتلقى فيه التنزيل[٦٨] ٠

في كتابـنا **موسـى في الأسـاطير الإسرائيلية**، شرحنا بالتفصيل "ملة "إبراهيم أي ما كان علـيه مـن ديـن، وبيَّـنـَّا بوضـوح أن إبراهيم عليه السلام لم يكن إسرائيليا ولا يهوديا، فلم يكـن يعقوب المسمى بإسرائيل قد ولد بعد، ولم يكن لكلمة "يهودي "في زمنه أي وجود[٦٩]٠ أمـا المسـيح والمسـيحية فلم يسمع عنهما أحد إلا بعد موت إبراهيم بما يقرب من تسعة عشر قرنا من الزمان٠

يدعـي بعـض العـلماء في الغـرب أن القول بوجود طائفة حنيفية صغيرة لا يزيد عن كونه أسـطورة ابـتدعها الأتقياء،إذ ترمـز للقلـق الـروحي الـذي اتسـمت بـه المـرحلة الأخيرة من الجاهلية، وليس من الحقائق التاريخية[٧٠]٠

ومـن المؤسـف أن نجـد أديبا ومفكرا كبيرا، مثل الدكتور طه حسين، ينحو نفس النحو، ويـتخذ نفـس الموقـف الـذي اتخـذه بعض الكتاب الغربيين، عندما يعلن أنه لا يستطيع أن يتبين ما الحنيفية وما معناها الصحيح ٠يقول الدكتور طه :

68- كارين أرمسترونج ، ص ١٠٩ .

69- د. وجدي الفيشاوي ، **موسى في الأساطير الإسرائيلية** ، المركز الهندسي للطباعة والنشر ،القاهرة ،٢٠٠٠، أنظر الفصل الثاني ، ص٢٨.

70- كارين أرمسترونج ، ص ١١٠ .

أما المسلمون فقد أرادوا أن يثبتوا أن للإسلام أوّلية في بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي ٠ ٠ فليس غريبا أن نجد قبل الإسلام قوما يدينون بالإسلام ٠ ٠ والقرآن يذكر لنا غير التوراة والإنجيل شيئا آخر هو صحف إبراهيم. ويذكر غير دين اليهود والنصارى دينا آخر هو ملة إبراهيم. هو هذه الحنيفية التي لم نستطع إلى الآن أن نتبين معناها الصحيح٠

ولا يخفي الدكتور طه عدم تصديقه لما قال به الحنفاء. بل إنه ينكر أقوالهم، ويعتبرها موضوعة ومدسوسة عليهم، وأنهم لم يقولوا ما قيل أنهم قد قالوه ٠ ولنقرأ ما كتبه الدكتور طه في هذا المجال:

وشاعت في العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين إبراهيم ٠ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين إبراهيم هذا قد كان دين العرب في عصر من العصور ثم أعرضت عنه لما أضلها به المضللون وانصرفت إلى عبادة الأوثان ٠ ولم يحتفظ بدين إبراهيم إلا أفراد قليلون يظهرون من حين إلى حين ٠ وهؤلاء الأفراد يتحدثون فنجد من أحاديثهم ما يشبه الإسلام ٠ وتأويل ذلك يسير، فهم أتباع إبراهيم، ودين إبراهيم هو الإسلام٠

وتفسير هذا من الوجهة العلمية يسير أيضا، **فأحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم حملا بعد الإسلام، لا لشيء إلا ليثبت أن للإسلام في بلاد العرب قدمة وسابقة**[٧١]٠

ونرى أن حديث الدكتور طه لا يزيد عن كونه مجرد افتراض فهو يفترض أن ما نطق به الحنفاء قد تم وضعه وتأليفه بعد الإسلام ٠

والغرض من هذا الافتراء، أي تأليف ما لم يكن مؤلفا ونسبه إلى من لم يؤلفه، هو إثبات أن للإسلام جذورا عميقة تضرب في أغوار الزمن حتى تصل إلى إبراهيم، وبين محمد وإبراهيم ما يقرب من ثلاثة عشر قرنا أو يزيد٠

ويظل كلام الدكتور طه مجرد افتراض يعوزه الدليل، فهو لم يقدم الدليل، وما كان باستطاعته أن يقدمه٠

إن الحنيفية والحنفاء واقع تاريخي لا يمكن إنكاره، فثلاثة من الأحناف، وهم عبد الله بن جحش (ابن عم النبي)، وورقة بن نوفل (ابن عم خديجة)، وزيد بن عمرو بن نفيل، كان لهم شان في زمن محمد ٠ ٠شأن لا يمكن إنكاره، وفكر لا يمكن تجاهله ٠ أما رابعهم وهو عثمان بن الحويرث فقد كان من الشخصيات البارزة في مجتمع مكة، ثراء ونفوذا، لدرجة أن حاول أن ينصب نفسه ملكا عليهم٠

71- د. طه حسين، **في الأدب الجاهلي**، ص ٨٠- ٨١.

هؤلاء المتحنفين الذين سبق ذكرهم، إلى جانب آخرين من أمثال قس بن ساعدة الأيادي، وأمية بن أبي الصلت، وسويد بن عامر، وأسعد أبو كرب الحميرى، وزهير بن أبي سلمي. كانوا متعبدين يميلون إلى العزلة والتنسك ٠ ٠استعلوا على عبادة الحجر وتعدد الآلهة وتقديم القرابين للأصنام والأوثان٠ ٠ آمنوا بالوحدانية. ولم يشركوا مع المعبود أحدا تستوجب طاعته٠

كانت وحدانيتهم تقترب من وحدانية إبراهيم، وكان إبراهيم حنيفا. فارتأى البعض تسميتهم بالحنفاء ٠كانوا يتحنثون في المغارات والكهوف، يتأملون ويبتهلون ويصلون، ولا نعرف على وجه التحديد كيف كانت صلاتهم٠

يقول ابن إسحاق إن قريشا اجتمعت يوما في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده٠ ٠ وكان ذلك عيدا لهم في كل سنة يوما ٠ فَخَلَصَ منهم أربعة نفر تناجوا فيما بينهم ٠هؤلاء الأربعة هم ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل ٠ ٠قال بعضهم لبعض :تعلموا والله ما قومكم على شئ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نُطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ! ! يا قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شئ ٠ فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم[٧٢] ٠

فأما ورقة بن نوفل فاعتنق النصرانية وتعلم علم أهل الكتاب ٠ وأما عُبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر إلى الحبشة ومعه زوجته أم حبيبة — التي تزوجها النبي فيما بعد — وهناك تنصَّر، فارق الإسلام وظل على نصرانيته حتى مات ٠وكذا فعل عثمان بن الحويرث،عندما قدم على قيصر في بلاد الروم،هناك تنصر وحسنت منزلته٠

أما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان،ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد رب إبراهيم ٠ويقول هشام بن عروة ٠٠ لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخا كبيرا مسندا ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس عمرو بن زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري، ثم يقول :اللهم لو أني أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به،ولكنى لا أعلمه، ثم يسجد على راحته[٧٣]٠

72- أبو محمد عبد الملك بن هشام ، **سيرة النبي** ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة التراث ،القاهرة، بدون تاريخ ،الجزء الأول ، ص ٢٤٢.

73- نفس المرجع ، ص ٢٤٤ .

ربما كان للأحناف شئ من التأثير في بعض العقول وتهيئتها لتقبل دعوة محمد عندما بدأ رسالته ٠ويجب ألا ننسى أن الإسلام في بدايته كان يعرف بالحنيفية ٠

وربما كان محمد ـ في شبابه وقبل مبعثه ـ هو نفسه من المتحنفين إذ لم يعتنق يهودية أو نصرانية، ولم يسجد لصنم. ولم يقدم قربانا لأى من آلهة مكة، رغم أنه ولد في مكة ـ وتربى في مكة ـ وتزوج في مكة، وعاش حتى بعثه الله هاديا ومبشرا ونذيرا، أيضا في مكة٠

ـ ٦ ـ

مكة

مكة ٠ ٠ هذه المدينة المقدسة ٠ ٠ الواقع والرمز ٠٠ أصلها مفقود في القدم ٠ ٠ لا أحد يعرف أصل مكة ٠ ٠ كل ما نعرفه أنها كانت منذ أزمان طويلة مركزا تجاريا عظيما، ومكانا مقدسا بصورة أعظم٠

يبدو أن سكانها الأول، في حدود التاريخ المعروف، كانوا من سلالة إسماعيل وأقربائهم من جرهم، الذين تمثل طموحهم الأكبر – ومنذ البداية — في السيطرة على الكعبة، ذلك البيت العتيق الذي أقامه إبراهيم بأمر الله " حسب ما ترويه الأسطورة"[٧٤]٠

يقرر الدكتور هيكل أنه من العسير معرفة تاريخ قيام مكة :أغلب الظن أنه يرجع إلى ألوف من السنين خلت٠ والثابت أن واديها اُتخذ —من قبل أن تبني — موئلا لراحة رجال القوافل،بسبب ما كان به من بعض العيون،وأن رجال القوافل هؤلاء كانوا يجعلون منها مضارب لخيامهم،سواء منها القادمون من ناحية اليمن قاصدين فلسطين والقادمون من فلسطين متجهين إلى اليمن ٠ ٠والراجح أن إسماعيل بن إبراهيم هو أول من اتخذها مقاما وسكنا[٧٥]٠

ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل ٠ أن نقول بصورة حاسمة قاطعة متى بدأ بناء مدينة في قلب الماضي السحيق قبل أن يكون هناك تسجيل لأحداث التاريخ ٠ وهذه أرض لم يعرف تاريخها إلا من بعض المصادر الدينية ٠فإذا سلمنا بأن إبراهيم قد ترك زوجته وهاجر وولده إسماعيل في هذه البقعة المهجورة من العالم، ثم بني بها الكعبة بعد ذلك، فإنه بإمكاننا أن نتصور أن بناء الكعبة كان هو بداية تاريخ مكة المعروف٠ أما ما قبل ذلك فهو غير معروف، ومن غير المجدي أن نحاول تخيله٠ وبما أن إبراهيم قد عاش في القرن التاسع عشر قبل الميلاد على وجه التقريب،فإنه من الممكن أن ندعي أنه في نفس القرن بدأ

74- Johnstone , p . 31 .

نناقش رأي جونستون وآراء أخري مشابهة له ،عند الحديث عن الكعبة .

75- د . هيكل ، ص ٨٣ .

تاريخ مكة، وإن كان من الصعب إثبات صحة ما ندعيه.

وعن اشتقاق كلمة" مكة" أو صياغتها، نجد شروحا كثيرة :

يقال سميت مكة لأنها تمك الجبارين أي تذهب نخوتهم .ويقال إنما سميت مكة لازدحام الناس بها من قولهم: قد امتك الفصيل ضرع أمه إذا مصه مصا شديدا . ويقال: إنما سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتى مكان الكعبة فنمك فيه. أي نصفر صفير المكّاء (طائر يأوي الرياض) حول الكعبة، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا كانوا بها . وقال قوم: سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها، وهي في هبطة بمنزلة المكوك . وربما سميت مكة من "مك" الثدي أي مصه، لقلة مائها لأنهم كانوا يمتكون الماء أي يستخرجونه . وقيل إنها تمك الذنوب أي تذهب بها .وربما اشتقت مكة من "مكرب" أو "مقرب" العربية الجنوبية ومعناها "الهيكل "، وقد تكون مشتقة من "مك" في البابلية بمعنى "البيت"[٧٦] .

من أسماء مكة "بكة": "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة.."(سورة آل عمران: ٦٩) . قيل إنها سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة الجبابرة، بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها، وقيل : لأن الناس يتباكون فيها أي يزدحمون . وقيل بكة البيت والمسجد، وقيل: البيت وما حوله بكة وما وراء ذلك مكة . وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة فهي: مكة وبكة والبيت العتيق والبيت الحرام والبلد الأمين وأم القرى والقادس لأنها تطهر من الذنوب والمقدسة والحاطمة والرأس والبلدة والبينة والكعبة[٧٧].

ومن أسماء مكة أيضا الناسة والباسة: كانت مكة في الجاهلية لا يُقرُّ فيا ظلما ولا بغيا، ولا يبغي فيها أحد إلا أخرجته، فكانت تسمى الناسة، ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه، فيقال :إنها ما سميت ببكة إلا أنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئا[٧٨].

أما عن موقعها، فهي بقعة أرض جرداء بين سلسلتين من الجبال الصخرية: جبل أبو قُبيْس من جهة الشرق، وجبل قُعيْقعان من الغرب .ويعرف بطن الوادي الذي تقوم فيه مكة بالبطاح، أما ما وراء البطاح من الجبال والتلال فقد كان يسمى بالظواهر.

بين الجبال المحيطة بمكة تنفذ مسالك ثلاث: الأول يصلها باليمن والثاني يصلها بجدة (قرية الشُّعَيبة في الجاهلية) على البحر الأحمر وبين مكة والبحر الأحمر ما يقرب من

76- د. السيد سالم ، ص ٢٩٤ – ٢٩٥ .

77- **مختصر تفسير ابن كثير** ، اختصار وتحقيق محمد على الصابوني ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٨١،ص ٣٠١ .

78- إبن هشام ، حـ١ ، ص ٢٥ – ٢٦ .

سبعين كيلو مترا. أما الثالث فيصلها بطريق الشام مارا بيثرب (المدينة).

ومكة شديدة الجفاف، بلدة بلا أنهار، تعتمد على الآبار ومن أهمها "زمزم" الذي فاض بمائه منذ أيام إسماعيل . هى إذن واد غير ذي زرع . ورغم أنها ترتفع عن سطح البحر بحوالي ٢٨٠ مترا، إلا أن مناخها قاري، حرارتها خانقة حارقة أثناء النهار، ورياحها ساخنة لافحة .في هذا الجو يسهل انتشار الأمراض والأوبئة، ومن يسقط مريضا لا يسهل علاجه أو إغاثته .هذا معناه أن الهلاك بسبب حالة الجو أمر وارد، وإذا ما حدث لا يمكن تجنبه . ومن المستحيل أن ننسى ما حدث عام الفيل، عندما انتشر مرض الجدري فدمر جيش أبرهة.

ما أن ينتهى الصيف ويحل الخريف، حتى يجد الناس أنفسهم تحت رحمة السيول المدمرة، وكثيرا ما كانت الأوبئة تتفشى عقب السيول، فقد أصيب أهل مكة بمرض شديد في أجسادهم وألسنتهم أصابهم منه شبه الخبل، عقب سيل سنة ٨٤هـ، فسمى هذا السيل بسيل المخبل . .ولم تكن هذه الأوبئة تقتصر فقط على مواسم السيول، بل كانت تعقب مواسم الحج بسبب الحرارة الشديدة التي تؤذي العيون وكثرة الذباب، ويفسر هذا كثرة عدد العميان في مكة[٧٩].

الطائف :في الجنوب الشرقي من مكة تقع " قرية " الطائف على جبل غَزْوان، وهى غنية بأشجارها وثمارها واعتدال جوها . كانت تعتبر مركزا دينيا على قدر كبير من الأهمية يأتي في المرتبة الثانية بعد مكة مباشرة، إذ كانت مركز عبادة "اللات"، أي "الإلهة" . واللات هذه عبارة عن صخرة مربعة أقيم لها بيت وأصبح لها سدنة . وقد عظم العرب بيتها وطافوا حوله .ويقال إن اسم "الطائف" قد اشتق من هذا الطواف.

إلى جانب جو الطائف، الذي يعتبر إحدى النعم أو الهبات الربانية إذا ما قورن بجو مكة، كانت أرض الطائف خصبة تفيض بالخيرات . . النخيل والأعناب والرمان وغيرها من أنواع الفاكهة . كان العنب على وجه الخصوص يعتبر من أهم مصادر الثروة لأهل الطائف، لذا انتشرت مزارعه، وما كان لينافسه إلا عسل الطائف الذي ذاعت شهرته وازداد عليه الطلب في كل أنحاء بلاد العرب.

كانت علاقات الزواج بين أهل مكة وأهل الطائف مألوفة ومحببة واشترى بعض أهل مكة في الطائف مزارع وبساتين استثمروا فيها أموالهم.

ويري مونتجمري وُت أنه كانت هناك منافسة بين مكة والطائف كمركزين تجاريين

79- د. السيد سالم ، ص ٣٠٤ .

متميزين، لكن هذه المنافسة انتهت أو كادت أن تنتهي بعد سلسلة من المعارك تعرف في التاريخ باسم"حرب الفجار". التي ثارت بين أهل مكة وحلفائهم ضد جماعة القبائل المعروفة باسم "هوازن" :بعد عدة معارك انتصر المكيون. وكان انتصارهم يعني امتداد نشاطهم التجاري على حساب منافسيهم. إذ أصبحوا يسيطرون بدرجة كبيرة على سوق عكاظ، كما امتدت سيطرتهم إلى الطائف ذاتها [٨٠].

يثرب :على بعد حوالي خمسمائة كيلو متر إلى الشمال من مكة تقع يثرب . ويقال إن اسم يثرب مشتق من "الثرب" بمعني الفساد أو "التثريب" أي المؤاخذة بالذنب . وذكروا أن النبي نهى عن تسمية يثرب بيثرب وسماها "طيبة" و"طابة". كراهية للتثريب ؛ وبعد أن نزل بها رسول الله سميت "مدينة النبي "، أو باختصار "المدينة " .

ومناخ يثرب لا يختلف كثيرا عن مناخ مكة : شدة الحرارة في الصيف والبرودة في الشتاء، وسقوط الأمطار أحيانا في عنف محدثة سيولا، ومخلفة بركا ومستنقعات يركد فيها الماء، وتكون النتيجة أوبئة وحميات فالمدينة على حد قول بلال " أرض الوباء" [٨١] . وقد دعا النبي أن يذهب الله عنها وبأها. وقد اشتغل أغلب أهل يثرب بالزراعة لوفرة المياه سواء كانت من الأمطار أو من الآبار.

مكة كمركز تجاري :كانت مكة — كما سبق وذكرنا — مدينة تجارية، تقع وسط صخور جرداء . ولقد نمت هذه المدينة الجرداء كمركز تجاري بسبب وجود الحرم القدسي الذي كان يقصده كل من أراد دون تردد أو خوف . لقد جعلها الحرم بلدا آمنا . هذا إلى جانب أن الموقع الجغرافي كان في صالح مكة . . كانت تقع في مفترق الطرق من اليمن إلى سوريا، ومن الحبشة إلى العراق . . وكان البدو يقصدونها من أجل البضائع التي ترد إليها من الجهات الأربع بواسطة القوافل .

من المحتمل أن أهل مكة لم يكونوا في الأصل سوي وسطاء وتجار تجزئة، لم يكونوا هم المستوردين أو الملتزمين بتنظيم القوافل . لكنهم في نهاية القرن السادس الميلادي استطاعوا أن يسيطروا على معظم التجارة القادمة من اليمن إلى سوريا . وكانت الطائف — كما يقول مونتجمري وُت — منافسا لمكة في الشئون التجارية، لكن من الواضح أن مركز مكة كان هو الأقوى .

80- Montgomery Watt ,**Muhammad :Prophet and Statesman** , Oxford University Press, London , 1980 p. 8.

81- د . السيد سالم ، ص ٣٣٧ .

لم تكن مكة مركزا تجاريا فقط. لكنها كانت أيضا مركزا ماليا تجري به كثير من العمليات المالية الكبيرة والمعقدة ،ويصور القرآن بوضوح جو المعاملات المالية المتزايدة، وما سادها من ربا ألفه وتعود عليه أهل مكة[٨٢] .

اصبحت مكة في أوائل القرن السابع الميلادي مركزا تجاريا مزدهرا، لم تعد مجرد محطة تلجأ إليه القوافل طلبا للراحة وهي في طريقها إلى بلاد الشام أو إلى اليمن والحبشة والصومال والسواحل المطلة على المحيط الهادي . في مكة وحولها كانت تقام أسواق ضخمة تعرض فيها بضائع من مختلف البقاع . . الشام ومصر واليمن والعراق والهند والحبشة وفارس وبيرنطة . وعندما ازدادت مكانة تجار مكة وعظم أمرهم جهزوا القوافل وسيروها لحسابهم. ووفروا لها من الحراسة ما يضمن سلامتها وأمنها .

هذا معناه أن الحياة التجارية في مكة كانت، بالنسبة للمكيين، هي جوهر وجودها، السلطة لرأس المال والسيطرة والنفوذ للأثرياء . ويوما بعد يوم، أصبحت مكة — في رأى الأستاذ الشرقاوي — مدينة تحكم التجارة فيها كل العلاقات الاجتماعية، وأقيم بناؤها الروحي والديني والثقافي على أساس البيع والشراء والربح . . وأصبح التجار فيها هم الحاكمون . . ينشئون القواعد ويفرضون التقاليد التي تصون مصالحهم . . وعلى سبيل المثال:

١- قضوا بأن من مات في مكة من التجار الأغراب ورثته مكة . . أي ورثه الذين كانوا يتعاملون معه في مكة من تجار قريش.

٢- قضوا على من يستدين أن يقدم إلى دائنه رهنا . . كان الرجل أحيانا يرتهن ولده أو امرأته أو نفسه ،فإذا حل موعد أداء الدين وجب على المدين أن يدفع أضعاف ما استدان، فإذا عجز، تحول الرهينة إلى عبد يملكه الدائن ويستثمره كيفما شاء .

٣- كان الدائن يحسب دينه أضعافا مضاعفة عند حلول أجل الدين . . وكان بعض الدائنين يفضلون إذا عجز المدين عن الدفع، أن ينزل للدائن عن زوجته أو عن أمه أو عن ابنته . .فيتسلمها الدائن، لا ليستمتع بها هو وحده فحسب، بل كان من حقه بعد أن يستمتع بها أن يلحقها بأحد بيوت اللهو الكبيرة [الدعارة] التي كانت ترتفع عليها رايات خاصة. . ويقتضي الدائن دينه مما تكسبه المرأة في هذه المهنة الشائنة. فإذا ما استوفى دينه أعاد الفتاة إلى أهلها.

٤- آثر سراة مكة أن يشتروا العبيد ويدربوهم على السلاح ليقوموا على حراسة قوافلهم

82- Montgomery Watt **Muhammad at Mecca** (The Clarendon Press,1953 , p. 2.

وتجارتهم خارج مكة وداخلها ٠ ٠ وهكذا أصبح لمكة جيش وشرطة تحت زعامة تجارها.

على أنه وجد من بين رجال مكة من رفض العار وعبودية التجار فهرب إلى البادية بعيدا عن ضجيج الحياة الفاسدة. وانطلقت منه صرخات احتجاج تلعن مكة ومظالمها وأسلوب الحياة فيها٠ ٠ كوَّن هؤلاء الرجال الهاربون جماعات في البادية تنتزع لقمتها بحد السيف. وتهاجم قوافل الأغنياء، وتحترف القتل، وتنشئ في الواحات الصغيرة المستظلة بالمرتفعات دولة الصعاليك ٠ ٠ دولة وضعت تقاليد لمبادئ الفروسية في التعامل ٠ ٠ وكان لهم شعراء، ينبض من خلال شعرهم الحلم الدائم بالخلاص، والأمل المبهم في العدل[٨٣] ٠

ويقال إن قريشا كانت تفرض الإتاوات على التجار الغرباء وعلى العرب الذين لا يرتبطون مع قبائل قريش بحلف ٠ومن بين الضرائب التي كانت تفرضها قريش ضريبة العشور، فكانوا يعشرون من يدخل مكة من تجار الروم٠ وتشير المصادر إلى وجود عدد من تجار الروم في مكة، نزلوا وأقاموا فيها، واتُخذ بعضهم موالي لأشراف أهل مكة، مثل نسطاس مولي صفوان بن أمية، ويوحنا مولي صهيب الرومي، وصهيب الرومي نفسه كان مولي لعبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب. وكان أسيرا في أرض الروم، فاشتري منهم ثم أسلم[٨٤] ٠

وكانت "عكاظ" أهم الأسواق التي أقيمت في ضواحي مكة، بعد أن ضاقت مكة بتجارها وروادها بمختلف نوعياتهم من أمراء وشعراء ورؤساء قبائل وبدو رُحَّل، يستعرضون بضائع من كل نوع ولون، حتى تجارة الرقيق كانت تحظي بمكان لها في السوق: نساء بيض وسمر وسود ٠ ٠روميات وأفريقيات وفارسيات وبدويات ٠كانت تجارة الرقيق رائجة ولها مريدون وعشاق، يدفعون في سوق النخاسة بسخاء، إذا ما أغراهم جسد الأنثى المعروضة مِلْكا مدى الحياة، والتي يمكن بيعها إذا ما أراد صاحبها التغيير أو اعتراه الملال٠

وبجانب كل ما احتواه السوق من بضائع مادية وسلع بشرية، وخمر وغزل ونساء، وُجد أيضا كبار الشعراء والرهبان والوعاظ والدعاة والمتحدثون عن شتي نواحي الحياة ٠ سوق بكل روعة محتوياته ومتناقضاته وازدهاره وروادة ٠٠ نجح في أن يحجز مكانا في سجل التاريخ على مر العصور٠

كانت العملة المستخدمة في هذا السوق وغيره من أسواق مكة هى العملة البيزنطية، وكذا العملة الساسانية، المعروفتان باسم الدرهم والدينار، وكانتا من الفضة والذهب ٠

83- عبد الرحمن الشرقاوي، **محمد رسول الحرية**، دار الهلال، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٣ ـ ١٨.

84- د. السيد سالم، ص ٣١٨.

اما عن الموازين المستخدمة في تلك الآونة فقد كانت بصورة عامة هي : الرطل، والأوقية، والنش وهو نصف الأوقية، والدرهم، والمثقال ، وبخصوص المكاييل، استخدم العرب الصاع والمد والمكوك[٨٥].

- ٧ -
الكعبة

الكعبة، ذلك البيت العتيق، طولها أربعون قدما، وعرضها خمسة وثلاثون قدما، وارتفاعها خمسون قدما، ويبدو أنها استمدت اسمها من شكلها المكعب ،مبنية هي من طبقات من حجر رمادي اللون ومغطاة في العادة بستائر سوداء، وبها باب ارتفاعه حوالي سبعة أقدام من الأرض، والجدران بلا نوافذ ،أما داخلها فلا يوجد به سوي ثلاثة اعمدة خشبية مستخدمة كدعامات للسقف، ولا يوجد أثاث من أي نوع، فقط توجد بعض المصابيح الذهبية والفضية[٨٦].

لا يعرف على وجه التحديد هوية أول من بني الكعبة، ولا شخصيته، ولا محل ميلاده أو مهبطه ،هنا تختلف الأقاويل ، بعضها قد يتقبله المنطق، وبعضها قد يحلق في خيالات تتخطى حدود الممكن والمألوف، وينتزعنا من ملموس الواقع إلى وهم الأساطير.

جاء في **مختصر تفسير ابن كثير**، عن عبد الرازق عن مجاهد، أن الله قد خلق موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا بألفي سنة، وأركانه في الأرض السابعة [٨٧].

هذا معناه أن "موضع هذا البيت" قد تم خلقه قبل أن يخلق الله الملائكة أو الجن أو آدم عليه السلام، وقبل أن يخلق الأرض والسماء وما بينهما، لأن عبد الخالق يقول عن مجاهد: أن الله قد خلقه قبل أن يخلق **شيئا** بألفي عام ، ورغم ذلك فهو يقول إن أركانه كانت في الأرض السابعة ، وهذا كلام متناقض وغير مفهوم ، هل خلق الله الأرض السابعة قبل أن يخلق "موضع البيت"، أم خلق "موضع البيت" قبل أن يخلق الأرض السابعة ؟!

ونحن لا نعرف من هو عبد الرازق أو من هو مجاهد، ولا يهمنا أن نعرف، لكن المهم هو: كيف عرف مجاهد هذا أن موضع البيت قد خلقه الله قبل بداية الخلق بألفي سنة ؟ وكيف عرف أن أركانه في الأرض السابعة ؟هل يستطيع أحد أن يدلنا على مكان هذه الأركان بالضبط في أي أرض سواء كانت سابعة أو سادسة أو خامسة؟ هل يستطيع أحد

85- المرجع السابق ، ص ٣١٨ .

86- E. Royston Pike ,**Mohammad :Prophet of the Religion of Islam** , Weidenfeld & Nicolson LTD., London ,1968,p.102.

87- **مختصر تفسير ابن كثير** ، المجلد الأول ، ص ١٢٥ .

أن يحقق هذا الكلام وأن يثبت صدقه ؟ وإذا كان هذا الكلام لا يمكن إثباته، وبالتالي لا يمكن تصديقه، فلماذا تم تركه — وكثير مثله — في كتب التراث، خلال قرون متعاقبة. دون أن يلتفت إليه أحد، أي دون أن يقوم بتصحيحه أو حذفه؟

ويقال إن الملائكة هم أول من بني الكعبة قبل خلق آدم ٠ ٠ ذكره القرطبى وحكي لفظه[٨٨]٠ وفي "الخبر" الذي يورده " الإمام "أبي حامد محمد بن محمد الغزالى، المتوفى سنة ٥٠٥هـ، أن الملائكة لم يكتفوا ببناء "البيت " بل حجوا إليه أيضا٠ ويقول "الخبر" إن آدم لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا: بر حجك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام [٨٩]٠

معنى هذا الكلام هو أن الملائكة قد هبطت إلى الأرض كى تطوف حول الكعبة قبل خلق آدم بألفي عام، وهذا معناه أيضا أن الملائكة قد حجت تطوعا، أو أن الله قد فرض الحج على الملائكة قبل أن يفرضه على البشر٠ وهذا كلام مرفوض لأنه لا دليل عليه في القرآن٠

ومما يزيد من رفضنا ويؤكده هو أن "الشيخ الإمام" الغزالي يذكر في كتابه أخبارا أخرى غير قابلة للإثبات، وبالتالي غير قابلة للتصديق ٠ فعلى سبيل المثال — لا الحصر — يري الشيخ أنه لا مانع من شد الرحال إلى قبور الأنبياء عليهم السلام مثل إبراهيم **وموسى** ويحيى[٩٠]٠

ولم يقل لنا الشيخ أين قبر موسى كي نقوم بزيارته ٠وللعلم لا أحد من المعاصرين، أو ممن سبقهم، يعرف مكان قبر النبي موسى وهذا معناه أن النبى موسى لا قبر له٠ وتحكي الأسطورة الإسرائيلية في "التوراة" أن الرب هو الذي قبض روح موسى، وهو الذي قام بغسله وتكفينه ثم دفنه " في الجواء مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم" (سفر التثنية ٣٤ : ٦)٠

وقيل :إن آدم عليه السلام هو أول من بني البيت، رواه عطاء وسعيد بن المسيب[٩١]٠ ويورد ابن سعد كلاما بنفس المعنى مع شئ من التفصيل : وأوحي الله إلى آدم إن لي حرما بحيال عرشي، فانطلق فابن لي بيتا فيه، ثم حف به كما رأيت ملائكتي يحفون بعرشي، فهنالك استجيب لك ولولدك من كان منهم في طاعتي، فقال آدم :أي رب وكيف لي بذلك؟

88- **مختصر تفسير ابن كثير** ، المجلد الأول ، ص ١٢٠ .

89- الإمام أبي حامد محمد الغزالي ،**إحياء علوم الدين** ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، ١٩٩٨ ،الجزء الأول ، ص ٣١٧ .

90- نفس المرجع ، ص ٣١٩ .

91- **مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الأول** ، ص ١٢٠

لست أقوى عليه ولا أهتدي له. فقيض الله له ملكا فانطلق به نحو مكة٠ ٠. فبني البيت من خمسة أجْبُل: من طور سينا، وطور زيتون، ولبنان، الجودي، وبني قواعده من حراء. فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات فأراه المناسك كلها التي يفعلها الناس اليوم ثم قدم به مكة فطاف بالبيت أسبوعا ثم رجع إلى أرض الهند فمات على نوْذ[٩٢] [الجبل الذي يقال إن آدم أنزل عليه]٠

الحوار الذي أورده ابن سعد على أنه حوار تم بين آدم وربه حوار غريب، لا سند له ولا دليل عليه، ولم ترد كلمة واحدة منه ولو في آية واحدة من آيات القرآن ٠

وتعتقد بيتي كيلين Betty Kelen أن حكاية بناء آدم للكعبة لا تزيد عن كونها مجرد أسطورة: وطبقا للأسطورة لم يقم ببناء الكعبة سوي أبينا آدم ٠ كان ذلك بعد السقوط، أي بعد خروجه من الجنة، وكانت كل الأماكن بالنسبة له سواء ٠ ٠ وعند مروره بهذا الوادي [وادي مكة] جمع كومة من الأحجار وبني شيئا سماه "بيت الله" ٠ ٠وقد جعله مربعا، وهو تصميم لم يكن سيئا بالنسبة لشخص لم ير أبدا في حياته بيتا ٠ ٠ أي بيت ٠ وكان آدم فخورا بما صنع٠ ٠ وكان يعود كل عام مرة كي يزور أول ما أبدعه الإنسان، ويطوف حوله سبع مرات ٠ ٠ لم يكن للبيت سقف، ولم يستمر طويلا، ذلك لأن ذرية آدم بعد أن تكاثرت أصبحت تجهل معنى بناء هذا البيت، فبعثروا حجارته٠ ٠ ثم بعد ذلك جاء الطوفان ومحي كل ما له من أثر ٠ ٠وتمر القرون ثم تبدأ الأسطورة من جديد بمجيء هاجر وإسماعيل[٩٣]٠

من الواضح أن بيتي كيلين تعتبر أن بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة هو مجرد أسطورة ٠ وهذا كلام نري أنه من الأفضل أن نناقشه قبل أن نرفضه٠

يقول ابن سعد :أوحى الله إلى إبراهيم يأمره بالمسير إلى بلده الحرام، فركب إبراهيم البراق وحمل إسماعيل أمامه وهو ابن سنتين،وهاجر خلفه، ومعه جبريل يدله موضع البيت حتى قدم به مكة،فأنزل إسماعيل وأمه إلى جانب البيت، ثم انصرف إبراهيم إلى الشام[٩٤]٠

لن نناقش مسألة ركوب إبراهيم البراق وإسماعيل أمامه وهاجر خلفه وجبريل يهديه الطريق، فإن مناقشة هذا النوع من الكلام لا تزيد عن كونها مضيعة للوقت والجهد، هذا بالإضافة إلى أنه لم يذكر في توراة أو إنجيل أو في القرآن أن ما يرويه ابن سعد قد حدث ٠ إنها مجرد حكايات لا أصول لها في أي كتاب سماوى ومن الأفضل أن تُحذف من كتب

92- ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، المجلد الأول ، ص ٣٦ .

93- Betty Kelen , p. 17 .

94- ابن سعد ، المجلد الأول ، ص ٥٠ .

التراث.

كل ما يهمنا فيما يرويه ابن سعد هو أن إبراهيم ترك زوجته وولده إلى "جانب البيت" . وهذا معناه بوضوح أنه قد كان هناك بيت أي أن البيت كان قائما.

لكن ابن سعد بعد صفحة أو صفحتين مما قاله بخصوص ترك إبراهيم زوجته وولده "إلى جانب البيت"، يعود فيحكي أن الله: أوحى إلى إبراهيم. صلي الله عليه وسلم، أن يبنى البيت [٩٥]. ربما يقصد ابن سعد فيما أورده أن الله أوحي إلى إبراهيم أن يعيد بناء البيت، وإلا وقع في تناقض، لأن البيت كان موجودا حسب قوله وقد "ترك إبراهيم زوجته وولده إلى جوار البيت" . فهل بنى إبراهيم البيت، أم أعاد إبراهيم بناء البيت؟ هذا مالا يجيب عليه ابن سعد.

ويبدو أن ابن سعد لا يحفل بالمتناقضات التي يرويها في كتابه: **الطبقات الكبرى** . فهو على سبيل المثال يحكي في "صفحة ٥٢ "أن الله أوحي إلى إبراهيم أن يبني البيت، وهو يومئذ ابن مائة سنة وإسماعيل يومئذ ابن ثلاثين . وهذا معناه أن إسماعيل قد وُلِد وإبراهيم في السبعين من عمره . لكن ابن سعد في "صفحة ٤٨" يقول بالحرف الواحد: ولد لإبراهيم إسماعيل وهو ابن تسعين سنة . التناقض واضح ولا يحتاج إلى تعليق.

هذه الكتب القديمة في حاجة إلى مراجعة دقيقة، تخلصها من شوائبها، على أن يقوم بذلك أناس ممن هم على علم وخلق ودين، لا من الأدعياء المتعالين الذين يعملون وقلوبهم منصرفة إلى "شباك الصراف "، يفكرون كم سيتقاضون.

نجد في **تاريخ الطبري** رواية تكاد تكون إجابة على السؤال :هل بني إبراهيم البيت أم أعاد البناء ؟ تقول الحكاية : إن آدم لما أهبط إلى الأرض فرأى سعتها ولم ير فيها أحدا غيره قال: يارب، أما لأرضك هذه عامر يسبح بحمدك ويقدس لك غيري ! قال الله: إني سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدي ويقدسني، وسأجعل فيها بيوتا لذكري، وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتي وأوثره باسمي، وأسميه بيتي . . أجعله أول بيت وضع للناس ببطن مكة مباركا.

ثم أمر آدم عليه السلام — فيما ذكر — أن يأتي **البيت الحرام الذي أهبط له إلى الأرض**، فيطوف به كما كان يري الملائكة تطوف حول عرش الله، وكان ذلك ياقوتة واحدة أو درة واحدة . حتى إذا أغرق الله قوم نوح رفعه وبقي أساسه، فبوأه الله عز وجل

95- المرجع السابق، ص ٥٢ .

لإبراهيم فبناه[٩٦].

معنى الحكاية التي أوردها الطبري هو أن آدم لم يقم ببناء البيت، لكن البيت أُنزل له من السماء. ثم رُفع البيت إلى السماء قبل أن يُغرق الطوفان الأرض، لكن أساسه ظل مكانه راسخا، حتى إذا جاء إبراهيم أمره الله أن يقيم البيت على ما هو موجود من أساس.

وحكاية أن أول "بيت وضع للناس "قد أُهبط لآدم من السماء كي يطوف حوله كما تطوف الملائكة حول العرش، حكاية لم يرد لها ذكر في القرآن ولا يدعمها "حديث "، ولم يقصها أحد في التوراة أو الإنجيل أو حتى في مزمور من المزامير .إنها تنتمي إلى ما يطلق عليه اسم الأساطير . والإسلام بالذات دين لا يعتمد على الأساطير، إنه دين يعتمد في جوهره على التأمل والتدبر والتفكير .

إن قصة إبراهيم وإسماعيل مألوفة في كتب الأقدمين، وكذلك في كتابات المحدثين . يذكر كتاب اليهود "المقدس" المسمى بالتوراة أن إسماعيل ولد قبل إسحق بثلاث عشرة سنة عندما كان إبراهيم في السادسة والثمانين من عمره، وكما تصفه التوراة : هو إنسان وحشي "يده على كل واحد ويد كل واحد عليه " (تكوين ١٦ :١٢) . وهو – كما يقول يوسيفوس – ابن الجسد، وكما يقول أندرسون حصاد لحظة ضعف في الإيمان بالإله يهوه.

أما إسحق فهو ابن الوعد، ابن إبراهيم الحبيب، الذي تصفه التوراة بأنه الإبن الوحيد الذي من سلالته تنشأ أمم عظيمة وملوك .... ولم تعد هاجر، أم إسحق، تطيق سارة المصرية أم إسماعيل، وقد كانت جارية لها صحبتها معها من أرض مصر . لذلك فهى – في إصرار غريب – تصدر أمرها إلى إبراهيم: "أُطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق " (تكوين ٢١ : ١٠). ويسكن إسماعيل، المغضوب عليه، في برية "فاران" وتأخذ له أمه زوجة مصرية.

لن نناقش هنا صحة ما جاء في التوراة من قصص وأحداث، فلقد ناقشنا هذه النقاط في فصل كامل من كتابنا **موسى في الأساطير الإسرائيلية**، وأثبتنا بالمناقشة الموضوعية التي تعتمد على المنطق أن موسى لا صلة له بما يطلق عليه اليهود اسم"التوراة" الموجودة حاليا، وأنه لم يكتبها كما يدعون، بل تم تأليفها وبأقلام مختلفة فيما يقارب ألف عام.

ويروي المؤرخون الإسلاميون أن إبراهيم اصطحب زوجته هاجر – المغضوب عليها من سارة – ومعها طفلها إسماعيل حتى وصل بهما إلى وادي مكة، وهو واد مجدب لا ماء ولا زرع فيه حيث تركهما وليس معهما من الزاد والماء إلا القليل . عمد بهما إلى موضع

96- تاريخ الطبري ، المجلد الأول ، ص ٨٤ – ٨٥ .

"الحجر" فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أن تتخذ فيه عريشا ٠قال إبراهيم :" ربنا إني أنزلت من ذريتي بواد غير ذي زرع عن بيتك المحرم " (سورة إبراهيم: ٣٧). ثم تركهما وانصرف٠

نفذ الماء واشتد العطش ٠ ٠ هرولت الأم بين تلّين متقابلين، يبعد كل منهما عن الآخر حوالي ٧٨٠ذراعا، علها تجد من يعينها على ما هى فيه من بلاء ٠ ولقد أطلق على أحد هذين التلين اسم "الصفا" ومعناها الحجر الأملس الصلب، وعلى التل الآخر اسم"المروة" وهى من الحجارة ما كان أبيض أملس صلبا شديد الصلابة[٩٧]٠

في بحثها اليائس عن الماء٠ تجد الأم بئرا. هى ما تعرف الآن ببئر زمزم، وتكون هذه البئر بداية لتواجد الحياة ونموها، إذ تطلب قبيلة جرهم — أثناء تجوالها — من أم إسماعيل أن تسمح لهم بالاستقرار إلى جوار الماء، ويتزوج إسماعيل من جرهم، وتدور عجلة الحياة٠

اشتاق إبراهيم لولده فقرر زيارته٠ ربما كانت المشيئة الربانية هى التي دفعته دفعا إلى هذه الزيارة، إذ يؤمر بعد أن يصل، أن يبنى لله بيتا يعبد فيه٠ ولإيمانه المطلق بخالقه قرر إبراهيم تنفيذ الأمر، وطلب من ولده إسماعيل أن يساعده ٠ لكنه لم يكن يعرف على وجه التحديد في أية بقعة من هذه الأرض الجرداء يجب أن يبنى البيت٠ وكانت إرادة الله هى التي هدته إلى المكان المختار:"وإذ بَوَّأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا" (سورة الحج :٢٦)٠

وضع إبراهيم الأساس ورفع البيت هو وإسماعيل، حتى إذا انتهيا إلى موضع الركن، قال إبراهيم لإسماعيل :يا بني، ابغ لي حجرا أجعله علما للناس ٠ فجاءه بحجر فلم يرضه، وقال : أبغني غير هذا فذهب إسماعيل ليلتمس له حجرا، فجاءه وقد أُتِي بالركن، فوضعه في موضعه، فقال :يا أبت، من جاءك بهذا الحجر ؟ قال :من لم يكلني إليك يا بني [٩٨]٠

هنا تجدر الإشارة إلى ما ورد في بعض كتب التراث عن ذلك الحجر الذي وضعه إبراهيم في الركن، وأطلق عليه اسم"الحجر الأسود"٠

يروي ابن سعد — فيما يرويه — أن آدم خرج من الجنة بين الصلاتين صلاة الظهر وصلاة العصر، فأنزل إلى الأرض، وكان مكثه في الجنة نصف يوم من أيام الآخرة، وهو خمسمائة سنة ٠ ٠ وقالوا أنزل معه من آس الجنة أيضا، وأنزل معه بالحجر الأسود، وكان أشد بياضا من الثلج[٩٩]٠

97- الصابوني ، **تفسير آيات الأحكام** ، ص ١٣٣ .
98- **تاريخ الطبري** ، المجلد الأول ، ص ١٥٣ .
99- ابن سعد ، المجلد الأول ، ص ٣٥ .

وفي الخبر – كما يروي الإمام الغزالي – أن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة وأنه يبعث يوم القيامة له عينان ولسان ينطق به يشهد لكل من استلمه بحق وصدق[100].

وجاء في تاريخ الطبري أن الحجر الأسود كان ياقوتة بيضاء، خرج بها آدم من الجنة كان يمسح بها دموعه. وسبب اسوداده أن الحيَّض كن يلمسنه في الجاهلية[101].

وكل ما سبق كلام إنشائي مرسل، لا دليل عليه ولا إثبات له. ولقد أعلن عمر بن الخطاب أن الحجر لا يزيد عن كونه مجرد حجر، عندما قال بصراحته الفارقة: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع. ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبَّلتك[102].

يقول آرثر جيفري Arthur Jeffery إن الكتاب البيزنطيون يؤكدون أن ذلك الحجر في أصله كان تمثالا من الحجر الأسود لـ"أفروديتي" وكان يعبد فترة ما قبل الإسلام. ويبدو أن الخوارج قد اعتبروه صنما من نوع ما. وعلى ذلك فعندما استولوا على مكة عام٩٢٩ ميلادية، أخذوه معهم وحطموه، ويقال إنه حطم في تاريخ سابق لاستيلاء الخوارج عليه وذلك عندما حرقت الكعبة أيام ابن الزبير عام ٦٨٣ ميلادية. وعندما تم استرداده وضع في مكانه، وثُبتت مختلف قطعة بالأسمنت وأحيط بدائرة معدنية. وكما هو موجود حاليا أصبح مجوفا بسبب لمس الزوار له عند زيارتهم لمكة كل عام. ويري بيرتون Burton أنه حجر "نيزكي"، وعلى ذلك فهو "حجر من السماء"، كما يدعي كتبة التراث[103].

وتعبر بيتي كيلين Betty Kelen عن نفس الرأي، عندما تقرر أنه أحد النيازك، لكنها تضيف :يقول آخرون إنه لا يزيد عن كونه مجرد حجر عادي من الجبال البركانية المحيطة، لكن هناك من يعتقد انه "مَلَك" إنكمش وتحجر، أي تحول إلى صخر، وقد كان يوما في بياض الثلج ثم أصبح في سواد الزفت، من ملايين القبلات التي طبعتها عليه شفاة الخطائين. ومازال هذا الحجر في مكانه في أحد أركان الكعبة، وهو الآن اثنتا عشرة قطعة ملتحمة بالأسمنت يحيط بها طوق من الفضة. ولا أحد يعرف عنه المزيد، باستثناء الرجل الذي التقطه وأعجب به، فلم يرغب في القذف به بين الصخور أو في حمله معه، وعلى ذلك فقد تركه في ذلك المكان المقدس كي يصبح لغزا يحير ما بعد إبراهيم من أجيال[104].

هذا فيما يختص ببناء الكعبة والحجر الأسود، وتبقي نقطة واحدة وثيقة الصلة بالكعبة وكذلك بإبراهيم، ألا وهى "المقام" :"وإذ جعلنا البيت مثابة وأمنا واتَّخِذوا من مقام إبراهيم

100- الغزالي ، إحياء علوم الدين ، المجلد الأول ، ص ٣١٦ .
101- تاريخ الطبري ، المجلد الأول ، ص ٨٥ .
102- الغزالي ، إحياء علوم الدين ، المجلد الأول ، ص ٣١٦ .
103- A. Jeffery , p. 208 .
104- Betty Kelen , p. 18 .

مصلي " (سورة البقرة : ١٢٥)٠

اختلف المفسرون في المراد بالمقام، ما هو؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه ابن كثير في تفسيره لسورة "البقرة". ويورد عدة إجابات منها : مقام إبراهيم هو الحرم كله، ومقام إبراهيم هو الحج كله (مني ورمي الجمار والطواف بين الصفا والمروة)، ومقام إبراهيم هو الحجَر الذي كان يقف عليه إبراهيم وهو يبني الكعبة وإسماعيل يناوله الحجارة، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه[١٠٥]٠

كان هذا المقام، أي الحجر، ملصقا قديما بجدار الكعبة، حيث تركه إبراهيم ٠ ٠ وأخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٠ ومكانه معروف اليوم، مما يلي الحجر إلى يمين الداخل من الباب ٠أما عن الصلاة خلف المقام فقد كانت في بداية الأمر مجرد اقتراح من عمر وجَّهه للنبي في صورة سؤال: يا رسول الله أفلا نتخذه مصلى ؟ فأنزل الله عز وجل:" واتخِذوا من مقام إبراهيم مصلي" ٠ هذا ما دعا عمر أن يقول : وافقت ربي في ثلاث : في الحجاب، وفي أسارى بدر، وفي مقام إبراهيم [١٠٦]٠

أما المنطقة المحيطة بالكعبة فقد كانت منذ أيام إبراهيم تسمي بالمسجد، أي مكان السجود،ذلك لأن فريضة السجود لله في اتجاه البيت المقدس (الكعبة)كانت تؤدى منذ زمن إبراهيم وإسماعيل ٠

بعد أن أتمَّ إبراهيم بناء الكعبة، أمره ربه أن يؤذن في الناس بالحج ٠ هذا هو بيت الله ٠ ٠ تم بناؤه٠ ٠ وعلى كل الناس أن يتجهوا إليه بأنظارهم في صلاتهم وابتهالاتهم ٠ ٠ وعلى كل قادر منهم أن يشد الرحال إليه كي يؤدي فريضة الحج بكل مشاعرها كما أمر الله بها نبيه إبراهيم٠

يجب أن نوضح ونؤكد أن الحجارة التي بنيت بها الكعبة هى مجرد حجارة، لا قدسية لها، ولا يجب أن تقدس ٠ هذا هو الخطأ الذي وقع فيه أهل مكة بعد إبراهيم، عندما قدسوا حجارة الحرم، وقادهم هذا السلوك إلى عبادة الأوثان ٠ المكان كله رمز مبارك، لأنه من اختيار الله، يتجمع حوله آلاف المؤمنين بالله الخاضعين لمشيئته وحكمه، كي يشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله كثيرا على ما رزقهم من الأنعام ٠هنا جمع بين الدنيا والدين، بين مادية الحياة وروحانية عبادة الخالق وشكره والتسبيح بحمده٠ هنا تقام الشعائر التي تربط ما بين السماء والأرض٠

105- مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الأول ، ص ١١٧ .

106- نفس المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

ويقال إن الله قد ألهم إبراهيم كيف يؤدي مناسك الحج ويعلمها للناس. ويقال ان جبرائيل كان هو الذي يُرى إبراهيم المناسك إذا حج[١٠٧].

كان من الطبيعي أن يكون إسماعيل، ولد إبراهيم. أول سادن أو خادم للكعبة .إنه ليس ولد إبراهيم فقط. . إنه الوحيد الذي شارك في بناء الكعبة، لذلك فقط أصبح من حقه أن يكون سادنها . وكانت خدمة الكعبة شرفا سامقا تتطاول إليه الأعناق، كما كانت نذرا غاليا — كما تقول د. عائشة عبد الرحمن — تنذر له الأمهات والآباء فلذات أكبادهم من قديم الزمان. من ذلك ما رووه من أن امرأة من جرهم كانت لا تلد فنذرت لله إن هي ولدت "رجلا " أن تتصدق به على الكعبة عبدا لها يخدمها ويقوم عليها فولدت "الغوث بن مر بن أد بن طابخة "،فكان يقوم على الكعبة في الدهر الأول مع أخواله من جرهم [١٠٨].

ويحكى أن أول من كسا الكعبة وجعل لها بابا ومفتاحا هو تُبَّع الحميرى الذي قدم من اليمن وأقام في مكة ستة أيام ينحر بها للناس، ويطعم أهلها ويسقيهم العسل، وأُري في المنام أن يكسو البيت فكساه الخَصَفَ، وهو كساء غليظ جدا أو شقة تعمل من الخوص أو ليف النخل، ثم أُري أن يكسوه أفضل من ذلك فكساه ثيابا يطلق عليها اسم"الثياب المعافرية" ومعافر اسم بلد تنسب إليه هذه الثياب . ثم أُري أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه المُلاء والوصائل، والوصائل جمع وصيلة وهى الثوب المخطط اليماني [١٠٩].

يذكر بعض الإخباريين أن قريشا كانت في الجاهلية ترافد في كسوة الكعبة ،فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها من عهد قصى بن كلاب إلى أن ظهر أبو ربيعة بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم، وكان يختلف إلى اليمن يتَّجر بها، فأثري من المال فكان يكسوها وحده سنة، وجميع قريش تكسوها سنة أخري على التعاقب . وذكروا أن النبي كان يكسو الكعبة بالثياب اليمانية، ثم كساها عمر وعثمان القباطي، ثم كساها الحجاج الديباج[١١٠].

ويرتاب "وليم موير" في ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز وبنائهما الكعبة، بل ويذهب إلى حد أن ينفي القصة من أساسها ويذكر أنها من الإسرائيليات التي ابتدعها اليهود قبل الإسلام بأجيال ليربطوا بها بينهم وبين العرب بالاشتراك في أبوة إبراهيم[١١١].

ويؤكد ألفريد جيوم Guillaume رأي"موير "عندما يقرر أنه لا يوجد أي دليل تاريخى

107- **تاريخ الطبري** ، المجلد الأول ، ص ١٥٧ .
108- د . عائشة عبد الرحمن ،**أم النبي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة، الطبعة الثانية ، ١٩٩٦، ص ٧٤ .
109- **سيرة ابن هشام** ، حـ ١ ، ص ٢٠ .
110- د. السيد سالم ، ص ٣١٩.
111- د. محمد حسين هيكل ، **حياة محمد** ، ص ٨٧ .

يثبت أن إبراهيم أو إسماعيل قد ذهب يوما إلى مكة[١١٢].

وما يقول به "وليم موير" و"الفريد جيوم " منتشر في الغرب منذ انتشار روح العداء ضد الإسلام في القرون الوسطي، وليس بمستغرب، إذن، أن يهاجموا الإسلام وينكروا ما جاء في القرآن.

لكن المثير للدهشة هو أن يتشبع بهذه الآراء من هو محسوب على الإسلام، ويفرزها على الورق، ويعلنها على الناس. مدعيا أنها من نتاج بحثه المستفيض وفكره الأصيل وعبقريته الفذة.

ينقل الدكتور طه حسين الفكر الاستشراقي نقلا مباشرا، رغم انه يعيد الصياغة، متوهما أن في ذلك ما قد يضلل الباحثين فلا يفتضح أمره. يقول الدكتور طه:

للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها.

وينقل الدكتور طه رأي" وليم موير" نقلا يكاد يكون تاما مع تغيير بعض الألفاظ . فعندما يقول موير إن بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة مجرد إسرائيليات ابتدعها اليهود قبل الإسلام بأجيال ليربطوا بها بينهم وبين العرب بالاشتراك في أبوه إبراهيم، يقول الدكتور طه: هذه القصة نوع من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والتوراة من جهة أخرى.

ويرى الدكتور طه – ورؤيته هذه بالطبع سوداء إلى حد العماء — أن قريشا كانت مستعدة كل الاستعداد لقبول هذه الأسطورة . فمن المعقول جدا أن تبحث هذه المدينة الجديدة [مكة] لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التي تتحدث عنها الأساطير . وإذن فليس ما يمنع قريشا أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم.

أمر هذه القصة إذن واضح، فهى حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام، **واستغلها الإسلام** — كما يقول د. طه — لسبب ديني وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضا[١١٣].

من المستغرب إلى حد عدم التصديق أن يتهم طه حسين الإسلام بالاستغلال، أي باستغلال "الأسطورة "المتداولة لمصلحته .وما يطلق عليه د. طه اسم "الأسطورة " نقلا

112- Alfred Guillaume ,p .61.

113- د. طه حسين ، **في الشعر الجاهلي** ، ص ٢٦ –٢٩ .

عن المستشرقين، موجود في القرآن.

السؤال الذي يجب طرحه هو : من الذي استغل؟

إذا كان الدكتور طه يعتبر القرآن وحيا من عند الله. أي أنه كلام الله. فالدكتور في هذه الحالة لا يملك الجرأة الكافية لتوجيه تهمة الاستغلال إلى الله. وإذا كان الدكتور لا يعتبر القرآن وحيا، أي أنه من تأليف محمد، فهو في هذه الحالة أيضا لا يملك الشجاعة الكافية كي يوجه تهمة الاستغلال إلى محمد. وبناء على هذا السلوك الخائف الجبان اكتفى بتوجيه تهمة الاستغلال إلى الإسلام، وكأن الإسلام قد أوجد نفسه ولا صلة له بوحى إلهى أو نبى مرسل.

ثم ما هى الأدلة والبراهين التي ساقها الدكتور طه كَي ينفي أو يشكك في تاريخية وجود إبراهيم وإسماعيل وبنائهما للكعبة ؟

لا حجج ولا أدلة ولا براهين، فقط مجرد النقل البغاوى الأحمق الغبي عن بعض المستشرقين الذين ألّفوا عن الإسلام خرافات تنم عن جهل مثير للاشمئزاز، كما سنوضح في الصفحات التالية من هذا الكتاب.

ولو أورد الدكتور طه حسين أدلة يحاول بها إثبات صحة قوله، حتى ولو كانت خاطئة، لربما احترمناه، وقلنا اجتهد في بحثه ولم يصادفه التوفيق ويكفيه أنه حاول . لكن الدكتور، فيما يختص "باستغلال الإسلام للأسطورة "، لم يحاول . . اكتفى بالنقل.

هل عميت رؤاه، فيما يختص بهذه النقطة بالذات، مع أنه كان في عصره يعتبر من رواد التنوير؟!!

أفضل تعليق على مثل هذا الموقف رأي للإمام الشيخ محمد أبو زهرة، يقول: إن ما يتلقاه العلماء لا يُنْقض بمجرد الشك بل لا يرفض إلا بدليل يناهضه، وبينات تقاومه، ولا يقاوم بمجرد الشك وإلا ضاعت الحقائق، وضلت الأفهام، وظواهر الأحوال شاهد يؤخذ به، حتى يقوم الدليل على خلافه [١١٤].

- ٨ -

قريش

تولى إسماعيل أمر سدانة الكعبة، كما سبق وأشرنا . ماتت أمه هاجر وهى في التسعين من عمرها، وكان هو قد بلغ العشرين، فدفنها في "الحجْر "، وهو نفس المكان الذي دفن فيه إسماعيل بعد موته وقد بلغ المائة والثلاثين.

تزوج إسماعيل إحدى بنات قبيلة "جرهم "، التي استقرت إلى جوار ماء زمزم في حياة

114- الإمام محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين ، المجلد الأول ، ص ٥٣ .

هاجر ·ويقال إن إسماعيل تزوج رَعْلَة بنت مُضاض بن عمرو الجرهمى، وجرهم ابن قحطان وقحطان أبو اليمن كلها[١١٥]·

أنجبت الجرهمية لإسماعيل اثنى عشر ولدا. يقال إنهم آباء العرب المستعربة. رغم أن أمهم قحطانية أي من العرب العاربة ·هذا معناه أن أبناء إسماعيل ينتمون إلى مصر من جهة هاجر — جدتهم لأبيهم — وإلي العراق عن طريق خؤولتهم في جرهم · ويعتقد الدكتور هيكل: أنه كان لهذا التلاقح بين إسماعيل المصرى العبرى وبين هؤلاء العرب ما جعل ذريته على جانب من العزم وقوة البأس والجمع بين فضائل العرب والعبريين والمصريين [١١٦]·

جرهم :بعد موت إسماعيل خلفه على سدانة الكعبة ولده"نابت" يؤازره إخوته الأحد عشر، يشد من عضدهم جميعا أخوالهم من جرهم · وبالتدريج تنتقل السدانة من أبناء إسماعيل إلى أخوالهم الجرهميين · ويقال إن أول جرهمى تولي سدانة الكعبة هو الحارث بن مضاض ·

حوَّلت جرهم الكعبة من بيت لعبادة إله واحد لا شريك له ،كما دعا إبراهيم وإسماعيل. إلى بيت لعبادة الأوثان· ويبدو أن جرهم لم تعتنق دين إبراهيم، وظلت على الوثنية التي كانت تتبعها وهى في أرض اليمن، وكانت اليمن وثنية "تتعبد لثالوث من الكواكب هو اللات رمزا للشمس، و وَد رمزا للقمر، والعزى رمزا للزهرة"[١١٧] ·

تحولت الكعبة إلى مركز لعبادة الإله"هبل"،وبالتدريج انتشرت الأصنام حول الكعبة حتى بلغ عددها ثلاثمائة وستين صنما ،لكل قبيلة صنمها الذي يتواءم مع معتقداتها وخرافاتها·

ويقال إنه كان بداخل الكعبة تمثال لإبراهيم محاط بجمع من الملائكة والأنبياء[١١٨]·

حتى المسيحيين — كما يقول لينجز Lings — كانوا يحضرون لتوقير حرم إبراهيم. وكان يرحب بهم كما يرحب بالآخرين· وقد سمح لأحدهم — بل لقد شجع على أن يرسم صورة للعذراء مريم والمسيح الطفل على أحد جدران الكعبة، حيث كان التناقض يبدو واضحا بينها وبين بقية الصور [١١٩]·

كان أهل مكة يحبون أصنامهم ويوقرونها،معتقدين أنها ليست مجرد قطع منحوتة من

115- **سيرة ابن هشام** ، حـ ١ ، ص ٣ .

116- د . هيكل ، **حياة محمد** ، ص ٨٧ .

117- د . شوقي ضيف ، **محمد خاتم المرسلين** ، دار المعارف ، القاهرة ، ص ٥٤ .

118- Stubbe , p . 67.

119- Lings , P. 17 .

خشب أو حجر، لكنها "قدس أقداس" وأماكن سكن للآلهة والملائكة التي ترتجي شفاعتها عند "الله "عن طريق تقديم القرابين ٠ ٠ كانت الجمال والأغنام تذبح على مذابح من حجر. وتنثر دماؤها على المتعبدين الذين كانوا يعتقدون أنهم بهذه الطريقة قد أصبحوا على اتصال بالقوى الإلهية، كما أصبحوا إخوة في الدم، يربطهم رباط مقدس لا تنفصم عراه٠

ونعتقد أن أهل مكة كانوا من حين لحين يقدمون أضحيات بشرية كي يراق دمها على مذبح الآلهة ٠ويتضح هذا الأمر فيما بعد، عندما ينذر عبد المطلب أحد أبنائه قربانا، ويهم بالفعل بذبحه لولا تدخل قريش ومنعه من الإقدام على ما انتوي، وينتهي الأمر بذبح مائة ناقة يرَاق دمها على مذابح الآلهة بدلا من القربان البشرى٠

رغم ذلك فقد ظلت فيهم بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها، منها- كما يقول ابن إسحاق — تعظيم البيت والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف على عرفة والمزدلفة، وهدْى البُدْن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه، فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك، فيوحدون بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده[١٢٠]٠

خزاعة :ظلت سدانة الكعبة في "جرهم" لأجيال ازدهرت فيها أحوال مكة كمركز تجارى، وبدأ الجرهميون يألفون حياة الدعة والترف، لدرجة أن جفَّ ماء زمزم فلم يحفلوا، واقتربت منهم "خزاعة" — وهى قبيلة يمنية أخرى نزلت إلى جوار مكة وبدأت تتطلع إلى داخلها — فلم يأبهوا ٠ وحذرهم كبيرهم وهو عمرو بن مضاض بن الحارث فلم يكترثوا لتحذيره، فأيقن عندئذ أن حالهم إلى زوال، وأن بقاءهم في مكة قد قارب نهايته، لذلك فقد حفر في زمزم قدر المستطاع ودفن غزالتين من ذهب كانتا في الكعبة مع بعض الأموال وأهال فوقها الرمال،على أمل أن تكون له أو لقومه عونا في مستقبل الأيام٠ وحدث ما توقعه وما حذَّر منه قومه: تقدمت خزاعة إلى قلب مكة وأجبرتهم جميعا على الخروج٠

هكذا خرج عمرو بن مضاض مع قبيلته، مصطحبا معه بني إسماعيل وخلت مكة لخزاعة فتولت أمرها، ووليت سدانة البيت ٠ وقد أصبحت تلك السدانة ميراثا في أبنائها حتى وصل الأمر إلى قصى بن كلاب، الجد الخامس لمحمد بن عبد الله الذي يختار في مستقبل أيامه كي ينقل إلى أهل الأرض رسالة السماء٠

قُصىّ :يعتبر قصىّ بن كلاب من أشرف شخصيات مكة وأعظمها، فترة ما قبل الإسلام، حوالي عام ٤٠٠م٠كانت أمه فاطمة بنت سعد قد تزوجت من كلاب بن مرة بن

120- **سيرة ابن هشام** ، حـ ١ ، ص ٨٢ .

كعب بن لؤى، فولدت له زُهره و "قصيا" الذي سمي زيدا ٠ توفي كلاب بن مرة فتزوجت فاطمة من ربيعة بن حرام الذي احتملها إلى أرض الشام. وقد تركت وراءها ولدها زهرة بن كلاب لكبر سنه. وحملت معها زيدا وهو فطيم، فسمى لذلك "قصيا" لتقصيها به إلى الشام٠ وكبر قصىّ وهو لا يعرف لنفسه أبا غير ربيعة بن حرام. حتى عيَّره فتى من آل ربيعة يوما أنه دخيل عليهم ومن الأفضل له أن يلحق ببلده وقومه ٠ ومن أمه عرف الحقيقة ٠ قالت له : أنت والله يا بني أكرم منه نفسا ووالدا ونسبا وأشرف منزلا! أبوك كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ٠ ٠ وقومك بمكة عند البيت الحرام قال : فوالله لا أقيم هنا أبدا٠

عاد قصىّ إلى مكة ٠ ذهب إلى أخيه زهرة، وكان ما يزال على قيد الحياة ٠ قال له: أنا أخوك٠ كان زهرة قد فقد بصره٠

أقام قصىّ بمكة ٠ تزوج حُبَّي ابنة حُلَيْل بن حُبْشيَّة الخزاعي، وكان حليل هذا يلي أمر مكة وسدانة البيت، وقد قبل بقصي زوجا لابنته لما لمس فيه من طموح وكبرياء وأنفة ٠ وما لبث قصىّ أن أصبح علما في قومه: كثر ماله، وعم فضله، واشتهر بشجاعته ومروته، وكبر أولاده فأصبح في عزوة، وذاع صيته، واعترف الجميع بعلو هامته وشرفه٠

مات حُلَيْل، أبو زوجة قصىّ، ويقال إنه قبل موته أوصي بولاية البيت والقيام على أمر مكة لزوج ابنته، ذلك إيمانا منه بأن قصيا هو الأنسب والأفضل٠

ويقال أيضا إن الذي حجب" البيت" بعد حُلَيْل هو ابنه المحترش، وهو أبو غبشان الخزاعى، وكان سكيرا، فدعاه قصىّ وسقاه، ثم اشتري منه مفتاح "البيت "بزقِّ خمر٠

لكن هناك رواية أخري يروي أصحابها أنه : لمَّا هلك حُلَيْل ابن حُبْشيَّة، وانتشر ولد قصي، وكثر ماله، وعظم شرفه، رأي أنه أولي بالبيت وأمر مكة من خزاعة، فجمع من حوله بعض القبائل ٠ واستعان بأخيه لأمه رزاح بن ربيعة العذري فأتي بمن معه من إخوته وقومه، وكان عددهم حوالي ثلاثمائة رجل، نجحوا في إجلاء خزاعة ونفيها خارج مكة ٠ ٠وهكذا خُلِّيَ بين قصىّ وبين البيت وأمر مكة [١٢١].

قريش :ويقال إن قصىّ بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن النضر هو قريش على أرجح الروايات[١٢٢]، وكل من انضم إليه وعاش في كنفه أصبح قرشيا٠

ويرى بعض الإخباريين أن اسم قريش قد اُشتق من "التقرش"أى التجمع، ذلك لتجمعها

121- ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، حـ ١ ، ص ٦٩ .

122- د . عائشة عبد الرحمن ، **أم النبي** ، ص ٧٥ .

بعد تفرقهم . ويرجعون نسبها إلى النضر بن كنانة وهو الجد الثاني عشر للرسول عليه السلام . ويبدو أن هذه القبيلة خرجت مع جرهم حين أخرجتها قبيلة خزاعة . غير أنها لم تذهب بعيدا عن الحرم، بل ظلت عشائر من حوله متفرقة غير متجمعة إلى أن جمعها قصيّ بن كلاب . . ، لذلك سميت قريشا[١٢٣].

وجاء في **تاريخ الطبري**: سُميت قريش قريشا بقريش بن بدر بن يخلُد بن النَّضر بن كنانة . . وكان قريش هذا دليل بني النضر في أسفارهم وصاحب ميرتهم. وكان له ابن يسمى بدرا احتفر بدرا . . فبه سميت البئر التي تدعي بدر، بدرا.

وقيل : إنما سميت قريش قريشا بدابة تكون في البحر تأكل دوابَ البحر، تدعى القرش، فشبه بنو النضر بها، لأنها أعظم دواب البحر قوة.

وقيل: إن النضر بن كنانة كان يقرِّش عن حاجة الناس فيسدها بماله: والتقريش — فيما زعموا — التفتيش.

وقيل : إن النضر بن كنانة كان اسمه قريشا[١٢٤].

وإذا كان النضر بن كنانة هو قريش، فكل من كان من ولده فهو قرشي.

هناك من يرى أن اسم قريش اُشتق من "التقرش" والتقرش هو التجارة والاكتساب . وقيل سميت بذلك لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع، من قولهم فلان يتقرش المال: أي يجمعه.

تقدم بيتي كليلين Betty Kelen تفسيرا يعكس وجهة نظر بعض المستشرقين، عندما تقول: أطلق على قريش ذلك الاسم المشتق من سمك القرش المفترس، ذلك لأنهم كانوا يعيشون على ابتزاز ونهب الحجاج الذين كانوا يذهبون سنويا في أعداد غفيرة إلى مكة كي يطوفوا سبع مرات حول البيت كما فعل أبوهم آدم من قبل !!

وتورد بيتي كيلين مثلا تعتبره من أبشع أنواع الاستغلال وهو ما شرعه بعض القرشيين — الذين ادعوا أن "هبل" قد اختارهم لسدانة الكعبة — من أن الطواف حول الكعبة لابد وأن يكون في ثياب خاصة لا يمكن شراؤها إلا منهم، وبإمكان من يريد، أن يطوف بملابسه العادية . لكن بعد الطواف لابد وأن يتخلص منها، أي لا يضعها على جسده مرة ثانية. وكانت النتيجة أن أولئك الذين لم يكن باستطاعتهم شراء ملابس الطواف القرشية أو التخلص من ثيابهم بعد الطواف، هى أن يطوفوا عرايا حول بيت الله[١٢٥].

123- ـ . شوقي ضيف ، **محمد** ، ص ٥٥ .

124- **تاريخ الطبري** ، المجلد الأول ، ص ٥١١ .

125- Betty Kelen , p . 18.

هؤلاء المتشددون الذين أشارت إليهم بيتي كيلين هم الحُمْس، والحمس هم أهل الحرم المتشددين في دينهم. كما يزعمون ٠وقد ابتدعوا أشياءً لا صلة لها بدين إبراهيم. لكنهم أحلوها لأنفسهم واتخذوا منها شرعة ومنهاجا ٠ إنهم يتركون الوقوف بعرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها، وأن يفيضوا منها، لكنهم استثنوا أنفسهم. لأنهم كما قالوا. أهل الحرم ولا ينبغي عليهم أن يخرجوا منه أو يعظموا غيره ٠كما فرضوا على الحجاج والمعتمرين ألا يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الْحلِّ إلى الحرم، وهذا معناه أنهم لابد وأن يشتروا طعامهم من هؤلاء القرشيين المتقرِّشين٠

أما عن طواف العراة، الذي أشارت إليه بيتي كيلين وتحدث عنه ابن إسحاق، فقد كان نتيجة حتمية لمنهج الحمس في ابتزاز الحجاج الذين كان من المفروض عليهم ألا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس،فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة،فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة لم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه، ثم لم ينتفع بها،ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبدا[١٢٦]

قريش البطاح وقريش الظواهر: جمّع قصىّ بطون قريش كلها في وادي مكة فسموا قريش البطاح ٠وكان منهم عدد كبير من كبار التجار وأصحاب الثراء مثل: بني عبد مناف، وبني عبد الدار، وبني عبد العزى، وبني زهرة، وبني مخزوم، وبني تيم٠

لكن بعض أقارب قريش الأبعدون، مثل أمثال بني قعيص بن عامر بن لؤى، وبني تيم الأدرم بن غالب بن فهر، وبني محارب، وبني الحارث بن فهر، فقد أقاموا بظهر مكة، ولهذا أطلق عليهم أسم قريش الظواهر، لأنهم لم يهبطوا مع قصى إلى الأبطح٠

أقام قصى لنفسه دارا جعل بابها إلى الكعبة، سماها "دار الندوة"، وحذت قريش حذوه فبنت بيوتها حول الكعبة بذلك يمكن القول إن قصيا هو المؤسس الحقيقي لمكة، إذ حولها من مجرد خيام منصوبة حول الكعبة إلى مدينة حقيقية٠

كانت دار الندوة تعتبر دارا للحكم، فيها يجتمع قصىّ بكبار مكة وسادتها كي يناقشوا كل ما يجد من أمور ويتخذون ما يجب اتخاذه من قرارات، فلا نكاح ولا فراق ولا خروج لحرب أو تجارة إلا بقرار من دار الندوة، وكان قصىّ هو سيدها المطاع ٠

جمع قصىّ السلطة كلها في يده: الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة، ودانت له مكة كلها ٠وكان قصىّ هو الذي فرض على قريش السقاية والرفادة ٠يحكى أنه قال:

126- سيرة ابن هشام ، حـ ١ ، ص ٢١٩.

يـا معشـر قـريش إنكـم جـيران الله وأهـل بيته وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيفان الله وزوار بيـته ،وهم أحـق الضـيف بالكـرامة ،فاجعلوا لهـم طعامـا وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم ٠ ففعلـوا ٠فكـانوا يخـرجون ذلـك كـل عـام مـن أموالهم خرجا يترافدون ذلك فيدفعونه إليه فيصنع الطعام للناس أيام منى وبمكة ،ويصنع حياضا للماء فيسقي فيها بمكة ومنى وعرفة ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام،ثم جروا في الإسلام على ذلك [١٢٧]٠

لـما تقدمـت السـن بقصـيّ، خص ولده عبد الدار بكل ما كان له من سلطان، فأصبح عبد الـدار هـو المسـئول عـن دار الـندوة والحجابـة واللـواء والـرفادة والسـقاية ٠ ولقـد خـص قصـيّ عبد الدار بميراث سلطته ذلك لأن عبد الدار كان أكبر أبنائه ، أما عبد مناف فقد علا شـأنه في حياة أبيه وجل قدره، رغم أنه هو الأصغر٠ وبدا لقصيّ أنه بذلك قد أحدث توازنا في النفوذ بين الأخوين٠

بـنو عبد مناف وبنو عبد الدار: وقيل إن قصيا قسَّم مهام مكة بين ولده، فجعل السقاية والرياسـة لعـبد مـناف، ودار الـندوة لعـبد الـدار والـرفادة لعـبد العـزى، وحافـتى الـوادي لعبد قصي[١٢٨]٠

ويذكـر ابن إسحاق أن بني عبد مناف بن قصيّ، وهم عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل، أجمعـوا عـلى أن يـأخذوا مـا بـأيدي بـني عـبد الـدار بـن قصـيّ، من حجابة ولواء وسقاية ورفـادة، وقـد جعـلها قصيّ جميعا لولده عبد الدار ٠ كان بنو عبد مناف يعتقدون أنهم أولى بذلـك من بني عبد الدار لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم، فتفرقت عند ذلك كلمة قريش ٠ وعقد كل قوم على أمرهم حلفا٠

أخـرج بـنو عـبد مناف جَفْنَةَ مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم عند الكعبة ،ثم غمس القوم أيديهـم فـيها، فـتعاقدوا وتعـاهدوا، ثـم مسـحوا الكعـبة بأيهم توكيدا على أنفسهم، فسمُّوا المطيَّبين٠

وتعـاقد بـنو عـبد الـدار وتعـاهدوا وحلفـاؤهم عـند الكعـبة عـلى أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضـهم بعضـا، فسـموا الأحـلاف ٠وقـيل إنهـم أحضـروا معهم جفنة من دم غمسوا أيديهم فيها فسمُّوا لعقة الدم[١٢٩]٠

لكـنهم انـتهوا إلى الصـلح، عـلى أن يعطـوا بـني عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابـة واللـواء والـندوة لـبني عـبد الـدار كما كانت ففعلوا، ورضي كل واحد من الفريقين

127- ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، جـ١ ، ص ٧٣

128- د. السيد سالم ، ص ٣١٦ .

129- ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، جـ ١ ، ص ٧٧

بذلك، وتحاجز الناس عن الحرب ٠

والحجابة هي سدانة البيت الحرام، تكون مفاتيحه عند من يتولاها فلا يدخله أحد إلا بإذنه، **والسقاية** هي سقاية الحجاج، **والرفادة** هي إطعام الطعام أيام الحج لكل محتاج، **واللواء** يعني اللواء في الحرب وكان عبارة عن راية معقودة على رمح ينصب علامة على اجتماع الجيش للحرب. **والندوة** هي الإشراف على دار الندوة أي دار المشورة التي يجتمع فيها سادة قريش للرأي والمشورة٠

حلف الفُضُول :ولقد عقدت بعض قبائل قريش بعد ذلك حلفا أطلق عليه اسم: حلف الفضول ٠ ويروي ابن إسحاق أن قبائل من قريش تداعت إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جُدْعان ٠ ٠ لشرفه وسنة فكان حلفهم عنده: بنو هاشم وبنو المطلب، وأسد عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفُضُول[١٣٠]٠

يقول النبي عليه الصلاة والسلام إنه شهد حلف الفضول :" لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدْعان حلفا ما أحب لي به حُمُر النَّعَم ولو أُدْعى به في الإسلام لأجبت" ٠ كان محمد آنذاك، بالطبع، في صدر شبابه٠

هاشم :وُلِّي هاشم بن عبد مناف بن قصيّ السقاية والرفادة ٠كان كريما شريفا، ويقال إن اسمه كان عَمْرا وما سمي هاشما إلا لأنه كان يهشم الخبز لأهله بمكة، وهو أول من أطعم الحجاج الثريد، كان يثرد لهم الخبز واللحم،والخبز والسمن والسويق والتمر، ويجعل لهم الماء فيسقون بمنى ٠ ٠ إلى أن يصدروا من منى فتنقطع الضيافة ويتفرق الناس ٠

في إحدى رحلاته إلى الشام، مر هاشم على المدينة ونزل بأحد أسواقها، فاستوقف نظره واسترعى انتباهه منظر امرأة تبدو حازمة حاسمة وهي تأمر بما يشترى ويباع، وكانت على قدر من جمال ٠ سأل عنها، فعرف أنها كانت متزوجة من قبل، وكانت لشرفها في قومها تشترط على من يتزوجها أن يكون أمرها بيدها، حتى إذا لم تطب لها عشرته فارقته ٠ كان اسمها سلمى، وكانت من بني النجار ٠

خطبها هاشم فزوجته نفسها ودخل بها، وكان ثمرة هذا الزواج ميلاد عبد المطلب، الذي ولدته سلمى وفي رأسه شيبة فأطلقوا عليه اسم شيبة، ولم يطلق عليه اسم عبد المطلب

130- سيرة ابن هشام، حـ ١، ص ١٤٤- ١٤٥.

إلا بعد وصوله إلى مكة . وخرج هاشم بتجارته إلى الشام. وهناك مات في غزة . وعاد أصحابه بتركته إلى ولده.

عبد المطلب : ولى المطلب الرفادة والسقاية بعد أخيه هاشم. ويروي ابن إسحاق أن المطلب كان أصغر من أخويه : هاشم وعبد شمس [131].

لكن ابن سعد يورد خبرا ينص على أن المطلب بن عبد مناف بن قصيّ كان أكبر من هاشم ومن عبد شمس[132].

ولا نعرف أيهما نصدق أو أيهما على حق، فلا يوجد في المصادر ما يمكن الرجوع إليه للتحقق من صحة ما يقوله الإخباريون.

كان المطلب سيدا في قومه. شريفا كريما سمحا معطاءً، لذلك لقبوه بـ"الفَيْض" . وعلم "الفَيْض" أن ابن أخيه في يثرب قد استقام واشتد عوده وأصبح يتمتع بالكثير من الهيبة، هذا إلى جانب قوته وحسن وجهه وجاذبيته . لم يتوان المطلب عن الرحيل إلى يثرب ولقاء سلمى، طالبها بالفتى القرشيّ كي يعيش مع أهل أبيه ويكون له مالهم من مكانة وشرف وعزوة . رفضت سلمى أول الأمر، لكنها أسلمته لعمه بعد ثلاثة أيام، وقد أقنعها المطلب أن شيبة ولدها، وسيظل ولدها في أى مكان كان .

حمل المطلب ابن أخيه على بعيره، أردفه خلفه، دخل به مكة،ظن القرشيون أن المطلب اشترى عبدا. فأشاروا إلى شيبة قائلين :عبد المطلب . من يومها عرف شيبة بعبد المطلب، ومع مرور الوقت نسى أنه كان يوما يسمى شيبة . وظهرت في عبد المطلب كل صفات قومه من شجاعة وأنفة وشرف وكرم، فكسب من تقدير قومه ما هو جدير به.

خرج المطلب في تجارة له إلى أرض اليمن، فهلك هناك .وبعد أن وصلت أنباء موته تولى عبد المطلب السقاية والرفادة، وقد كانتا لأبيه هاشم قبل عمه المطلب . يقول ابن إسحاق إن عبد المطلب أقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم، وشرُفَ في قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم[133].

ولأن السقاية كانت أحد مهامه، أخذ عبد المطلب يبحث عن زمزم وقد سمع عنها من الحكايات الكثيرة لدرجة أن استحوذت على تفكيره وشغلت مخيلته وتبدت له في رؤاه . . تخيل أصواتا تهمس في أذنيه تطلب منه أن يحفر "طيْبة" فيسأل : وما طيْبة؟ ويعود الصوت للهمس : "أحفر برّه"، فيسأل : وما برّه؟ وثالثة يعود الصوت آمرا: "أحفر

131- سيرة ابن هشام ، حـ ١ ، ص ١٤٧ .
132- ابن سعد ، حـ ١ ، ص ٨١ .
133- سيرة ابن هشام ، حـ ١ ، ص ١٥٣ .

المضنونة ؟ فيسأل :وما المضنونة ؟ وأخيرا تتضح الصورة : "أحفر زمزم" ·وزمزم هى البئر التي بدأ فورانها مع مقدم هاجر وولدها إسماعيل، ولا يجهل اسمها قرشى في مكة·

بدأ عبد المطلب بحثه عن زمزم، وأصبحت بالنسبة له هدفا لابد من الوصول إليه · أمسك بالمعول وأخذ يضرب بطن الأرض يساعده في ذلك ولده الحارث، وكان في ذلك الوقت ولده الوحيد · واستمر في بحثه دون كلل أو ملل حتى وُفق في العثور عليها، وحفر ثلاثة أيام حتى أدرك الماء، فكبَّر · عندها أدركت قريش أنه وصل إلى مبتغاه·

ويقال إنه وجد بها غزالين من ذهب وسبعة أسياف وخمسة أدراع، تلك التي دفنتها جرهم في زمزم، قبل مغادرة مكة، على أمل العودة وتولى أمر البيت من جديد ·ويزعم بعض الإخباريين أن عبد المطلب ضرب الأسياف بابا للكعبة وضرب في الباب الغزالين من ذهب، وجعل المفتاح والقفل من ذهب ·ويقال إنه قد غدا عليه ثلاثة نفر من قريش فسرقوه· أما زمزم فقد أقامها لسقاية حجاج البيت، وكانت قريش قد حاولت أن تشاركه، لكنه رفض في قوة رغم تكاثرهم عليه، فما كان منهم إلا أن خلوا بينه وبين زمزم ·

يروي الرواة – فيما يروون — أن عبد المطلب، عندما تكاثرت عليه قريش بعد أن حفر زمزم ولقي منهم ما لقي وهو وحده لا يشد من أزره إلا الحارث ولده الوحيد، أقسم قسما ونذر نذرا : لئن ولد له من الأبناء عشرة وبلغوا معه مبلغ الرجال كي يكونوا له قوة ومنعة لينحرن أحدهم عند الكعبة ·

وكان عبد المطلب — كما يحكي الإخباريون — أحسن قريش وجها وأمدهم جسما وأحلمهم حلما وأجودهم كفا وأبعد الناس من كل موبقة تفسد الرجال، ولم يره ملك قط إلا أكرمه وشفعه · ومن النوادر التي تحكي عنه أنه كان إذا ورد اليمن نزل على عظيم من عظماء حِمْيَر، فقال له ذلك العظيم :يا عبد المطلب! هل لك أن تغير هذا البياض فتعود شابا ؟ قال ذاك إليك · فأُمِر به فخُضب بحناء، ثم عُلِّىَ بالوسِمَة · فقال له عبد المطلب: زودنا من هذا، ودخل عبد المطلب مكة ليلا، ثم خرج عليهم بالغداة كأن شعره حَلَك الغراب، فقالت له نُتَيْلة بنت جناب بن كليب أم ولده العباس: يا شيبة الحمد !! لو دام لك هذا كان حسنا!! [١٣٤].

أبرهة الأشرم :في حياة عبد المطلب، حاول أبرهة الأشرم، والي النجاشى على الحبشة أن يغزو مكة ويهدم الكعبة · ويدعي الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي أن أبرهة كان ملك الحبشة :جاء الوباء مع أبرهة ملك الحبشة الذي أراد أن يستولي على مكة ويهدم

134- ابن سعد ، حـ ١ ، ص ٨٦ – ٨٧ .

الكعبة[١٣٥]. وهذه خطأ .

لم يكن أبرهة ملك الحبشة . كان ملك الحبشة آنذاك هو النجاشي الذي بعث إلى اليمن بعدة آلاف من الجند، فيهم أبرهة، تحت إمرة "أرياط" الذي هزم "ذي نواس" ودخل اليمن فملكها، حتى نازعة أبرهة الحبشي في أمرها (عام ٥٢٥ م) . . واتفقا على حسم الأمر بالمبارزة .

رفع أرياط الحربة يريد يافوخ أبرهة، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وأنفه وعينه وشفته، فبذلك سُميّ أبرهة الأشرم . وانتهى الأمر عندما نجح "عتودة" غلام أبرهة في قتل أرياط . وغضب النجاشي غضبا شديدا على أبرهة، ثم استرضاه أبرهة فرضي عنه وولاه أمر اليمن .وهذا معناه أن أبرهة لم يكن ملك الحبشة — كما يدعي الشرقاوى — بل كان والي ملك الحبشة على اليمن .

ولكي يظهر أبرهة ولاءه العظيم لدين "الملك"، أي المسيحية، أقام كنيسة رائعة البنيان، يقال إنه لم يُر مثلها في زمانها، وزخرفها بالذهب والفضة والأحجار الثمينة، ونصب فيها صلبانا من ذهب وفضة ومنابر من عاج وآبنوس، ثم كتب إلى النجاشي — محاولا كسب وده والفوز برضاه — يقول :إني قد بنيت لك، أيها الملك، كنيسة لم يُبْن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى اصرف إليها حج العرب[١٣٦].

ويروي ابن سعد أن أبرهة بنى بيتا :عمله بالرخام الأبيض والأحمر والأصفر والأسود وحلاه بالذهب والفضة، وحفه بالجواهر وجعل له أبوابا عليها صفائح الذهب، ومسامير الذهب، وفصل بينها بالجوهر . . وجعل له حُجَّابا . . وأمر الناس فحجوه . فحجه كثير من العرب سنين، ومكث فيه رجال يتعبدون ويتألهون ونسكوا له[١٣٧].

رغم ذلك احتفظت الكعبة بمكانتها، ولم يتأثر القرشيون بما فعله أبرهة .ظلت مكة هى مركز الحج الأعظم، والكعبة هى قدس الأقداس ومجمع الآلهة.

عندها أقسم أبرهة أن لا يجعل في بناء الكعبة حجرا، على حجر وهذا معناه أن يدمرها تدميرا كاملا ويمحها محوا تاما كأنها من قبل لم تكن . وزاد تصميمه على هدمها بعد أن علم أن رجلا من "كنانة" من العرب الذين يحجون إلى الكعبة، قد دخل كنيسته ودنَّسها بأن أحدث فيها، أي قضى فيها حاجته. هنا — فيما يروي الرواة — اشتد غضب أبرهة، وأعد جيشا هائلا لا قبل للعرب بمثله . . وتقدم الأشرم جيشه معتليا ظهر فيل، وهو ما لم

135- عبد الرحمن الشرقاوي، **محمد رسول الحرية**، ص ٢١ .

136- **سيرة ابن هشام**، حـ ١، ص ٤٢ .

137- ابن سعد، حـ ١، ص ٩١ .

تألفه العرب من قبل ٠

يعتقد مونتجمري وُت أن هدف أبرهة من توجهه لهدم الكعبة لم يكن هدفا دينيا خالصا، كي يحوِّل حج العرب إلى البيت الذي بناه في الجنوب بدلا من التوجه إلى مكة ٠ كان هذا هدفا مزعوما كمنت وراءه عوامل اقتصادية واهتمامات تجارية ٠ ٠ من المحتمل أن أبرهة قد أزعجه ازدياد أهمية مكة التجارية ونجاح رجال المال فيها وقد كانوا يجنون أرباحا وفيرة من عملهم كوسطاء بين تجار الحبشة أنفسهم وبدو الجزيرة العربية ٠ ولم يغفل أبرهة الدور الجوهرى الذي تلعبه تلك البقعة المقدسة فيما يمكن تسميته بـ "النظام المكى" وعلى ذلك فلكي تنحط قوة مكة ويزول ثراؤها، فإنه كان لابد من تدمير معبدها ٠ ٠ أي تدمير الكعبة[١٣٨] ٠

حاول بعض العرب مقاومة أبرهة، فانهزموا. وضرب أبرهة خيام عسكره على حدود مكة، وخرج بعض رجاله فساقوا أموالا لأثرياء مكة وفيها إبل لعبد المطلب، يقال إنها بلغت مائتي بعير ٠

هنا تحكي بعض الحكايات المزركشة عن اللقاء الذي حدث بين أبرهة وعبد المطلب بن هاشم، وكيف اندهش أبرهة عندما طالبه عبد المطلب بالإبل، ولم يطالبه بأن يكف يده عن الكعبة بدعوى أن الإبل إبله هو أما البيت فله رب وعلى هذا الرب أن يحمي بيته٠

ويحكون أيضا عن سلوك الفيل ٠ ٠ ما فعله الفيل عندما صدر له الأمر بالتقدم لهدم الكعبة٠ يقال برك الفيل، كما تبرك الإبل ورفض أن يتحرك ٠ ٠ ضربوه فأبى ٠ ٠ حاولوا معه بكل طرق الإرغام فاستعصى عليهم ٠ كان في سلوك الفيل ما يشبه الإعجاز، ما قد يصل إلى حدود المعجزة، وكأن الفيل قد ألهم أن هذه هى أرض الله وعليه أن يخشع ويسجد، فخشع وبرك٠

ثم يحدث الإعجاز الأكبر ٠ ٠ الطير الأبابيل ٠ ٠ جاءت من جهة البحر، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره، حجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدا إلا هلك [١٣٩]٠

أصاب جيش أبرهة الوباء ٠ ٠ دمرهم الطاعون ٠ ٠ بدأت أطرافهم تتساقط وأجسادهم تتهاوى ٠ ٠ عربد الموت في جيش الطاغية الذي أصيب هو نفسه، فتقيح جسده

138- Montgomery Watt, **Muhammad at Mecca** , p. 13 .

139- سيرة ابن هشام ، حـ ١ ، ص ٥٣ .

وهو ينسحب بما تبقي له من جنود حتى وصل صنعاء ٠ ٠ وفي صنعاء مات ٠

ويقال — فيما يقال — إن الفيل الذي رفض أن يتحرك ضد الكعبة لم يصبه شئ ٠ ٠ الفيل نجا ٠ ويقال أيضا إن الفيل كان اسمه محمود ! !

أصبح عام الفيل هذا أول علامة بارزة في تاريخ مكة، وبه أرَّخ أهل مكة ٠ كان ذلك حوالي عام ٥٧٠ ميلادية ٠ونرى أن أهمية هذا العام لا ترجع كلية إلى غزوة أبرهة، أو إلى ما فعله الفيل، أو حتى "الطير الأبابيل"، فكم من جيوش أكبر وأعظم من جيش أبرهة اندحرت وهزمت ودمرها الوباء، ومرت أجيال وأجيال ولم يعد يذكرها أو يتذكرها أحد٠

لكن هذا العام بالذات ما نسيه أحد، ومن المستحيل أن ينساه أحد،لأنه في هذا العام ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم،الذي سيصبح في مستقبل أيامه **هو النبي**ﷺ٠

الفصل الثاني :
من الميلاد إلى الزواج

وما توفيقي إلا بالله
عليه توكلت وإليه أنيب

من الميلاد إلى الزواج

-١-
المختار ذبيحا

ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصيّ – كما يجمع المؤرخون – في عام الفيل، أى حوالي عام ٥٧٠ ميلادية . كان أبوه عبد الله واحدا من اثنى عشر ابنا أنجبهم عبد المطلب، هذا بالإضافة إلى ست بنات . ويحسن ذكر أسماء أعمام وعمات محمد – كما وردت في **الطبقات الكبرى** لابن سعد – ذلك لأن أسماء بعضهم وبعضهن قد تتكرر كثيرا فيما بعد .

أبناء عبد المطلب بالإضافة إلى عبد الله هم: الحارث، والزبير، وأبو طالب واسمه عبد مناف، وعبد الكعبة، وحمزة، والمقوّم، وحَجْلاً واسمه المغيرة، والعباس، وضرار، وقُثَم، وأبو لهب واسمه عبد العزى ويكنى أبا عتبة، كناّه عبد المطلب أبا لهب لحسنه وجماله، والغنداق واسمه مصعب.

أما أسماء بنات عبد المطلب، أي عمات محمد، فهى :أم حكيم وهى البيضاء، وعاتكة، وبرّه، وأميمة، وأروى، وصفية [1].

لكن ابن هشام يذكر أنه ولد لعبد المطلب عشرة نفر فقط وست نسوة . وهو لا يختلف مع ابن سعد في عدد النسوة وأسمائهن ،لكنه يختلف معه في عدد الذكور، فيذكر أنهم عشرة فقط لا اثني عشر، ويسقط من الأسماء التي ذكر ابن سعد اسمين هما: قُثم والغيداق.

ونحن نرجح رواية ابن سعد على رواية ابن هشام، ذلك لأنه لو كان لعبد المطلب عشرة فقط من الأبناء لأصبحت قصة النذر والفداء مجرد خرافة أو أكذوبة أو أسطورة من الأساطير التي تنسج في قصص يروى عن حياة بعض الأنبياء.

لو كان الأبناء عشرة فقط ما استطاع عبد المطلب أن يأخذ أبناءه إلى الكعبة كي يقوم بذبح أحدهم وفاءً لنذر قطعه على نفسه، ذلك لأنه في هذا التوقيت بالذات لم يكن حمزة قد ولد . حمزة وُلد بعد زواج عبد الله الذي اختير كى يكون هو الذبيح ، فكيف يكون عدد الأبناء في هذه الحالة عشرة ؟ وكيف يكون عبد الله بن عبد المطلب أصغر أبناء أبيه – كما يدعي ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق – وقد ولد بعده العباس وحمزة ؟

1- ابن سعد ، حـ ١ ، ص ٩٢ – ٩٣ .

ما ورد في ابن هشام لا يستقيم مع حكاية النذر والذبيح. وهي حكاية أشرنا إليها من قبل. يقول رواتها إن عبد المطلب بن هاشم بعد حفر زمزم. وما لاقاه من قريش وقد تكاثروا عليه لمشاركته فيها وليس له من الأبناء إلا ولد واحد نذر إن ولد له عشرة أبناء ثم بلغوا مبلغ الرجال حتى يمنعوه ليقدمن أحدهم قربانا على مذبح الآلهة عند الكعبة . فلما بلغ العدد عشرا جمع أولاده وأخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء فأطاعوه.

"ويزعم الرواة ،والله أعلم "، وهذا التعبير ليس من عندنا إنما استخدمه ابن إسحاق كي يبعد عن نفسه شبهة الكذب والافتراء . واستخدامه لكلمة "يزعم" هنا ،معناه أنه غير متأكد من صدق ما يروى.فقد يكون مجرد خيال جسدته في كلمات ألسنة الرواة، ويؤكد ابن إسحاق عدم علمه بقوله"والله أعلم " .

نعود إلى ما زعمه الرواة . . يزعمون أن عبد المطلب جمع أولاده العشرة ودخل بهم على كبير الآلهة "هبل " في جوف الكعبة .

ولنا أن نتخيل رهبة الموقف وخطورته وقدَرِيَّتَه ومأساويته : الأب الشيخ وقد ساق أولاده العشرة وهم يعلمون أن أحدهم لابد وأن يقدم قربانا على المذبح . . تزهق روحه ويسيل دمه . ولا يعترض منهم أحد . . رغم أن النذر المزعوم لم يكن بأمر مباشر أو غير مباشر من كبير الآلهة الحجرية ، ولا حتى بمجرد رؤيا أو حلم أو هاتف ليلى صادر من جوف أحد الأصنام "الآلهة" المحيطة بأستار الكعبة . . الشيخ هو الذي قال . . الشيخ هو نذر . . الشيخ هو الذي يمسك بالسكين الآن كي يريق دم أحد أبنائه . . فقط هو يريد من كبير الآلهة أن يتعطف عليه فيختار من يكون الذبيح.

هنا يبدو التناقض واضحا في سلوك الشيخ الجليل :إذا كانت الآلهة منذ البداية لا دخل لها بهذا النذر، بل إنها لم تطلبه، فلماذا ذهب الشيخ بأولاده إلى كبير الآلهة كي يتم الاختيار أمامه بقدرية ضرب القداح ؟

الشيخ نذر بإرادته الخالصة، دون أن يطلب منه ذلك، ولا دخل للآلهة في إرادته عندما نذر . وكان من الطبيعيّ، طبقا للمنطق، بما أنه نذر بإرادته الخالصة، أن يختار أيضا بإرادته الخالصة أي الأبناء يذبح، وينتهى الموضوع.

لكن الرواة "يزعمون"، وعندما يروي الزاعمون لابد وأن تكون للرواية بداية ، وعقدة يقف أمامها الجميع في حيرة ،ثم تحل العقدة كي تصل الرواية إلى النهاية.

قال عبد المطلب لأبنائه : ليأخذ كل رجل منكم قِدْحا، ثم **يكتب** فيه اسمه، ثم ائتوني، **ففعلوا** ثم أتوه، فدخل بهم على هبل في جوف الكعبة.

ويلاحظ هنا — مجرد ملحوظة — أن الشيخ طلب من أولاده العشرة أن **يكتبوا** أسماءهم، **ففعلوا** [٢]. هذا معناه أن أبناء عبد المطلب العشرة كانوا يعرفون القراءة والكتابة، أو على الأقل الكتابة رغم صعوبة تعلمها دون القراءة . التعبير شديد الوضوح شديد الصراحة: طلب منهم أن يكتبوا، ففعلوا . وإذا كان عبد المطلب قد علم أولاده القراءة والكتابة، أو على الأقل سمح لهم بتعلم القراءة والكتابة، فلماذا لم يعلم حفيده محمدا بن عبد الله القراءة والكتابة؟ وإذا كان أحد أحفاده المعروفين وهو على بن أبى طالب قد تعلم القراءة والكتابة، بدليل أنه هو الذي كان يكتب الكثير من خطابات " النبي" ومعاهداته فلماذا لم يتعلمهما حفيده محمد هو أيضا؟ يدعي البعض أن محمدا كان يقرأ ويكتب، وهذا ما ينفيه القرآن . وعندما ينفى القرآن أمرا فليس من حقنا أن نناقشه.

نعود إلى الرواة: كان هبل على بئر في جوف الكعبة — كانت تلك البئر هى التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة — وعند أقدام هبل كانت تضرب القداح . قال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بَنيَّ هؤلاء بقداحهم هذه، وأخبره بنذره الذي نذر.

أعطِ كل رجل منهم — أى كل ابن من أبناء عبد المطلب وقد بلغوا جميعا مبلغ الرجال— قدحه لصاحب القداح . ويقرر ابن إسحاق أن عبد الله كان أصغر أبناء أبيه.

هنا يكمن الخطأ الذي وقع فيه ابن إسحاق، إذ يقول — كما سبق وأشرنا — أن أبناء عبد المطلب عشرة من الذكور ويذكر من بينهم حمزة فإذا كان عبد الله هو الأصغر — كما يدعي ابن إسحاق — فهذا معناه أن حمزة كان أكبر من عبد الله . وهذا خطأ لأن حمزة لم يكن قد ولد بعد . لقد ولد حمزة من زواج عبد المطلب من فتاة من بني زهرة، تزوجها عبد المطلب في نفس الليلة التي زوَّج فيها ولده عبد الله، فكيف يكون عبد الله في هذه الحالة هو أصغر الأبناء ؟

تؤكد الدكتورة عائشة عبد الرحمن هذا الرأى عندما تقول : لا خلاف أن حمزة ولد بعد حادث الفداء، وكان تربا لمحمد ابن أخيه عبد الله . وفي الخبر أن عبد المطلب خطب لنفسه هالة الزهرية يوم خطب لابنه عبد الله آمنه بنت وهب . وهالة هى أم حمزة بن عبد المطلب [٣].

ويؤسفنا أن يقع ابن سعد في نفس الخطأ عندما يضع اسم حمزة بين الأسماء العشرة . يقول ابن سعد: فلما تكاملوا عشرة، فهم: الحارث والزبير وأبو طالب وعبد الله وحمزة

2- **سيرة ابن هشام** ، حـ١ ، ص ١٦٤ .
3- د .عائشة عبد الرحمن ، **أم النبي** ، ص ١٠ .

وأبـو لهـب والغـيداق والمقوّم وضرار والعباس. جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله به، فما اختلف عليه منهم أحد وقالوا : أوف بنذرك وافعل ما شئت[4].

وكمـا ذكـرنا لم يكـن حمزة قد ولد بعد ٠ ومن المؤسف أن الأغلبية من الكتاب المحدثين قد نقلوا عن ابن هشام وابن سعد دون أن يعملوا عقولهم ٠ ٠ اكتفوا بالنقل دون تفكير .

نعـود إلى ما يزعمه الرواة : قام عبد المطلب عند "هبل" يدعو الله ٠ هذا ما يقوله الرواة٠ ونحـن لا نعـرف لـماذا وقف عبد المطلب أمام "كبير الآلهة " الصخرية يدعو ويتضرع !! إن الآلهـة الحجرية لم تطلب منه أن يذبح ولدا من أولاده٠ ٠ لم تطلب منه حتى أن يذبح بقرة أو شاة أو مجرد دجاجة ٠ فلماذا يقف أمامها يدعو ويتضرع ؟

أثـناء اسـتغراق الشـيخ في دعائه وتضرعه ،أخذ صاحب القداح القداح وضرب بها فخرج القِدْح على عبد الله، أحب أبناء عبد المطلب إليه ٠ هنا يصل الرواة بالرواية إلى قمة الحبكة المأسـاوية: الطقـس الوثـني ، وكـبير الآلهـة ،والشيخ والسكين والقربان ٠ ٠ لابد وأن يذبح الشيخ ولده الحبيب٠

بالطـبع لم يتوقع أحد حدوث معجزة كتلك التي وقعت عندما همَّ إبراهيم بذبح إسماعيل ٠ ٠وكـان الفداء بكبش سمين ٠الآلهة الحجرية هنا لا تدرك ما الكباش وما غير الكباش٠ ٠ إنهـا لا تـدرك شـيئا عـلى وجـه الإطـلاق لأنها مجرد حجر عدمى قدسه عميان القلوب من قريش ومن غير قريش.

كـان لابـد مـن إيجـاد مخـرج، لأنه لو ذبح عبد الله ما وُلد محمد ولتغير وجه التاريخ ٠ تمامـا كمـا حـدث في "التوراة" حيث يقول المؤلفون إن إبراهيم أخذ إسحق ليذبحه، وإسحق هـو ابـن الوعـد الذي من سلالته يخرج دعاة وأنبياء وملوك ٠ ولو ذبح إسحق ما وُلد يعقوب الـذي هو إسرائيل، وما كان هناك بنو إسرائيل أو في مستقبل الأيام يهودية أو يهود ٠ لذلك كان لابد وأن ينجو إسحق ٠ وكانت قصة الفداء، كما ألفها كتبة "التوراة "، وكما شرحناها وعلقنا عليها في كتابنا **موسى في الأساطير الإسرائيلية**٠

بـإحدى يديـه أمسـك عـبد المطلب ولده عبد الله ،وبيده الأخرى حمل السكين ٠ ٠ قاد ولده الحبيب إلى ما بين "إساف" و " نائلة " ٠ ٠ كي يذبحه٠

هـنا يـبلغ الحـدث الدرامـى ذروتـه ٠ ٠ الإخـوة التسـعة يـنظرون إلى أخيهم ٠ ٠ أصغر الأبـناء وأحـبهم إلى أبـيه ٠ ٠ ربمـا كانـت نظراتهم كنظرات إخوة يوسف ٠ ٠ وربما انهمر

4- ابن سعد ، حـ ١ ، ص ٨٨ .

الدمع من عيونهم وتلاحقت الأنفاس وعم الكرب وارتفعت أصواتهم تتوسل إلى كبير آلهة الحجر كي يمنع وقوع البلاء.

لكن السؤال الذي لم يتبادر إلى ذهن الشيخ. وربما لم يرد له على بال، هو: لماذا أخذ ولده الحبيب كي يذبحه قربانا بين إساف ونائلة بالذات ؟ إساف ونائلة معبودان حجريان في صورة رجل وامرأة . وتحكي الأسطورة التي لا نعرف مصدرها، أنهما كانا رجلا يدعى إساف وامرأة تدعى نائلة، مارسا الدعارة داخل الكعبة، أى أن الرجل اعتلي المرأة داخل الكعبة وزني بها . . فكان عقابهما أن تحولا إلى تمثالين من حجر . وبمرور الوقت عَبَد القرشيون تمثال الزاني والزانية . ربما اعتبروهما إلها وإلهة للخصوبة والشهوة والحب . . وكلها محببة في جاهلية العرب.

لكن الفتى لم يذبح بين إساف ونائلة، ولا حتى عند أقدام "هبل" . . الفتى يجب ألا يذبح على وجه الإطلاق. .يجب أن يعيش . . أن يصبح قصة ترويها الأجيال . كيف؟

هنا يسمح الرواة للجمهور أن يتدخل،كي تحل عقدة الرواية . قامت قريش من أنديتها . . ارتفعت الأصوات: ماذا تريد يا عبد المطلب؟ . . وكأنهم لا يعرفون . قال في يأس مكدود: أذبحه !! صاحوا: لا، والله لا تذبحه أبدا !! كيف ؟؟ تساءل الشيخ المحزون، في حشرجة محمومة.

ويأتي الخلاص : هناك عرافة في يثرب، نتوجه إليها وننظر ماذا ترى . . فإن أشارت بذبحه، اذبحه وإن ارتأت أمرا فيه فرج ومنع للبلاء قبلته . والعرافة لها رئي (تابع من الجن)، هو الذي يلهمها بالقول الفصل فيما يعرض عليها من أمور.

هكذا أصبح مصير عبد الله معلقا بما ستقوله العرافة بعد أن يلهمها الجني . هذا معناه أن الراوي لا يكتفي بالبشر، بل يشرك الجن أيضا في صنع أحداث الرواية.

رحلوا إلى العرافة في يثرب، يقال إنهم وجدوها في خيبر . . قص عليها عبد المطلب خبره وخبر ولده والنذر الذي نذر . انتظر حكمها فيه، لكن العرافة رفضت أن تصدر الحكم في الحال . طلبت منهم أن ينتظروا يوما . . . تابعها الجنيّ غير موجود.

طال اليوم كأنه دهر . يقول الرواة إن عبد المطلب قضاه وهو "يدعو الله "أن يخرجه من المأزق الذي — بإرادته الخالصة — وضع نفسه فيه . ولا يحكى لنا الرواة كيف قضى" المختار ذبيحا" يومه . كان الأولى بهم أن يتحدثوا عن ذلك فهو أحق بالاهتمام، فيم كان يفكر، بِمَ كان يشعر، أي نوازع اعتملت في داخله، أي صرخات احتجاج كانت ترتج بها جوانحه ؟!!

هنا يصمت الرواة ٠ ٠ ربما لأنهم لا يعلمون ٠ ٠ وكما يقول ابن إسحاق : "الله أعلم"٠

تخرج العرافة على القوم، وقد جاءوها بعد انقضاء اليوم ٠ أبشروا ٠ ٠ لقد جاءها العفريت بالخبر ٠ سألتْ : كم الدية فيكم ؟ أجابوا : عشر من الإبل ٠ قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم فإن خرجت على الإبل فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم٠

هكذا تم حل عقدة الرواية، بعد أن حكم العفريت ونطقت بحكمه شفتى العرافة٠

كان يمكن حل هذه العقدة الصعبة دون اللجوء إلى عرافة أو عفريت ٠ وهذا ما فعله الراوي الذي أخذ عنه ابن سعد ٠ حل العقدة — كما يورده ابن سعد — يأتي عن طريق إحدى بنات عبد المطلب، أي من داخل الأسرة نفسها ٠ وهذا اتجاه متعقل في فن السرد إذ يظهر أن في هذه الأسرة من يستطيع وقت المحنة أن يفكر بتعقل وثبات: فبكى بنات عبد المطلب، وكن قياما، وقالت إحداهن لأبيها: أعْذِر فيه بأن تضرب في إبلك السوائم التي في الحرم ٠ فقال للسادن : اضرب عليه بالقداح وعلى عشر من الإبل ٠ وكانت الدية يومئذ عشرا من الإبل ، فخرج القدح على عبد الله ، فجعل يزيد عشرا عشرا، كل ذلك يخرج القدح على عبد الله حتى كملت المائة ،فضرب بالقداح فخرج على الإبل .

هنا هلّل الجمع، وكبرَّ عبد المطلب، وانطلقت الفرحة في أصوات النساء ٠ ٠ تم نحر الإبل المائة بين الصفا والمروة، بذلك أصبح عبد المطلب أول من سنَّ دية النفس مائة من الإبل، بعد أن كانت عشرا، فجرت في قريش والعرب٠

ويضيف الراوي : واحتمل بنات عبد المطلب أخاهن عبد الله [٥]، لكنه للأسف لا يوضح لنا الطريقة أو الكيفية التي احتمل بها بنات عبد المطلب أخاهن عبد الله، وقد بلغ مبلغ الرجال٠

يرى جونستون Johnstone أن حكاية النذر والذبيح لا تزيد عن كونها مجرد أسطورة مسلية ٠ أما لينجز Lings فيقدم أحداث القصة دون تعليق، إلا أن شخصية المنقذ في حكايته تختلف عن شخصية المنقذ في الحكايات الأخرى ٠ يقول لينجز: حان الوقت الذي كبر فيه أولاد عبد المطلب باستثناء عبد الله، بلغوا مبلغ الرجال وبدأ القسم الذي أقسمه عبد المطلب يسيطر على أفكاره ٠ كان فخورا بكل أولاده، لكن عبد الله كان أحبهم

5- ابز عد ، **الطبقات الكبر و** حـ ١ ، ص ٨٩ .

إليه ٠ ٠ ربما فضل "الرب" أيضا نفس الإبن، إذ منحه جمالا فائقا، وربما اختاره كي يكون هو الذبيح٠

عندما كبر عبد الله جمع عبد المطلب أبناءه العشرة وأخبرهم بما عاهد "الله " عليه ٠ ٠ عليهم أن يساعدوه في تحقيق قسمه ٠ ٠ لم يكن أمامهم إلا الموافقة ٠ ٠ إن قسم أبيهم هو قسمهم ٠ سألوه عما يجب أن يفعلوه ٠ طلب أن يضع كل منهم علامة على سهم ٠ ٠ حضر صاحب القداح إلى الكعبة ٠ ٠ أخرج كل منهم سهمه، ووقف عبد المطلب إلى جوار "هبل " وقد أمسك بسكين كبير ٠ ٠خرج سهم عبد الله فكان هو المختار كي يقدم قربانا٠

لكن فاطمة، أم عبد الله، كان من المستحيل أن تسمح لعبد المطلب بذبح ولدها٠ كانت من قبيلة مخزوم المشهود لها بالقوة في قريش كما كانت أم ثلاثة من أبناء عبد المطلب : الزبير وأبى طالب وعبد الله، وكذا أم خمسة من بناته٠

خرج عبد المطلب من باب الكعبة ٠ فإذا به يجد نفسه في مواجهة أم عبد الله ومعها أشداء قبيلة مخزوم ٠ وفي صوت مدو صاح المغيرة زعيم مخزوم : ما ذلك الذي تنوي أن تفعله يا عبد المطلب ؟ كانت الإجابة معروفة وواضحة ٠ لكن المغيرة صاح من جديد، في تصميم قاطع: لن تضحي به ٠ قدم فدية بدلا منه حتى ولو كانت كل ما يملك أبناء مخزوم[٦]٠

لكن الرواية، على أية حال، تصل إلى نهايتها السعيدة، سواء كان ذلك عن طريق العرافة والعفريت، أو عن طريق إحدى بنات عبد المطلب ٠ أو عن طريق أم عبد الله، الاختلاف فقط هو في أسلوب الحكي ٠ وفي أساليب المكر الفنى كل هذا مباح٠

-٢-

زواج عبد الله وموته

كان عبد الله بن عبد المطلب — فيما يحكي الرواة — فتى ممشوق العود، بهى الطلعة، في وجهه جمال يلفت الأنظار ٠ وبعد حدث القربان والفداء — أي المائة ناقة التي نحرت لا يرد عنها طير ولا إنسان — إزداد الافتتان بالفتى الوسيم ٠ اعترضته إحدى الجميلات عند الكعبة، وتحكي الحكايات أنها كانت من أجمل الجميلات ٠ سألته رائعة الجمال: إلى أين يا عبد الله؟ أجاب، مع أبى ٠ لكنها تعرض عليه عرضا شديد الإغراء شديد السخاء ٠ ٠ تعرض عليه جسدها ومالها بشرط أن يعتليها، أي ينكحها، في التو واللحظة ٠ تقول له —

6- Martin Lings , **Muhammad , his life based on the earliest sources**, Inner Traditions International Lat. ,Rochester , Vermont , U. S. A., 1983 , pp. 12 –13 .

كما تحكي الرواية التي يوردها ابن إسحاق : لك مثل الإبل التي نُحرت عنك وقَعْ علىّ الآن ٠ لكن الفتى، دون تردد، أعلن رفضه : أنا مع أبي، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه[٧]٠

ويزعمون — وهذه الكلمة نستعيرها من ابن إسحاق ٠٠ يزعمون أن المرأة كان اسمها رقية بنت نوفل من بني أسد بن عبد العزى بن قصىّ بن كلاب، وهى أخت ورقة بن نوفل ٠ ويقال إنما المرأة كانت فاطمة بنت مر، وهى أيضا من أجمل الجميلات، وكانت قد قرأت الكتب، أي كتب السابقين، ربما كتب اليهود والنصارى، فرأت نور النبوة في وجهه، فدعته إلى نفسها٠

هنا يبدأ أول ذكر لكلمة "النبوة" فيما يتصل برجل من بني هاشم، وربما من هنا أيضا يبدأ الإعداد لها٠

ولشدة فرحه بنجاة ولده، أخذ عبد المطلب بيد عبد الله وتوجه به إلى دار وهب بن عبد مناف سيد بني زهرة، كي يخطب ابنته آمنه لولده ٠ لقد قرر الشيخ أن يتزوج عبد الله في نفس اليوم الذي كان من المفترض أن يذبح فيه ٠ ٠ قفزة رائعة من حافة الموت إلى قلب أفراح الحياة٠

كان عبد الله في حوالي السابعة عشرة من عمره، وكانت آمنة تصغره بعامين ٠ ونستخلص مما يرويه ابن إسحاق أن عبد المطلب خطب آمنة من أبيها وهب الذي وافق في الحال: فخرج به عبد المطلب — أى بولده عبد الله — حتى أتي به وهْب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، وهو يومئذ سيد بني زهرة نسبا وشرفا، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب، وهى يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا[٨]٠

ويرى البعض أن ما يرويه ابن هشام، عن ابن إسحاق، كلام غير دقيق : كان من المستحيل أن يذهب عبد المطلب إلى وهب كي يخطب ابنته، لأن وهبا كان قد مات٠

يقول لينجز Lings : وقع الاختيار على آمنة بنت وهب حفيدة زهرة أخي قصىّ ٠ كان وهب زعيم زهرة، لكنه كان قد مات منذ عدة سنين وترك آمنة في وصاية أخيه وُهيب الذي خلفه في زعامة العشيرة ٠ وكان لوهيب نفسه إبنة في سن الزواج تدعى هالة ٠ وعندما خطب عبد المطلب آمنة زوجة لولده، طلب في نفس اللحظة " هالة" زوجة له ٠ وافق وُهيب ، وتم الإعداد لزواج الأب والإبن في نفس اليوم ٠ وكان عبد المطلب — رغم أنه

7- ابن هشام ، جـ١ ، ص ١٦٩ .
8- نفس المرجع السابق ،نفس الصفحة .

تجاوز السبعين — يبدو أصغر من سنه بكثير ، أما عبد الله فقد بدا في ذلك اليوم شديد الجمال ،كأنه هو يوسف عصره[٩].

من الواضح أن ليـنجز Lings قد أخذ عن ابن سعد، الذي يقول: كانت آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب في حجر عمها وُهيب بن عبد مناف بن زهرة، فمشى إليه عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بابنه عبد الله بن عبد المطلب أبي رسول الله، صلي الله عليه وسلم، فخطب عليه آمنة بنت وهب فزوجها عبد الله بن عبد المطلب، وخطب إليه عبد المطلب بن هاشم في مجلسه ذلك ابنته هالة بنت وهيب على نفسه فزوجه إياها، فكان تزوُّج عبد المطلب بن هاشم وتزوج عبد الله بن عبد المطلبَ في مجلس واحد، فولدت هالة بنت وهيب لعبد الله حمزة بن عبد المطلب. فكان حمزة عم رسول الله، في النسب وأخاه من الرضاعة [١٠].

هذا يكذب بكل تأكيد ما أورده بعض الرواة والكثرة التي أخذت عنهم — دون تحقيق — من أن حمزة كان بين الأبناء العشرة الذين أخذهم عبد المطلب إلى الكعبة كي يُختار من بينهم من سيقدم قربانا ٠ حمزة لم يكن قد وُلد بعد٠

دخل عبد الله على عروسه آمنة في الدار حيث تقيم، كما كانت عادة القوم آنذاك ٠ يقال إنه أقام عندها ثلاثة أيام، ثم ذهب إلى داره كي يجهزها بما يلزم لاستقبال العروس ٠ وفي قول آخر: ظلت آمنة في بيت أبيها حتى موت عبد الله ٠ كانت هذه إحدى عادات الحياة الجاهلية: أن تظل الزوجة في دار أهلها، ويعيش معها زوجها أو يتردد عليها من حين لحين٠

قد يتبادر إلى الذهن سؤال: لماذا تزوج عبد المطلب هو وولده من بني زهرة، ومن بني زهرة بالذات، وقد كان بين القوم من هم في منزلة بني زهرة مكانة وشرفا ومالا، وربما يزيدون؟

هناك نبوءة يوردها ابن سعد، ربما كانت هى الدافع الأقوى وراء هذا الاختيار ٠ ربما كانت حكاية من الحكايات التي نسجها الرواة كي يُعدوا الأذهان لموضوع النبوة، كما سبق وأشاروا إلى المرأة التي رأت علامات النبوة في وجه عبد الله٠

يقول ابن سعد نقلا عن الرواة : كان عبد المطلب إذا ورد اليمن نزل على عظيم من عظماء حِمْير، فنزل عليه مرة من المرّ فوجد عنده رجلا من أهل اليمن قد أُمهل له في العمر،

9- Lings , p. 17 .

10- ابن سعد ، حـ ١ ، ص ٩٥ .

وقد قرأ الكتب، فقال لعبد المطلب ! تأذن لي أن أفتش مكانا منك؟ قال : ليس كل مكان مني آذن في تفتيشه، قال إنما هو منخراك. قال فدونك ٠ ٠ فنظر إلى الشعر في منخريه. فقال : أرى نبوة وأرى ملكا، وأري أحدهما في بني زهرة، فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وُهيب وزوج ابنه عبد الله آمنة بنت وهب [11].

لو صدق هذا الكلام الذي أورده ابن سعد، إن لم يكن خرافة من خرافات الرواة، فإن هذا معناه أن عبد المطلب عندما سعى إلى بني زهرة لم يكن سعيه من أجل شرف النسب وعلو المكانة وبحبوحة العيش فقط، إنما كان الهدف الرئيسي الذي يسعى إليه هو الأمل في أن تتحقق نبوءة اليمني، ويحصل بنو عبد المطلب على ما أفصح عنه العراف : النبوة أو الملك ! !

تتكرر الإشارة إلى النبوة، يمهد بها الرواة إلى ما هو قادم ٠ وأغلب الظن أن هذه الحكايات تم نسجها بعد ظهور "النبي" ٠ يروى أحد الذين يحكون : خرج عبد الله من عند آمنة ٠ ٠ توجه إلى الكعبة، رأي في طريقه الجميلة التي عرضت عليه نفسها ومائة من الإبل مقابل ساعة يقضيها معها ٠ أقبل عليها، فلم تقبل عليه ٠ أخبرها — كما يحكي الرواة — أنه على استعداد لأن يفعل ما طلبته منه، لكنها في إباء وشمم رفضته ٠ اعترته الحيرة ٠ إنه هو هو عبد الله، لم يتغير منه شئ ٠ لكنه بالنسبة لها لم يكن هو هو عبد الله ولقد تغير فيه شئ ٠ سألها عن سبب إعراضها وهى التي اشتهته ٠ قالت أى شئ صنعت بعدي؟ قال : وقعت على زوجتي آمنة بنت وهب ٠ قالت : إني والله لست بصاحبة ريبة، ولكني **رأيت نور النبوة** في وجهك فأردت أن يكون ذلك فيَّ وأبى الله إلا أن يجعله حيث يكون ٠ ويقال إن المرأة قالت له : لا حاجة لي فيك، إنك مررت وبين عينيك نور ساطع إلى السماء فلما وقعت عليها [أي على آمنة] ذهب، فأخبرها أنها قد حملت خير أهل الأرض[12].

عاش عبد الله مع آمنة مدة لم يتفق الإخباريون على تحديدها، ربما ثلاثة أيام، ربما عشرة، أو ربما ثلاثة أشهر، لا أحد يعرف بصورة دقيقة قاطعة ٠ بعدها خرج مع قافلة لقريش متجهة إلى الشام ٠في طريق العودة تخلف عند أخوال أبيه من بني عدي بن النجار، فمكث عندهم ما يقرب من شهر وهو مريض، ثم وافته منيته فدفنوه في دار "النابغة"، وهو رجل من بني عدي بن النجار٠

11- نفس المرجع السابق ، ص ٨٦ .
12- نفس المرجع السابق ، ص ٩٦ – ٩٧ .

لم يترك عبد الله خلفه سوى خمسة "أجمال "و "قطعة غنم "وأم أيمن وهى أمة في مقتبل العمر اسمها"بركة" ٠ويقال إن آمنة كتبت شعرا ترثي زوجها عبد الله ٠ولم يعرف قط أن آمنة أم النبي كانت تقرأ الشِّعر أو تقرضه أو تنشده ٠ لعل هذا من تُرَّهَات الإخباريين٠

- ٣ -

ميلاد محمد ﷺ ونشأته

كانت آمنة حاملا ٠ مات زوجها وحملُها في بطنها٠

هنا يعود هزل الإخباريين وهو هزل سخيف لا قيمة له، ذلك لأنه يخلو من المصداقية ويتنافى مع الفكر الراجح والعقل السليم، ويجب أن يحذف من كتب التراث ٠ نضرب لذلك بعض الأمثلة: يحكي ابن سعد عن الرواة أن أم النبي قالت: قد **حملت الأولاد** فما حملتْ سخْلةٌ أثقل منه[١٣]٠

ما معنى هذا الكلام ؟ هل معناه أن آمنة قد تزوجت قبل عبد الله وأنجبت أبناء من رجل آخر وأن لمحمد إخوة من الأم، وربما أخوات، لا يدرى أحد عنهم شيئا ؟ أم يعنى أن آمنة عاشت مع عبد الله عدة سنين أنجبت خلالها "أولادا " قبل أن تنجب محمدا؟

الكلام باطل ٠ ٠ ممجوج ورخيص لأنه يتنافى مع واقع الحدث ٠ ٠ ولا نعرف لماذا تحشى به كتب التراث ٠ وينكر محمد بن عمر الأسلمى الرأي السابق بقوله : هذا مما لا يعرف عندنا ولا عند أهل العلم، لم تلد آمنة بنت وهب ولا عبد الله بن عبد المطلب غير رسول الله، صلي الله عليه وسلم[١٤]٠

ويقول ابن إسحاق إنهم "يزعمون "، وهو بالطبع لا يعرف من هؤلاء الذين يزعمون ،لأنه لا يذكر ما يدل عليهم٠ ٠ يزعم هؤلاء الذين لا ندري عنهم شيئا، ولا نعرف من هم، أن آمنة بنت وهب حين حملت، هتف بها من قال، ونحن أيضا لا نعرف من ذلك الذي هتف وقال، لكن كتب التراث تروي أنه هتف بها وقال : إنك قد حملت بسيِّد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي : أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، ثم سمِّه محمدا ٠ ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بُصْرى من أرض الشام[١٥]٠

13- نفس المرجع السابق ، ص ٩٨ .
14- ابن سعد ، حـ ١ ، ص ٩٨ .
15- ابن هشام ، حـ١ ، ص ١٧٠ .

هذا كلام لا ضرورة له لأنه لا يضيف شيئا ذا قيمة لحياة محمد ورسالته ٠ إن الدين الذي جاء به هو الحق الذي لا يحتاج إلى بهرجة كلمات أو تصوير هالات من هؤلاء الذين يزعمون٠

تاريخ الميلاد :ولد محمد في يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، عام الفيل، الموافق عام ٥٧٠م ٠ لكن هذا التاريخ غير متفق عليه بالإجماع فهناك من يقولون إن عام الفيل يوافق عام ٥٧١م ٠ يذكر الطبري أن عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ولد لأربع وعشرين مضت من سلطان كسري أنو شِروان، وولد رسول الله سنة اثنتين وأربعين من سلطانه ٠٠ ولد يوم الاثنين عام الفيل لاثنتي عشرة مضت من شهر ربيع الأول ٠٠ ويقال إن المنزل الذي ولد فيه قد جعلته "الخيزران " مسجدا يصلى فيه ٠ ويحدد محمد باشا المصرى (عالم فلك مشهور) تاريخ ميلاد محمد بيوم الاثنين التاسع من ربيع الأول في عام الفيل، الموافق ٢٠ إبريل عام٥٧١ م [١٦]٠

اختيار الاسم :حمل عبد المطلب حفيده إلى الكعبة في فرح ٠٠ ربما اشتم فيه رائحة ولده عبد الله الذي رحل قبل أن يولد ولده ٠٠ ربما تذكر نبوءة العراف اليمنى: نبوة وملك يرى إحداهما في بني زهرة ٠٠ ربما تراقص أمام عينيه تاج الملك٠٠ ربما تجلت أطياف النبوة ٠٠ ربما حلم بالملك والنبوة معا٠

سمىَّ الوليد محمدا٠ هذا معناه أنه كان يرنو إلى النبوة ٠ كيف ؟

يزعم الإخباريون ،فيما يزعمون وتمتلئ به كتب التراث، أن العرب كانت تسمع من أهل الكتاب ومن الكهان أن نبيا يبعث من العرب اسمه محمد، فسمى من بلغه ذلك من العرب ولده محمدا، طمعا في النبوة ٠ ولم لا يطمع فيها عبد المطلب ٠ وكلمات العراف محفورة في داخله؟!

يقال إن من تسمى في الجاهلية بمحمد رجاء أن تدركه النبوة هم: محمد بن خُزاعى بن حزابة من بني ذكوان من بني سُليم، ومحمد بن سفيان بن مجاشع وكان أسْقُفا، ومحمد الجشمى في بني سواءة، ومحمد الأسيِّديِّ، ومحمد الفُقيمي ٠٠ سموهم طمعا في النبوة [١٧]٠

لكن عبد الأحد داوود — قسيس أورميا في إيران سابقا — يكتب بحماس متقد وعاطفة متدفقة عن اختيار الاسم " محمد"، ويظهر من كتابته الحماسية أنه غير ملم بالأفكار التي

16- Abu Hasan Ali , p . 91 .

17- ابن سعد ، حـ ١ ، ص ١٦٩ .

كانت سائدة في شبه جزيرة العرب في تلك الآونة. كما أنه لا يعرف عن حياة "محمد" الكثير . يقول عبد الأحد داوود: لقد اختارت السيدة آمنة بنت وهب أرملة عبد الله بن عبد المطلب لولدها اليتيم أول " اسم علم" في تاريخ البشرية وهو "محمد " أو "أحمد" ،وهذا بحسب اعتقادي المتواضع أعظم معجزة لصالح الإسلام، إنها معجزة فريدة في تاريخ الأديان أن يطلق اسم محمد **لأول مرة** — من بين جميع البشر — على نجل عبد الله وآمنة . ولا يمكن أن تكون هناك حيلة أو زيف أو تزوير في ذلك لأن والديه وأقرباءه كانوا وثنيين لا يعلمون شيئا عن النبوءات في الكتب العبرية والمسيحية عن النبي العظيم . . إنَ اختيار عبد الله [؟] وآمنة لاسم "محمد" أو "أحمد " لا يمكن تفسيره بأنه كان مصادفة أو حدثا عارضا . لقد كان الأمر بلا ريب إعجازا يتعلق بالإلهام الإلهي[١٨].

ومن الواضح أن عبد الأحد داوود يملك الحماس، لكنه لا يملك المعرفة.

تنقل د. عائشة عبد الرحمن عن " السهيلي" قوله : لا يعرف من العرب من تسمى بهذا الاسم قبله(ص) إلا ثلاثة، طمع آباؤهم — حين سمعوا بذكر محمد وبقرب زمانه، وأنه يبعث في الحجاز — أن يكون ولدا لهم . . وهم: محمد بن سفيان بن مجاشع — جد الفرزدق الشاعر — ومحمد بن أحيحة بن الجلاح، ومحمد بن حمران بن ربيعة . وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك، وكان عنده علم من الكتاب الأول، فأخبرهم بمبعث النبي وباسمه، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا، فنذر إن ولد له ذكر أن يسميه محمدا [١٩].

يدعي البعض — كما ورد في السيرة الحلبية — أن عبد المطلب أطلق على المولود اسم " قُثم"، بمعنى "مَجْمع الخير"، على اسم عم له كان قد مات، لكن آمنة طلبت من عبد المطلب أن يغير الاسم إلى "محمد" ،لأنها أُخبرت في المنام أن هذا هو اسمه . ويعتقد الأستاذ العشماوى أن ذلك قد دعى بعض المستشرقين من كتاب السيرة النبوية إلى الزعم بأن اسم محمد كان اسما نبويا، أي اتخذه النبي لنفسه عندما بدأ رسالته: غير أن المستفاد مما سلف أنه إذا كان عبد المطلب قد سمى النبي حقا باسم" قُثم "، فقد عاد وسماه "محمدا" كطلب أمه إما لأنها أُخبرت بذلك في المنام، وإما لأنها أمَّلت أن يكون هو النبي المنتظر، فكان[٢٠].

18- عبد لأحد داوود (قسيس أورميا في إيران سابقا) ،**محمد ،كما ورد في كتاب اليهود والنصارى** ،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة، الطبعة الثانية ،١٩٩٦ ، ترجمة محمد فاروق الزين ، ص ٢٦ .

19- د .عائشة عبد الرحمن ، **أم النبي** ، ص ١٦٦ – ١٦٧ .

20- العشماوي ، ص ٧٣ .

أقاويل عن ما صاحب الميلاد: مع مولد محمد، يروى الرواة مجموعة من الحكايات التي لا يمكن التثبت من صحتها والتي يعتبرها بعض المؤرخين – في الغرب على وجه الخصوص – مجرد أساطير ٠ نورد بعض الأمثلة ٠ وهى قليل من كثير :

– قيل إن آمنة بنت وهب بدا لها كأن جمعا من النساء يحطن بمضجعها ويحنون عليها٠٠ كن أطياف نساء من بينهن مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وهاجر أم إسماعيل[٢١]٠ وأنه قد خرج منها نور أضاء قصور بُصرى من أرضى الشام٠

– وقيل إن عبد المطلب كان قد أنبئ بالمستقبل العظيم الذي ينتظر حفيده، فقد تنبأ كاهن أن أحد سلالة عبد المطلب سوف يحكم العالم، كما أنه حلم حلما ذات ليلة رأي فيه شجرة تخرج من ظهر الطفل تصل قمتها إلى السماء وتمتد فروعها شرقا وغربا، وخرج منها ضوء عبده الفرس، الذين قبلوا الإسلام فيما بعد[٢٢]٠

– ويزعمون أن يهوديا صرخ بأعلى صوته على أُطُمه بيثرب ليلة ميلاد محمد ٠ ٠ صرخ يقول: يا معشر يهود ٠ حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويْلَكَ مالَكَ!! قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به[٢٣]٠

– وقيل إن الأصنام خرَّت، وتزايلت عن أماكنها، وتمايلت على وجوهها، لأنه جاء هادمها٠

– وقيل إن إيوان كسري ارتجس (انصدع) ليلة مولد النبي وسقطت منه أربع عشرة غرفة، وخمدت نيران فارس التي يعبدها المجوس، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة [٢٤]٠

– وقيل إن راهبا نصرانيا تنبأ لزيد بن عمرو بمقدم نبي عربي وقد أصبحت تلك النبوءة موثيقة متكررة عن حياة محمد في المجتمع الإسلامي ٠ وقيل أيضا أن حاخاما يهوديا شديد الورع هاجر من سوريا إلى يثرب، وحينما سأله الناس عن السبب الذي من أجله ترك ذلك البلد الخصيب اللطيف إلى أرض الصعاب والجوع، أجاب بأنه يرغب أن يكون موجودا في الحجاز عند وصول "النبي "، ثم قال لقبائل يثرب اليهودية : لا تتركوا أحدا يصل إليه قبلكم أيها اليهود ٠ إنه سيبعث ليسيل دماء ويأسر نساء وأطفال الذين يعارضونه، لكن لا تدعوا ذلك يثنيكم عنه[٢٥]٠

21- د .عائشة عبد الرحمن ، ص ١٦٤.
22- كارين أرمسترونج ، ص ١١٨ .
23- ابن هشام ، حـ١ ، ص ١٧١.
24- أبو زهرة ، حـ ١ ، ص ١٠٤ – ١٠٥ .
25- كارين أرمسترونج ، ص ١١٤ - ١١٥ .

هذه الحكايات — وأمثالها — التي تمتلئ بها كتب التراث، عن أحداث تفوق طاقة البشر، وعن نور وهالات وأطياف ورؤى ونبوءات، لا تضيف شيئا لشخصية محمد "النبي"، فما تعلق هو نفسه يوما بوهم هذه الحكايات، وما أشار إليها، وما ذكرها كجزء من فكره وعقيدته وهو يدعو إلى الله، كما أنها لا تتصل مطلقا بجوهر الدعوة التي بعث من أجلها والرسالة التي كلف بها.

ويمكن النظر إلى بعضها — كما تقول كارين أرمسترونج — على أنها ردود أفعال تخيلية من قبل الناس لطبيعة نبوته، كما يُنظر إليها على أنها تأكيد ليقين المسلمين أنه هو من تاقت إليه الأمم وترقب الجميع من اليهود والمسيحيين مقدمه.

تنقل بنت الشاطئ عن "بودلي" — الذي تصفه بأنه من أكثر المستشرقين إنصافا وإعجابا بالرسول — رفضه للرؤى والأحلام والنبوءات وما قيل عن معجزات صاحبت مولد محمد، فهو يعتقد أنه : لا توجد أسرار تحيط بمولد النبي، إذا استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل : فما كان هناك بشائر على أنه المصطفى من الله، ولا زارت الملائكة أمه قبل مولده، ولا بشرتها بقدومه . . إنما حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثي وتضع[٢٦].

ويقول الدكتور طه حسين إنه حتى الشعر تم انتحاله لتأكيد ما تم حكيه من روايات: وكان هذا الانتحال في بعض أطواره يقصد به إلى إثبات صحة النبوة وصدق النبي، وكان هذا النوع موجها إلى عامة الناس، وأنت تستطيع أن تحمل على هذا كل ما يُروى من هذا الشعر الذي قيل في الجاهلية ممهدا لبعثة النبي وكل ما يتصل به من هذه الأخبار والأساطير التي تُروى لتقنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم وأحبار اليهود ورهبان النصارى كانوا ينتظرون بعثة نبي عربي يخرج من قريش أو من مكة . وفي سيرة ابن هشام وغيرها . . ضروب كثيرة من هذا النوع[٢٧].

لقد أوضحنا من قبل أن ابن إسحق قد عبر عن عدم تصديقه لبعض هذه الروايات، خصوصا عندما كان يبدأ كلامه بقوله : "ويزعمون" و "الله أعلم"، لكنه لم يبد رأيه في أكثرها سواء كان ذلك تصديقا أو تكذيبا.

ونختتم تحليلنا لهذه النقطة بما قاله الإمام محمد أبو زهرة، وهو كلام يتسم بالمعقولية والمنطق: نحن نرجح صدقها، ولا نلزم الناس بالإيمان بها، فليس من الإيمان أن تؤمن بأن إيوان كسري ارتجف، ولا النار خمدت، ولا أن الوجود قد استنار عندما شرف

26- د .عائشة عبد الرحمن ، ص ١٤٧ .

27- د. طه حسين ، **في الشعر الجاهلي** ، ص ٦٩ .

هـذا الوجـود، لأن هـذه الأمـور ليست جزءا مما دعى النبي إلى الإيمان به، إذ أن ما يجب الإيمـان بـه هـو مـا دعـا إليـه، ومـا تكـلم بـه عن الله سبحانه وتعالي، وما نطق به القرآن الكريم، وحكم به الديان[٢٨].

الرضـاعة :يقال إن آمنة، أم محمد، أرضعته عدة أيام، بعدها لم تجد ما ترضعه، ربما جـف اللـبن في صدرها حزنا على زوجها ٠ لذا فقد دفعت به إلى ثُوَيْبة،مولاة أبى لهب كي ترضـعه،وكانت قـد أرضـعت من قبل حمزة بن عبد المطلب بلبن ابن لها يقال له"مسروح"، ثـم أرضـعت بعد ذلك أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وبذلك أصبح هؤلاء الثلاثة: محمد وحمزة وأبا سَلمة، إخوة من الرضاعة٠

يروي الإخباريون أن أبا لهب أعتق ثُوَيْبة الأسلمية عندما بشرته بميلاد ابن أخيه ٠ هذا يعـبر عـن فـرحه وترحيـبه بالقـادم الجديـد، وربما وجد في المولود عوضا عن أخيه عبد الله الـذي لم يمهلـه القدر كي يرى ولده ٠ ومن المتناقضات المروعة في حياة أبى لهب هذا الفرح الكبير بمحمد وهو طفل رضيع،ثم العداء القاتل لمحمد بعد أن كلف بتبليغ رسالة الله٠

حظيـت ثُوَيْـبة في مسـتقبل أيامهـا برعاية محمد وخديجة،كانت خديجة تكرمها،وكان الـنبي يصـلها ٠حـتى بعـد الهجـرة،كان النبي يبعث إليها بصلة وكسوة إلى أن توفيت سنة سبع من الهجرة ٠ وسأل النبي عن ولدها"مسروح" فقيل له مات،ولم يبق من قرابتها أحد٠

أمـا أبـو لهـب الـذي أعـتق ثويـبة فـرحا، ثـم حاول بعد أربعين عاما تدمير محمد كمدا وغـيظا، فـتحكى عـنه حكايـة ضـمن مـا يحكـى مـن عشـرات الحكايـات ٠ يقـال إن العـباس بـن عـبد المطلـب رأى أخـاه "أبا لهب" بعد موته، فسأله : ماذا لقيت ؟ أي كيف حـالك بعـد الموت ٠ وأجاب أبو لهب : في النار ٠ لم نذُق من بعدكم رخاء ٠ إلا أن العذاب يخفـف عـنه كـل يوم اثنين بماء يمصه من بين أصبعيه، ذلك لأنه أعتق ثويبة عندما بشرته بمولد محمد٠

بالطـبع لا أحـد يعـرف كـيف رأى العباس أخاه أبا لهب وهو في جهنم أو كيف تحدث إلـيه ٠ ربمـا كانـت رؤيـا، ربما كان حلما، ربما كانت قصة اخترعها أحد الأتقياء، موعظة يلقيها هنا وهناك، يُعلِّم بها الناس درسا في الخير والشر وما يتبع ذلك من ثواب أو عقاب٠

حليمه: كـان لابـد وأن تـتولى أمـر محمـد إحـدى المراضع، كانت هذه إحدى عادات أشراف قريش: مرضعة من البادية تأخذ الرضيع ليعيش معها في جو نقي نظيف، بعيدا عن جو الحضر الذي تلوثه الأوبئة والأمراض بعض الأحيان،إن لم يكن أغلبها ٠ كما أنهم كانوا

28- الإمام محمد أبو زهرة، حـ١ ، ص ١٠٦ .

يعتقدون أنه بين الأعراب ينشأ الطفل أفصح لسانا وأجلد جسدا . إلى جانب هذا كان من الواضح أن الحالة الصحية لآمنة لم تكن لتمكنها من إرضاع الطفل ورعايته، وقد صدمت في بداية حياتها بموت زوجها الذي هو دعامة حياتها ومستقبل أيامها.

جاءت المراضع من بني سعد بن بكر بحثا عن أطفال من أسر ثرية . عرض محمد عليهن فأعرضن عنه . لم يكن أبوه قد ترك له الكثير . قلن يتيم !! وما عسى أن تصنع أمه وجده؟

وجدت كل مرضعة بغيتها في رضيع اختارته، إلا واحدة، امرأة من بني سعد يقال لها حليمة بنت عبد الله بن الحارث، وكان معها زوجها الحارث بن عبد العزى . . ابن هوازن ويكنى أبا ذؤيب، وكان لهما من الولد عبد الله وأنَيْسه وخِذامة وهي الشيماء، غلب ذلك على اسمها فلا تعرف إلا به، وقد أصبحوا بعد ذلك إخوة النبي من الرضاعة.

لم تجد حليمة من أطفال الأثرياء من ترضعه، وعز عليها أن تعود خالية الوفاض بلا رضيع . قالت لزوجها، وكان في صحبتها: ما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعا.. والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم- فلآخذنه.

إلى هنا والحكاية طبيعية ومنطقية وتخلو من المبالغات: حليمة تعود إلى أم الطفل وتأخذه، وما حملها على ذلك إلا أنها لم تجد غيره . ولابد أن ينالها من وراء ذلك خير حتى ولو كان أقل القليل، فبعض الشيء أفضل من لا شئ.

عادت حليمة بالرضيع اليتيم إلى رحلها، ألقمته ثديها، شرب حتى رَوِى، ثم رضع من بعده ابنها عبد الله، فشرب هو أيضا حتى رَوِى . ونام الطفلان وقد شبعا ريًّا . وباتوا جميعا ليلتهم بخير . وفي الصباح قال الحارث لزوجته وهو يتأمل وجه محمد: تعلَّمي والله يا حليمة لقد أخذت نَسَمَة مباركة . ومن هنا تبدأ حكايات جديدة لا تخلو من بعض المبالغات.

أتان (أنثى الحمار) حليمة التي حملته عليها أصبحت شديدة القوة، شديدة السرعة ما يقدر عليها شئ من حُمُر صواحبها لدرجة أن بعضهن صحن بها : يا ابنة أبى ذؤيب، ويحك !! أربعي علينا — أي أقيمي وانتظري — أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فترد عليهن : بلى، والله، إنها لهي هي، فيقلن : والله إن لها لشأنا . . سألْنها في دهشة : يا حليمة ما صنعت ؟ قالت : أخذت والله خير مولود رأيته قط

وأعظمهم بركة . قالت النسوة : أهو ابن عبد المطلب ؟ قالت: نعم . بعدها قالت حليمة: فما رحلنا من منزلنا ذلك حتى رأيت الحسد من بعض نسائنا.

وصلت حليمة ومن معها منزلها من بلاد بني سعد. وهى أرض تصفها حليمة بأنها جدباء، ما علمت أرضا من أرض الله أشد منها جدبا . لكن في هذه الأرض الجدباء كانت غنمها تروح للرعى ثم تعود وقد شبعت وامتلأت أضرعها لبنا، وكان نادرا ما يحدث ذلك، فتحلب وتشرب هى وأهل بيتها، في الوقت الذي لا يجد فيه غيرها قطرة لبن في ضرع، لدرجة أن الناس في اندهاشهم كانوا يصيحون برعيانهم : ويلكم !! اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب . ورغم ذلك تروح أغنامهم جياعا ما تنبض بقطرة لبن، وتروح غنم حليمة شباعا لُبَّنا[29].

كانت حليمة تعتقد أن هذا الخير الذي حل بها ما هو إلا من بركة يتيم مكة، ولذلك فإنها عندما عادت به إلى أمه وقد بلغ من السن عامين، كانت أحرص ما تكون على أن تعود به ثانية إلى ديارها.

رأت آمنة ولدها، ابن عبد الله حبيبها، فاحتضنته . ما أرادت فراقه ثانية، لابد وأن يعيش معها تعنى به وترعاه، حتى يصل قدرها وقدره إلى منتهاه . من يدرى، ربما تفسر الأحلام وتتحقق الرؤى، ويصبح ولدها — كما تتمنى — عظيم مكة.

لكن حليمة أثارت بعض مخاوفها، ذلك لأنها لا تريد العودة إلا وهو في صحبتها : الوباء قد يحل بمكة وتصبح حياة وحيدها في خطر . وتخيلت الأم صورة زوجها الذي انتزعه منها الموت، قالت : ارجعي به . ثم أضافت وهى تتأمل صغيرها: والله ليكونن له شأن!!

حكاية شق الصدر : رجعت به حليمة إلى حيت كان . وما هى إلا أشهر حتى تحكى حكاية جديدة تحتاج ممن يصدقها إلى إيمان كامل بالمعجزات : خرج محمد مع أخيه في الرضاعة يرعى خلف البيوت غنمات .فجأة عاد الأخ يلهث وفي عينيه بريق فزع واندهاش. قال لأمه وأبيه : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه (أي يحركان ما في بطنه).

قالت حليمة: فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما ممتقعا وجهه . قالت فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا: مالك يا بني ؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئا لا أدرى ما هو، قالت : فرجعنا إلى خبائنا، قالت: وقال لى أبوه: يا حليمة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقيه بأهله قبل

29- ابن هشام ، حـ١ ، ص ١٧٥ .

أن يظهر ذلك به ٠ قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فقالت : ما أقدمك به وقد كنت حريصة عليه وعلى مُكثه عندك؟ قلت : ٠ ٠ تخوفنا الأحداث عليه. فأدّيته عليك كما تحبين، قالت: ما هذا شأنك فأصدقيني خبرك ٠ وأخبرتها حليمة بما حدث ٠ قالت آمنة: أفتخوّفْت عليه الشيطان ؟ قالت : نعم ٠ قالت : كلا!! والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لِبُنَّى لشأنا ٠ ٠ دعيه عنك وانطلقي راشدة [٣٠].

يروى ابن سعد حكاية شق الصدر هذه، لكن بطريقة أخرى ٠ تقول الحكاية التي يوردها ابن سعد : كان محمد يلعب مع الصبيان فأتاه آت فأخذه فشق بطنه فاستخرج منه علقة فرمى بها وقال: هذا نصيب الشيطان منك ٠ ثم غسله في طست من ذهب من ماء زمزم ثم لأمَه، فأقبل الصبيان إلى ظئره : قتل محمد ! قتل محمد !٠ ٠ قال أنس : فلقد كنا نرى أثر المخْيَط في صدره [٣١].

يزعم بعض الرواة، كما يقول ابن إسحاق، أن حدثا آخر – بالإضافة إلى الحدث السابق دفع حليمة دفعا كي تسرع بالطفل إلى أمه ٠ يزعمون :أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه مع حليمة حين رجعت به بعد فطامه، فنظروا إليه وسألوها عنه، وقلّبوه، ثم قالوا لها : لنأخذن هذا الغلام فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا، فإن هذا غلام كائن له شان، نحن نعرف أمره ٠ ويضيف ابن إسحاق: فزعم الذي حدثني أنها لم تكد تنْفلِت به منهم حتى أرسلته إلى أمه[٣٢].

ويحكي الحكاؤون حكاية ثالثة: انطلقت حليمة بالصبي إلى سوق عكاظ حتى تأتي إلى عراف من هُذَيْل يُريه الناس صبيانهم، فلما نظر إليه صاح: يا معشر هذيل !يا معشر العرب !فاجتمع إليه الناس من أهل الموسم، فقال: اقتلوا هذا الصبي !وانسلت به حليمة، فجعل الناس يقولون: أي صبي؟ فيقول هذا الصبي! ولا يرون شيئا ٠ قد انطلقت به أمه ٠ فيقال له: ما هو ؟ قال :رأيت غلاما، وآلِهَتِه ليقتلن أهل دينكم، وليكسرن آلهتكم، وليظهرن أمره عليكم،فطُلب بعكاظ فلم يوجد ٠ ورجعت به حليمة إلى منزلها ٠ ٠وظل الشيخ الهُذلى يصيح: يا لهذيل! وآلهته إن هذا لينتظر أمرا من السماء [٣٣].

حكاية الشيخ الهُذلى – في رأينا – هى مجرد هزل يجب ألا نلتفت إليه ٠ وأغلب الظن أن الحكائين سمعوا عن أمر فرعون بقتل كل من يولد من أبناء العبرانيين وكيف نجا

30- ابن هشام ، حـ١ ، ص ١٧٦ –١٧٧ .
31- ابن سعد ، حـ ١ ، ص ١٥٠ – ١٥١ .
32- ابن هشام ، حـ١ ، ص ١٧٩ .
33- ابن سعد ، حـ ١ ، ص ١٥١ – ١٥٢ .

موسى من القتل، وربما سمعوا أيضا عن محاولة البحث عن المسيح لقتله وهو طفل، فقالوا لِمَ لا يكون للنبي هو أيضا قصة مشابهة: محاولة لقتله وهو طفل، وكيف هربت به أمه (حليمة) من سوق عكاظ وأنقذته من موت محقق . وهى حكاية خائبة لا تضيف شيئا لحياة النبي.

يجب أن يكون هناك ترفع وأمانة، ودقة وحرص، عند التحدث عن حياة هذا النبي الذي لم يدَّع يوما أنه صانع معجزات.

أما عن حكاية شق الصدر، فتنقصها المصداقية ولا يقوم عليها دليل، فالذي رواها طفل في الثانية أو الثالثة من عمره . ومن غير المعقول أن يذكرَ في التأريخ لنبي حدوث مثل هذا الإعجاز لمجرد أن طفلا في الثالثة حكي حكاية . ولو كان ما تحدث به الطفل واقع متأصل ومؤثر في حياة النبي لذكره القرآن، أو لتحدث عنه النبي نفسه . ولا نعتقد أن في حديث الرسول ما يشير إلى **أن صدره قد شُقَّ في طفولته وتمت خياطته بمخيط وأن أثر المخيط كان يُرى بوضوح في صدره.**

هذا كلام يخلو من المعقولية : مَلَك يهبط من السماء ليقوم بعملية جراحية، ومعه طست من ذهب وماء من زمزم وخيط ومخيط .

ولا ندرى كيف عرفوا أن الماء الذي كان مع الملك هو ماء زمزم ،مع أن الملك لم يتحدث إلى أحد ولا حتى إلى الطفل ذي الثلاثة أعوام، وهو الذي حكى الحكاية . هل من المعقول أن يهبط ملك من السماء ومعه طست من ذهب وخيط ومخيط ؟ أوامر السماء لا تنفذ بهذا الأسلوب الفج، كما في رواية الطفل أو غيره من الرواة.

ثم . . هناك سؤال وسؤال :لماذا هبط الملك بطست الذهب من السماء ثم توجه إلى مكة كي يملأه من ماء زمزم ؟ ألم يكن من الأفضل أن يملأه بماء من نهر من أنهار الجنة ؟ لو فعل ذلك لأصبحت الحكاية أكثراً عمقا في وقعها وتأثيرها وإعجازها.

والسؤال الآخر :ماذا حدث لطست الذهب بعد أن فرغ الملك من إجراء عمليته الجراحية وأعاد خياطة الصدر؟ هل صعد الملك بالطست ثانية إلى السماء، أم دفنه في الأرض، أم ماذا؟ لأنه حتى الآن لا أثر لطست الذهب . ولو تركه الملك لكان دليلا دامغا على أكبر إعجاز في مجال الإعجاز، خصوصا وأنه طست من ذهب السماء، ولانحنى العالم أجمع في إيمان مطلق لا مجال فيه لتكذيب . وكنا نفضل — لو صحت القصة — أن يترك الملك طست الذهب هدية لحليمة السعدية، وذلك لحسن رعايتها لمحمد.

القصة بلا سند وبلا دليل وليس هناك ما يؤكد حدوثها.

يعلق الدكتور شوقي ضيف على هذه القصة بقوله : القصة ضعيفة السند إذ رواها الطفل عبد الله أخو محمد في الرضاعة وهو في الثالثة من عمره. ومعروف أن محمدا لم يلتمس خوارق في رسالته فأولى ألا يلتمس خوارق في طفولته، ويبدو أنها نسجت تعليقا على الآية القرآنية : " ألم نشرح لك صدرك"، والآية إنما تشير إلى شرح الله صدر محمد بالرسالة النبوية الربانية [٣٤].

وترى الدكتورة عائشة عبد الرحمن أن القصة هى من قبيل التمثيل الذي يراد به نقاء السريرة وصفاء النفس، وهذا قريب مما ذهب إليه " درمنجم " حين رأى أن الحادثة لا تستند إلى أي شئ غير المعنى الحرفى للآية القرآنية: "ألم نشرح لك صدرك "[٣٥].

ويتساءل الدكتور هيكل : أي داع دعا طائفة المسلمين فيما مضى ويدعو طائفة منهم اليوم إلى إثبات خوارق مادية للنبي العربي ؟ إنما دعاهم إلى ذلك أنهم تلو ما جاء في القرآن عن معجزات منْ سبق محمدا من الرسل، فاعتقدوا أن هذا النوع من الخوارق المادية لازم لكمال الرسالة فصدقوا ما روي منها وإن لم يرد في القرآن ، وظنوا أنه كلما ازداد عددها كانت أدل على هذا الكمال وأدعى إلى أن يزداد الناس بالرسالة إيمانا [٣٦]. ويضيف الدكتور هيكل: إن ما يشير إليه القرآن في " ألم نشرح لك صدرك"، هو عمل روحي بحت والغاية منه تطهير القلب وتنظيفه ليتلقى الرسالة القدسية.

وتقول كارين أرمسترونج :إن لهذه القصة مثيلاتها في حكايات الحضارات الأخرى التي تصف شعائر الإعداد، وهى ترمز إلى النقاء الضرورى للشاب المُعَدّ لكي يتلقى تجربة سماوية دون تلويث الرسالة المقدسة[٣٧].

حياة محمد كلها كانت إنسانية نقية متسامية، لا تقوم على معجزات أو أحداث خارقة، ولم يصرح هو نفسه يوما أنه صاحب معجزات أو خوارق . ومن الأفضل أن نقول إن الله كان يحفظ محمدا في طفولته وسنين صغره — كما كان دوما يحفظه — فلا يبدو منه أو يصدر عنه ما يسوؤه أو ما يسيئ إلى غيره، فيؤخذ عليه في مستقبل أيامه ويُذكّر به . ونضرب لذلك مثلا شديد البساطة، رواه محمد عن نفسه، يقول لقد رأيتنى في غِلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة : فإني لأقْبل معهم كذلك وأدْبر إذ لكمني لاكم لكمة وجيعة

34- د . شوقي ضيف ، **محمد** ، ص ٦١ .
35- د .عائشة عبد الرحمن ، **أم النبي** ، ص ١٧٩ .
36- د . محمد حسين هيكل ، **حياة محمد** ، ص ٥٩ .
37- كارين أرمسترونج ، **محمد** ، ص ١٢٠ .

ثم قال شد عليك إزارك، قال فأخذته وشددته على، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزارى علىَّ من بين أصحابي.

ولقد ظلت حليمة محل رعاية محمد ومحبته وكرمه طوال حياتها، ما زارته مرة إلا ومدَّ لها طرف ردائه . ويروى أنها عندما زارته بعد زواجه من خديجة، عادت إلى أهلها ومعها هبة سخية من مال خديجة: بعير يحمل من الخيرات الكثير وأربعون رأسا من الغنم . وفي مستقبل الأيام تصبح الشيماء، ابنة حليمة وأخت محمد في الرضاعة، هى أيضا محل عطف النبي ومودته وكرمه.

موت آمنة :عاشت آمنة مع أهلها، وعاش محمد معها، بعد السنين التي قضاها مع حليمة في بادية بني سعد . عندما بلغ السادسة خرجت به أمه في رحلة إلى يثرب، على بعدما يقرب من مائتي ميل شمال مكة، حيث مات أبوه.

لا نعرف على وجه التحديد الأسباب التي دفعت آمنة للخروج بولدها إلى هذه الرحلة: ربما كانت تريد أن تريه قبر أبيه،أو ربما كانت تريده أن يتعرف على بعض أقاربه هناك إذ أن سلمى بنت عمر بن زيد النجارية أم عبد المطلب هى زوجة هاشم، وهذا معناه أن لمحمد خئولة في بني النجار، وربما خرجت آمنة بولدها إلى يثرب على أمل أن تتحسن حالتها الصحية — التي تدهورت بعد موت زوجها — في جو الواحة الذي يفضل بكثير جو مكة الحارق قيظها.

مع أول قافلة تخرج من مكة متجهة نحو الشمال، خرجت آمنة ومعها ولدها وجاريتها الحبشية (بركة) وهم على بعيرين . نزلت عند أخوال جد ولدها من بني النجار . . أقاموا شهرا في دار " النابغة" . رأي محمد البيت الذي قضى فيه أبوه أيام مرضه حتى مات، وزار مع أمه قبر الزوج الحبيب والأب الذي لم ير ولده . ولا يدري أحد كيف كان إحساس اليتيم باليتم وهو في مثل هذا السن.

ويتذكر النبي، فيما بعد، تلك الزيارة والشهر الذي قضاه وأمه في ضيافة بني النجار، وما يقوله عن تلك الأيام طبيعى ومنطقى ويبعد كل البعد عن المبالغات — التي يبتدعها بعض الجهلة من أصحاب الحكايات — ويدل بصورة قاطعة على أنه ما قال إلا صدقا .. فهو يتذكر "أنيسه "،جارية من جواري بني النجار كانت تلاعبه . .ويتذكر كيف كان يلعب مع غلمان من"أخواله"،وكيف كانوا يطيرون طائرا كان يقع على أُطُم بني عدي بن النجار، وكيف أحسن العوم في أحد الآبار . وهذا سلوك يتفق تماما مع بساطة الطفولة وبراءتها ،صدق وقعها. دون مبالغة أو تزويق أو تزييف.

لكن أم أيمن (بركة) تحكي قصة أخرى لا تختلف كثيرا عن تلك الحكاوي التي روتها حليمة من قبل ٠ تقول أم أيمن، جارية آمنة: كان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليه، فسمعت أحدهم يقول : هو نبي هذه الأمة وهذه دار هجرته [٣٨]٠

ونعتبر هذه الحكاية من حكايات "الأتقياء" التي لا تضيف شيئا لتاريخ محمد أو رسالته، والتي يحسن تجاهلها عند الحديث عن محمد النبي ورسالته السماوية، خصوصا عندما يثار نقاش مع غير المسلمين الذين لا يؤمنون إلا بسلطان العقل وسيطرة المنطق ٠ النبي نفسه الذي تحدث عن لعبه مع إحدى الجواري وقيامه بالعوم في أحد الآبار، لم يشر أبدا إلى ما قالته أم أيمن ٠ ولو حدث لقال به ٠ ولو قال به، لصدقناه ٠ لكنه لم يقل !!

لم تتحسن صحة آمنة كما كانت تأمل ٠ ٠ خشيت أن يحدث لها مكروه ٠ ٠أن يضمها الموت في يثرب، كما ضم زوجها من قبل فتفارق ولدها وهو بعيد عن أهله ٠ بدأت رحلة العودة، حاملة على جملها ما يكفي من مؤن للطريق ٠ وحدث ما كانت تخشاه ٠ ٠ ما حاولت أن تهرب منه ٠ كان الموت أسرع من خطوات ناقتها ٠ أحاطت بهم إحدى عواصف الصحراء الهوجاء ٠ لم يتحملها الجسد الأنثوى الرقيق ٠ سقطت آمنة ٠ ماتت وهى على الطريق٠

وجدت بركة من ساعدها على دفن سيدتها في قرية "الأبواء" وهى على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلا من يثرب، واستطاعت بعد ذلك أن تصل بمحمد سالما إلى مكة حيث سلمته لجده عبد المطلب٠

تعمق الإحساس باليتم في نفس محمد، وهذا ما سنراه منعكسا بقوة — في مستقبل الأيام — في سلوكه تجاه اليتيم وماله من حقوق وكيف يجب أن يعامل بحب وعطف ورحمة: وأما اليتيم فلا تقهر٠

كما كان لاحتضان أم أيمن ورعايتها له، وحدبها وخوفها عليه، وتفانيها في خدمتها له، أثر كان من الصعب أن يمحيه الزمن ٠ نراه في نبوته ينتصر للأرقاء، ويطالب بتحرير العبيد، ويغضب عندما يسمع أحد صحابته يُعيِّر آخر بقوله: " يا ابن السوداء "، ويقول في قوة : لقد طفح الكيل، لقد طفح الكيل، لقد طفح الكيل!!

ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى فمحمد ابن البيضاء حضنته السوداء فكان ابنا لهما معا[٣٩]٠

38- ابن سعد ، حـ ١ ، ص ١١٦ .

أبداً ما نسى محمد أمه ، مر بالأبواء وهو خارج في عمرة الحديبية، توجه إلى قبر أمه فأصلحه، وبكى عنده ، إنهمرت الدموع التي لم تنهمر في طفولة فجسدت اليتم فيه ، وبكى المسلمون لبكاء النبي ، ويقال إنه عندما أراد زيارة قبر أمه سُمح له. وعندما أراد أن يستغفر لها أُبيَ عليه، أي لم يسمح له.

لم يُسمح للنبي أن يستغفر لأمه !! هذا كلام ممجوج يرفضه العقل السوى ، يجب ألا نصدق كل ما يروى، لأن بعضه لا صدق فيه، فعلى سبيل المثال لا الحصر يقال إنه: لما فتح النبي مكة أتى جِذْم قبر فجلس إليه وجلس الناس حوله، فجعل كهيئة المخاطب، ثم قام وهو يبكى، فاستقبله عمر وكان من أجرأ الناس عليه ، فقال : بأبَي أنت وأمي يا رسول الله! ما الذي أبكاك ؟ فقال : **هذا قبر أمي**، سألت ربي الزيارة فأذن لي، وسألته الاستغفار فلم يأذن لي،فذكرتها فرققْت فبكيت ، فلم يُر يوما كان باكيا أكثر من يومئذ[40].

هل نصدق هذه الرواية التي نقلها ابن سعد عن الرواة في" طبقاته الكبرى "؟ إذا كانت آمنة،أم محمد،قد دفنت في مكة فهذا معناه أن جاريتها أم أيمن قد حملتها وهى ميتة طوال الطريق من حيث ماتت بالقرب من يثرب إلى مكة،وهذا ضد طبيعة الأشياء في تلك الآونة. وإذا كان قبرها في مكة،فكيف زار النبي — في قصة أخرى — قبرها بالأبواء وبكى عنده؟

قد يدعي بعض المستظرفين، في محاولة للتوفيق بين حكايات الرواة، أنه قد كان لها قبران: قبر حقيقى بالأبواء. وآخر رمزي في مكة ، وهذا استنطاع في الفكر، مرفوض حتى لو عرض على قطيع من النعاج.

طلب أن يزور قبر أمه فأذن له، وطلب أن يستغفر لها فلم يؤذن له ، ويقال إن جبريل ضربه في صدره، وقال له : لا تستغفر لمن كان مشركا ، وازداد بكاء النبي لأن هذا معناه أن أمه — وقد ماتت على شركها — في النار ، ويحكى أن رجلا قال: يا رسول الله، أين أبي؟ فقال في النار، فلما ولي الرجل قال عليه السلام: إن أبى وأباك في النار[41]، وقيل إنه سئل عن جده عبد المطلب أين هو، فقال : في النار ، وكان هذا من أسباب ازدياد غضب أبى لهب وتضاعف حنقه على النبي.

هذا كلام لا نعتقد مطلقا أنه قد صدر عن النبي، فمن غير المنطقى، إن لم يكن من المستحيل، أن يخبر الرسول من حوله بأن أمه وأباه وجده عبد المطلب — الذي رعاه في وحدة يتمه وفضله وأكرمه — هم جميعا في النار.

39- الإمام محمد أبو زهرة ، جـ ١ ، ص ١١٧ .
40- ابن سعد ، جـ ١ ، ص ١١٧ .
41- أبو زهرة ، جـ ١ ، ص ١١٨ .

ولماذا هم في النار؟ هل بُلِّغوا برسالة نبي فرفضوها، وأصروا أن يموتوا على دين الآباء ؟ هل بشروا بدعوة محمد، فأبوا وقالوا ساحر كذاب؟ ٠ ٠ لا هذه ولا تلك ٠ ما هي جريمتهم إذن كي يكونوا في النار؟ ٠ ٠ لا جريمة ٠ ٠ إذن لماذا في النار؟ المنطق لا يستقيم٠

لا يمكن أن يكون قد صدر عن النبي ما يؤكد أنهم في النار ٠ مات عبد الله في طهر شبابه قبل أن يولد ولده، وماتت آمنة وهي تحتضن محمدا تقيه شر العاصفة، ومات عبد المطلب ومحمد في الثامنة وقد كان يفضله على جميع من هم حوله ويقول: ولدي هذا سيكون له شأن ٠ كانوا جميعا على فترة من الرسل ، لم تبلغهم رسالة، ولم يدعهم نبي، فكيف يعانون عذاب النار؟ هذا يتناقض مع ما جاء في القرآن: "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " (الإسراء :١٥)٠

ومن الأقاويل التي يصعب تصديقها، في هذا المجال، قول عائشة: حج بنا رسول الله صلي الله عليه وسلم، حجة الوداع فمر على قبر أمه وهو باك حزين مغتم، فبكيت لبكائه صلي الله عليه وسلم، ثم إنه نزل، فقال: يا حميراء استمسكي، فاستندت إلى بيت البعير، فمكث عني طويلا، ثم عاد إليَّ وهو فرح مبتسم، فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله، نزلت من عندى وأنت باك حزين مغتم، فبكيت لبكائك، ثم عدت وأنت فرح مبتسم، فيم ذاك يا رسول الله، فقال: ذهبت لقبر آمنة أمي ، فسألت أن يحييها الله تعالي، فأحياها فآمنت بي٠

وفي رواية أخرى عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، سأل ربه أن يحيي أبويه فأحياهما وآمنا به٠

وخير حُكْم على هذا الكلام هو ما أصدره الحافظ بن كثير عندما قال: إنه حديث منكر جدا(٤٢)٠

هذا صحيح ٠ إنه حديث منكر جدا ٠ ولو صدق لجاء ذكره في القرآن ٠ إن النبي لم يدَّع أبدا أنه طلب من ربه أن يتفضل عليه بمعجزة إحياء الموتى كي يؤمنوا به ثم يعودوا بعد ذلك إلى قبورهم ٠ ولو كان بإمكانه أن يطلب ذلك لطلبه وهو محاط بجبابرة قريش يطالبونه بأن يثبت صدق نبوته عن طريق معجزة ، فما كان منه إلا أن قال: ما أنا إلا بشر مثلكم يوحى إليه ٠ لا أكثر من ذلك ، لا أقل من ذلك : أنا بشر مثلكم يوحى إليه ٠ وهو نفسه الذي قال: أنا ابن امرأة من مكة كانت تأكل القديد٠

42- أبو زهرة ، حـ ١ ، ص ١١٩ ٠

كل ما في الأمر هو أن الحكائين سمعوا حكايات عن المسيح ومقدرته على إحياء الموتى بإذن الله. وتأكد لهم ذلك عندما جاء ذكره في القرآن . قالوا في أنفسهم : لماذا لا يكون لنبينا نحن أيضا معجزات من نفس النوع . صورت لهم خيالاتهم المعتلة أن ذلك يرفع من مرتبة النبي ويجعله في مرتبة لا تقل، بل قد تزيد، عن مرتبة المسيح . ألّفوا حكايات لا قيمة لها لأنها لا تضيف شيئا لشخصية النبي، على العكس إنها تسيء إلى جوهر رسالته التي تقوم على القراءة والعلم، وعلى المنطق والفكر . ونكتفي في هذا المجال بذكر بعض آيات القرآن الكريم: " شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط"، " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" ، "قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب"، "وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون"، "ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم"، "فلنقصن عليهم بعلم"، "بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم"، " خلق الإنسان علمه البيان".

هذا هو جوهر الإسلام، وهو يبعد كل البعد عن خزعبلات الحكائين والإخباريين الذين يعتقدون أنهم بخزعبلاتهم تلك يرفعون من قدر الإسلام . إنهم في الواقع لا يرفعون ولا يخفضون . إنهم فقط يسيئون.

تروى الدكتورة عائشة عبد الرحمن : أن هند بنت عتبة حين مرت بالأبواء مع جيش المشركين المتجه إلى المدينة ليثأر لقتلي بدر، لم تر ما تؤذي به بطل الإسلام، أقسى من نبش قبر أمه " آمنة "، ولم تجد لقريش رهينة أعز ولا أغلي من بقايا الجثة الثاوية هناك . . قالت هند لزوجها أبي سفيان بن حرب : لو بحثتم قبر آمنة أم محمد فإنه بالأبواء ،فإن أُسِرَ أحد منكم افتديتم كل إنسان بإرب من آرابها (أي عضو من أعضائها).

لكن أبا سفيان لم يكد يذكر ذلك لقريش، حتى أخذ الفزع منها كل مأخذ، فصاحت بالرجل: " لا تفتح علينا هذا الباب " . وكأنما روّعها تمثل غضبة ابن آمنة والمسلمين للفعلة النكراء . وانصرفت قريش عن الأبواء دون أن تجرؤ على العبث بحرمة القبر الذي استودعه الصبي اليتيم جثمان أمه منذ أكثر من أربعين سنة، ثم لم ينسها بعد ذلك أبدا[٤٣].

في كفالة عبد المطلب: عاش محمد في بيت جده عبد المطلب، بين حمزة والعباس وهالة ابنة عم أمه وزوجة عبد المطلب، هذا إلى جانب بركة (أم أيمن) التي احتضنته وحنت عليه كما تحنو الأم الرؤوم على ولدها،وكثيرا ما اعتمد عليها عبد المطلب إذا ما دعاه داع للابتعاد عن محمد: " يا بركة لا تغفلي عن ابني " . كان يدعوه ولده، يقربه منه ويظهر

43- د. عائشة عبد الرحمن ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

لـه حـبه ،كي لا يشعره بيـتمه المريـر بعـد أن فقـد الأب والأم وهو يخطو أول خطواته على عتبات الحياة.

لا نجرؤ على القول إن عبد المطلب قد بالغ في إكرام حفيده . كانت هذه هى طبيعته. . خلقـه . . كـرم طـبعه الـذي كـان يدفعه إلى أن يدخل على محمد للاطمئنان عليه إذا خلا ونـام . كانـت نفسـه تعـاف الطعـام إلا إذا أكـل مـنه محمد . كان يقول إذا ما وضع أمامه الطعام: علىَّ بابني ، فيؤتى به إليه.

يحكـي ابـن إسـحاق أنـه : كـان يوضـع لعـبد المطلـب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له، . . فكـان رسـول الله صـلي الله علـيه وسـلم، يـأتي وهـو غـلام جَفْر حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامـه لـيؤخروه عـنه، فـيقول عـبد المطلـب إذا رأي ذلـك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له لشأنا . ثم يجلسه معه عليه ويمسح ظهره بيده، ويَسُرُّه ما يراه يصنع[٤٤].

عـندما بلـغ محمـد الثامـنة مـن عمـره، مـات عـبد المطلب . وقد اختلف الإخباريون في تحديـد سـنه عـند موتـه، فمنهم من يقول : إنه كان ابن اثنتين وثمانين، ومنهم من يقول: مـات وهـو ابـن مائـة وعشـرين سـنة، ودفـن بـالحجون . وسـئل النبي يوما : أتذكر موت عـبد المطلـب؟ قـال: نعم،أنـا يومـئذ ابنُ ثماني سنين . وقالت أم أيمن: رأيت رسول الله، يومئذ يبكى خلف سرير عبد المطلب[٤٥].

فـيما يخـتص بـتوزيع مـيراث عـبد المطلـب، تقول بيتي كيلين : يبدو أن الحالة المالية للأسـرة الهاشمـية كانـت قـد بـدأت تـتدهور في تلـك الآونة . ومن المحتمل أن تقسيم ثروة عـبد المطلـب بين تسعة أبناء وست بنات لم تفدهم كثيرا . شئ واحد مؤكد وهو أن نصيب محمـد — لـو ظـن أحدهم أن من حقه أن يحصل على ميراث أبيه عبد الله — قد تبخر مثل مطـر الصـحراء . هذا الإحساس بأنه قد أُهمل ولم يأخذ حقه، هو ما دفعه في مستقبل الأيام كي يقول ويعيد القول : إنه من الخسران المبين أكل مال اليتيم[٤٦].

في كفالـة أبـى طالـب: أوصـى عـبد المطلب قبل موته أن تكون كفالة محمد لأبى طالب، ذلـك لأن عبد الله، أبا محمد، وأبا طالب، كانا أخوان لأب وأم، أمهما فاطمة بنت عمر بن عـائذ بـن عِمـران بـن مخزوم . ويضيف الدكتور هيكل سببا آخر: آلت كفالة محمد إلى أبى طالـب وإن لم يكـن أكـبر إخوته سنا، فقد كان الحارث أسنهم، وإن لم يكن أكثرهم يسارا،

44- ابن هشام ، حـ ١ ، ص ١٨٠ .

45- ابن سعد ، حـ ١ ، ص ١١٩ .

46- Betty Kelen ,p . 25.

وكان العباس أكثرهم مالا، لكنه كان على ماله حريصا، لذلك احتفظ بالسقاية وحدها دون الرفادة [أما الرفادة فقد أسندت إلى أبى طالب]. فلا عجب إن كان أبو طالب على فقره أنبلهم وأكرمهم في قريش مكانة واحتراما. ولا عجب أن عهد إليه عبد المطلب بكفالة محمد من بعده[٤٧].

وكان حب أبى طالب لابن أخيه لا يقل عن حب عبد المطلب لحفيده . ويروى أن أبا طالب كان يحب محمدا حبا شديدا : يصحبه إذا خرج، يخصه بأفضل ما عنده، ولا ينام إلا إذا اطمأن على أن محمدا قد نام وأمِنْ ، حتى وسادة أبى طالب، كان محمد يجلس عليها ، فيسعد ذلك أبا طالب ويقول : وإله ربيعة إن ابن أخي لَيُحِسن بنعيم . كان في أعماقه يحس، كما أحس عبد المطلب من قبل، أنه سيكون لابن أخيه شأن كبير.

يقال إن رجلا من بني لِهْبٍ كان عائفا، أي صادق الحدس، فكان إذا قدم مكة أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم . ويتنبأ لهم . ذهب إليه أبو طالب ، فيمن ذهبوا ومعه محمد، فنظر الرجل إلى محمد ثم شغله عنه شاغل، فلما فرغ، قال : الغلام، علىَّ به، فلما رأي أبو طالب حرصه عليه غيَّبه عنه، فجعل يقول : ويلكم !! ردوا علىَّ الغلام الذي رأيت آنفا ، فوالله ليكونن له شأن!![٤٨]

وهى قصة يمكن أن تضاف إلى بقية القصص السابقة ،ولا ضرر منها، إذ لا يزيد مدلولها عن مجرد الرغبة والتمني أن يكون هذا الغلام اليتيم — في مستقبل أيامه — على قدر عظيم من المكانة والرفعة . ولقد أصبح هكذا بالفعل، لا بنبوءات المتنبئين، ولكن بقدر إلهي.

التعلُّم: لم يخبرنا أحد من السابقين أن محمدا قد ذهب إلى مدرسة ليتعلم، لم يكن هناك مدارس كي يذهب إليها . لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة، ويوصف دوما بأنه أُمِّي. ويعلق آرثر جيفري Arthur Jeffery على هذا الرأى بقوله : يعتقد المسلمون أن وصف محمد بأنه" أمي " معناه أنه كان لا يعرف القراءة والكتابة ومن المحتمل، على أية حال، أن هذه الكلمة تعني فقط أنه لم يتلق تعليما منهجيا في الكتب المقدسة، أى أنه كان من العامة . ويعتقد آخرون أن كلمة " أمي " هنا تعني أنه ينتمي إلى "أمة" — أى إلى أمة العرب[٤٩].

ومن المؤكد أن أعمامه قد دربوه على ركوب الخيل والرماية واستخدام السيف، فلقد كانت الحروب تشتعل بين القبائل من حين لحين وربما لأتفه الأسباب . لهذا كان

47- د. هيكل ، ص ١٠٦ .

48- ابن هشام ، حـ ١ ، ص ١٦٤ .

49- A. Jeffery , p .11.

من المفترض — إن لم يكن أمرا حتميا — أن يتحمل كل فرد مسئولية الدفاع عن نفسه وعن عشيرته وعن القبيلة التي ينتمي إليها . وكان من المستحيل أن يصل قرشي إلى سن الشباب وهو لا يعرف كيف يكون القتال.

تدرب محمد على القتال، هو وحمزة والعباس . وكان من الواضح أن حمزة سيصبح هائل التكوين متميز القوة، ولقد أظهر براعة – شهد بها الجميع — كمصارع ومقاتل بالسيف . ولم يكن محمد في مثل قوة حمزة الجسمانية . كان — كما يقول مارتن لينجز Martin Lings – متوسط الطول، متوسط القوة. لكنه أظهر تميزا ملحوظا في الرمى بالقوس، وبدا واعدا بأنه سيكون من كبار الرماة المتميزين كجدية العظيمين إبراهيم وإسماعيل، ومما ساعده على ذلك قوة إبصاره[٥٠].

كما تعلم محمد الكثير وهو في صحبة عمه أبى طالب أثناء معاملاته وجولاته ورحلاته التجارية . ويعتقد "بايك E. R .Pike " أن هذه كانت أفضل مرحلة من مراحل تعليمه: السير بالنهار عبر الرمال، التوقف ليلا بجوار بئر ماء، حكايات تحكى، والقوم جلوس حول نيران القافلة، عن الجن والعفاريت وأشباح لأناس عاشوا منذ زمن سحيق في تلك الأطلال " الغامضة" المنتشرة في أرجاء الصحراء . . هذه الأشياء كلها تركت انطباعا عميقا في عقل الصبي الذي كان يميل بطبعه إلى التأمل والحزن . هناك أيضا هؤلاء الذين كان يلتقي بهم مع عمه: تجار، وجنود، ولصوص، ورسل ملوك، ومبشرين بديانات غريبة[٥١].

ازدادت معارف محمد واتسعت مداركه عندما تكرر ذهابه إلى سوق عكاظ، حيث كان يستمع إلى الشعراء، والخطباء، والوعاظ من أصحاب ديانات لا يعرفها . ربما ترسبت كلماتهم في أعماقه فاجترها فيما بعد، وبدأ يفكر فيما يقولون . ربما كان ما يتحدثون عنه ويدعون إليه خير من وثنية قريش برموزها الحجرية العاجزة . لقد كان، وهو في مرحلة الإدراك الواعي، يستمع ويستوعب، لكنه بكل تأكيد لم يكن — في هذه المرحلة — بمستطيع أن يصل إلى رأي صائب أو اختيار قاطع . كان في حاجة إلى كثير من الاستيعاب، كثير من التفكير، كثير من التأمل.

رعي الغنم :بدأ محمد حياته العملية، وقد تخطي العاشرة، راعيا للغنم، وهو ما يتواءم كل التواؤم مع طبيعته الهادئة الحزينة المتأملة . كان يرعى غنم أهله من بني هاشم، وغنم بعض أهل مكة . ولم يكن رعى الغنم بجديد عليه أو غريب عنه، فلقد رعى الغنم في

50- Martin Lings , p31 .
51- Martin Lings , p31 .

طفولته وهو في صحبة أخيه في الرضاعة. عبد الله ولد حليمة السعدية . وكان يأخذ مقابل عمله . هذا المقابل يحدده الإمام محمد أبو زهرة : قراريط يأخذها من أهلها ،والقراريط هى حصته من اللبن فيما يظهر. فهو يرعاها على أن تكون له حصته من لبنها يناله، ولعله كان يتغذى بها مع أولاد أبى طالب، أو يأكل منها ويتصدق. فينال خيرين: خير الكفاية. وخير الصدقة والمودة[٥٢].

كان يتأمل السماء الممتدة في لا نهائية تحير الألباب، والأرض المنبسطة في امتداد لا تدركه الأبصار، ويتأمل ما بين السماء والأرض من مألوف وغرائب الخلق . كيف رفعت السماء، وكيف بسطت الأرض، وكيف خُلق الخلق . . ثم إلى أين المصير؟ أسئلة حيرى، ما استطاع عقل الصبى أن يجد لها جوابا . وكان يرنو ببصره تجاه الكعبة، تتجسد أمام عينيه صورة ما حولها من أصنام . تماثيل الحجارة تلك! ! أكان باستطاعتها صنع شئ أو خلق شئ . . أي شئ . . حتى ولو كان بعوضة أو ذبابة؟

استغرق الصبى في تفكيره وتأملاته . لدرجة أن كاد ينسى ما يتمتع به هم في مثل سنه من مباهج الحياة المتاحة . يحكى أنه ذات يوم مالت نفسه إلى الذهاب كي يحضر عرسا في مكة، فيه رقص وغناء ولهو وطرب . طلب من أحد الصبية أن يرعى غنمه حتى يعود، لكن غلبه النعاس فما استطاع الذهاب . ويرى البعض أن ما حدث هو عصمة وحماية له، بَقَدر رباني خارج عن إرادته، لأنه في هذه السن المبكرة ما كان بمستطيع أن يجاهد النفس وأن يكبح ميولها وغرائزها.

ظل يرعى الغنم حتى قارب العشرين من عمره، ثم بدأ بعد ذلك يمارس بعض الأعمال التجارية . وظلت هذه الفترة من حياته كامنة في أعماقه ، عزيزة عليه ، يتذكرها من حين لحين . ويقال : مرّوا على النبي، صلي الله عليه وسلم، بثمر الأراك، فقال رسول الله، صلي الله عليه وسلم، عليكم بما أسود منه فإني كنت أجتنيه وأنا راعى الغنم، قالوا : يا رسول الله ورعيتها؟ قال : نعم، وما من نبي إلا قد رعاها . . بعث موسى عليه السلام وهو راعى غنم، وبعث داود عليه السلام وهو راعى غنم، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد [٥٣].

هذا القول ينطبق بلا شك على موسى وداود، لكنه ليس قاعدة مطلقة تطبق على كل الرسل والأنبياء، فالمسيح عليه السلام على سبيل المثال، لم يعمل أبدا برعى الغنم، بل

52- أبو زهرة ، حـ١ ، ص ١٢٣ .
53- ابن سعد ، حـ ١، ص ١٢٥ ـ١٢٦ .

عمل بالنجارة في طفولته وأثناء صباه. وسليمان ولد وأبوه داود ملكا وهو ابن الملك الذي أصبح فيما بعد ملكا. فكيف رعى الغنم ولمن كان يرعاها ؟ حديث الرعي هذا لا ينطبق على كل الأنبياء.

التجارة : بدأت صلة محمد بالتجارة وهو في الثانية عشرة من عمره، وكان ذلك في صحبة عمه أبي طالب. حين قرر أبو طالب أن يخرج في تجارة له إلى الشام . لم يفكر أبو طالب مطلقا في أن يصطحب محمدا معه، كان صغير السن، ومن المحتمل ألا يتحمل جسده الغض مشاق الطريق وأهوالها . لكن محمدا رأي في هذا الخروج فرصته كي يصحب الكبار ويرى ما يفعلون وكيف يتعاملون. ربما عرف عن التجارة بعض ما خفي من مَسالكها وأسرارها.

ألحَّ على عمه، ووصل إلحاحه حد التوسل. أن يصحبه، ألا يتركه، وهو له الأب، والأم، والسند، والعائل الذي بدونه — لا محالة — يضيع الصغير . قال محمد لعمه في توسل محزون : أي عم، إلى من تُخلِّفُني ههنا! ! فما لي أم تكفلني ولا أحد يأوينى.

ماذا كان بوسع أبي طالب أن يفعل أمام هذا الرجاء الذي ترق له أقسى القلوب، وهو بطبعه المحب، الحانى، العطوف، الودود . دون أدنى تردد أردف ابن أخيه على ناقته خلفه، وهو يقول والله لا يفارقنى ولا أفارقه.

تفتحت عينا محمد على حياة من نوع آخر، غير تلك التي ألفها طفلا في بني سعد وصبيا في مكة: صوامع الرهبان، أطلال من بقايا التاريخ القديم، كلام عن اليهودية والنصرانية وعبدة النار، وكأن أستار الماضي تنزاح أمام عينيه، كي يتم إعداده دون أن يدرى لصنع الأيام القادمة في صفحات التاريخ.

تحكى حكايات عن هذه الرحلة، قد يصفها بعض من لا يؤمن بأنها مجرد أساطير . يقولون إن أحد أصحاب الأديرة نظر مليا في وجه محمد، ثم سأل أبا طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني . قال الراهب : ما هو بابنك وما ينبغى أن يكون له أب حي، قال: ولم؟ قال الراهب: لأن وجهه وجه نبي، وعينه عين نبي . قال أبو طالب: وما النبي ؟ قال: الذي يوحى إليه من السماء فينبئ به أهل الأرض . . قال أبو طالب: سبحان الله، الله أجل مما تقول، ثم أضاف موجها الحديث إلى محمد : يا ابن أخي ألا تسمع ما يقولون؟ قال محمد: أي عم لا تُنْكَرُ لله قُدْرة [٥٤].

ونقول بصراحة، وقد تغضب صراحتنا بعض المتفيقهين من أدعياء العلم : نستبعد أن يكون هذا الحوار قد تم بالفعل بين أبي طالب وصاحب الدير . ومما يدل على عدم وقوعه

54- ابن سعد ، جـ ١، ص ١٥٣ .

لا عقلانية ما دار فيه. إذ أنه من المستبعد — إن لم يكن من المستحيل — أن يسأل أبو طالب هذا السؤال الساذج : وما النبي؟

معنى هذا السؤال أن أبا طالب، شيخ قريش، لا يعرف "ما النبي" وهو التاجر كثير الأسفار، والذي لابد وأن يكون قد التقى في أسفاره بكثير من النصارى واليهود واستمع إليهم وعرف منهم الكثير عن أنبياء بني إسرائيل، كما أنه وهو التاجر لابد وأن يكون على إلمام كامل بما يدور في أسواق مكة وما جاورها وأشهرها "عكاظ" ٠ وفي " عكاظ " يتحدث الشعراء والوعاظ والدعاة، وما كان كل هذا ليمر دون ذكر أو إشارة إلى الأنبياء في مختلف الأديان٠

كما أنه من المستحيل أن ننسى أن مجتمع مكة — رغم وثنيته — كان به بعض النصارى وعلى رأسهم ورقة بن نوفل الذي يقال إنه تعمق في دراسة التوراة والإنجيل ، وكان على علم تام بما جاء في أسفارهما عن الأنبياء ٠ ومن الحماقة أن يقال إن أبا طالب لم يلتق يوما بورقة بن نوفل ولم يستمع إليه ٠ وحتى إلى جوار الكعبة ذاتها — حيث مجمع الأصنام — كان هناك ذكر لكلمة "نبي "، فبعض الحنفاء كان يتحدث عن ضرورة العودة إلى ملة إبراهيم: النبي٠

وبناء عليه فإنه من السذاجة إلى حد التنطع في الغباء أن نصدق الراوي وهو يدعي أن أبا طالب سأل صاحب الدير: "وما النبي ؟" ٠ وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على درجة الجهل التي تردى إليها بعض الحكائين من الرواة٠

بحيرا: وصلت القافلة بُصْري من أرض الشام ٠ كان بها راهب في صومعة يقال له بحيرا، وهو " عربي من قبيلة عبد القيس على الخليج العربي"، وكان على علم بالنصرانية وأسرارها، متفقه في مراسمها وطقوسها، متبحر في أغوار طلاسمها ورموزها ٠ لم يكن من عادته الخروج إلى قافلة، أو لقاء جمع، أو دعوة أحد٠

وكان من الغريب، غير المألوف، أن يخرج بحيرا، يعترض طريق قافلة أبي طالب ٠ ماذا دهاه، وهو الذي ما كلمهم يوما وما اكترث بذهابهم أو بإيابهم؟!! ثم إنه لا يعترض طريقهم كي يتحدث إليهم فقط، إنه يدعوهم جميعا وبلا استثناء إلى تناول الطعام ٠ وما كان هذا ليحدث أبدا دون أن يكون وراءه دافع قوى٠

جذبت القافلة انتباهه، سيطرت عليه، وكأنه كان ينتظرها منذ سنين : بين القوم غلام تُظِلُّه غمامة، وتحنو عليه أغصان الأشجار ٠ هل هو هو ؟ فلينتظر ٠ ٠ ربما يكون!!

"يا معشر قريش إني صنعت لكم طعاما ٠ ٠ هكذا ! ! وما ألفت قريش من بحيرا أن يعد لها طعاما، أو أن يلتفت إليها، أو يكترث حتى بمجرد تبادل كلمات في حديث٠

قال رجل منهم : والله يا بحيرا إن لك لشأنا اليوم. ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيرا ! ! فما شأنك اليوم؟قال له بحيرا : صدقت. قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف وقد أردت أن أكرمكم وأن أصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم٠

طلب منهم أن يحضروا جميعا، كبيرهم وصغيرهم،عبدهم وحرهم،لا يتخلف منهم أحد٠ لبوا دعوته ٠ تركوا محمدا مع العير لحداثة سنة ٠ تأملهم بحيرا، ما وجد بينهم مبتغاه ذلك الذي تظلله الغمامة٠

قال بحيرا: يا معشر قريش طلبت ألا يتخلف منكم أحد عن طعامي ٠ قالوا: ما تخلف إلا غلام هو أحدث القوم سنا في رحالهم ٠ فقال : أُدعوه فليحضر طعامى فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أني أراه من أنْفَسكم ٠ قالوا : هو والله أوسطنا نسبا وهو ابن أخي هذا الرجل، يعنون أبا طالب٠

قام الحارث بن عبد المطلب، احتضن محمدا، ثم أقبل به على الطعام حتى أجلسه ٠ لقد أحس أنه من اللؤم أن يتخلف من بينهم من كان عزيزا على عبد المطلب٠

تأمل بحيرا الغلام ٠ الغمامة مازالت تسير، حيث سار، ما فوق رأسه ٠ كانت علامة ٠ لكن كانت هناك علامات أخرى لابد وأن يتأكد منها ٠ اقترب من الصبى عندما تفرق القوم، قال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلاّ أخبرتني عما أسألك ٠ ورفض محمد أن يُسأل بحق اللات والعزى فما بغض في حياته شيئا بغضهما فاستحلفه الراهب بالله. وأجاب محمد٠

ويقال إن بحيرا أخذ يتأمل ما بين عينى محمد، ثم استدار وكشف عن ظهره فرأى ما يسمى بخاتم النبوة بين كتفيه، وهو لحم ناتئ بين كتفي النبي قيل إنه في حجم التفاحة وشكلها٠ ويزعمون أن الراهب انحنى في إجلال وقبل موضع الخاتم،ثم سأل أبا طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال أبو طالب: ابني ٠ قال:ما هو بابنك،ما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ٠ قال: فابن أخي ٠ قال الراهب: فما فعل أبوه؟ قال:هلك و أمه حبلى به ٠ سأل الراهب: فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريبا ٠ قال:صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده وأحذر عليه اليهود. فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليبْغُنَّه عَنَتًا. فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا[٥٥]٠

55- ابن سعد ، جـ ١، ص ١٥٤ ، ١٥٥.

يـورد " مونـتجمري وُت " قصة الراهب بحيرا وما قاله عن محمد،ويعلق عليها. يقول: في حوالـي عـام٦٠٠ مـيلادية، في يوم صيف في سوريا. تحركت قافلة من تجار العرب ببطء تجـاه الجـنوب ٠ لقد جـاءوا مـن مكـة مسيرة أربعـين يومـا ٠ ٠ وهاهم في طريق العودة ٠ وبالقـرب مـن بُصـرى، عـلى جانـب مـن جـبل الدروز، مروا بصومعة راهب مسيحى يدعى بحيرا ٠ ٠

ويسـتمر مونـتجمري وُت في روايـة القصـة كمـا وردت في كتـب التراث ، ثم يعلق عليها يقولـه : هـذه بالطـبع مجرد حكاية، وهى تقوم على أساس من أفكار بدائية ٠ ٠ومع ذلك فـإن أهميتها تكمن في أنها تعبر عن وجهة النظر الإسلامية الشائعة عن محمد: لقد مُيِّز منذ شـبابه المبكر وحتى قبل مولده، بعلامات وصفات اختصته بها قوى لا بشرية ٠ ٠ ورغم أن قصة الراهب بحيرا هى مجرد أسطورة، إلا أنها تظهر بصدق نوع العالم الذي عاش فيه[٥٦]٠

نحـن لا نـثق فـيما يقـول بـه مونـتجمري وُت، وذلـك لعـدم الدقة في أقواله، وللتضارب الواضـح فـيما يـورده مـن أحـداث، فهـو يقـول عـلى سبيل المثال إن الغلام، محمدا، خرج مع القافلة في صيف عام ٦٠٠ ميلادية، وتركه القوم مع الجمال لصغر سنه٠

وإذا كـان محمـد قـد ولد في عام الفيل، أي في عام ٥٧٠ ميلادية ، كما أجمع على ذلك المؤرخون، فكيف يكون مجرد غلام وهو في الثلاثين من عمره؟ إن مونتجمري وُت نفسه يقرر في الصـفحة السـابعة مـن كـتابه الـذي أشـرنا إلـيه، أن محمـدا قـد ولـد في عـام الفـيل، وفي الصـفحة الثانـية عشـرة مـن نفس الكـتاب يذكـر أن محمـدا قد تزوج وهو في الخامسة والعشـرين من عمره، وعلى ذلك فإن الزواج لابد وأن يكون قد تم حوالي عام ٥٩٥ ميلادية، فكـيف يكـون محمد مجرد صبى عندما خرج مع القافلة – كما يدعي مونتجمري وُت — في عام ٦٠٠ ميلادية؟

لقـد خـرج محمد في صباه مع القافلة حوالي عام ٥٨٢ ميلادية، وهو في الثانية عشرة من عمـره، لا في عـام ٦٠٠م ٠ والتخـبط واضـح التـناقض فـيما يقوله الناقد الإنجليزي، يجعلنا لا نلتفت إلى ما يقول٠

ويدعـى " جـورج مـور George Foot Moore "، في كـتابه **تـاريخ الأديـان**، أن لقـاء محمـد بالراهـب المسيحى، أثـناء رحلـته في صـباه مع عمه إلى الشام، وتصريح الراهب بأن

56- Montgomery Watt, **Muhammad :Prophet and Statesman** , pp . 1-3 .

الصبى سيكون له شأن كنبى وصاحب رسالة. لا يزيد عن كونه حكاية من حكايات الورع الديني المختلق[٥٧].

ويرى "أطهر حسين Athar Husain " أن هذه المقابلة التي تمت بمحض الصدفة بين محمد في صباه وذلك الراهب النسطوري دفعت بعض كتاب المسيحية، مثل سير "وليم ميور Muir " و "دريبر Draper " إلى الادعاء بأن محمدا قد تلقى تعاليمه الدينية من هذا الراهب ٠ ٠ أي أنه تتلمذ عليه وتعلم منه ٠ ٠ ولو كان ذلك كذلك ما رفض محمد أغلب تعاليم المسيحية وعارضها ٠ ٠ وما نقض أغلب ما جاء في التوراة عن بعض الأنبياء الذين سبقوه[٥٨].

كان على أطهر حسين أن يضيف : هل كان هذا اللقاء العابر بين الصبى والراهب المسيحى، كافيا كي يتعلم محمد كل ما يجب أن يتعلمه عن المسيحية، وما جاء ذكره من قصص الأنبياء كما وردت في "العهد القديم"؟ إن الحديث بين محمد والراهب لم يزد عن دقائق معدودات، فكيف تعلم في تلك الدقائق كل ما يدعون أنه قد تعلمه من الراهب عما جاء في "الكتاب المقدس "، أي " العهد القديم" كتاب اليهود، و "العهد الجديد" كتاب المسيحيين؟ إن الإحاطة بما جاء في هذين الكتابين من أسفار يحتاج إلى أعوام، لا إلى عدة دقائق أو حتى عدة أيام ٠ ثم ٠ ٠ هل كان باستطاعة صبي في الثانية عشرة من عمره أن يستوعب تعاليم اليهودية المعقدة وطقوس المسيحية الغامضة في مجرد لقاء، أو حتى أكثر من لقاء؟

إن الاتهام ينقصه المنطق والمعقولية ويشوبه التعصب، ويخلو من العدالة الموضوعية المتجردة، التي هى أهم صفات الناقد المنصف٠

في رأي الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى، لم تكن رحلة محمد مع عمه إلى الشام هى الرحلة الوحيدة التي أثرت تجاربه في بداية عمله بالتجارة، لقد خرج أيضا مع عمه الزبير في رحلة الشتاء إلى اليمن ٠ يقول الشرقاوى : ها هو ذا محمد يضطر إلى أن يشتغل أجيرا في إحدى القوافل ليعيش، فما كان يملك الدينارين أو الدينار ! ويخرج إلى اليمن مع عمه الزبير في رحلة الشتاء ٠ ٠ وفي هذه الرحلة كان ما يزال هو الفتى الذي جاوز العشرين

57- George Foot Moore , **History of Religions**, T&T. Clark. Edinburgh, 1965, p . 386.

58- Athar Husain , **Prophet Muhammad and His Mission**, Asia Publishing House, Bombay, 1967, pp 6-7.

بقليل. وليس له في القافلة مال، ولا ناقة له فيها ولا جمل ٠ ٠ وإنما هو أجير ٠ ٠ ورأى كيف يكسب التجار ٠ ٠ كيف يخسرون الميزان ويغشون في الكيل [٥٩].

وربما يكون عمل محمد كأجير في قوافل التجارة، هو ما دفع بعض كتاب الغرب إلى أن يطلقوا عليه عبارة "سائق الإبل"، وربما وصفوه بهذا الوصف كمجرد محاولة للتقليل من شأنه والتهوين من أمره، ولكي يحاولوا إقناع جمهورهم وقرائهم أن سائق الإبل هذا لا يمكن أن يصبح نبيا ٠ونسوا أن موسى كان أجيرا ولمدة أربعين عاما رعى غنم حميه في صحراء مدين ثم أصبح موسى النبي، وأن داود في صباه كان مجرد راعي غنم لا يملك من ثراء الدنيا إلا قوت يومه ثم أصبح داود المَلك، وأن المسيح عاش في أسرة فقيرة وعمل في صباه بالنجارة ثم أصبح هو المختار لإنقاذ البشر٠

ومن الحق أن نقول إن محمدا لم يكن يملك من المال ما يمكنه من أن يصبح صاحب تجارة يستقل بها ويقوم على أمرها وينميها، كي يحتل بعد ذلك مكانا مرموقا بين تجار مكة ٠ ربما يكون هذا هو دافعه إلى اتخاذ شريك له، وربما أكثر من شريك ٠ ويقال إن أحد شركائه كان شابا قرشيا يسمى السائب بن أبي السائب، اختاره محمد وارتاح إليه لما رأي فيه من أمانة في التعامل وسماحة في الخلق ٠ كانا يشتريان بعض البضائع من التجار، يبيعانها في الأسواق، ويقتسمان ما تدره عليهما من ربح٠

ويذكر الإخباريون أن النبي التقى بشريكه السابق، السائب بن أبى السائب، بعد فتح مكة، فهش للقائه واحتفى به وأكرمه، وذلك وفاء لما كان بينهما من رفقه قديمة في صدر الشباب ٠ وقد عبر النبي عن ثنائه على صاحبه عندما قال له على مسمع ممن حوله: مرحبا بأخي وشريكى، كان لا يشارى ولا يمارى٠

لكن، ما الذي كان يتجر فيه؟سؤال يثيره الإمام الشيخ محمد أبو زهرة، ويجيب: مازال هذا السؤال يلح علينا مادمنا لم نذكر مادة تجارته فيما ذكرنا،ولكن يصح أن نسد الفراغ في هذا الجزء من تاريخه،عليه الصلاة والسلام، بأنه يتجر في البضائع التي تتبادل داخل مكة المكرمة، ولا تذهب خارجها،لأنه لم يعرف أنه خرج من مكة المكرمة مع قافلة التجار إلى اليمن أو الشام،فكانت تجارته عليه الصلاة والسلام،مع شريكه مقصورة على ذلك النطاق داخل المدينة،وما يفد إليها،وقد كانت فيها أسواق تمتلئ بالتجار في موسم الحج ٠ وكون الحجيج يفدون من أقصى أرض العرب إلى أدناها لابد أن يجعل فيها بضائع ترد إليها مع الحجيج،ويأخذ الحجيج من بضائع مكة المكرمة يعودون بها إلى ديارهم[٦٠] ٠

59- عبد الرحمن الشرقاوي، **محمد رسول الحرية**، ص ٣٩.

60- أبو زهرة، حـ١، ص ١٣٢

قادته طبيعة عمله في التجارة إلى أسواق مكة وما جاورها، وخاصة سوق عكاظ، حيث استمع إلى فطاحل الشعراء وأعلام الخطباء والمتحدثين في أمور الدين، سواء كانوا من أتباع موسى أو أنصار عيسى أو من المجوس عبدة النيران . كانت الحرية مكفولة للمتحدثين، وبلا حدود . ويقال إنه استمع إلى قَسّ بن ساعدة الإيادي أسقف نجران وهو يعظ في بلاغة آسرة وحماس متدفق.

ويفترض جونستون Johnstone أنه ربما راودت محمد فكرة اعتناق المسيحية وهو يستمع في تركيز شديد إلى قس بن ساعدة أسقف نجران وهو يتحدث في بلاغة دافقة، لكنه لم يقدم على ذلك لسببين : كبرياؤه الأسري "الحرون"، والفساد الذي استشرى في تلك العقيدة والذي كان يلحظه فيما حوله . ولو اعتنق المسيحية لخسر العالم إحدى دياناته الرئيسة، ولربما أضيف إلى أسماء القديسين اسما جديدا[61].

اشتهر محمد في تجارته، وفي تعامله مع أهل مكة، بالأمانة وذاعت صفته حتى أصبحت علما، فإذا ما قيل"الأمين"، عرف السامع دون أدنى شك أن المقصود هو محمد . ولقد كان سلوكه المتزن الهادئ الذي تكسوه مسحة حزن، يتواءم مع طبيعة تكوينه منذ طفولته حتى صدر الشباب . كان بإمكانه أن يندمج في مجتمع مكة فيشرب ويعبث ويسعى إلى النساء في مضارب الرايات الحمراء . لكنه لم يفعل . ليس عجزا أو فقرا، فقد كان كل هذا - بطريقة أو بأخرى حتى للصعاليك والخلعاء الذين يعانون من ضيق العيش وربما لا يجدون قوت يومهم إلا بشق الأنفس.

لقد نأى عن لهو مكة وملذاتها بإرادته الخالصة ونفسه الطاهرة التي كانت ترفض أن تلوث بما لا يرجى منه خير، ولا ينتج عنه إلا الخسران . كانت نفسه تطمح في أعماقها إلى الكمال، وكانت روحه ترنو إلى الجلال، وظل الجسد عفيفا لا يتدنى إلى وحل الغريزة ومجالس الخمر التي تذهب بعقول الرجال.

التفكير في الزواج: عندما وجد في جسده ميلا يدفعه نحو الأنثى بحكم طبيعة التكوين البشرى كما صاغه خالقه، تقدم إلى امرأة يخطبها كي تكون له زوجة يروى الأستاذ الشرقاوى : أنه رأي في الكعبة امرأة شابة جميلة تطوف وليس في هيئتها وزينتها وثوبها ما ينكره . . كان اسمها ضباعة بنت عامر بن صعصعة، فخطبها محمد لنفسه . . وشغفت المرأة به حبا . .لكنه علم أنها حين كانت تطوف بثوبها المحتشم ألقت شعرا

61- P . De Lacy Johnstone ,p 51 .

فاحشا متغزلة في فتوته. ثم ذكر له عنها ما جعله يتركها ٠ ٠ ففسخ الخطبة. وحزنت المرأة حتى تلفت من الكمد [٦٢].

ويقال إنه تقدم وهو في حوالي العشرين من عمره لخطبة ابنة عمه أبي طالب ٠ وكان لأبي طالب — الذي اسمه عبد مناف – من الولد: طالب وهو أكبر ولده. وعقيل ويكنى أبا زيد، وجعفر المشهور باسم جعفر الطيار. وعلي ٠وكان له من البنات: أم هانئ واسمها هند ويقال أيضا كان اسمها فاختة، وجمانة، ورَيْطة، وأمهم جميعا فاطمة بنت أسد بن هاشم٠

وكانت فاختة (أم هانئ) قد بلغت سن الزواج ٠ ويدعي لينجز Lings أنه قد نما بينها وبين محمد نوع من التقارب في العاطفة والإحساس، وتحدث محمد إلى عمه في أمر زواجه منها ٠ لكن أبا طالب كان لديه خططا أخري فيما يختص بزواج ابنته ٠ لقد تقدم لطلب يدها أحد أبناء أخواله من قبيلة مخزوم، ولم يكن هذا المخزومى ثريا فقط، بل كان مثل أبي طالب شاعرا موهوبا ٠ زد على ذلك أن قوة مخزوم في مكة كانت في ازدياد، بينما كانت قوة هاشم تعانى من حالة تدهور ٠ وعلى ذلك فقد زوج أبو طالب ابنته للمخزومي ٠ وعندما لمح نظرة العتاب في عيني ابن أخيه، قال له في لطف: " لقد زوجونا من قبل من بناتهن"، وهو يشير بالطبع إلى أمه ٠ ٠ واعتبر محمد كلمات عمه الرقيقة المهذبة بديلا عن القول بوضوح إنه ليس في وضع يسمح له بالزواج[٦٣] ٠

ربما سبب هذا الموقف لمحمد شيئا من الألم، لكنه تحمل في صمت كعادته، ومارس شئون حياته في هدوء ٠ كان دائما بين الناس في الخير، بعيدا عنهم إذا ما اقتربوا من معصية، تواقا إلى مد يد العون، ودودا عطوفا طيب النفس، أحب الناس كثيرا فأحبوه كثيرا٠

في دار الندوة: ويقال إنه كان يحضر الندوة، ويجلس — رغم صغر سنه — بين كبار مكة ووجهائها، ومدبري أمرها وحكمائها ٠ كان له حضور ووعي، كما كان في نظراته ولفتاته ما يجذب الأنظار ويسترعي الانتباه٠

يحكى أن وفدا من كبار اليمن حضر يوما إلى دار الندوة وكان م د هناك فنظر إليه قيْل من أقيالهم، ورأي فيه نظرات قوية أحيانا، وهادئة مستبشرة أحيانا أخرى، فقال: مالى أرى هذا الغلام ينظر إليكم بعيني لبؤة، وأخرى بعينى عذراء خفرة، والله لو أن نظرته

62- الشرقاوي، ص ٣١.

63- Lings, p. 33.

الأولى كانت سهاما لانتظمت أفئدتكم. فؤادا فؤادا، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيما لأنشرت أموالكم[٦٤] .

اشتراكه في حرب الفجار وحلف الفضول: ويقال إن محمدا اشترك، في صدر شبابه. في حرب الفجار . ويرى ابن هشام انه كان في حوالي الخامسة عشرة من عمره، أما ابن إسحاق فيرى أنه كان في العشرين . ويرجح المؤرخون رأي ابن إسحاق على أساس أن "الناس في السيرة عيال على ابن إسحق". كما قال الإمام الشافعي . ومما يرجح هذا الرأي، أيضا، اشتراك محمد بعد انتهاء الحرب في حلف"الفضول"، وما كان ليشارك فيه وهو صَبِى في الخامسة عشرة من عمره.

أُطلق على هذه الحرب اسم" الفجار" وذلك لفجور من اشتركوا فيها . لقد أشعلوها وأججوا نيرانها في شهر حرام، والأشهر الحرم،أى التي حرم فيها القتال — كي يكون الحج إلى " البيت" والعودة منه آمنا لا خوف فيه — هى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . ويقال إن الحرب نشبت في شهر رجب، وهو شهر حرم فيه القتال لأنه شهر عمرة "مضر" .

سبب هذه الحرب — كما يرويها الإخباريون — هو أن رجلا من كنانة، يدعى البَّراضَ بن قيس الكناني، غافل رجلا من هوازن هو عُرْوة الرحال بن عتبة الهوازنى وقتله، ويقال إنه استولى على قافلة للنعمان بن المنذر كان يجيرها الهوازنى المقتول . وما كان لهوازن إلا أن تسعى للثأر، فقد قتل أحد رجالها ونهبت العير التي كان يجيرها، في الشهر الحرام . لقد فجُر الكناني عندما أقدم على الخيانة والغدر في شهر نصت الأعراف على أنه أمن لا غدر فيه.

انضمت قريش إلى كنانة واشترك من رؤسائها عبد الله بن جُدْعان، وحرب بن أمية، وأبو أُحَيْحة سعيد بن العاص،وعتبة بن ربيعة، والعاص بن وائل، وعكرمة بن هاشم بن عبد مناف، ويقال إن أمرهم كان إلى عبد الله بن جُدعان . أما هوازن فقد ألقت بكل ثقلها وخرجت بخيرة رجالها، وكان من بينهم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر، ودريد ابن الصِّمَّة، ومسعود بن معتِّب الثقفى، وأبو عروة بن مسعود، وعَوف بن أبي حارثة المرى، وعباس بن رِعْل السُّلَمى، ويقال إن أمرهم جميعا كان إلى أبي براء الذي حمل الراية وسوى الصفوف للقتال.

استمرت الحرب على فترات متقطعة لمدة أربع سنوات ثم انتهت بالصلح، عندما نادى به عتبة بن ربيعة وهو آنذاك شاب في حوالي الثلاثين من عمره . ودَتْ قريش (أي دفعت

64- أبو زهرة، حـ ١، ص ١٣٢.

دية) ما زاد عن قتلاها. ووضعت الحرب أوزارها . ويروى ابن سعد أن النبي قد ذكر حرب الفجار فيما بعد فقال : قد حضرته مع عمومتى ورميْت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت[٦٥].

من الواضح أن محمدا لم يسع للاشتراك في هذه الحرب، ولم يقم فيها بدور المقاتل . أعمام محمد هم الذين اصطحبوه. وربما لو لم يصطحبوه ما ذهب . ورغم ذهابه مع أعمامه، فإنه لم يضرب بسيف ولم يطلق سهما، أي أنه لم يقتل أحدا ولم يرق دما، ذلك لأن الحرب منذ بدايتها. فيما يختص بقريش وكنانة، لم تكن حربا عادلة،فالذي خان وقتل وسرق واستباح حرمة الشهر الحرام كان من كنانة . وما كان لمحمد أن يقاتل في سبيل باطل : " كنت أنبل عن أعمامي "، أي : أرد عنهم نبْل عدوهم إذا رموهم بها . و نرجح أن دوره لم يزد عن جمع السهام التي تلقيها هوازن ودفعها إلى أعمامه كي يوجهوها إلى أعدائهم.

عندما انتهت الحرب، اقترح الزبير بن عبد المطلب، عم محمد ،إقامة حلف تكون مهمته منع الفوضى وحفظ السلام وحماية المسافر ومساعدة ضحايا الغدر أو الاضطهاد . اجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيْم في دار عبد الله بن جُدعان، سيد بني تيم، الذي أَوْلَمَ لهم . وفي هذا الاجتماع (كان في ذي القعدة، العام العشرين بعد الفيل)تعاهدوا واقسموا جميعا أن يقفوا إلى جوار المظلوم حتى يرفع عنه الظلم، وألا يسمحوا للص أو غادر أو قاتل أن يفر بجرمه دون قصاص . وأطلق على هذا الحلف اسم " حلف الفضول"، لأن أصحابه دخلوا في فضل من الأمر التزموا به، وقيل إن الفضول معناها الحقوق، وتحالفوا على ردها.

ويدعي البعض أن هذا الحلف استمر في أداء مهمته خلال الخمسين عاماً الأولى من ظهور الإسلام . ولقد شهد محمد هذا الحلف وأشار إليه بعد النبوة بقوله: ما أُحب أنَّ لي بحلف حضرته بدار ابن جُدعان حُمْرَ النَّعَم . . ولو دعُيت به لأجبتُ وهو حلف الفضول.

صِفَتُهُ :ومعنى حضور محمد "حلف الفضول"، هو أن محمدا قد أصبح له قدْرَه في مجتمع مكة، رغم أنه مازال في صدر شبابه الأول . ولقد ساعده على ذلك ما كان يتمتع به من صفات إنسانية سامية، يندر أن تجتمع في فرد واحد . كان، إلى جانب أمانته المطلقة، بسيطا في جميع أفعاله . ما تبختر يوما في مشيته، رغم جمال تكوينه الجسماني: كان متوسط الطول وسيما، واسع العينين، طويل الأهداب، دقيق الأنف، قوى البنيان،مفتول العضلات، عريض الصدر والمنكبين، مستدق الأصابع، يغطي صدره ورقبته

٦٥- ابن سعد ، حـ١ ، ص ١٢٨ .

شعر خفيف . أما عن شعر رأسه فقد كان طويلا كثيفا متموجا بعض الشيء، لا يقترب منه في الكثافة إلا شعر اللحية الذي كان يميل إلى البياض . كان وجهه وضاءً، وابتسامته تبعث المسرة والاطمئنان في نفوس الآخرين.

كان عندما يسير، يسير بثبات وسرعة، دون أن يلفت نظر أحد بجلبة يحدثها . هادئُ كان، عميقُ التفكير، طويلُ فترات الصمت، لا يتحدث إلا عند الضرورة . وكان يوضح معنى ما يقول بتكرار العبارة أكثر من مرة، وقد كان نطقه منزها من العيوب: مخارج الحروف عنده سليمة دقيقة لا تشوبها شائبة، فهو - كما يقول العقاد - صاحب كلام سليم في نطق سليم . ويؤكد الإمام محمد أبو زهرة نفس الصفة بقوله: كان في منطقه حلاوة، فيخرج اللفظ من لسان واضح بيِّن، تخرج الحروف من مخرجها وتقع في مواضعها، والسامع مشدوه من حلاوة الكلمة، وحلاوة اللفظ، والمعاني الأبكار، في أسلوب لا توعر فيه ولا تكلف [٦٦].

كان إذا ضحك، لا تزيد ضحكته في أغلب الأحيان عن ابتسامة - رغم بساطتها وعدم تكلفها - لها قوة آسرة . ودائما ما كان يسيطر على أحاسيسه سيطرة كاملة، وإذا ما ضايقه أحد أدار وجهه والتزم الصمت . وعندما كان يشعر بالرضا والسعادة، كان غالبا ما يرخي جفنيه.

ما نسى المعروف يوما، وكان يؤثر الآخرين على نفسه . ولقد شاعت صفاته من أدب، ورحمة، وعفو، وتسامح، وجود، وتضحية، وبساطة، وتواضع، وهيبة، وكبرياء، وإخلاص، وشرف، وصدق، وعدل، وشجاعة، بالإضافة إلى شئ من المرح والدعابة . احترم الجميع، واحترمه الجميع . واعتبرته مكة من خيرة شبابها.

ويروى الأستاذ الشرقاوى عن محمد قصة نوردها هنا لطرافتها رغم عدم تصديقنا لها، إذ نعتبرها مجرد إبداع خيالي لا صلة له بالواقع . والأستاذ الشرقاوى في تكوينه الأدبي، ليس مؤرخا، إنما هو كاتب مسرحي وقصاص . يقول الشرقاوى في قصته التي يرويها عن محمد: الصغار والكبار مازالوا يذكرون إقدامه الجسور على فحل من الإبل كان قد جمح وتوحش وأصبح كالكواسر الضارية، حتى لقد فرَّ الشجعان من أمامه . . على أن محمدا اقتحم عليه وجذبه بكل قوته فأخضعه وكبح جماحه . ولم تكن قريش قد تعودت من قبل

66- أبو زهرة، حـ١، ص ١٦٧.

هـذا الإقدام في مواجهة الخطر ٠ ٠ لم تكن قد عرفت بعد شجاعا — قبل محمد بن عبد الله — يواجه بمثل هذا الهدوء والاستبسال، قوى صماء شرسة تخلع القلوب من الرعب[٦٧]٠

القصة رغم طرافتها، تبدو وكأنها لا تزيد عن مجرد إبداع أملته قريحة المؤلف، ولا صلة لها بحياة محمد في مكة، ولو حدثت فعلا لتم ذكرها في أكثر من مصدر ٠ والأستاذ الشرقاوى لا يذكر المصادر أو المراجع التي أخذ عنها، ولو ذكرها لأفاد القارئ، لكنه لا يفعل ذلك أبدا، ربما لحكمة لا ندركها٠

ـ ٤ ـ
خديجة
حكاية الزواج

خديجة كانت من فضليات نساء مكة، وأكثرهن شرفا، وأعظمهن مالا ٠ ٠ سمعت الكثير عن محمد، وعرفت أيضا الكثير عنه منذ مولده وحتى تخطيه سن العشرين ٠ ويدعي الشيخ خليل عبد الكريم أنه: استقر في بؤبؤ عين خديجة أن محمدا (هو) أي القادم المنتظر الذي أظل أو أطل زمانه وتحدث عنه أحبار اليهود ورهبان النصارى وكهان القبائل وسدنة الأصنام والكعبات[٦٨] ٠ كانت تتوقع، كما توقعت آمنة، وكما توقع عبد المطلب، أن يكون لمحمد مكانة وشأنا ٠ لذلك قررت أن تقربه منها، تتعامل معه بصورة مباشرة، تمنحه فرصة كي يتاجر في مالها ويخرج في تجارتها، وبعدها يكون لها رأى وموقف٠

كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ، تكبر محمدا في الأعوام، لكنها كانت ما تزال على قدر من جمال، يزيده بهاءً طهارة نفسها وشرف سلوكها ٠ جاء في **الطبقات الكبرى** لابن سعد، أنه قبل أن يتزوجها أحد : ذُكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ فلم يُقض بينهما نكاح، فتزوجها أبو هالة واسمه أبو هند بن النباش بن زرارة ٠ وكان أبوها ذا شرف في قومه ونزل مكة وحالف بها بني عبد الدار بن قصيّ ٠ وكانت قريش تزوج حليفهم ٠ فولدت خديجة لأبي هالة رجلا يقال له " هند"، و"هالة" رجل أيضا ٠ ثم تزوجت بعد أبى هالة عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم فولدت له جارية يقال لها هند تزوجها صيفي بن أمية بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمها، فولدت له مـ ـدا، ويقال لبني محمد هذا بنو الطاهرة لمكان خديجة، وكان له بقية بالمدينة وعقب فانقرضوا وكانت خديجة تدعى أم هند[٦٩]٠

67- عبد الرحمن الشرقاوي، ص ٦٢ .
68- خليل عبد الكريم، **فترة التكوين في حياة الصادق الأمين**، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠١، ص٣٧
69- ابن سعد، جـ ٨، ص ١٤ ـ١٥ .

ورثت خديجة عن زوجيها، وقد توفيا عنها. ثروة طائلة جذبت أنظار سادة قريش وكبرائها، لكنها لم تقبل الزواج بأى ممن تقدم لها ٠ ربما لم تجد من بينهم من تسكن إليه روحها، وتطمئن في وجوده نفسها. اكتفت بأن تتاجر في أموالها وتنمى مقدار ثرائها ٠ كانت تتميز بالحكمة ورجاحة العقل وحسن اختيار من يخرجون للاتجار في مالها٠

فكرت خديجة في محمد، كواحد من رجالها. فهو الأمين الشريف الذي لا تشوب سمعته شائبة ٠ هذا بالإضافة إلى ما تنبأ له المتنبئون وهى قصص شاعت، ولابد وأن تكون قد علمت بها خديجة٠

بدأت خديجة مع محمد بتجرَبة صغيرة ٠ أرسلته في مال لها إلى سوق حُباشة بتهامة، وأرسلت في صحبته رجلا آخر ٠ عاد لها بمالها وما زاد فوقه من ربح، ما نقص منه شيئا ٠ وتأكد ما كان كامنا في أعماقها: أمانته هى المطلق الذي لا شك فيه، ثابتة راسخة كاليقين٠

هكذا بدأت وترسخت الثقة التي لا حدود لها، ثم بعد ذلك كان الإصطفاء٠

جهزت خديجة تجارة لها تخرج مع القوافل في رحلة الصيف إلى الشام ٠ كان محمد قد بلغ الخامسة والعشرين، ومازال يعيش في كنف عمه أبى طالب ٠ وكان أبو طالب قليل المال، كثير العيال ووردت بخاطر أبى طالب فكرة أن يخرج محمد في مال خديجة، فتعطيه ما تعطى غيره من الرجال، وربما تزيد، وفي هذا مصدر رزق يعين محمدا على مواجهة أعباء الحياة، وهو الذي لم يرث عن أبيه شيئا يذكر٠

" يا ابن أخي"، قال أبو طالب مخاطبا محمداً، " قد بلغني أن خديجة استأجرت فلانا ببَكْرين ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن تكلمها ؟"

أبو طالب يطلب من محمد أن يكلم خديجة كي تستأجره ! !

رغم حاجته إلى هذا العمل، رفض محمد أن يكلم خديجة ٠ ٠ نفسه تأبى، وروحه تتسامى ٠ ٠ يعرض نفسه؟! لا ٠ ٠ ولا بكل كنوز الأرض، وما هو في حاجة إليها٠

ذهب أبو طالب إلى خديجة : هل لك يا خديجة أن تستأجرى محمدا؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببَكْرين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربع أبكار" ٠

وبكرم نفس غير غريب على سيدة في مثل مكانة خديجة،كان الرد : لو سألت ذاك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألت لحبيب قريب؟

محمد بالنسبة لخديجة، ومنذ البداية، حبيب قريب ٠ ٠ إحساس كمن في أعماقها منذ رأت محمدا ثم استأجرته ليتاجر بمالها في سوق حُباشة ٠ فليخرج الأمين في عيرها ٠ هذا

ما كانت ترغبه، حتى قبل أن يتحدث إليها أبو طالب ٠ ولو لم يسرع أبو طالب بالذهاب إليها، لأسرعت هي بإرسال من يطلب محمدا٠

"يا محمد!!"، قال أبو طالب، "هذا رزق قد ساقه الله إليك" وما كان لمحمد أن يرفض٠ قرر الخروج في مال خديجة مع القافلة المتجهة إلى الشام٠

خرج ميسرة، غلام خديجة، في صحبة محمد، وأوصي أبو طالب أهل العير بمحمد ومن معه وما معه ٠ إنطلقت القافلة حتى بلغت بُصري في أرض الشام ٠ استراح محمد في ظل شجرة بالقرب من صومعة راهب يقال له نسطور، وهو بالطبع غير بحيرا الراهب الذي التقى به وهو في الثانية عشرة من عمره، أي منذ ما يقرب من ثلاثة عشر عاما٠

ويزعم الرواة أن الراهب سأل ميسرة: من هذا الرجل الجالس تحت الشجرة؟ رد ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم٠

علّق الراهب على كلام ميسرة بقوله: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي٠ ثم قال لميسرة: أفي عينيه حمرة؟ قال: نعم لا تفارقه ٠ قال الراهب: هو نبي، وهو آخر الأنبياء[٧٠]٠

وبوضوح قد يغضب بعض المتفيقهين، هذه قصة مرفوضة، لأنها لا تستقيم مع المنطق ٠ ما معنى أنه ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ؟

هل هي شجرة مخصصة للأنبياء فقط؟ وماذا يحدث لو جلس تحتها من ليس بنبي؟ هل يحرق بصاعقة من السماء، أم تبتلعه الأرض ٠ ٠ أم ماذا ؟!! كيف يُمنع؟ ومن الذي — أو ما الذي — يمنع أي أعرابي أو غير أعرابي، يهودي أو نصراني أو مجوسي، من الجلوس تحت الشجرة؟

ومن هم الأنبياء الذين جلسوا تحت هذه الشجرة؟ ٠ ٠إبراهيم مثلا، وبينه وبين محمد ما يقرب من ألف وأربعمائة عام ٠ ٠ أم المسيح، وهو آخر من أرسل قبل محمد، وبينه وبين محمد ما يقرب من ستمائة عام؟!

هذه القصص وأمثالها — كقصة الغمامة التي كانت تظلله أثناء هذه الرحلة (ويقال ملكان)، والتي قيل أنها كانت تظلله وهو طفل — لا تضيف شيئا إلى شخصية محمد، ولا إلى جوهر الرسالة التي كلف بتبليغها ٠ ولا يمكن ، يقوم دين آمن به الملايين، مئات الملايين، في كل أرجاء الدنيا، على أساس من حكايات حكاها ميسرة أو رواها طفل (ابن حليمة السعدية) لم يبلغ من سني عمره الثالثة أو الرابعة ٠ الإسلام هو القرآن، ومحمد كان خُلُقه القرآن ٠ ألا يكفى هذا ؟!!

70- ابن سعد، حـ ١، ص ١٣٠.

لا يحتفل الدكتور هيكل بحكاية الشجرة والغمامة وما قال الراهب، لكنه يقول إنه لما بلغ محمد بُصْري : اتصل بنصرانية الشام وتحدث إلى رهبانها وأحبارها، وتحدث إليه راهب نسطوري وسمع منه. ولعله أو لعل غيره من الرهبان قد جادل محمدا في دين عيسى، هذا الدين الذي كان قد انقسم يومئذ شيعا وأحزابا[٧١].

هذه النقطة التي أشار إليها الدكتور هيكل — وهي ليست جديدة في مجال التأريخ لحياة محمد — أثارت في الغرب. ومنذ عدة قرون، أقاويل وإشاعات وافتراءات تتهم محمدا بعدم الأصالة، وبأنه تعلم من هذا الراهب وأخذ عنه ما أسماه بعد ذلك دينا . بل لقد بالغ البعض، بغباء منقطع النظير عندما ادعَوا أن محمدا ما هو إلا الراهب نسطور نفسه . وسنناقش هذه النقطة بالتفصيل — في حينها — بين دفتي هذا الكتاب.

نعود الآن إلى ما فعله محمد بمال خديجة . باع محمد ما حمله من مكة، واشترى لخديجة ما طلبته من أرض الشام . عاد بتجارتها وقد ربحت الكثير، يقال ضعف ما كانت تربح . دخل مكة ساعة الظهيرة توجه مباشرة إلى دار خديجة . شئ غامض في داخله كان يدفعه للإسراع إليها . كان بإمكانه أن يستريح، ولو قليلا من وعثاء السفر - أو ينتظر حتى تنكسر أشعة الشمس . لكن لا . . من مشارف مكة إلى بيت الطاهرة . لن يتوانى لحظة عن رد الأمانة إلى أهلها.

كانت خديجة في نفس اللحظة في عُلِّية لها، أي في حجرة بأعلى دارها، ترنو بنظرها إلى الأفق، ، كأنها تتوقع في تلك اللحظة أن يعود . ما خدعها ذلك الصوت الهامس في أعماقها: "إنه القريب الحبيب"!! ظهر محمد في مقدمة العير . هبطت خديجة مسرعة كي تستقبله . ربما حاولت أن تخفي لهفتها، وربما خيل لمن رأينها من صو يحباتها، آنذاك، أنها فتاة في العشرين.

قص عليها حكاية رحلته، وتجارته، وأرباحه، ومشترياته وعودته، وهي تستمع إليه مأخوذة مبهورة، وكأنها عذراء في أول لقاءلها برجل. ويزعمون أنها قالت له: "يا ابن عم، إني قد رغبت فيك، لقرابتك وسِطتك (شرفك) في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك"، ثم عرضت عليه نفسها[٧٢].

لكن الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى يعتقد أن خديجة لم تفكر في الزواج من محمد بعد خروجه بتجارتها في رحلة الصيف إلى الشام، إنما كان ذلك بعد رحلة الشتاء

71- د. هيكل، ص ١١١.

72- ابن هشام، حـ١، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

إلى اليمن. وهذا معناه — كما يذكر الشرقاوى – أن محمدا خرج بقافلة أخرى لخديجة وتاجر بمالها في اليمن . وما بين عودته من رحلة الصيف وخروجه في رحلة الشتاء: ظل يتردد عليها بقية العام، وعير مكة تستعد لرحلة الشتاء إلى اليمن بقافلة كبيرة، احتشد فيها ثلاثمائة رجل بألف وخمسمائة من الإبل.

وعندما أُذِّن في مكة أن رحلة الشتاء تعود من اليمن رابحة خرجت قريش كلها تستقبلها كما تعودت، بالفرسان والدفوف والراقصات والنساء على جنبات الطرق . . أما خديجة فقد وقفت في شرفة دارها تطل على القافلة المقبلة مع بعض جواريها،وإذ لاح محمد بين الرجال،أحست بقلبها يخفق فجأة ويتفتح له،وأدركت أنها إنما كانت تنتظره هو حقا. . هو حقا بجسده وشبابه ودماثته. محمد نفسه لا الأجير الذي سيسلمها ربح تجارتها[٧٣].

خروج محمد إلى اليمن في رحلة الشتاء هذه لم يرد فيما بين أيدينا من مصادر، ولا نستطيع أن نناقشها أو نجزم بصحتها أو عدم دقتها، فربما ذكرت في كتاب لم نقرأه . والشرقاوى — كما ذكرنا من قبل — لا يذكر مصادره أو مراجعه، وكنا نفضل لو فعل، كي يستفيد بها الباحث عند الحاجة إليها.

على أية حال، فإن خديجة بعد عودة محمد من رحلته إلى الشام — كما جاء في سيرة ابن هشام — عبرت عن رغبتها في الإقتران به لصديقتها نُفيسة بنت مُنْية التي لم تتردد لحظة في التوسط لإتمام زواج كانت على ثقة أنه يسعد خديجة لأنه اختيارها، وقد رفضت من قبل بعض أثرياء مكة وكبرائها . سألت محمدا سؤالا صريحا يقودها مباشرة إلى الهدف الذي ذهبت من أجله : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟ أجابها بأمانته المعهودة: ما بيدي ما أتزوج به . قالت كي تزيل من فكره ما يثقله : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية، ألا تجيب؟ سأل: فمن هى ؟ أجابت: خديجة.

ما كان باستطاعته أن يرفض من رفضت خيرة الرجال، وأسرعت نُفيسة إلى خديجة تزف لها البشرى .

توجه محمد في عمومته إلى بيت خديجة . ويذكر أن الذي زوجه هو عمه أبو طالب الذي قال وهو يزكى ابن أخيه: إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح، وإن كان من المال قل فالمال ظل زائل، وأمر حائل، ومحمد ممن عرفتم قرابته، وقد

73- عبد الرحمن الشرقاوي ، ص ٤١ .

خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق كذا من مالي وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل جسيم.

كان صداق خديجة — كما جاء في ابن هشام — عشرين بكْره، وفي قول آخر أربعمائة دينار، كما ذكر في كلمة ورقة بن نوفل الذي تحدث بعد عبد المطلب فقال : اشهدوا عليَّ معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار، ثم سكت ورقة.

لكن عبد المطلب قال: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها عمرو بن أسد: اشهدوا على يا معشر قريش أني قد أنكحت محمدا بن عبد الله خديجَة بنت خويلد . وشهد على ذلك صناديد قريش.

يدعي البعض أن الذي زوجها هو أبوها خُويلد بن أسد: فلما قالت خديجة ذلك لرسول الله، أي طلبت منه أن يتزوجها، ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن أسد، فخطبها إليه فتزوجها[٧٤].

هناك قصة في الكتب القديمة لا نصدقها، لكنا نناقشها كي لا يلتفت إليها القارئ بعد ذلك أبدا، وكي يتم حذفها من كتب التراث التي يجب تصفيتها وتنقيتها من شوائبها . وهناك من المحدثين من ينقلها نقلا يكاد يكون حرفيا دون أن يفكر في معقوليتها، كما فعل الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي وغيره ن المحدثين . يقول الشرقاوي : خرج معه (أي مع محمد) حمزة أحب أعمامه إليه وأقربهم سنا منه . وخرج معه الزبير وأبو طالب، وبقية الأعمام، فجاءوا خويلد بن أسد والد خديجة فخطبوها لمحمد . . وكان خويلد ساعتها يشرب الخمر.. فوافق من فوره وعقدت الخطبة. . لكنه أفاق من غده فسأل ابنته خديجة عما حدث بالأمس، وإذ قالت له إنه عقد خطبتها إلى محمد بن عبد الله، ثار وأنكر ..فمن هو هذا الفقير الذي يرضى به زوجا لابنته الثرية التي رفضت سادة قريش ؟ . . على أن خديجة استطاعت أن تقنع أباها آخر الأمر . . أقيمت وليمة الزواج . . وأباحته خديجة مالها يصنع به ما يشاء، كما يشاء . . وتصدق من مالها على كثيرين في تلك الليلة[٧٥].

هكذا يتعامل الشرقاوي مع القصة على أنها حدثت بالفعل، أي على أنها حقيقة مطلقة لا يجب مراجعتها أو مناقشتها وكأن عقله قد توقف.

74- ابن هشام ، حـ١ ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

75- الشرقاوي ، ص ٤٣ .

محمد يخطب خديجة من مخمور، أي يتزوج في ليلة خمر! !هل هذا كلام يقبله إنسان ناضج المعرفة، متزن الفكر؟

ورغم أن الشرقاوى لا يذكر مصادره. إلا أننا نعتقد أنه قد نقل القصة، مع بعض التحريف، من تاريخ الطبري حيث جاء فيه ما نصه : أن خديجة أرسلت إلى النبي تدعوه إلى نفسها — تعنى التزويج — وكانت امرأة ذات شرف، وكان كل قريش حريصا على نكاحها . . فدعت أباها فسقته خمرا حتى ثمِل، ونحرت بقرة وخلّقته بخلوق، وألبسته حُلة حِبْرةً، ثم أرسلت إلى رسول الله في عمومته، فدخلوا عليه، فزوَّجه، فلما صحا قال: ما هذا العقير؟ وما هذا العبير؟ وما هذا الحبير؟ قالت: زوجتني محمد بن عبد الله، قال: ما فعلت . أنَّي أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش، فلم أفعل! ! [٧٦].

ما يكذب هذه القصة، هو أن خويلد بن أسد أبا خديجة لم يكن على قيد الحياة، كان قد مات قبل حرب الفجار، أي منذ ما يزيد عن عشر سنوات، فكيف يزوجها بعد أن مات؟ هذا بالإضافة إلى أنه من غير المحتمل — إن لم يكن من المستحيل — أن يقبل محمد أن يزوجه في مجلس خمر رجل مخمور، وهو الذي لم يقرب الخمر ولم تحبب إليه مجالس الشراب.

ونرى — كما سبق وقلنا — أن تحذف هذه القصص وأمثالها من كتب التراث، ذلك لأن نفعها منعدم وضررها أكيد . وكتّاب الغرب — على وجه الخصوص — عند قراءتها لا يكتفون بالسخرية منها، بل يضيفون إليها، وبذلك يضاعفون من حجم الأكذوبة نكاية في الإسلام وتشويها لصورة النبي.

تقول بيتي كيلين Betty Kelen، على سبيل المثال، فيما يختص بهذا الزواج: كان لابد من اللجوء إلى الخديعة كي يتم زواج محمد وخديجة بصورة هادئة.

معنى هذا الكلام بكل وضوح هو أن محمدا وأهله قد لجأوا إلى الغش والخداع، ولولا ذلك ما تم الزواج، أي أن محمدا قد بدأ حياته الزوجية بأسلوب غير نظيف، وإن لم يكن قد أقدم هو على ما تم فعله، فقد فعله من معه ووافق هو، أو صمت، وحتى صمته لا يعفيه من مسئولية الإثم.

وتواصل الكاتبة قولها: في ذلك اليوم ذهب أبو طالب وحمزة وبعض المؤيدين لهذا الزواج من أقارب خديجة . بدأ الاحتفال، وقدمت الخمور بكرم كبير . امتلأ كأس خويلد مرات ومرات، وعندما لعبت الخمر برأسه وسيطرت عليه تماما، تقدم أبو طالب طالبا يد

76- الطبري، جـ١، ص ٥٢٢ .

خديجة لابن أخيه محمد، وقد آزره في هذا الطلب ورقة بن نوفل، ابن عم خديجة ٠ وعندما أفاق خويلد من تأثير الخمر. وجد أن خديجة بكل ثرائها قد تزوجت من هاشمي يتيم فقير ٠ وعندما صاح في غضب معترضا على هذا الزواج. أسكتته خديجة بقولها: لكنك قد وافقت!!

وتشير الكاتبة في لؤم إلى الدور الذي لعبه ورقة بن نوفل في زواج محمد، تمهيدا لما تطرحه فيما بعد من اتهامات باطلة. تقول: لقد لعب ورقة بن نوفل، ابن عم خديجة، دورا كبيرا ومحوريا في اللحظات الحرجة من حياة محمد ٠ ٠ لقد كان ورقة هذا أبرز مسيحي تعترف به مكة ٠ ٠ كان يجيد القراءة والكتابة ويحتفظ بكتب " العهد القديم" و"العهد الجديد" ٠ ٠ وهو واحد من هؤلاء الذين يشار إليهم على أنهم أساتذة محمد، أي هؤلاء الذين قاموا بتعليمه وتلقينه تعاليم اليهودية والمسيحية كما جاءت في الكتب "المقدسة"[٧٧] ٠

هذا ما قادت إليه القصة" الهبلاء" التي اخترعها بعض ضعاف العقول عن الخمر ودورها المحورى في زواج محمد٠

بل لقد دفعت هذه القصة المبتذلة كاتبا آخر إلى أن يلوم محمدا لتحريمه الخمر، رغم أنها كانت السبب في زواجه وثرائه وسعادته ٠ يقول جونستون Johnstone في تعليق ساخر: وإذا ما وضعنا في الاعتبار كم هو مدين لثمرة الكرم (الخمر)، فإننا لا نتردد في الاعتقاد بأن قوانين محمد الصارمة ضد الخمر، تعتبر نكرانا للجميل[٧٨]٠

نحن لا نعرف على وجه التحقيق من الذي ألّف قصة الخمر هذه، فالواقدى يبدأها بقوله: " ويقولون"، أما ابن إسحاق فيبدأ هذه القصص وأمثالها دائما بقوله: " ويزعمون" ونحن لا نعرف من هؤلاء الذين " يقولون" ولا من هؤلاء الذين " يزعمون "، رغم أن غباءهم وجهلهم مبعثر في كتب التراث٠

والجهل يولد الجهل : قصة الخمر في زواج خديجة ولّدت ما هو أسوأ منها — في الغرب — فيما يختص بهذا الزواج ٠ يقول الدكتور هنري ستب Henry Stubbe: أظهر محمد عبقريته الحربية عندما حارب في صفوف المسيحيين تحت قيادة عمه أبي بكر الذي كان يقود فرقة عسكرية في خدمة المسيحية ٠ ٠ وأثناء وجوده محاربا في سوريا، دعته سيدة نبيلة — كانت أرملة وعلى قدر كبير من الثراء، تقدم لخطبتها كثير من

77- Betty Kelen

78- P . De Lacy Johnstone, p. 52 .

أمراء العرب. لكنها كانت قد وقعت في غرام محمد، أو ربما أقدمت على ما فعلته بدافع إحدى الرؤى- ٠٠ دعته هذه السيدة إلى أن يترك الحرب ويعيش معها. واعدة إياه بالثراء ورغد العيش. كما وعدت بأن توفر له ما يمكنه من القيام برحلات على نطاق واسع كي ينمى الثروة ويوسع من مداركه الفكرية في نفس الوقت ٠٠ وافق محمد على هذا العرض ٠٠ وبعد أن استقرت أموره على هذا النحو، قام برحلات إلى الإسكندرية وأجزاء أخرى من مصر ، ثم تعمق داخل أفريقيا مدفوعا بالطموح وحب الاستطلاع ، ومن أفريقيا رحل إلى أسبانيا(عام ٦٠٥م) حيث وجد المملكة وقد سيطرت عليها حالة من عدم الاستقرار الدينى ٠ ولقد حاول أن ينشر مبادئه ومعتقداته في تلك الدولة، لكن عودة القديس " إيزيدور Isidore "، الذي كان نفوذه واحترامه عظيما، أرغمت محمدا على أن يعود من حيث جاء ٠٠ وبعد عودته تزوج خديجة[٧٩] .

هل هناك جهل أكثر تدنيا من هذا الجهل؟

محمد يحارب في صفوف المسيحيين، ويقاتل تحت قيادة أبى بكر، وأبو بكر هو عم محمد، ومحمد يذهب إلى الإسكندرية ومنها إلى عمق أفريقيا، ثم إلى أسبانيا ٠ ولا نعرف من أين أتي " الدكتور " بهذا الكلام، ولا كيف اخترعه، ولا كيف كتب بهذه الطريقة المبتذلة وغير المسئولة ، وقد كان كما يدعي "أستاذا سابقا بجامعة أكسفورد" ٠ وإذا كان هذا الغثاء المثير للاشمئزاز يصدر عن أستاذ سابق بجامعة أكسفورد، فماذا نتوقع ممن هو ليس بأستاذ؟

لقد ساق هذا الهراء – الذي فاضت به كتابات بعض المستشرقين – شيخا مصريا إلى القول بما هو أكثر انحطاطا وأشد عهرا، ولا نقول كفرا، فنحن لا نكفر أحدا، إنما نقابل الرأي بالرأي، ونقارع الفكر بالفكر، ولا يصح إلا الصحيح كما هو معروف في أمثالنا المألوفة٠

يقول الشيخ خليل عبد الكريم : وتقدُّم القسّ [ورقة بن نوفل]لإلقاء كلمة بنى أسد دليل قاطع وبرهان ساطع على أهمية دور ابن نوفل سواء في إتمام الزواج أو متابعة التجربة الكبرى [صناعة نبي، كما يسميها الشيخ] ٠٠ إن صفة ورقة ك " قس" شكلت ضرورة طقوسية ليتولى هو مراسم العقد كيما يصير شرعيا ليباركه الرب! ! ولا ننسى أن الولي في تلك اللحظة الحرجة سكر سكرا بينا إذ أنه عب من العالق (الخمر) حتى فقد وعيه[٨٠].

79- Stubbe , pp . 74 – 75 .

80- خليل عبد الكريم ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

هكذا يصور لنا الشيخ خليل أن ولي العروس كان مخمورا وفي حالة لا وعي. وأن الذي قام بمراسم عقد زواج " محمد" قس نصراني كي يصير الزواج شرعيا ويباركه الرب!!

هذا الغثاء، بكل تأكيد، ناتج عمّا جاء في بعض كتب التراث من صفحات تموج بالهراء، وكذا ما فاض به جهل بعض المستشرقين المدعوم بالحقد، بالإضافة إلى عقلية خربة عاجزة عن الفهم والتحليل والوصول إلى نتائج يدعمها المنطق الموضوعي المستقيم.

ختاما لهذه النقطة نورد رأيا يتسم بالحياد والمعقولية. يعبر عنه مونتجمري وُت. وهو يتجاهل مسألة الخمر هذه تجاهلا تاما، كما يتجاهل أيضا وجود عم خديجة أو أبيها. يقول: هناك قصص عن أن أباها أو عمها هو الذي زوجها، لكن التناقض بين القصص يرجح احتمال زواجها في غير وجود أي منهما . إن تلك القصص تعكس ما تعود الناس ممارسته فيما بعد[٨١].

سن خديجة عند الزواج :يوجد ما يشبه الإجماع في كتب التراث على أن محمدا تزوج خديجة وهي يومئذ ابنه أربعين سنة،إذ يقال إنها ولدت قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة.

ولقد اتبع المحدثون— في غالبيتهم — ما قال الأقدمون بخصوص سن خديجة عند الزواج . ويورد الإمام محمد أبو زهرة بعض الأقوال الأخرى التي تخالف الإجماع،رغم أنه لا يتفق معها: وأما سنها فقد كان المشهور أربعين،وقيل كانت في الخامسة والثلاثين، وقيل كانت في الخامسة والعشرين، ولا سند لهذه الأقوال،ولكن التاريخ يعتمد دائما على المشهور الذي له سند يعتمد عليه،ولا خلاف بين كتاب السيرة في أن سنها رضى الله عنها، وجزاها عن الإسلام خيرا،كانت أربعين، وغيرها أقوال منثورة لم يؤيدها كتاب السيرة والمحققون[٨٢].

يروى هشام بن محمد بن السائب أن خديجة، يوم تزوجها رسول الله، كانت ابنة ثمان وعشرين سنة ومهرها اثنتي عشرة أوقية[٨٣].

وتقول كارين أرمسترونج: تذهب الروايات إلى أن خديجة كانت في الأربعين في ذلك الوقت .لكن، وبما أنها حملت في ستة أطفال من محمد على الأقل، فمن المحتمل أنها كانت أصغر من ذلك[٨٤].نفس الرأي تعبر عنه بيتي كيلين: عادة ما يقال في كتب التراث إنها كانت أكبر منه بخمسة عشر عاما، أي في الأربعين من عمرها، لكن حيث

Montgomery Watt , **Muhammad at Medina**, p . 376

82- أبو زهرة ، جـ ، ص ١٤٠

83- ابن سعد ، جـ ٨ ، ص ١٦

84- كارين أرمسترونج ، ص ١٢٥

أنهـا أنجبـت سـبعة أطفـال، فـإن بعـض الدارسـين يتسـاءلون عن صحة ما ذكره التراث ٠ من المحتمل أنها كانت أصغر من ذلك. ربما في الثلاثينيات[٨٥]

أمـا جونستون فيبدي رأيا يبدو مقبولا من الناحيه المنطقيه، فهو يرى أنها كانت بالفعل في الأربعـين مـن عمرها، لكن بحساب السنين القمرية، أي في السادسة والثلاثين بحساباتنا نحن[٨٦]٠

يشـير مونتجمري وُت إلى المبالغة التي تمت في تقدير سن خديجة، يقول : إنها أنجبت — كمـا تشـير المـراجع — سـبعة أطفـال : القاسـم، ورقـية، وزينـب وأم كلـثوم، وفاطمـة، وعـبد الله (الطيـب)، والطاهـر ٠ مات الذكور جميعا في طفولتهم ٠ وحتى لو كانوا قد ولدوا بانـتظام في سـنوات متتالـية — كمـا يقـول ابـن سـعد — فهـذا معـناه أنهـا كانت في الثامنة والأربعـين مـن عمـرها قـبل أن تنجـب الطفـل الأخـير ٠ هـذا ليس مستحيلا، لكنه خارج عـن المـألوف لدرجـة تلفت الأنظار وتستدعى التعليق ٠ ربما كان من الممكن الإشارة إلى هذا الحـدث عـلى أنـه مِنَّة إلهـية تتسم بالإعجاز، ورغم ذلك فلا توجد عنه كلمة تعليق واحدة في صفحات ابن هشام، أو ابن سعد، أو الطبري[٨٧]٠

يـروى ابن سعد، عن هشام بن محمد بن السائب الكلبىّ، أن النبي قد ولد له في الإسلام عبد الله فسُمِّى الطيب، والطاهر[٨٨]٠

ومعـنى أن يولـد عـبد الله، في الإسـلام — أي بعـد نزول الوحى — أن خديجة قد ولدته بعـد أن تخطـت الخامسـة والخمسـين مـن عمـرها، لأن الوحي نزل ومحمد في الأربعين من عمـره، اي بعـد خمسة عشر عاما من زواجه ٠ وهذا أمر بعيد الاحتمال: أن تنجب خديجة بعـد الخامسـة والخمسـين ٠ وقـد يـرى الـبعض أن هـذا الأمـر يسـير عـلى خـالق الخلـق، ولا اعـتراض ٠ لكـنه لـو كـان قـد حـدث فعـلا، لأصبح شائعا في كل كتب السيرة ٠ لذلك فـنحن نمـيل إلى القول بأن خديجة كانت في الثلاثينيات من عمرها ولم تكن قد بلغت، عند زواجها من محمد، سن الأربعين٠

أولاد الـنبي مـن خديجـة :جـاء في سـيرة ابـن هشـام، وكذلـك في تـاريخ الطـبري٭ أن خديجة أنجبت لمحمد سبعة من الولد هم: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، والقاسم

85- Betty Kelen, p . 30 .
86- Johnstone , p .52.
87- Montgomery Watt, **Muhammad At Mecca**, p . 38 .
88- ابن سعد ، جـ١ ، ص ١٣٣ .

— وكان به يُكنَّي — والطاهر، والطيب ٠ فأما القاسم والطاهر والطيب، فهلكوا جميعا في الجاهلية. وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام. فأسلمن. وهاجرن معه[٨٩]٠

أما ابن سعد فيذكر — عن آخرين — أن خديجة أنجبت ستة من الأولاد فقط : كان أول من وُلد لرسول الله. صلي الله عليه وسلم. بمكة قبل النبوة القاسم، وبه كان يكني. ثم وُلد له زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم. ثم ولد له في الإسلام عبد الله فسُمى الطيب والطاهر ٠ وكان أول من مات من ولده القاسم. ثم مات عبد الله بمكة ٠ مات القاسم وهو ابن سنتين[٩٠]، أما عبد الله فقد مات في المهد ولم يزد عمره عن عدة شهور٠

يدعى بعض كتاب السيرة أن خديجة ولدت لمحمد أربعة أبناء هم: القاسم، وعبد الله، والطيب، والطاهر ٠ لكن هذا الرأى يشذ عن الإجماع الذي ينص على أنها لم تلد له سوي ولدين فقط هما القاسم وعبد الله٠

وُلدت زينب كبرى بناته وهو في الثلاثين من عمره، ومن بعد زينب ولدت رقية وهو في حوالي الثانية والثلاثين، ثم أم كلثوم وهو في حوالي الرابعة والثلاثين، وأخيرا فاطمة ولدت وهو في حوالي الخامسة والثلاثين٠

تمَّ زواج زينب من أبى العاص بن الربيع بن عبد شمس ٠ كان ابن أخت لخديجة، وكان في هذا ما يزكيه، لكنه بالإضافة إلى ذلك كان معروفا بحسن الخلق واستقامة السلوك، كما كان على قدر من الثراء ٠ كان هذا الزواج ناجحا بكل المقاييس، فقد ربط بينهما حب قوي عميق لم تستطع الأحداث أن تنال منه ٠ وأنجبت زينب ابنا أسمياه عليا، وابنة أسمياها أُمه٠

أما رقية وأم كلثوم فقد خطبهما عبد العزى بن عبد المطلب الملقب بأبى لهب — عم محمد — لولديه عتبة وعتيبة ٠ لم يعترض محمد، لأنه كان يُقدِّر ولدي عمه، ويرى أنهما سيكونان زوجين صالحين لابنتيه ٠ لكن أبا لهب — من وجهة نظر مارتين لينجز Martin Lings – كان يفكر فيما هو أبعد من هذا الزواج ٠ يقول لينجز : كانت آمال بني هاشم وبني عبد المطلب — وهما عشيرتان تعتبران من الناحية السياسية عشيرة واحدة — مركزة على محمد ٠ كانوا يعتقدون أن باستطاعته أن يسترد ما فقدوه من نفوذ ٠ ٠ وقد أصبح يشار إليه بالبنان على أنه واحد من أقدر الرجال وأنه يملك من القوة والطموح ما يمكنه من استرداد مجد العشيرة وقوتها وشرفها في كل شبه جزيرة العرب ٠

89- ابن هشام، جـ ١، ص ٢٠٦، وتاريخ الطبري، جـ ١، ص ٥٢١.
90- ابن سعد، جـ ١، ص ١٣٣ ٠

وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله ذهب أبو لهب إلى ابن أخيه عارضا عليه أن يزوج رقية وأم كلثوم لولديه عتبة وعتيبة[٩١].

لكن هذا الزواج لم يحالفه التوفيق، إذ انقلب أبو لهب، وزوجته أم جميل أخت أبي سفيان، على محمد وناصباه العداء، عندما بدأ يدعو إلى نبذ عبادة الأصنام وعبادة الله الواحد الذي لا شريك له . وقد أمر أبو لهب ولديه بتسريح ابنتي محمد، وتم له ما أراد.

هذا معناه أن كبرى الابنتين (رقية) تزوجت وهي في حوالي الثامنة من عمرها، والصغرى (أم كلثوم) تزوجت وهي في حوالي السادسة . نشير إلى هذه النقطة بوضوح ونؤكدها بجلاء . كان زواج البنت في مثل هذا السن أمرا مألوفا في مجتمع مكة، لا غبار عليه، ولا يلفت نظر أحد، ولا يثير نقدا . لذلك عندما يخطب النبي عائشة وهي في السادسة أو التاسعة، كما يقال، فإنه لا يخرج عن تقاليد قومه، ومن ثم لا نجد في شبه الجزيرة العربية كلها من يوجه إليه أي لوم . أما عن ما يقوله المستشرقون في هذا المجال، فلنا معهم — فيما بعد — جدل ونقاش .

تزوجت رقية عثمان وهو من أنبل فتيان قريش وأجملهم صورة وأكثرهم ثراء، وأنجبت عبد الله، ثم ماتت بالمدينة والنبي في غزوة بدر . وقد تخلف عثمان عن المعركة كي يعتني بها . وبعد وفاتها تزوج عثمان أختها أم كلثوم، لهذا أصبح يعرف بـــ " ذي النورين" .

أما فاطمة فقد تزوجت، وهي في حوالي الثامنة عشرة من عمرها، من علي بن أبي طالب، ابن عم النبي، وأنجبت ولدين: الحسن والحسين، وابنتين: زينب وأم كلثوم . تزوجت زينب من ابن عمها عبد الله بن جعفر وأنجبت ولدين هما علي وعون . أما أم كلثوم فقد تزوجها عمر بن الخطاب وأنجبت له ولدا اسمه زيد . هذا ما يقوله أبو الحسن علي [٩٢]. لكنه ينسى أن فاطمة أنجبت ابنة ثالثة هي رقية. وتكون بذلك قد أنجبت ثلاث بنات أطلقت عليهن أسماء أخواتها الثلاث: زينب، ورقية، و أم كلثوم.

مات أولاد النبي جميعا في حياته، باستثناء فاطمة التي عاشت بعده ستة أشهر ثم لحقت به.

زيد بن حارثة :كان لموت ولدي محمد — القاسم وعبد الله — في طفولتهما تأثير شديد الوقع على نفسه . ازداد حزنه وعمق أساه عندما وصفه أحد الجهلاء من قريش بأنه قد أصبح أبتر .ويقال إنه لم يطق صبرا على الحرمان من الولد فأسرع بتبني زيد بن حارثة.

91- Martin Lings, p . 40 .
92- Abul Hasan Ali ,pp. 409 – 410 .

كان زيد بن حارثة سوري نصراني، من قبيلة الكلبيين من دومة الجندل . وكانت هذه القبيلة ، منذ زمن طويل، على اتصال باليهودية والنصرانية . أُختطف زيد من أبويه، وتم بيعه في سوق عكاظ . اشتراه حكيم بن حِزام بن خويلد لعمته خديجة بأربعمائة درهم،فلما تزوجها محمد وهبته له،وكان زيد آنذاك في الخامسة عشرة من عمره . أعتقه محمد،ثم تبناه علنا جوار الكعبة . أصبح زيد — فيما بعد – أحد الصحابة المقربين.

يقال إن أبا زيد و- عرفا مكانه من بعض الحجيج الذين التقوا به في مكة، فقدما مكة في الحال، والتقيا بمحمد عند الكعبة . طلبا منه أن يرد لهما ولدهما على أن يدفعا له ما يطلب من فداء . أجابهما محمد قائلا : دعوه فخيروه فإن اختاركما فهو لكما بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحدا.

ما كان سلوك محمد هذا بمستغرب، بل هو المألوف منه، المأمول دوما فيه . ودون تردد نطق زيد بكلمات أنهت الموقف بطريقة حاسمة، قال : ما أنا بالذي يختار عليك أحدا، أنت مني بمكان الأب والأم . . . . ثم التفت إلى أبيه وعمه وأضاف: إني قد رأيت من هذا الرجل شيئا . ما أنا بالذي يختار عليه أحدا أبدا.

فلما رأي رسول الله، صلي الله عليه وسلم، ذلك أخرجه إلى الحجر فقال: يا من حضر اشهدوا أن زيدا ابني أرثه ويرثني . فلما رأي ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا، فدُعي زيد بن محمد حتى جاء الإسلام.

وجاء في **الطبقات الكبرى** أنه : كان بين رسول الله، صلي الله عليه وسلم، وبين زيد بن حارثة عشر سنين، رسول الله أكبر منه . وكان زيد رجلا قصيرا، آدم شديد الأدمة، وكان من بين زوجاته" بركة " أم أيمن، حاضنة رسول الله ومولاته،زوجها له النبي وجعل له الجنة، فولدت له أسامة وكان يُكنى به [٩٣]. وكانت بركة قد تم تزويجها لرجل من يثرب أنجبت له ولدا، وأصبحت تعرف فيما بعد باسم أم أيمن، وهو اسم ولدها.

علي :ما أن بلغت فاطمة الرابعة من عمرها، حتى لحق بالأسرة قادم جديد هو علي بن أبي طالب . نظر محمد في أحوال عمه أبي طالب، الذي كفله ورعاه بعد عبد المطلب، فوجده يعاني من ضيق ذات اليد فاقترح على عمه العباس– وكان ثريا — أن يتكفل كل منهما بواحد من أبناء أبي طالب، فأخذ العباس جعفرا وأخذ محمد عليا، وتركا

93- ابن سعد ، جـ ٣ ، ص ٤٤ ــ ٤٥ .

عقيلا كي يعيش مع أبيه بناء على رغبة أبى طالب: خذا من شئتما واتركا لي عقيلا. هكذا انضم علي إلى بيت محمد. ويقال إنه كان في الخامسة من عمره.

لجوء خديجة إلى الأصنام: يدعي البعض أن خديجة بعد وفاة ولديها لجأت إلى الأصنام ونحرت لها وتوسلت إليها كي تحفظ لها حياة ما قد تلد من ولد.

ويقول الدكتور هيكل : ولا ريب أنه استوقف تفكيره ولفت نظره في كل واحدة من هذه الفواجع ما كانت خديجة تتقرب به إلى أصنام الكعبة، وما كانت تنحر لهبل واللات والعزى ولمناة الثالثة الأخرى، تريد أن تتفادى ما ألم بها من ألم الثكل، فلا تفيد القرابين ولا تجدي النحور[٩٤].

وذبح خديجة للأصنام وتوسلها إليها رأيٌ لا يعتد به ولا يمكن الوثوق في إمكانية حدوثه . ولا نعرف من أين استقي الدكتور هيكل هذا الخبر. فهو — كغيره من الكثرة الذين كتبوا عن محمد — لا يذكر في هوامشه كل مصادر معلوماته أو مراجعه، ربما اعتقد أن القارئ سيتقبل ما كتبه على أنه حقائق مسلم بحدوثها ولا شك في مصداقيتها . هذا أمر يتنافى مع الفطرة السليمة والفكر السوى.

ليس كل ما يذكر في كتاب يمكن تصديقه والقول بواقع حدوثه . هل من المعقول، مثلا، أن نصدق ما جاء في كتاب **الأصنام** من أن محمدا قد قدم يوما للأصنام شاة؟!! يذكر النص: قد بلغنا أن رسول الله(صلي الله عليه وسلم) ذكرها [أى العزى] يوما، فقال: لقد أهديت للعُزَّى شاةً عفراء وأنا على دين قومى[٩٥].

متى كان محمد على دين قومه؟ ومتى سجد لصنم؟ ومتى قدم قربانا للعزى؟ لقد رفض وهو في الثانية عشرة من عمره أن يقسم باللات والعزى، وأقسم بالله أنه ما أبغض شيئا قط بغضهما . ثم يأتي بعد ذلك من يدعى أنه أهدى للعزى شاة عندما كان على دين قومه، ويُسجل هذا الغثاء في كتب التراث.

ثم يدعون بعد ذلك — كما يحكي الدكتور هيكل — أن خديجة ذبحت وتوسلت وبكت عند آلهة الحجارة . ونحن لا نعرف من هؤلاء الذين يدعون ويزعمون، فالدكتور هيكل — كما سبق وأشرنا — لا يذكر مصادره وحتى كلمة " يزعمون " لا يستخدمها، ويروى الحدث وكأنه حقيقة واقعة مؤكدة .

94- د. هيكل ، ص ١١٧ .

95- أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي ، كتاب الأصنام ، ص ١٩ .

ونسى الدكتور هيكل أن خديجة هى ابنة عم ورقة بن نوفل. وهو نصراني وصل في نصرانيته إلى درجة الرهبنة . ونسى الدكتور هيكل أيضا أن خديجة قبل أن تتزوج للمرة الأولى أو الثانية أو الثالثة. أي في بداية شبابها كانت على وشك أن تتزوج ابن عمها هذا. أي ورقة بن نوفل . وهذا معناه أن علاقتها بورقة كانت علاقة وثيقة لصيقة. والدليل على ذلك هو أن ورقة نفسه كان موجودا في حفل خطبتها على محمد وأنه هو نفسه الذي تحدث بعد أبى طالب نيابة عن أسرتها وأعلن قبول محمدا زوجا لخديجة، ولا يقلل من قيمة حضوره وإعلان موافقته تصميم أبى طالب على أن يحصل على موافقة عمها أيضا.

نعتقد أن تأثير ورقة بن نوفل على خديجة من الناحية الفكرية والعقائدية كان كبيرا. وأنها كانت — على أقل تقدير — تستمع إليه وتعرف منه الكثير عما جاء في كتب اليهود والنصارى. وما كان هذا ليضيع هباء عند امرأة ذات فهم ذكى وعقل نقى وهمة سامقة متسامية يعززها ثراء مترفع. ووضع اجتماعى تطمح إليه الكثرة.

ما كان لسيدة من هذا النوع أن تذبح لصنم حجري، أو أن تبكى أمامه وتتوسل . ونعتقد أيضا أن شرائها لعبد نصراني، هو زيد بن حارثة، واحتفاظها به في بيتها، ثم إهدائه بعد ذلك لزوجها محمد . . نعتقد أن في هذا السلوك دلالة لا يخطئها إنسان يحظى ولو بقدر قليل من الحكمة والمعرفة.

ونرى أن الذين ألفوا هذه الحكايات هم من نفس نوعية أولئك الذين ألفوا حكاية طست الذهب الذي نزل به الملك من السماء، وحكاية الذئب الذي تكلم، والعجل الذي بشر بمقدم محمد، والجني الذي ألقي قصيدة في مدح النبي، وغيرها من الحكايات البلهاء التي ألفها بعض السذج، وتناثرت دون وعي في مختلف كتب التراث . وهى لا تخدم الإسلام في شئ، بل هى تسيئ .

ـ ٥ ـ
هدم الكعبة وإعادة البناء

عندما بلغ محمد الخامسة والثلاثين من عمره، اشترك مع قريش في بناء الكعبة . كانت الكعبة قد تصدعت بسبب السيل فخشوا أن تنهدم جدرانها، كما أنهم أرادوا رفعها وتسقيفها، كي لا يتجرأ عليها اللصوص فيقفزوا من فوق أسوارها ويسرقوا ما بها . ويقال إنه قد سرق كنز من البئر الموجود في جوف الكعبة، وأن الذي سرقه مولي من موالي بني مُليح بن عمرو من خزاعة . ويدعي البعض من قريش أنه لم يسرقه، بل إن الذين

سرقوه وضعوه عنده . ويزعمون أن أبا لهب بن عبد المطلب — عم محمد — كان من بين من اتهموا بسرقة الكنز[٩٦] .

تصادف أن تحطمت سفينة على شاطئ الشُّعَيْبة — مرفأ السفن قبل جده — وكانت لجماعة من الروم على رأسهم رومي يدعى باقوم، يقال إنه كان بناءً.

اشترت قريش خشب السفينة كي تستخدمه في عمل سقف للكعبة، وكلم الوليد بن المغيرة — وكان على رأس نفر قريش الذين اشتروا خشب السفينة — باقوم الرومي. عندما علم أنه بانيا، كي يذهب معهم إلى مكة ويعاونهم في إقامة بنيان الكعبة . وكان بمكة نجار قبطي من الرقيق (مولى لبني أمية) قرروا أن يستعينوا به هو أيضا لتسوية ألواح الخشب وتجهيزها . بذلك أصبح كل شئ معدا للبناء : البناء والنجار والخشب والحجارة، ومكة كلها جبال وتلال . فقط، كان عليهم أن يبدأوا في الهدم.

هنا بدأ التردد . تملكهم الخوف . المكان له حرمته وقدسيته من يمسك بالمعول كي يهدم ولا تصيبه الآلهة بلعنتها؟

تقدم الوليد بن المغيرة، قرر أن يبدأ الهدم، وقد تملكه إحساس بأن الآلهة لن تمسه بسوء فهو لا يرجو إلا الخير : أن يعيد البناء، كي يصبح أصلح وأفضل وأكمل . قال الوليد: أنا أبدؤكم بهدمها . وأخذ المعول (الفأس) . ضرب ضربته الأولى وهو يقول: اللهم لم تُرَع! اللهم إنا لا نريد إلا الخير !! وهدم ما بين الركنين، الركن الأسود والركن اليماني.

وتربص القرشيون ليلة، ينتظرون ما قد يصيب الوليد بن المغيرة ويتساءلون عمّا قد تفعل به الآلهة . لكن الرجل أصبح ولا شئ به . عندها اشترك الجميع في الهدم دون تردد : لم تغضب الآلهة، لابد وأنها راضية .

كانوا قد اقتسموا العمل أرباعا — هدما وبناء — بعد أن أقرعوا عليه: فكان شِقُّ الباب لبني عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وتيْم وقبائل من قريش ضمُّوا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جُمح وبني سهم، وكان شقُّ الحجر — وهو الحطيم — لبني عبد الدار بن قصىّ ولبني أسد بن عبد العزى بن قصىّ، وبني عدي بن كعب[٩٧] .

96- الطبري ، جـ ١ ، ص ٥٢٥ .

97- نفس المرجع السابق ، ص ٥٢٥ ـ ٥٢٦ .

أجمعت قريش على ألا يدخل في بناء الكعبة من مالهم إلا طيبا: لا يدخل فيه مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس ٠

اشترك محمد مع عمه العباس في عملية الهدم والبناء. ولم يتردد لحظة في حمل الحجارة على عاتقه ٠ وقد نصحه العباس أن يضع ثوبه على رقبته حتى لا تصيب الحجارة شيئا من جسده. لكنه لم يفعل كي لا تنكشف عورته ٠ كان الأمين حريصا على كرامة جسده، كما كان حريصا على كرامة نفسه٠

جمعت قريش الحجارة من الجبال المجاورة. وبدأ البناء. كل قبيلة تجمع وتبني على حدتها ٠ وعندما بلغ البناء موضع الحجر الأسود اختلفوا فيه، كل قبيلة تريد أن تحوز شرف وضع الحجر "المقدس" في مكانه من الجانب الشرقي ٠ إشتد الجدل وتحول إلى خصومة، واشتدت الخصومة وتحولت إلى عداء ٠ أصبح الاتفاق بين القبائل صعبا، مستحيلا ٠ وكانت النتيجة أن تحاوزوا وتحالفوا وأعدوا عدتهم للقتال ٠ أقسم بنو عبد الدار أن يكون هذا الشرف شرفهم وحقهم، فهم سدنة الكعبة، ولن يحول بينهم وبين ما اعتبروه حقا لهم إلا الموت ٠ احضروا جَفْنة مملوءة دما. أدخلوا فيها أيديهم ، هم وبنو عدي، توكيدا للقسم على الموت. فسموا لذلك " لعقة الدم" ٠ ظلوا على خلافهم هذا — مع استعدادهم للقتال — أربع أو خمس ليال، لا يقر لهم قرار، حتى انتهى بهم الأمر إلى قرار بالتحكيم : أن يختاروا حكما يخضع لحكمة الجميع ٠ وهكذا استقر الأمر بين العشائر المتخاصمة٠

يقول ابن إسحاق : زعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان عامئذ أسنَّ قريش كلها، قال: يا معشر قريش، إجعلوا بينكم — فيما تختلفون فيه — أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه. ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد[٩٨]٠

ينقل الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور شوقى ضيف عن ما جاء في ابن هشام دون أن يشيرا إليه — أى دون ذكر المصدر، ويبدو أن هذا السلوك قد أصبح تقليدا مألوفا ٠ ويضيف الدكتور هيكل: وقصوا عليه قصتهم وسمع هو لهم ٠ أما الدكتور ضيف فيضيف: فقال لهم ما الخبر ؟ فأخبروه٠

عندما يقال إنهم قصوا عليه قصتهم، أو أنه سألهم: ما الخبر، فهذا معناه أن محمدا كان لا يدرى شيئا عما يدور حوله ٠ وهذا أمر شديد الغرابة، شديد الطرافة ٠ لقد اشترك

98- ابن هشام ، جـ ١ ، ص ٢١٣ ـ ٢١٤ ٠

محمد معهم في الهدم، واشترك معهم في البناء وحمل على عاتقه الأحجار. والخلاف بدأ واشتد واستمر لمدة أربع أو خمس ليال. وأمر لعقة الدم ذاع في كل أنحاء مكة ، ورغم ذلك يدعي الدكتور ضيف أن محمدا سألهم: ما الخبر. ويزعم الدكتور هيكل أنهم: قصوا عليه قصتهم وسمع هو لهم. وكأنه كان في سفر بعيد ثم عاد فجأة ففوجئ بمن يطلب منه أن يكون حكما وهو لا يدري عن الأمر شيئا.

هذا أسلوب عقيم في رواية الأحداث، لأن المنطق يرفضه.

كان محمد بينهم . كان يدرك كل ما يجرى حوله، ملم بأحوال قومه ودوافعهم ونزعاتهم . ونسى هؤلاء الذين نقلوا عن ابن هشام أن ابن إسحاق صدر روايته بعبارة : "وزعم بعض الرواة" . هناك خط واضح فاصل بين الحقيقة والزعم.

ونحن لا نقبل بما زعم الرواة.

المنطق الذي نقبله. هو أن محمدا كان على علم بما حدث، لأنه كان بينهم، ولم يكن في حاجة إلى أن يسألهم: ما الخبر، وأن يقصوا عليه . إنهم هم الذين اختاروه بإرادتهم الخالصة — لا بمجرد المصادفة كأول داخل من الباب — كي يحكم فيما شجر بينهم . وفي اختيارهم له ورضائهم بحكمه دليل بيِّن وبرهان واضح على أن محمدا وهو في الخامسة والثلاثين من عمره كان يتمتع بين قومه بمكانة عالية وثقة كاملة لا يرقى إليها الشك، ولا غرو فقد وصفوه منذ بداية شبابه بأنه هو الصادق الأمين.

حكم بينهم . لم يعترض أحد على حكمه . قال محمد: هُلَمَّ إليَّ ثوبا فأُتي به، وفي قول آخر أنه وضع رداءه وبسطه في الأرض، ثم وضع الركن فيه، ثم قال: ليأت من كل ركن من أركان قريش رجل. فكان في ربع بني عبد مناف عتبة بن ربيعة، وكان في الربع الثاني أبو زمعه، وكان في الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة، وكان في الربع الرابع قيس بن عدي، ثم قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعا، فرفعوه، ثم وضعه هو . بيده في موضعه [٩٩]. هكذا منع محمد، بحكمته الملهمة، نشوب قتال وإراقة دماء، كما حفظ للكعبة وقارها وهيبتها.

أكملوا البناء، ورفعوا خشب السقف على ستة أعمدة . أصبح ارتفاعها ثماني عشرة ذراعا بعد أن كان تسعة أذرع . أخرجوا الحِجْر من البيت وهو حوالي ستة أو سبعة أذرع من ناحية الشام . ويدعي البعض أنه قد قصرت نفقتهم فلم يستطيعوا بناء البيت على القواعد التي أقامها إبراهيم . وجعلوا للكعبة بابا من ناحية الشرق، ورفعوه عن الأرض،

٩٩- ابن سعد ، جـ ١ ، ص ١٤٦ .

فلا يمكن الصعود إليها إلا بواسطة درج أو سلّم. كي يتحكموا في من يريد الدخول . هذا معناه أن لا يدخلها إلا من أرادوا : وكان الرجل إذا كرهوا أن يدخل يدعونه حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه حتى يسقط[100].

وفي داخل الكعبة وضعوا كبير آلهتهم "هُبل "، وما تبقى من نفائس لم تسرق .

ويتساءل الإمام محمد أبو زهرة: المفروض أن قريشا كانوا من أغنياء العرب. وبجوارهم ثقيف وهم أغنياء. وكان ممكن أن يعلنوا اكتتابا عاما يجمعون به ما يريدون، فكيف تقصر بهم النفقة عن البناء؟ ويجيب على التساؤل بقوله: إنهم لم يشركوا العرب في بنائهم ليبقى لهم الاختصاص بسدانته وبشرفه، وبإنشائه . وفوق ذلك هم أرادوا ألا ينفقوا منه إلا بمال مكسوب من طيب حلال، وليس بمكسوب مما يجرى فيه كسب خبيث أو فيه شبهة خبث قط، ويظهر أن المال الطيب عندهم لم يكن كثيرا، إذ كثر فيهم الربا والميسر، ومن الصعب إخراج الطيب، من بين هذا كله[101].

ويجب ألا ننسى الدور الذي قام به الرومي والقبطي في بناء الكعبة، ونعتقد أنه قد كانت لهما إضافة . الدليل على ذلك هو أنه عندما دخل النبي الكعبة بعد فتح مكة وجد على جدرانها رسوما كثيرة،من بينها صورة للعذراء مريم وولدها المسيح . ومن المستحيل أن تكون قريش هى التي فعلت ذلك . قريش ما كانت تستطيع.

100- نفس المرجع السابق، ص ١٤٧ .

101- أبو زهرة، جـ ١، ص ١٥٤ .

الفصل الثالث :
بدايـــة الدعـــوة

الفصل الثالث
بداية الدعوة

- ١ -
خديجة وحكايات عن قرب ظهور نبي

ماذا كان محمد يفعل في الخمسة عشر عاما التي تلت زواجه من خديجة، أي من الخامسة والعشرين وحتى بلوغه الأربعين. مباشرة قبل أن يوحي إليه؟

هل قضى وقته كله يتاجر في مال خديجة ويضاعف أرباحها؟ هل خرج في رحلة الشتاء إلى اليمن، ثم عاود الرحيل إلى الشام في قافلة الصيف؟ هل اكتفى بمداعبة زوجته وملاعبة بناته والعيش في هدوء وقد كفل له ثراء زوجته رغد الحياة وبحبوحة العيش ؟ أم أمُل في أن يكون له مكانا مرموقا في الحجر بين كبار مكة وثراتها، وأن يبسط له فرش خاص في الصدارة أو ما يقاربها، بعد أن أظهر من الحكمة ما أرضى الجميع يوم اختلفت العشائر فيما يختص بالحجر الأسود، وكادت أن تقتتل؟

أم أنه ألقى بكل ما سبق وراء ظهره. ورنا ببصره إلى الجبل فتذكر موسى. وعندها قرر هو أيضا أن يتسلق جبله؟ قد نستمر في طرح الأسئلة حتى تصل إلى مئات. ولا نصل إلى إجابة أو قرار ٠

كل ما يمكن قوله من واقع حياته ،لا مما يزعمه الرواة. هو أن محمدا كان يشعر بالحب والمودة والسكينة في حياته العائلية ٠ حَزِن بالطبع لموت ولديه القاسم وعبد الله، لكن خديجة أهدته زيدا فأعتقه ثم تبناه ٠ بعدها انضم علي بن أبى طالب إلى بيت محمد، فكان في هذين له عزاء، وكان فيهما ولاء يندر بين الرجال٠

تجارة خديجة مستمرة، ناجحة، رابحة ٠ ٠ تعودت خديجة على إدارتها قبل زواجها من محمد، وكانت تعرف جيدا كيف تنتقي وتسوس من يتعامل معها من الرجال٠ لم يُعرف عن محمد، بعد زواجه، أنه خرج إلى أسواق مكة كي يبيع ويشترى كما كان يفعل في صدر الشباب. ولم يُذكر أنه خرج في قافلة راحلة يقود الرجال والجمال وما عليها من أحمال ٠

كانت خديجة تحس أن محمدا لم يخلق لزحمة الأسواق وجمع الدرهم والدينار وتكوين الثروات ٠ لم يكن من خامة عمه العباس. الثري الحريص الذي يقرض بالربا ويأخذ مقابل

ما أعطى أضعافا مضاعفة . ولم يكن من نوعية عمه أبي لهب الذي قيل إنه أتهم مع آخرين بسرقة كنز الكعبة . ولم يكن كبقية أهل مكة صخوبا طروبا. يقبل على اللهو ويستمتع به . ما اشترك يوما في مجلس خمر، أو حاول أن ينتشى بالنظر إلى امرأة في حركة رقص . ما جال بخاطره يوما. قبل زواجه ورغم بلوغه الخامسة والعشرين. أن يلتقي بواحدة من صاحبات الرايات الحُمْر . ما كان ذلك بشأن محمد . لهذا اختارته خديجة وفضلته.

في أعماقها كان يتملكها إحساس غامض بأن ذلك الذي تزوجته سيكون له شأن . وما كانت لتنسى أبدا تلك الحكايات التي رُويت عنه منذ ميلاده وما قبل الميلاد . لابد وأن يكون عبد المطلب قد تحدث في مكة عن نبوءة اليمني: النبوة أو الملك،أو النبوة والملك معا . ولقد أشرنا إلى هذه النبوءة من قبل . لابد وأن تكون خديجة قد سمعت ذلك. وسمعت أيضا عن ذلك النور الذي خرج من بطن آمنة (أم محمد) فأضاء بُصرى . نساء مكة لا تغيب عنهن الأخبار .

وقصة بحيرا، وما قاله عن محمد ونبوته في مستقبل الأيام، هى قصة شاعت وربما تناقلها الركبان . ثم تلك الغمامة التي كانت تظله، والتي حدثها عنها خادمها ميسرة عندما خرج مع محمد في تجارتها إلى الشام، لابد وأن لها دلالة، وما كانت لتحدث عبثا من فراغ في فراغ .

وذلك الراهب الذي تحدث إلى ميسرة وسأله، وهو يشير إلى محمد عن " ذلك الرجل الجالس تحت الشجرة . . أفي عينيه حُمرة ؟ " وعندما أجاب ميسرة: نعم، قال الراهب وكأنه يقرأ كلمات من كتاب الغيب : إنه نبي . ونقل ميسرة الصورة كاملة إلى سيدته.

لابد وأن خديجة قد سمعت أيضا ما شاع عن عراف هذيل، عندما نظر إلى محمد وهو غلام ثم صاح بأعلى صوته على الملأ في سوق عكاظ : يا معشر هذيل ! يا معشر العرب ! اقتلوا هذا الصبى ! وتساءل الناس : أي صبى ؟ ولماذا نقتل ذلك الصبى الذي تتحدث عنه؟ عندها صرخ العراف بأعلى صوته : إن هذا لينتظر أمرا من السماء . . ليقتلن أهل دينكم، وليكسرن آلهتكم، وليظهرن أمره عليكم .

في هدوء وسكينة تجتر خديجة أفكارها . محمد، زوجها هذا، لماذا لا يقسم باللات والعزى ؟ لماذا لا يقدم القرابين، لماذا لا يذبح ويدعو ويتوسل؟ لقد أعلن في صراحة ووضوح أنه، ومنذ بداية حياته، ما حلف بهما قط، وما مرَّ بهما إلا وأعرض عنهما . كيف؟ لماذا؟

وإلى أين ؟ أسئلة، وعلامات استفهام. لابد وأن تكون قد دارت في رأسها . لكنها كانت أسئلة حيرى.

ثم . ما حقيقة هذا الخبر المنقول عن الراهب النصراني المبشر بمقدم نبي عربي؟ نقل الخبر زيد بن عمرو بن نفيل. وهو من الأحناف الباحثين عن الحقيقة الذين أنكروا عبادة الأصنام، وحادوا عن وثنية أهل مكة .

خرج زيد يطلب دين إبراهيم. ويسأل الرهبان والأحبار حتى انتهى إلى راهب بجوار دمشق كان ينتهي إليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون . فسأل عن الحنيفية دين إبراهيم، فقال : إنك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، لكن قد أطل زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها يبعث بدين إبراهيم الحنيفية، فألحق، فإنه مبعوث الآن، هذا زمانه[1].

قال يزيد بن عمرو بن نفيل، وقد شاع قوله أنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل، ثم من بني عبد المطلب ولا أراني أدركه، وأنا أومن به وأصدقه، وأشهد أنه نبي .

ثم قَدَّم زيد بن عمرو بن نفيل وصفا للنبي المنتظر، قال: هو رجل ليس بالقصير ولا بالطويل، ولا بكثير الشعر ولا بقليلة، وليست تفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه ويضيف زيد: إني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم، فكل من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون: هذا الدين وراءك، وينعتونه مثل ما نَعِتُّ، ويقولون: لم يبق نبي غيره[2].

لنا أن نتخيل هذه الحكايات كلها وهي تدور في رأس خديجة، فيطول تأملها لزوجها: جسده، شعره، عينيه، وذلك البروز الذي يشبه الخاتم ما بين كتفيه . ويومض في عينيها بريق، ويثار سؤال لِمَ لا يكون هو؟

لكنها لم تتعجل القفز إلى إجابة على السؤال، لابد وأن تفكر أكثر، تستوعب أكثر، تستمع لما هو أكثر، ربما يصدق ذلك الإحساس الكامن في أعماقها.

حكاية جديدة استرعت انتباهها، وكأنها تكثيف أو تأكيد لما سبق من حكايات: حاخام يهودي من أهل سوريا، اشتهر بشدة التقوى والورع، ترك أرضه الغنية بالخصب والنماء والثراء، وهاجر إلى يثرب وهي تختلف اختلافا كليا في خصوبتها ونمائها عن تلك الأرض التي هاجر منها . كانت يثرب آنذاك تعتبر "أرض البؤس والجوع" . ثم حضرته الوفاة،

1- أبو زهرة، جـ ١، ص ٢٥٠.
2- الطبري، جـ ١، ص ٥٣٩.

فلما عرف أنه ميت. قال : يا معشر يهود. ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قالوا : إنك أعلم. قال فإني إنما قدمت هذه البلدة أنتظر خروج نبي قد أطل زمانه، وهذه البلدة مهاجرة. فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تُسْبقنَّ إليه يا معشر يهود[٣].

وتشامخ اليهود على أهل يثرب من الأوس والخزرج، قالوا لهم: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم.

في مكة وما حولها سرت همهمات .. هل هذا حقا هو زمن نبي قادم؟ وإذا كان الزمن قد اكتمل، فمتى الظهور، وهو من يكون؟ هل هو من عظماء مكة وأثريائها؟ هل هو من حكماء الطائف وشعرائها؟ هل هو من سلالة عبد المطلب كما تمت الرواية في بعض الحكايات؟ بدت الأمور مبهمة، ما عرف أحد شيئا على وجه التحديد.

لكن الواضح الجلي هو أن الأصنام قد بدأت تفقد ما لها من تقديس في بعض النفوس، ولولا ما تجلبه عبادة الأوثان لأهل مكة من مكاسب مادية، لربما تغير الحال . لكن هذا لم يمنع أربعة من المعدودين في قريش أن يعلنوا دون وجل أن أصنام الحجارة لا قيمة لها، فهي لا تضر ولا تنفع، ولا تستطيع أن ترد الأذى عن نفسها إذا ما تمت إهانتها أو لعنها، أو وصل الأمر إلى حد التبول عليها.

ورقة بن نوفل، عبد الله بن جحش، عثمان بن الحويرث، زيد بن عمرو بن نفيل، الأربعة نجيًا، قال بعضهم لبعض : ما قومكم والله على شئ . لقد أخطأوا دين إبراهيم، ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا، فإنكم والله ما أنتم على شئ .

ارتفع صوت زيد بن عمرو، وهو يومئذ شيخ كبير .. صاح وقد استند بظهره إلى جدار الكعبة : اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه.

كان زيد لا يعلم، وكثيرون غيره كانوا هم أيضا لا يعلمون . ولكي يعلم ويعلمون، كان لابد من ظهور نبي.

خديجة تذهب إلى ورقة بن نوفل :انتشرت النبوءات داخل مكة وما حولها .. نبوءات قديمة، ونبوءات حديثة، وصفات وعلامات .. كهنة يهود رهبان نصرانيون، حنفاء لا يميلون، الكل يتحدث عن نبي قادم.

3- ابن هشام، جـ١، ص ٢٣٣ .

خديجة ٠ ٠ فكرها لم يكن ببعيد عن ما يتم تناقله من أخبار الأحبار والرهبان وحنفاء مكة ٠ ابن عمها ورقة بن نوفل كان بين الحنفاء ورفض ما يرفضون من السجود للآلهة الحجر ٠ اعتنق المسيحية — كما سبق وأشرنا — ويقال إنه تبحر في علومها فأصبح متمكنا وعلى دراية واسعة بما جاء في العهدين القديم (كتاب اليهود) والجديد (كتاب النصارى) ٠ ويقال إن ورقة قد نقل إلى العربية بعض أجزاء من كتب اليهود والنصارى ٠ ولا يوجد بين أيدينا ما يثبت صدق هذا القول٠

ما كانت خديجة ببعيدة عن ورقة بن نوفل ٠ ابن عمها كان هو ٠ وكما سبق وأشرنا كانت على وشك أن تتزوجه في صدر شبابها، كما أنه لعب دورا محوريا في زواجها من محمد ٠ كانت تعرف أنه على علم بكتب السابقين، وكان من الطبيعي خلال حياتها الممتدة أن يذهب إليها وتذهب إليه، يحدثها وتتحدث إليه، توجه إليه كل ما يدور في داخلها من تساؤلات ٠ وكان من الطبيعي أن يتحدث إليها عن النصرانية التي اعتنقها، ويحكي لها عن قصص الأنبياء السابقين، كما ورد ذكرهم في أناجيل النصارى وفي توراة اليهود٠

ورقة بن نوفل على علم، هذا ما شعرت به خديجة وكانت متأكدة من صدق مشاعرها، فلماذا لا تبوح له إذن بما يعتمل في أعماقها؟ هواجسها تؤرقها، فلماذا لا تتخلص من أرقها بأن تعرضها عليه٠

ذهبت إليه ٠ أخبرته بما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه ٠ تحدثت خديجة وأفاضت في الحديث ٠ قال ورقة: لئن كان هذا حقا يا خديجة إن محمدا لنبي هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، هذا زمانه٠[٤]

إن محمدا لنبيُّ هذه الأمة!! قالها ورقة ومحمد في الخامسة والعشرين !!

يقال إن هذا كان قبل الزواج مباشرة؛ بعد عودة محمد بتجارة خديجة من أرض الشام ٠ وربما كان بعد الزواج مباشرة، ولم يكن بين ما "قبل" وما "بعد" إلا أياما قد لا تصل إلى شهور٠

فجَّر ورقة في قلب خديجة ينابيع الأمل ٠ ٠ أن تتحقق النبوءة ٠ ٠ أن يكون محمد هو المختار للرسالة ٠ ٠ أن يكون زوجها وحبيبها هو النبي !!

4- ابن هشام، جـ ١، ص ٢٠٦ ٠

بكل تأكيد اخبرت خديجة زوجها بما قاله ورقة : يا خديجة إن محمدا لنبي هذه الأمة . إذن. فمنذ الخامسة والعشرين من عمره كان محمد يعرف أن هناك نبوءة تشير إليه على أنه النبي القادم . ولم تكن كلمات ورقة بن نوفل هى أول ما سمع . إن ذاكرته تعي وتسترجع كلمات الراهب بحيرا، وهو ما يزال في الثانية عشرة من عمره، وكأنها منقوشة على قلبه . قال الراهب لأبى طالب ومن معه من أشياخ قريش، هكذا تذكر محمد: هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين . فقال له أشياخ قريش : ما علَّمكَ؟ قال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم تبق شجرة ولا حجر إلا خرَّ ساجدا : ولا يسجدون إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة، أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة[٥].

كان محمد يسمع بأذنيه ويرى بعينيه، فقد كان الراهب يمسك يده بكلتا يديه . وتناقل الأشياخ الحكاية ورواها الرواة، وما نساها محمد رغم صغر سنه فقد كان في بداية صباه.

أكدت نبوءة ورقة بن نوفل، نبوءة الراهب بحيرا، وثبَّتتها في قلب محمد . وحول النبوءتين دارت أقاصيص كلها تشير إلى نبي قادم . . وكلها تشير إليه.

- ٢ -

القلق والبحث عن الحقيقة

إعداد الفرد للنبوة ليس بالأمر الهين أو الشيء اليسير . وحكاية الملك أو الملكيين اللذين شقا صدر محمد وطهرا قلبه لم يغفلها راو من الرواة . وسواء كان الذي حكاها ابن حليمة السعدية وهو طفل في الثالثة، أو رواها محمد نفسه وهو في نفس السن تقريبا، فإن للحكاية دلالة ومغزى، أي لها رمزيتها: عملية تطهير المختار لابد وأن تبدأ في مرحلة مبكرة، منذ البداية. كي يظل طاهرا نقيا، حتى يكتمل زمنه، وعندها يبدأ التكليف، فإذا ما بدأ وجد في نفسه الإيمان الراسخ والقوة القادرة على حمل الأمانة وتبليغ الرسالة، مهما ركب من صعب وواجه من خطر.

لم تكن خديجة امرأة ككل النساء، متفردة كانت، امرأة فذة : فذة في تفكيرها، فذة في تصميمها، فذة في نبلها وذكائها . ولقد اتخذت قرارها في حسم باتر لا تردد فيه ولا نكوص: أن تقف خلف محمد، أن توفر له ما يعينه وهو يبدأ الطريق الذي اختاره الله له، أن تظهر إيمانها بقدراته المتفردة، أن تؤازره بكل وجودها وما تملك، أن تزيل هواجسه وتساعده على استعادة طمأنينة روحه إذا ما أهاجته الرؤى.

5- الطبري، جـ ١، ص ٥٢٠.

كان القلق الفكرى وعدم الارتياح النفسي يسيطران على محمد ٠ هذا أمر متوقع. فالحياة من حوله فارغة. والعقيدة فاسدة ٠ صورة مكة بكل طبقاتها وصراعاتها تبدت واضحة أمام عينيه : كل أنواع الرجال. السادة والعبيد. الكبار والصغار، الأثرياء والفقراء، هؤلاء الذين يحتسون القهوة ويحكون قصصا غريبة عن بلاد بعيدة، وهؤلاء الذين يتحدثون عن المال والسياسة والصراع الدائر بين مختلف القبائل المتناحرة ٠ ٠ الأحرار والعبيد في مجتمع واحد والفجوة هائلة ومخيفة بين العبد وسيده، وبين السادة من هو على قدر من خلق وبينهم أيضا من لا خلاق له ٠ ٠ منهم من وصل إلى قمم لا يستحقها، ومنهم من هوى من علياء مجده فذُل ٠ ٠ عدم المساواة ٠ ٠ الظلم الاجتماعى٠ ٠ التمزق القبلى٠ ٠ عار الرق ومعاملة النساء معاملة الرقيق٠ ٠ ضراوة وأد البنات والقسوة في معاملة الحيوان٠ ٠ وفوق كل هذا وذاك انكسار النفس، دون أن تدرى أنها تهان وتنكسر، وهى تنحنى وتسجد أمام الآلهة الحجر٠

تلك الآلهة الحجرية !! هل آمنوا بها حقا، أم فقط تم استغلالها كمصدر من مصادر الثراء؟ كان محمد يرى الحجاج وهم يُجرَّدون من كل شئ تقريبا بواسطة سدنة الكعبة والقائمين على أمرها ٠ كانت نفسه تثور وهو يرى أماكن الشرب وقد اكتظت بالسكارى المخمورين، وأوكار القمار وقد امتلأت بالمقامرين، وأماكن الدعارة بأحط صورها وقد نزح إليها الحجاج الذين عندما يغادرونها إلى ديارهم يكونون قد تركوا فيها صحتهم وأموالهم وسمعتهم وكل الأفكار السامية التي كانت تسيطر عليهم عند وصولهم لتأدية فريضة الحج ٠٠ كان كل ما حوله مثيرا للاشمئزاز والاحتقار ٠ ما هذا بدين!!

رفضت روح محمد كل ما حوله ونبذته ٠ ٠ ما خلقت كي تعايشه وتتواءم معه ٠ ٠ بحث عن الأفضل والأسمى بين قومه فلم يجده٠

انتظر قدوم القوافل كي يتحدث إلى أقوام آخرين ٠ ٠ كلما وصلت قافلة أسرع يستقبل أهلها ويرحب بهم٠٠ كل همه هو أن يستمع إليهم وهم يتحدثون عن معتقداتهم ودياناتهم٠ كان يستمع بشغف ووعى وفهم، محاولا أن يحكم بميزان النقاء في قلبه على صحة ما يقولون ٠ ومن المحتمل أن كل ما كان يقال، كان يختزن في ذاكرته الواعية الحافظة٠

بين رجال القبائل كان يهود ونصارى ٠ ٠ استمع إلى ما يقولون عن كتبهم المقدسة ٠ دين هؤلاء وهؤلاء كان يختلف في جوهره ومظهره عن دين قريش ٠ أصنام الحجارة التي تقدسها قريش كانت بالنسبة لهم مثار احتقار وسخرية ٠

ما كان كلامهم يختلف كثيرا عن ما حدثه به ابن عم زوجته ورقة بن نوفل . كثيرا ما جلس معه واستمع إليه وهو يتحدث عن إله واحد، خالق قادر، مهيب مسيطر. يرى الجميع ولا يراه أحد . . إنه بكل تأكيد هو الله الذي سمع — وسمعت قريش أيضا — عنه، والذي لم تعبده بشكل مباشر كل شبه جزيرة العرب.

وكان من الطبيعي أن يتحدث ورقة بن نوفل عن إبراهيم وسارة وهاجر وإسماعيل وإسحاق، ومن بعدهم يعقوب المسمى بإسرائيل، وبني إسرائيل الإثنى عشر.

لابد وأن حديثه كان رائعا ومروعا وهو يحكي عن موسى وقد فاجأه صوت الرب الصادر من بين ألسنة اللهب، وعن موسى وفرعون وكيف ابتلع البحر فرعون وجنوده، ثم عن موسى وقد تجاوز الثمانين من عمره، وهو يتسلق جبل الله كي يتلقى الكلمات العشر ويستمع — كما تحكى التوراة — إلى صوت الله.

بالتأكيد لابد وأن يكون ورقة بن نوفل قد استرسل في حكْيه فذكر المسيح عيسى وأمه مريم،ومعجزاته التي تفوق قدرات البشر،فقد أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى وأطعم المئات بخمسة أرغفة كسَّرها لهم وخمس سمكات. .هكذا حكت الأناجيل،وبهذا تحدث الرهبان.

كان محمد يستمع بعمق وفهم . كان يريد أن يعرف أكثر عن إله إبراهيم الذي لابد وأن يكون هو إله موسى وإله عيسى، لأن الفطرة السليمة ترفض أن يكون لإبراهيم إله، ولموسى إله، ولعيسى بن مريم إله ثالث . لا يمكن أن يوجد أكثر من إله . . إله واحد هو رب إبراهيم وموسى وعيسى . . بغير ذلك لا تستقيم الأمور.

يدَّعى " د. هنري ستب Henry Stubbe " أن ورقة بن نوفل كان يعرف العبرية والسريانية ويجيد الكتابة، وأن خديجة قد استخدمته كي يعلم محمدا القراءة الكتابة، وكان من النادر وجود من يجيدون القراءة والكتابة بين القرشيين، ذلك لأن استخدام الحروف العربية في تلك الآونة لم يكن ليزيد في عمر الزمن عن ثلاثمائة عام . . تعلم محمد الكتابة بسرعة وأتقنها. .ومما زاد في شهرته أنه كان ملما بالكثير ولا يجهل شيئا . وفي أماكن متعددة تحدث إلى اليعاقبة والنساطرة والآريين، الذين أخبروه بعدم جدوى عبادة الأصنام وبوحدانية الله، وحدثوه عن الفضيلة والرذيلة واليوم الآخر . . لقد تمكن محمد من دراسة" الكتاب المقدس "، كما كان على دراية واسعة بالفلسفة الطبيعية[٦].

هكذا يشطح الدكتور هنري . محمد — في رأيه — كان من كبار العلماء، وكان بكل شئ عليما، فقد " ألمَّ بالكثير، ولم يكن يجهل شيئا " . ولا ندرى من أين استقى

6- Henry Stubbe , p . 77.

د. هنري هذه المعلومة. فمحمد حتى بداية الوحي لم يعرف عنه أنه عالم من علماء الدين. أو عالم من علماء التشريع. أو حتى عالم من علماء التاريخ ٠ كل ما عُرف عنه أنه في صباه كان يرعى الغنم. وفي صدر شبابه إلى زواجه كان يعمل بالتجارة. وحتى في هذا المجال لم يحز شهرة على أنه واحد من كبار التجار ٠ كل ما اشتهر به محمد طوال حياته هو الأمانة المطلقة. فأصبح هو " الأمين" ٠

فما هو الدليل الذي يورده د. هنري كي يثبت أن محمدا " ألمَّ بالكثير وكان لا يجهل شيئا " ؟ لا دليل ٠ ٠ وبما أن د. هنري لا يقدم دليلا أو برهانا يثبت صدق ما يقول. إذن فالكلام مطلق ولا يؤخذ به. وما لا يمكن إثباته لا يمكن تصديقه٠

ويحيِّرنا د. هنري عندما يضيف: " وكان محمد على دراية واسعة بالفلسفة الطبيعية" ٠ هذا أمر مثير للدهشة، ومحير بكل تأكيد ٠ محمد، راعي الغنم اليتيم الفقير، كان فليسوفا قبل أن يوحى إليه ويصبح نبيا ٠ ويحدد د. هنري نوع الفلسفة التي تخصص فيها محمد : إنها الفلسفة الطبيعية، وكان محمد على دراية واسعة بها، أي متعمق ومتبحر في مجال تخصصه٠

كنا نود أن يفسر لنا د. هنري ما يقصده بـ " الفلسفة الطبيعية "، لكنه لم يفعل ٠ إذا ما قبلنا بادعاء د. هنري أن محمدا كان على دراية واسعة بالفلسفة الطبيعية، وكان — كما يدعي د. هنري أيضا — يجيد القراءة والكتابة كما تعلمهما من ورقة بن نوفل بتكليف من خديجة، فأين ما تركه لنا من تراث في هذا المجال؟ أين ما خلَّفه لنا في مجال الفلسفة الطبيعية؟ وإذا كان د. هنري يعتقد أن محمدا كان فيلسوفا، فلماذا لم يخصص لهذا الجانب من شخصيته فصلا كاملا في بحثه؟

هذه شطحة من شطحات كتاب الغرب، وسنجد مثلها كثير فيما يكتبه متحذلقة المستشرقين، الذين يكتبون في أغلب الأحيان عن جهل، ويتطاولون رغم تقزمهم فيما يختص بدراسة الإسلام وشخصية نبي الإسلام٠

والآن نأتي إلى تلك الأسطورة المقززة التي اخترعها بعض كتاب المسيحية عن الراهب بحيرا و" الدور المحورى" الذي لعبه في حياة محمد ٠ ٠ تلك الأكذوبة التي رددها كتاب الغرب، دون محاولة للتحليل والتقييم والنقد ٠ كان من أوائل من نشروا هذه الأسطورة راهب يدعى"جيوم الطرابلسي" (١٢٧١) ٠ كان يقيم في دير قريب من طرابلس ٠ وقد أشار إلى تلك الأسطورة الأكذوبة وإلى غيرها، الفيلسوف الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوى في كتابه **دفاع عن محمد**. كما قام بتحليلها والرد عليها٠

يروى جيوم: أن بحيرا كان يعيش في دير على الطريق الذي يسلكه العربي من مكة إلى سيناء ٠ وقد أُلهم بحيرا أنه يوما سيمر بهذا المكان شخص ما تهتم به الكنيسة، ولما جاء هذا اليوم تعرَّف بحيرا على هذا الشخص بوحي إلهي حيث أُعْلم بأن طفلا يتيما معتلا فقيرا وحارس إبل هو الشخص المطلوب ٠ وقد حكى المسلمون، كما يقول جيوم الطرابلسي، أن باب الدير الذي دخل منه محمد ارتفع لحظة دخوله وبدا كأنه قوس قصر إمبراطوري ٠ وقد أسْتُقبل الطفل بشكل حار من قبل بحيرا الذي منحه الطعام والملبس واعتبره كما لو كان ابنا بالتبنى ٠ وقد علمه أن يحتقر عبادة الأصنام ويبتهل بقلبه إلى يسوع ابن مريم، وبعد وقت ترك الطفل الدير لأنه كان في خدمة رجل غنى ٠ ولكنه وعد أن يعود حين يكبر ٠ وقد مارس الطفل التجارة بنجاح وكان يتردد كثيرا على بحيرا الراهب ٠ وقد مات سيده في هذه الأثناء فتزوج من أرملته وظل يداوم على زيارة الراهب مما أسخط عشرة من صحابته ففكروا في قتل بحيرا ولكنهم خافوا من غضب محمد، ومع ذلك فقد ضاقوا ذرعا ذات ليلة من حديث بحيرا مع محمد فقتلوا بحيرا بسيف محمد وقد اعتذروا لمحمد قائلين: إنهم شربوا حتى الثمالة مما جعلهم تحت تأثير الخمر يطعنون بحيرا بالسيف — ولأن محمدا صدق ذلك الخبر الكاذب، أدان الخمر وحرَّم الشراب على أتباعه ٠ وحين مات بحيرا، أفلت أتباع محمد من عقالهم، فراحوا يسلبون البلاد ويقتلون العباد، وظلوا على هذا الحال حتى وفاة محمد [٧]٠

لكن يبدو أن الأسطورة، كما اخترعها جيوم الطرابلسي، لا ترضى بيير باسكاسيو (١٢٢٨—١٣٠٠) مطران غرناطة، ومن ثم فهو يضيف إليها، من واسع خيال، مالا يمكن أن يصدقه إنسان عاقل، يقول : لقد كان بحيرا راهبا واسع العلم ولكنه انغمس في الفنون المتحررة وكان يطمح في المراتب العليا، لكنه لم يحظ بالمجد فجاء إلى روما ولم يحصل على أى شئ مما كان يطمح فيه، فاشتد حنقه على الإمبراطورية الرومانية وأراد أن يثأر لنفسه ببذر بذور الشقاق بين المسيحيين ٠ ٠ ولأنه كان يقرأ في سفر باروخ (العهد القديم) أن ذرية هاجر (أم إسماعيل بن إبراهيم)، أي العرب، سيكونون تافهين وشهوانيين، وليست لهم أي قوة مادية، فإنه سافر إلى الجزيرة العربية حيث توجد ذرية هاجر ٠ ٠ فنزل بينهم وعاش فاسقا في مكان منعزل ٠ وقد قابل الشاب محمد الذي كان يحرس الإبل، وحينما رآه قوى البنية ذكيا علَّمه كثيرا من الأشياء ٠ وحين تأكد أن محمدا قد بُهر به وعده أن يكون

7- د. عبد الرحمن بدوي، **دفاع عن محمد**، الدار العالمية للكتب والنشر، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٨ ـ ٩.

سيدا لمدينة تحتل مكانا مرموقا وطلب منه أن يطيعه في كل شئ ٠ ولما رضى الراهب عن محمد علّمه وجعله خبيرا في علم تحضير الأرواح وفي التنجيم، كما علمه اللغات٠

ويستمر المطران في روايته الهزلية حتى يصل إلى ذروتها، عندما يتم تنصيب محمد ملكا: ولما أصبح محمد ملكا فرض على الناس قانونه وشريعته التي هى في خدمه الله والشهوة حقا وألّف القرآن بمساعدة الراهب حيث كان مكتوبا على قرن الثور ٠

المثير للسخرية والاشمئزاز أن يوجد في تاريخ المسيحية مطرانا يعلن بجهل فاضح أن القرآن تمت كتابته على قرن ثور ٠ لكننا، على أية حال، سنحتفظ بالتحليل والتعليق، حتى نكمل سخافات هذه الأكذوبة كما وردت في كتابات الجهل٠

مقتل الراهب بحيرا بسيوف أتباع محمد — كما وردت في أسطورة جيوم الطرابلسي، لا تروق لخيال س . ف .بركنهام (القرن السادس عشر)، لذلك فهو يعيد صياغتها كي تصبح أكثر تأثيرا في وقعها الدرامى ٠ يقول بركنهام : وقد حدث ذات ليلة أن شرب محمد كثيرا وغط في نوم عميق، فأخذ أصحابه سيفه من جرابه بينما كان يغط هو في نوم عميق وقتلوا الراهب بذلك السيف ثم أعادوا السيف مخضبا بالدماء إلى جرابه ٠ وفي الصباح عندما اكتشف محمد موت الراهب غضب وكان على وشك قتل رجاله٠ ولكنهم كانوا قد اتفقوا على أن محمدا نفسه هو الذي قتل الراهب بينما كان ثملا ٠ ثم توسلوا إلى محمد أن ينظر إلى سيفه الذي كان مخضبا بالدم ٠وحينما رأي محمد السيف تأكد من صدق قولهم ٠ ٠ وقد لعن الخمر ومن يشربونها٠

لكن نهاية بحيرا هذه، سواء كانت بسيوف أتباع محمد أو بسيف محمد نفسه — لا تروق لـ " العالم الكبير في اللغات الشرقية" هامفرى بريدو (القرن السابع عشر)، ومن ثم فهو يخترع بخياله المريض نهاية أكثر قسوة وأكثر مأساوية ٠ يقول "العالم الكبير" المبتلى بالخيال المريض: استقبل محمد بحيرا في بيته بمكة بمظاهر الحفاوة التي لا يتخيلها إنسان وأعطاه كل ما يحتاجه من مؤن وزاد ثم فتك به بعد ذلك، لأنه خاف أن يأتي يوم ويظهر سر لغز محمد، وقد كان نجاحه يتوقف على هذا السر[٨]٠

هكذا صور بريدو محمدا — التلميذ — وهو يفتك بـ " بحيرا" — الأستاذ — في حركة غدر لا إنسانية، كي لا يذيع بحيرا سره، ونجاح محمد — في رأي بريدو — يتوقف على هذا السر ٠ وطبقا لمنطق بريدو، وهو منطق الأوباش، من يعرف السر يموت ٠ وهذا معناه أن مقتل بحيرا فرضته حتمية الأحداث، وربما سطرت من قبل في كتاب " الغدر" ٠ النهاية

8- نفس المرجع السابق ، ص ٢٠ ، ص ٣٧ .

كما صورها بريدو— نهاية مأساوية .لا تقل في إثارتها عما يحدث في مسرحيات الإغريق. كان من الأفضل أن يؤلف بريدو مسرحيا، بدلا من أن يوثق تاريخيا . التاريخ يتطلب موضوعية وأمانة. ولا نعتقد أن " العالم الكبير" كان يتمتع بأي منهما . لقد خط بقلمه وثيقة فشله المزرى في البحث المنصف عن الحقيقة .

تعلق كارين أرمسترونج على حكاية الراهب بحيرا — الذي يُدعى سير جيوس في كتابات أخرى — بقولها : إن المسيحيين الغربيين لم يجدوا سبيلا إلى تفسير الرؤية الدينية الرائعة والمقنعة التي أتي بها محمد وإلى تفسير سر نجاحها، إلا بإنكار الوحي، ومن ثم نفى وجود مصدر مستقل لها، مما يعني أن الإسلام كان في نظرهم مجرد فرقة خارجة على المسيحية[9].

وكارين أرمسترونج من القلة النادرة التي حاولت أن تقرأ عن حياة محمد في اتساع وعمق،ثم تكتب بعد ذلك بموضوعية وعدل، وكتابها عن "محمد" يستحق الاحترام،رغم اختلافنا مع بعض ما جاء فيه من آراء . يكفي أنها لم تتدنى إلى مستوى المبالغات المجوجة والمهاترات المثيرة للاشمئزاز التي وصل إليها بعض من تناولوا حياة محمد من غير المسلمين.

لقد سبق " توماس كارليل " كارين أرمسترونج في إشارته وإنكاره لحكاية الراهب بحيرا (سيرجيوس في حكايات أخري) . إنه لا يخفى عدم تصديقه لها، بل ويعلن احتمال عدم حدوثها إن لم يكن استحالته . وفي كتابه **الأبطال وعبادة البطل**، الذي يكتب فيه عن محمد كواحد من أعظم أبطال التاريخ، رغم أنه يصر على أن **القرآن** من تأليف محمد، يقول كارليل : لا أعرف ماذا أقول بالضبط عن سيرجيوس، ذلك الراهب النسطوري الذي يقال إن محمدا وأبا طالب قد نزلا عليه، ولا عن قدر ما يمكن أن يعلمه لشخص في مثل هذه السن المبكرة . ومن المحتمل أن موضوع هذا الراهب قد بولغ فيه إلى حد كبير . . لقد كان محمد في الرابعة عشرة من عمره، ولا يعرف لغة غير لغته . . وكثير مما كان حوله في سوريا لابد وأن يكون قد بدا له غريبا ومحيرا وغير مفهوم [10].

هكذا يشير كارليل بقلمه إلى خطأ ما يزعمون . ما الذي يمكن أن يفعله صبى في الثانية عشرة من عمره — لا الرابعة عشرة كما يقول كارليل — في لقاء عابر مع راهب في صومعة أو دير . هناك من يقضى نصف عمره، أو ربما عمره كله، في محاولة لتحصيل العلم، ، فلا

9- كارين أرمسترونج ، ص ٤٠ ـ ٤١ .

10- Thomas Carlyle , **On Heroes, and Hero – Worship and The Heroic in History** . J.M. Dent & Sons ,London, 1910, p.287.

يُحصِّل منه في النهاية إلا القليل . فكيف يستطيع صبى لم يتعلم حتى مبادئ القراءة والكتابة، ولا خبرة له إلا ما اكتسبه من هَشِّه على غنمات هنا وغنمات هناك، أن يحيط علما باليهودية وتشريعاتها والنصرانية وأسرارها. في لقاء عابر مع راهب في صومعة أو دير؟ ولا يذكر المؤرخون وكتاب السيرة أنه ذهب إلى الشام بعد ذلك إلا مرة واحدة عندما خرج في تجارة خديجة ومعه ميسرة . في هذه الرحلة لم يلتق براهب أو كاهن، ولو قابله — جدلا- ما التفت إليه. فقد كان كل همه أن يحافظ على مال خديجة وأن يعود لها بتجارة رابحة.

وهناك سؤال قد يبدو ساذجا ومحيرا في نفس الوقت : إذا كان بحيرا على هذا القدر من العلم والتبحر ومهموم بإصلاح العقيدة الفاسدة ونشر دين جديد، فلماذا لم يقم هو نفسه بنشر التعاليم التي يقال إنه علَّمها لمحمد؟ لماذا لم يحتفظ هو بهذا المجد لنفسه؟ لماذا لم يفكر في أن يصبح هو النبي؟

ينفي د. هنري ستب تهمة أن أحدا كان يعلم محمدا نفيا قاطعا، سواء كان هذا الأحد يهوديا اسمه عبد الله — وهو يقصد عبد الله بن سلام — أو مسيحيا اسمه سيرجيوس . يقول د. هنري ما نصه بالحرف الواحد: يدعى المسيحيون أن محمدا كان يستعين بشخصين يعلمانه : أحدهما يهودى يدعى عبد الله، والآخر راهب نسطورى يدعى سيرجيوس، ويصورون محمدا على أنه شخص جاهل لا يملك مقدرة الحكم على ما يلقنه له هذان الشخصان .وهذا هو سبب ما يعتبرونه أخطاء حمقاء في صفحات القرآن.

ويضيف د. هنري : لكني لا أجد " عبد الله " آخر غير والده الذي لم يكن يهوديا، كما لا أجد أي معلم أو صاحب له يسمى سيرجيوس، ولو فرض أنه قد وجد راهب نسطورى بهذا الاسم وأنه علم محمدا، فلماذا لم يلتزم محمد بالنسطورية وينشر في تعاليمه أن المسيح كان إلها حقا ورجلا حقا في شخصية واحدة تضم الإله والرجل معا؟ لماذا لم يُشر إلى نسطورْيس Nestorius أو ديودُرس Diodorus على أنهما من الأبرار والقديسين؟ في حدود علمى، لم يفعل محمد ذلك، ولم يفعله أحد من أتباعه . وفي ديانته كلها لا نجد ما يشير إلى النسطورية التي كان لابد وأن يبدو أثرها، لو كان هذا الراهب — كما يدعون — هو الذي ألَّف وعلَّم ولقَّن . كان لابد للإناء أن ينضح بما فيه.

يواصل د. هنري تحليله للاتهام المرفوض، والذي لا يقدم أصحابه ما يدعمه من دليل أو يثبته من برهان، يقول : لو كان يهوديا هو الذي يعلمه ما أبدى إعجابه الشديد بالمسيح، الذي دائما ما يذكره ويشير إليه في توقير على أنه هو النبي الذي جاء قبله،

ويؤكد أنه لا يختلف مع ما جاء به عيسى من تعاليم. بل إنه هو نفسه يُعلِّمها . . ولا أعتقد أنه كان يحب اليهود، ولم يحاول يوما إرضاءهم على حساب معتقداته. وإلا ما حوَّل القبلة من أورشليم إلى الكعبة[11].

تؤكد كارين أرمسترونج رأي د. هنري، نافية وجود أي صلة بين محمد واليهود أو المسيحيين، بقولها : لا يسع الإنسان إلا أن يدهش للعبقرية الروحية للنبي محمد الذي لم تكن له أية صلة تقريبا باليهود أو المسيحيين الممارسين لدينهم، وكانت معرفته بتلك الكتب السماوية الأولى، حتما، معرفة بالغة الضآلة، ومع ذلك فقد نجح في النفاذ إلى قلب الخبرة بدين التوحيد.[12]

أما مونتجمري وُت، الذي كتب ثلاثة مؤلفات عن محمد، فهو أيضا ينكر أن محمدا قد تعلم على يد مسيحي، يقول : قبل أن يتلقى محمد أى وحى ربما خطر له سؤال على هذا الشكل: هل يجب أن أذهب إلى معلم مسيحي كي أعرف أكثر عن الله؟. .ليس هناك ما يدعو إلى افتراض أن محمدا لم يحاول أن يتعلم قدر الإمكان من حديثه مع مسيحيين من أمثال ورقة بن نوفل، لكن زيارة طويلة للتعلم في سوريا، أو على يد راهب معروف كانت مستحيلة . وإذا ما نحينا جانبا أي صعوبات مادية، فإن زيارة كهذه كان من الصعب أن تخلو من مضمون سياسى . أقل ما يمكن أن يقال هو أن شخصا كهذا لابد وأن يصبح مثار شك المحيطين به، فبالنسبة لعرب الحجاز كانت المسيحية هى دين الحبشة وبيزنطة، والسعى إلى تعلم شرائعها وطقوسها بصورة علنية معناه فتح قناة للنفوذ الأجنبي . . ومع بداية الوحي، كان من المستحيل على محمد أن يقبل التعاليم المسيحية واليهودية كاملة لأن في ذلك إنكار واضح لحقيقة ما يدعو إليه [13].

نخلص مما سبق، أي مما قدمنا من آراء لمختلف الكتاب، سواء كانوا مؤرخين موضوعيين منصفين أو كتاب أساطير حاقدين ناقمين، ومما قدمنا نحن أيضا من آراء، إلى أن ما يدعيه البعض، عن تتلمذ محمد على معلم يهودى أو راهب نصراني، لا يزيد عن كونه مجرد حكايات بليدة خائبة، لا يصدقها إدراك واع أو عقل ذكى، ذلك لأن الذين قدموها لم يقدموا معها الدليل الذي يثبت حقيقتها والبرهان الذي يؤكد صدقها. لقد اخترعوا الأساطير وصدقوها، ثم توقعوا بجهل وغباء، أنهم كما صدقوا أكاذيبهم لابد وأن يصدقها الآخرون.

11- Henry Stubbe, p. 144 .

12- كارين أرمسترونج ، ص ١٥١ .

13- Montgomery Watt, **Muhammad at Medina** , p. 316.

- ٣ -
التحنث

بدلا من أن يتوجه محمد إلى كاهن يهودى أو راهب مسيحى، كما يدعي مؤلفو الأساطير، استغرق فيما يدور في أعماقه ٠ ٠ يفكر ويتأمل ٠ ما سمعه من تجار القوافل ومن ورقة بن نوفل عن اليهودية والنصرانية قليل، وهذا القليل الذي سمعه لا يغرى بطلب المزيد ٠ ٠ في كتبهم إبراهيم يكذب ويتاجر بزوجته، ولوط يشرب خمرا ويزنى بابنتيه، ويعقوب يكذب وينهب حق أخيه ويسرق، وداود يزني ويكذب ويقتل وتلك التي زنى بها داود تصبح فيما بعد أم سليمان، وسليمان يعاشر ألف امرأة ثم يكفر بإله موسى ويذبح لآلهة المرتفعات وتتمزق مملكته من بعده [١٤]٠

لا يمكن أن يكون هذا هو الدين في حقيقة جوهره ٠ لابد وأن قد تم تشويهه من بعض أتباعه، نقصوا منه وزادوا عليه، طبقا لميولهم وأهوائهم٠

وحكى البعض عن المسيح، قالوا: ابن الله، كان معه في السماء ثم هبط كي يراق دمه، وبدمه يكفر عن خطايا البشر، وقيل المسيح هو الله وأم المسيح مقدسة ٠ ٠ وجنود الرومان يقبضون على المسيح، الذي هو الله أو الذي هو ابن الله، ويضربونه ويبصقون في وجهه، ثم يتم تعليقه على الصليب[١٥] ٠ التجار يحكون الحكايات ولا يستطيعون تقديم تفسير لها، فهم لا يعلمون٠

هل هذا هو الدين الحق ؟ ٠ ٠ لا يمكن أن يكون ٠ ما سمعه قليل ٠ هناك بالتأكيد كثير لا يعرفه ٠ لكن ما عرفه من المستحيل أن يصل به إلى حد اليقين٠

وأصنام مكة ٠ ٠ الحجارة التي لا تبصر ولا تسمع، ولا تعطي ولا تمنع، ولا تحيي ولا تميت، ولا تستطيع حتى أن تخلق ذبابة ٠ ٠ هذه بمنطق العقل الواعى لا يمكن أن يذبح لها ويبتهل ويسجد ويتعبد، حتى ولو قدسها كل أهل مكة شيوخا وشبابا ونساءً وأطفالا ٠ ما هذا بدين ٠

إلى أين يتجه ؟ أين الحق؟ وكيف يصل إلى بداية الطريق؟ هتفت أعماقه بكل أمانتها وصدقها وطهرها : أين ما كان في مكة أيام رفع إبراهيم قوائم البيت العتيق؟ أين دين إبراهيم؟ أين ما يبحث عنه الأحناف؟ كيف الوصول إلى الحقيقة؟!!

14- انظر كتابنا **موسى في الأساطير الإسرائيلية** ٠

15- انظر كتابنا ، **لا تصلبوا المسيح** .

حرمه التفكير من الراحة ٠ ٠ روحه قلقة ٠ ٠ أعماقه تهتز ٠ ٠ خرج من مكة وحده ٠٠ ثقيل قلبه ٠ ٠ مهموم فكره ٠ ٠ الصحراء منبسطة لا نهائية، قائظة، حارقة، مهلكة٠ ما كان يبالى ٠ ٠ ما في داخله أكثر وعورة وأشد خطرا ٠ كان لابد وأن يستجلى ذاته٠ ٠ أن يتفرد بوحدة روحه٠ ٠ أن يستغرق حتى يذوب في الكون ويتوحد ٠ هل كان يريد علامة؟ هل كان ينتظر علامة؟ لا أحد يدرى ٠ هو نفسه كان لا يدرى٠

خديجة كانت لا تعترض خروجه ولا ترهقه بسؤال عند عودته، ما يبدو عليه من إرهاق كان يمنعها حتى من مجرد أن تتساءل ٠ كانت تشعر أنه يمر بفترة قلق ومعاناة ٠ ٠ عليها أن تقف خلفه ٠ ٠ تشد أزره ٠ ٠ تعينه على تمزقه ومعاناته ٠ ٠ إلى أن يتكلم هو من تلقاء نفسه ويفصح ٠ كان لابد وأن يترك وحيدا ٠ ٠هو والكون وما يدور في رأسه من أفكار وما يعتلج في أعماقه من مشاعر٠

أخيرا ٠ ٠قادته قدماه إلى الجبل ٠ ٠في هدوء الليل ووحشته ورهبته ٠ ٠ وحيدا ٠ ٠ تسلق صخره ٠ ربما تجسدت أمام عينيه صورة موسى، بلحيته الطويلة وشعره المسترسل وقد تخطى الثمانين من عمره، وهو يتسلق "جبل الله" محاولا أن يصل إلى قمته كي يتلقى الكلمات العشر ويستمع إلى صوت الله ٠ ربما فكر في أن يصل إلى قمة جبله هو ٠ ٠ جبل حراء ٠ ٠ ومن فوق القمة ٠ ٠من يدرى ٠ ٠ ربما استمع هو أيضا إلى صوت الله ! !

قبل أن يصل إلى القمة بقليل، وجد الغار ٠ ٠ غار حراء[16] ٠ دون تردد دخل ٠ ٠ وكأن هاتفا من داخله، صوتا لم يسمعه لكنه شعر بوقعه، يقول له: أدخل ٠ ٠ هنا راحتك ٠ ٠ هنا نهاية المسير ٠

كان بجبال مكة عدد كبير من الكهوف، وكان بعض أهل مكة يلجأون إلى تلك الأماكن المنعزلة للصلاة والتأمل ٠ كانت هذه العادة تسمى التحنث٠

تقول كارين أرمسترونج : نحن لا نعرف الكثير عن التحنث غير أنه — على ما يبدو — كان عبارة عن تدريبات منتظمة ظهرت في أغلبية التقاليد الدينية لمساعدة الأفراد الأكفاء على السمو فوق حدود خبراتهم العادية[17]٠

أما بيتي كيلين فتقول : إن أصل التحنث وأصل الكلمة أيضا يرجع إلى اليهود في بعض صلواتهم الخاصة ٠ لكن المسيحيين الأول مارسوا نفس العادة — اللجوء إلى الأماكن المنعزلة

16- تسلقنا جبل حراء عام ١٩٧٨ حتى وصلنا إلى الغار، في صحبة زميل سعودي من جامعة أم القرى ٠ دخل كل منا الغار منفردا — ذلك لضيق مساحته — وصلي ركعتين ٠ لا يكاد طوله يصل إلى مترين وعرضه أقل من ذلك بكثير ٠ الجبل في الشمال الشرقي من مكة على بعد حوالي ثلاثة أميال من جامعة أم القرى٠

17- كارين أرمسترونج ، ص ١٢٨ .

للصلاة والتأمل — أثناء الفترة البيزنطية، ثم امتدت هذه العادة بعد ذلك جنوبا إلى شبه الجزيرة العربية[١٨].

لكن مونتجمري وُت يرى أن : المعنى الدقيق لكلمة التحنث والأصل الذي اشتقت منه غير مؤكد . ومع ذلك فمن الواضح أن التحنث هو من أنواع الورع . وربما يكون أفضل تفسير هو ذلك الذي قدمه هـ . هيرشفِلد H. Hirschfeld وهو أن كلمة " التحنث" مأخوذة من الكلمة العبرية " تحنوت tehinnot " أو " تحنث tehinnoth " ومعناها التعبد من أجل رضى الرب.

ويضيف مونتجمري : لكن ربما يكون المعنى — على أية حال — خاضع لتأثير مصدر إحدى الكلمات العربية، فمن المحتمل أن تكون الكلمة مشتقة من الكلمة العربية "حنث Hinth " ومعناها عدم الوفاء بالقسم وهو خطيئة .وطبقا لهذا فإن التحنث يمكن أن يعنى: القيام بما يكفِّر عن الخطيئة [١٩].

والتحنث — في رأي ابن هشام — هو الخروج من الحنث أي الإثم، كما يكون التأثم الخروج عن الإثم[٢٠].

بدأ محمد تحنثه في غار حراء، ولم يكن هو أول من تحنث، سبقته كثرة من العرب من أمثال خالد بن سنان العبْسي (من بني عبس)، وأمية بن أبي الصلت الثقفى (من ثقيف)، وقُس بن ساعدة أسقف نجران . ويجب ألا ننسى الأربعة، حنفاء قريش: زيد بن نفيل، وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش،وورقة بن نوفل.

هذا معناه أن محمدا لم يكن وحده هو الذي اعتزل وتحنث،غيره من قريش — وإن كانوا قلة — رفضوا مجون مكة ولهوها ونساء الرايات الحمراء وخمرها، ولجأوا إلى كهوف الجبال شهرا من كل عام، ربما يقل وربما يزيد، كل حسب قدرته . وكأنهم كانوا يقومون بعملية تنقية للنفس وتطهير للروح .

أصبح منهج محمد طوال تلك الأعوام — ما بعد الزواج إلى هبوط الوحى — أن يعتزل الناس اعتزالا كليا شهرا من كل عام . . الأغلب هو شهر رمضان . . ينقب في بحثه عن الحقيقة . . ويتأمل . . قلبه يناجى الكون متلهفا مشتاقا إلى لحظة الوصل، راجيا أن ينبثق له فجأة نور التبيان.

18- Betty Kelen, p. 41.

19- Montgomery Watt, **Muhammad at Mecca**, p.44.

20- ابن هشام ، جـ ١، ص ٢٥٣ .

ويعتقد إ.ر. بايك E. R. Pike أنه مع دخول محمد الغار. كانت بداية التاريخ [ربما يقصد تاريخ الإسلام]: وكان كلما وجد وقت فراغ ذهب إلى الغار وقضى عدة أيام وليال يتعبد ويتأمل.

كان يقضي بعض أيامه بلا طعام أو شراب . وفي الليل بدلا من أن ينام كان يخرج كي يهيم على وجهه في الصحراء، يتأمل النجوم ويعتريه الإحساس بالاندهاش . كان يسمع أصواتا غامضة، وكانت تتملكه رؤى غريبة، وأحيانا كان جسده كله يرتعد حتى أنه ليكاد يسقط فاقدا الوعي[٢١] .

خديجة المتفهمة، الواعية، الحانية كانت في بعض الأحيان، حباً له وخوفا عليه، تضرب خباءها على مقربة من الغار، لا تقترب منه ولا تقتحمه عليه، فقط تمده بما يقيم أوده وتتصدق بالكثير على من يقترب من المكان . كانت تعلم أنه في أشد الاحتياج إلى السكينة، كي ينمو ما بداخله وينضج ما في أعماقه ويخرج إلى دائرة الوجود مشعا بنور اليقين . وكأنها كانت هي نفسها على يقين أن تلك اللحظة آتية، تكاد حتميتها أن تكون ضربا من ضروب القدر المقدور.

ربما يسأل البعض سؤالا : على أي شرع كان يتحنث، شرع إبراهيم، أم شرع موسى، أم شرع المسيح عيسي بن مريم؟ يقترح البعض شرع نوح الذي نعتقد أنه ما كان يدري عنه شيئا . ولا نرى أنه تحنث على أي شرع مما جاء به هؤلاء جميعا، لكنه تحنث على شرع الفطرة الصافية النابعة من أعماقه الطاهرة.

ومن طول الاعتكاف وعمق التفكير واستغراق التأمل، تبدت له الرؤى، وكأن هذه الرؤى كانت هي لحظات انبثاق النور . . وكانت البداية . تقول السيدة عائشة: كان أول ما بُدئ به رسول الله، من الوحي الرؤية الصادقة، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، قالت : فمكث على ذلك ما شاء الله، وحُبِّب إليه الخلْوة فلم يكن شئ أحب إليه منها، وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجئه الحق وهو في غار حراء[٢٢] .

في إحدى رؤاه رأى محمد ما خيل إليه أنه ملك، يملأ عليه أفق السماء، يصيح: يا محمد أنا جبريل، أنا جبريل يا محمد!!

21- E. R. Pike, p. 23.

22- ابن سعد ، جـ١،ص ١٩٤ .

يفجأه الصوت، تتملكه الخشية، يرتعد كيانه كله. ينظر في هذا الاتجاه، وينظر في ذاك، لكن ذلك الذي ناداه كان يملأ عليه الكون كله . . ويتردد الصوت في كل الأرجاء: يا محمد أنا جبريل . ثم يكف الصوت. ويختفى صاحب الصوت، ويعود محمد من عالم الرؤى إلى دنيا واقعه.

تملكته الهواجس . . اعترته الخشية . . سيطر عليه الاضطراب . . حث الخطى مسرعا إلى خديجة، إلى حضن أمنه وأمانه وطمأنينة نفسه . قص عليها رؤياه، لم يخف عنها مخاوفه، قال : يا خديجة إني أرى ضوءا وأسمع صوتا، لقد خشيت أن أكون كاهنا.

ويروى أيضا أنه قال : يا خديجة إنى أسمع صَوتا وأرى ضوءا وإني أخشى أن يكون فيَّ جُنُن . قالت خديجة : كلاَّ . . لا تقل ذلك، فإن الله لا يفعل ذلك بك أبدا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة، وإن خلقك لكريم.

خشي أن يكون كاهنا، وما كانت الكهانة طبعه، وتملكه الرعب من أن يكون قد مسَّه جُنُن وهو الذي تميز طوال حياته بالهدوء والفطنة والاستقامة وحسن الخلق . لكن خديجة بكلماتها الشافية أبعدت عنه شكوكه وأزالت هواجسه . ولم تكتف بذلك، بل انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وقصت عليه الخبر . كان ورقة يعرف محمدا حق المعرفة من طفولته الأولي إلى تلك اللحظة : لحظة الرؤيا . وما اعتراه الشك قط في أن ينطق محمد بغير الحق.

قال ورقة، بعد أن فكر مليا فيما قالته خديجة : والله إن ابن عمك لصادق، وإن هذا لبدء نبوة، وإنه ليأتيه الناموس الأكبر، فمريه أن لا يجعل في نفسه إلا خيرا[٢٣].

أنا جبريل يا محمد . . أنا جبريل !!

يفسر البعض كلمة جبريل على أنها تتكون من مقطعين : "جب" ومعناها "عبد" و "إيل" ومعناها "إله"، وعلى ذلك فالكلمة معناها "عبد الله" . ويشار إلى جبريل أيضا على أنه "الروح الأمين" و "روح القدس" . وقد ذكره ورقة بن نوفل — كما أسلفنا — وهو يتحدث إلى خديجة على أنه " الناموس الأكبر " الذي نزل على موسى . والناموس الأكبر — كما يرى أبو حسن على — هو الملك الموكل بالأسرار الإلهية، والأسرار الإلهية هى بالطبع الرسالات الإلهية الموجهة للبشر عن طريق الرسل والأنبياء . إن الملك الذي نزل بالرسالة على محمد هو نفس الملك الذي نزل بالرسالة على موسى . ويوضح القرآن أن الذي نزل بالوحي على الأنبياء جميعا هو "جبريل ".

23- نفس المرجع ، ص ١٩٠ .

-٤-
الوحي

ملأ الصوت عليه وجوده : يا محمد أنا جبريل !! هكذا صاح الصائح في إحدى الرؤى. وخديجة باحت بما يعتمل في نفسها : أني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . وورقة بن نوفل لم يتردد، قال في حزم الواثق : إن هذا لبدء نبوة!!

ومحمد تملكته الحيرة .. نبي هذه الأمة !! هذه الأمة التي لم يرسل لها نبي من أهلها من قبل بكتاب تحفظه مثل كتاب اليهود أو كتاب النصارى .. هذه الأمة التي تُركت للأصنام وكأن الله قد أعفاها من عبادته فلم يرسل لها هاديا بكتاب مبين.

هل حانت اللحظة الباترة في التاريخ العقائدى لهذه الأمة: أن يُرسل نبي ويتنزل وحي ويكون لها كتاب ؟ .. ثم .. هل من الممكن أن يكون هو .. هو المختار .. هو النبي؟!!

طلبت منه خديجة أن يطمئن .. أن يهدأ .. أن يهجع .. أن ينام . كانت تطلب المحال . تركها . لم تقف في طريقه . لم تعترضه . هو ذاهب إلى قدره . لن توقفه قوة .. وعاد إلى الغار.

وفي شهر رمضان من عام ٦١٠ ميلادية، كان محمد يقف في مدخل الغار، يتأمل الفضاء والسماء، وقد تملكه شوق جارف إلى سماع الصوت: يا محمد أنا جبريل . فجأة شعر كأن وعيه قد غاب، كأن قوة هائلة غامضة قد تملكته . سيطر على حواسه كلها ثقل لا يعرف مصدره . لقد عاد إلى عالم الرؤى . تحدث إليه صوت صادر عن كائن من المستحيل معرفة، أو مجرد تخمين، طبيعة تكوينه.

في البداية ربما ظن محمد أن الله نفسه هو الذي يتحدث إليه : " اقرأ " !! هل من الممكن أن يكون هذا هو صوت الله يتحدث إليه كما تحدث إلى موسى من قبل؟!

ثقلت الرؤيا واشتد الوطأ : اقرأ !!

ورد محمد بنقاء الفطرة : ما أنا بقارئ . لقد خشي أن تظن تلك القوة الآمرة المسيطرة أنه أحد الكهنة سيِّئى السمعة الذين كانوا يقرأون الطالع في مكة . وأحس كأنه يعصر عصرا حتى تكاد أنفاسه أن تحبس.

اقرأ !! صدر الأمر للمرة الثانية . وأجاب محمد: ما أقرأ . أي أنا لا أستطيع القراءة . وللمرة الثانية أحس أنه يعصر عصرا حتى تكاد أن تحبس أنفاسه.

اقرأ!! وبسرعة بالغة سأل محمد: ماذا أقرأ؟ وكما قال محمد نفسه وهو يصف ما حدث له: ما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعود لي بمثل ما صنع بى.

هنا تتنزل أول آيات الوحي " اقرأ باسم ربك الذي خلق ٠ خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم ٠ الذي علم بالقلم ٠ علم الإنسان ما لم يعلم"٠

استيقظ محمد من نومه ٠ ٠أو بأسلوب أدق عاد من رؤياه إلى وعيه ٠ إنتابه إحساس طاغ — كما تقول كارين أرمسترونج — بحقيقة مقدسة كانت قد انسحق على إثر إدراكها حضورا الرسل والأنبياء في معظم النواميس ٠ وفي المسيحية وصفت بأنها رهيبة غامضة ومبهرة، وسميت في اليهودية بالمقدس، أي الحضور " الآخر "الرهيب للإله٠[٢٤]

اقترب من باب الغار ٠ ٠ مازال تحت سيطرة ذلك الحضور المهيب الرهيب ٠ كان يترنح، وكأنه هو ليس هو ٠ هل هو كاهن؟ هل أصيب بالجنون ؟ أم أن ذلك الصوت الذي استمع إليه هو صوت الله ؟!!

خرج من الغار ٠ ٠ توسط الجبل ٠ ٠ سمع صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل!!

كانت الكلمات واضحة، فاصلة، قاطعة ٠ إتضحت الرؤية وفُسرت الرؤيا ٠ قُضى الأمر٠

في وصفه لهذه اللحظة الفارقة في تاريخ البشر، يقول النبي : فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء، يقول : يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال : فَوَقَفْت انظر إليه، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي في آفاق السماء ٠ ٠ فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فمازلت واقفا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي ٠ ٠ ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي [٢٥]٠

يعلق مونتجمري وُت على كلمة" إقرأ"، يقول : تنتمي كلمة "قرأ" و" قرآن" إلى المفردات الدينية التي أدخلتها المسيحية إلى شبه الجزيرة العربية ٠ ٠ وكلمة " قرآن" مأخوذة من الكلمة السريانية " قريانا Qeryana "، وتستخدم للدلالة على " القراءة" أو على" درس في الكتاب المقدس" ٠ وبينما أصبح الفعل فيما بعد يعني" إقرأ "، فمن المفترض في هذه السورة أنه يعني:" أتْل " من الذاكرة، أي مما تتذكره مما أوحى به إليك[٢٦]٠

ويرى هـ . جريم أن كلمة "اقرأ" جاءت بمعنى : " امدح"، وذلك بحذف حرف الجر "بـ" ،حيث يصير المعنى هكذا :" امدح أو مجد اسم ربك" ، لكن فرانتس بول يقرر:

24- كارين أرمسترونج ، ص ١٢٩ .

25- ابن هشام ، جـ ١ ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ٠

26- Montgomery Watt, **Muhammad at Mecca**, p. 46 .

انه يجب أخذ فعل الأمر على إطلاقه أي بدون مفعول مباشر وأن نفهمه هكذا: أعلن بصراحة وأفصح للناس عما في داخلك مما أوحينا إليك[٢٧].

هكذا بدأ الوحي .. يوم جاءه الملك . ومن تلك اللحظة أصبح هو النبي.

يناقش الدكتور عبد الرحمن بدوي الرواية كما أوردها ابن إسحاق، والتي يبدأها على لسان محمد بقوله : فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : " اقرأ .." إلى آخر الرواية كما أوردناها من قبل . يشكك الدكتور بدوي في صحة ما أورده ابن إسحاق، ويقدم من الأدلة ما يعتقد أنه صواب، يقول : القرآن لم يشر إليها ولو بكلمة واحدة ولم يقل لنا أي شئ عن الطريقة التي تلقى بها النبي محمد الوحي . ثم أنه ليس من المؤكد أن سورة العلق هي أول ما نزل من القرآن على النبي فآراء علماء المسلمين مختلفة في ذلك . هذا بالإضافة إلى أن التفاصيل الخاصة بنمط من ديباج فيه كتاب يبدو أنها من الخيال المضطرب والمتأثر بالرواية والتخيل، كما أننا نعتقد أن هذه الرواية ألفها ابن إسحاق وأخذها عنه كتاب السيرة المسلمين فيما بعد.

ويؤكد الدكتور بدوي صحة رأيه بقوله : إن ابن سعد في **الطبقات الكبرى** لم يذكر إلا الحدث الثاني وهو رؤية الملك في الأفق لكنه سكت عن الحدث الأول وهو ما حدث داخل الغار[٢٨].

فإذا ما رجعنا إلى ابن سعد، نجد بالفعل أنه لا يشير مطلقا إلى أي حدث مما أورده ابن إسحاق داخل الغار، ويكتفي بقوله : لما نزل عليه الوحي بحراء .. وكان أول ما أنزل على النبي: اقرأ ..[٢٩]، ولا يشير من قريب أو بعيد إلى " نمط الديباج" أو "الكتاب".

لكن ابن إسحاق يصدر روايته بعبارة : قال رسول الله، أي أن النبي هو الذي يروى، وعندما يروى النبي يجب ألا يتطرق إلينا الشك فيما رواه . لكن هل من الممكن أن يكون هذا الكلام. قد رواه النبي، ويتجاسر ابن سعد فيتجاهله، لا يذكره ولا يشير إليه؟

إن ابن إسحاق ينقل هذا الحديث عن رواية " وهب بن كيْسان"، ووهب بن كيسان ينقل عن "عبيد" . ولم يقل لنا ابن إسحاق من هو وهب بن كيسان ومن هو عبيد . ونحن لا نعرف من هو وهب ومن هو عبيد . هل كان عبيد هذا الذي نقل عنه ابن كيسان

27- د. عبد الرحمن بدوي، **دفاع عن محمد**، ص ٥١.
28- نفس المرجع السابق، ص ٥٣.
29- ابن سعد، جـ١، ص ١٩٦.

— ووضع ابن إسحاق ثقته المطلقة فيه فلم يناقش قوله — ممن عرفوا النبي ولازموه وسمعوا منه في بداية الوحي ؟

ثم، لماذا لم تقم السيدة خديجة بذكر هذه الرواية وهى مرجع موثوق به ؟ ولماذا لم يشر إليها أبو بكر أو عمر أو علي أو عثمان وهم من المقربين الخلصاء ؟ والقرآن، أيضا، لماذا لم تذكر فيه وهى حدث جوهرى محورى فاصل ؟هل ذكر القرآن كلمة واحدة عن جبريل وهو يتوجه إلى الكهف حاملا " نَمَطا من ديباج فيه كتاب " ؟

الإجابة نفي قاطع، لذلك تجاهل ابن سعد رواية ابن إسحاق،ولم يكترث بها الطبري في **تاريخ الأمم والملوك** . يقول الطبري، وروايته تعود في أصلها إلى عائشة : قال [النبي]: فلقد هممت أن أطرح نفسى من حالق من جبل، فتبدى لي حين هممت بذلك، فقال: يا محمد أنا جبريل، وأنت رسول الله . ثم قال: اقرأ [٣٠]. هذا معناه أن بداية الوحي لم تكن داخل الغار، بل كانت فوق الجبل ومحمد يهم — كما تقول الرواية — أن يطرح نفسه من حالق . وهذا معناه أيضا أنه لم يكن هناك " نمط من ديباج فيه كتاب ".

هنا قد يُثار سؤال : كيف تلقى جبريل آيات القرآن عن الله عز وجل ؟ يرى بعض الفقهاء أن ذلك كان سماعا، حيث سمع من الله عز وجل هذه الآيات فنزل بها على رسول الله . . قال البيهقى في معنى قوله تعالي : " إنا أنزلناه في ليلة القدر" يريد . . إنا أسمعنا الملك وأفهمناه إياه وأنزلناه بما سمع . . ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الله سبحانه وتعالى سماعا . ويؤيده ما جاء في الحديث الشريف: " إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السماء صعقوا، وخروا سجدا، فيكون أولهم يرفع رأسه (جبريل) فيكلمه الله بوحيه بما أراد، فينتهي به إلى الملائكة، فكلما مر بسماء سأله أهلها : ماذا قال ربنا ؟ قال : الحق، فينتهي به حيث أُمر [٣١].

النبي الأمي :تثير عبارة محمد للملك : " ما أنا بقارئ " تساؤل كثرة من الكتاب الذين تعرضوا للكتابة عن حياة محمد . يقول هنري ستب Stubbe، على سبيل المثال، لو كان محمد أميا جاهلا لأصبح مجرد أداة في يد " الآخر "ولما استطاع أن يفعل ما فعل . يقولون إن أميته معترف بها في القرآن، إذ يُذكر أن الله قد بعث في الأمين رسولا من بين أنفسهم، بمعنى أنه أرسل إلى الذين لا يعرفون القراءة والكتابة رسولا لا يعرف القراءة والكتابة . . لكن أن يرسل إلى الأميين رسولا من بينهم ليس معناه بالضرورة أن يكون هذا

30- الطبري ، جـ ١ ، ص ٥٣١ .

31- محمد علي الصابوني ، **التبيان في علوم القرآن** ، مكة المكرمة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠ ، ص ٤٣ .

الرسول هو أيضا أمي ٠ ٠ إن عبارة "النبي الأمي " قد أطلقت عليه من قبل العرب. ورغم ذلك فإنهم لم يتفقوا على معنى محدد للعبارة ٠ يقول البعض إن وصفه بالأمي لا يرجع إلى الجهل ولكن يرجع إلى انتمائه لمكة التي يطلق عليها أم القرى ٠ ٠ ثم كيف يكون أميا لا يقرأ ولا يكتب وقد تربى " علي " في بيته وقد أجاد " علي " القراءة والكتابة ٠ من الذي علّمه؟ وهل من المعقول أن يتعلم " علي " القراءة والكتابة في بيت محمد ولا يتعلمها محمد نفسه [٣٢] ؟

تبدى كارين أرمسترونج رأيا مغايرا لرأى د. هنري ستب، فهى تنفى معرفة محمد القراءة والكتابة نفيا قاطعا، تقول : كثيرًا ما يُدعى محمد في القرآن النبي الأمي، أي الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ويؤكد الاعتقاد في أميته على الطبيعة الإعجازية للتنزيل ٠ غير أن بعض الدارسين الغربيين المحدثين يذهبون على أن لقب " أمي " لا يجب أن يفسر على أنه جهل بالقراءة والكتابة، إذ أن النبي كتاجر قد يكون ألمَّ بمبادئ الكتابة، أما المعنى الذي يذهبون إليه فهو أنه كان نبيا "للأميين" الذين لم يتلقوا كتابا سماويا من الله ٠ وبمعنى آخر يفسر لفظ الأمي على أنه غير اليهودي (النبي المرسل لغير اليهود) ٠ وواصل البعض من هذا المنطلق تأكيدهم أن لفظ أمي متصل بلفظ أمة، ويعنى في هذا السياق نبي القوم، وفي الواقع فإنه ليست هناك صلة بين أمي وأمة، كما أن المسلمين يجدون هذا التفسير مهينا ٠ ٠ ومن الحماقة أن نتحدى التفسير الموروث للمسلمين للفظ "أمي" ٠ كما أنه لا يوجد في المصادر الأولي أي ذكر عن قدرة محمد على الكتابة والقراءة ٠ ٠ ولو كان صحيحا أن محمدا قد أخفى مقدرته على الكتابة والقراءة طيلة حياته لكانت تلك خُدْعة كبرى، وخلافا لكون ذلك منافيا لطبيعته، فإنه من الصعب جدا الإبقاء على مثل تلك الخدعة إذا نحن أخذنا في الاعتبار حميمية الصلة بين محمد وقومه [٣٣]٠

لقد أشار القرآن في أكثر من آية إلى " أمية " محمد، مؤكدا عبارته التي قالها للملك: ما أقرأ ٠ يقول تعالي : " هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته٠٠" (سورة الجمعة : ٢) و " قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون "(سورة الأعراف : ١٥٨)، و" وما كنت تتلو قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون " (سورة العنكبوت : ٤٨)٠

32- Stubbe , p . 147 .

33- كارين أرمسترونج ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ٠

ومعنى الآيات واضح: النبي المختار أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة. ومعجزته: هذا القرآن العظيم الذي يتلوه من الوحي مباشرة والذي لا يقدر على الإتيان بمثله هؤلاء الذين يقرأون ويكتبون الشعر ويتبالغون في إلقاء خطبهم أو مواعظهم على الناس. ومنهم من يبدل كلماته، يزيد وينقص ويحذف ويطنب. أما الوحي الذي نطق به محمد فلا زيادة فيه ولا نقصان، ولا تبديل لكلمات الله . ولو كان من عند محمد لاعتراه الكثير من التغيير.

وكيف يأتي بهذا القرآن من لم يعرف عنه مطلقا أنه قرأ كتابا أو خط سطرا واحدا على ورقة في خطاب؟ لقد كان علي بن أبي طالب هو الذي يكتب خطابات النبي إلى الملوك والأمراء والحكام عندما قرر النبي أن يدعوهم للإسلام، ولم يكن النبي يقوم حتى بمجرد التوقيع . لقد اتخذ له خاتما عليه اسم " محمد رسول الله " كي يحل محل التوقيع . وهناك حادثة صغيرة لكن دلالتها كبيرة في هذا المجال : في صلح الحديبية . عندما أصر ممثل المشركين على حذف عبارة " رسول الله" من كتاب الصلح، أمر النبي عليا بحذفها ورفض على أن يفعل ذلك، عندها طلب منه النبي أن يشير بأصبعه إلى العبارة وقام بحذفها بنفسه . لو كان يقرأ — كما يدعي الزاعمون — لحذفها بصورة عفوية تلقائية . وما طلب من علي أن يشير بأصبعه إليها.

لقد كان الجهل بالقراءة والكتابة منتشرا بين عرب الجاهلية، هذه حقيقة لا يمكن إنكارها، ولا يوجد من القرائن ما يثبت عكسها . ويقال إن عدد الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة في قريش عند ظهور الإسلام لم يزد عددهم عن سبعة عشر، وفي المدينة لم يزد عدد من يقرأون ويكتبون بين الأوس والخزرج عن أحد عشر . ولقد كان النبي في طفولته يتيما فقيرا، وكان بلا شك مهموما بيتمه وفقره، فمن يهتم بتعليمه ؟ ولماذا يتعلم وقد تم توجيهه إلى رعى الغنم ؟

حتى هؤلاء الذين كانوا يكتبون الوحي — كما يذكر الأستاذ أحمد أمين — لم يكونوا مهرة في الكتابة ، ولا كتابتهم سائرة على نمط واحد، ولا خاضعة لقوانين الإملاء، فكتبوا " لا أذبحنه " بزيادة الألف وكذلك " لا أوضعوا " وكتبوا " بأييد" بياءين، وكتبوا " امرأت فرعون" و " قرتُ عين لي ولك" بتاء مفتوحة، وحذفوا الألفات من مواضع دون مواضع مع تساويها في نظر الإملاء وسبب ذلك — كما يعلله ابن خلدون — ضعفهم في صناعة الخط وأنهم لم يبلغوا حد الإجادة فيها [٣٤].

34- أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

النبي والرسول النبي الأمي من واقع حياته وكما ذكر في القرآن. الذي قال للملك في صدق وجل : ما أقرأ. وناداه الملك من فوق قمم الجبال : يا محمد أنت رسول الله، هو إذن النبي الرسول.

هنا يجدر بنا، ومنذ البداية، أن نوضح ما هو المقصود بهاتين الكلمتين : نبي ورسول . الرسول بصورة عامة، هو صاحب رسالة سماوية — موجهة إلى مجتمع أو مجتمعات وربما إلى العالم أجمع — في صورة كتاب مقدس، ونجاح الرسول مضمون بأمر الله . أما النبي فهو يأتي للبشارة والإنذار ولا يوحي إليه بكتاب مقدس ينشر تعاليمه بين الناس ونجاحه غير مضمون . هذا واضح، على سبيل المثال، في حالة يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) الذي جاء للإنذار (إنذار اليهود) والتبشير (التبشير بمقدم المسيح)، كما تذكر الأناجيل، وانتهى الأمر بأن أمر الحاكم بقطع رأسه إرضاءً لامرأة سرَّة رقصها.

كل الرسل أنبياء، لكن كل الأنبياء ليسوا رسلا . إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، كلهم أنبياء ورسل . وفي القرآن تطلق كلمة " نبي " على كثيرين مثل : نوح ويوسف ويحيى بن زكريا، وكذلك على أنبياء لا ذكر لهم في "التوراة " مثل هود وصالح في بلاد العرب، ولقمان في الحبشة، والخضر في السودان، وذي القرنين (داريوس Darius1 الذي كان ملكا) في بلاد فارس.

ويرى أبو حسن على أن كلمة "نبي " مشتقة من "نبأ"، وهى لا تطلق إلا على الخبر اليقين الذي لاشك فيه . ويشرح أحد المعجميين كلمة"نبي" على أنها تعنى " المبعوث من الله إلى المخلوقات العاقلة من خلقه . وطبقا لمعجمى آخر : " النبي هو الشخص الذي يعرِّف الناس باللّه . . وهو الرجل الذي يمده الله بالعلم عن وحدانيته ويكشف له أسرار المستقبل" . ويطلق على النبي أيضا لفظ رسول، والكلمتان: نبي ورسول متبادلتان في القرآن، نفس الشخص أحيانا يطلق عليه "نبي" ، وأحيانا أخرى يسمى " رسول ". وفي بعض الأحيان يتم الربط بين الكلمتين . والرسول يتمتع بمقدرتين فهو يستقبل الوحي من الله ثم يوصل الرسالة للبشر، في الحالة الأولي هو نبي، وفي الحالة الثانية هو رسول . وكلمة رسول أشمل وأوسع استخداما، فهى تطلق على أى رسول بالمعنى الحرفى للكلمة. والملائكة يطلق عليهم اسم "رسل ذلك لأنهم حملة رسائل مقدسة . . والرسول لا يحمل رسالة مقدسة فقط، لكنه أيضا يفسر ويوضح كيف يُعمل بهذه الرسالة في الحياة الواقعية المعاشة، وعلى ذلك فهو مثل يُقتدى به[٣٥] .

---

35 - Abu Hasan Ali , pp. 219 –220 .

ملخص الأمر : الرسالة أعلى مرتبة من النبوة. ذلك لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا • ولم يرسل محمد إلى قومه فقط، كما حدث في حالة نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وعيسى، لكنه أرسل لكل الشعوب ولكافة الأمم دون استثناء : " قل يأيها **الناس** إني رسول الله إليكم **جميعا** الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يُحي ويميت • • " (سورة الأعراف : ١٥٨)•

طبيعة الملك: الآن نتحدث عن طبيعة الملك الذي ظهر للنبي في أفق السماء والذي قال: يا محمد أنا جبريل!

ويجب أن نقرر بوضوح أن ما نقوله في هذا المجال هو مجرد اجتهاد شخصي قد يصيب وقد يخطئ، ويكفينا شرف المحاولة، وقد يأتي من بعدنا من قد تدفعه إثارة هذه النقطة إلى التفرد بالكتابة عنها في بحث خاص، وربما يأتي بما هو أفضل أي بما قد يحسب له كإضافة في عالم المعرفة، والباحثون عن الحقيقة هم جميعا طلاب علم على الطريق•

لا يعرف شئ محدد عن طبيعة الملائكة، ولا يشير القرآن إلى حقيقة تكوينها • الإنسان بحكم النص القرآني، خلق من طين، والجان — أيضا بحكم النص — خلق من نار، أما الملائكة فلا ذكر لخلقها في القرآن • لكن هناك نص في أحد الأحاديث يشير إلى أنها خلقت من نور • يقول النبي : " إن الجن خلقوا من نار وإن الملائكة خلقت من نور"، والجزء الأول من الحديث يتطابق مع ما جاء في القرآن، أما الجزء الثاني منه فلا أصل له في النص القرآني، وربما أُلهم به النبي فلم يتردد في الإفصاح عنه•

الملائكة كما يصفهم القرآن رسل ذوى أجنحة • ومعنى رسل، هنا ، هو أنهم يحملون رسالات الله لمن اصطفاهم من البشر كالرسل والأنبياء والأصفياء، فمريم أم المسيح، على سبيل المثال، عندما تحدث إليها الملك لم تكن تنتمى إلى طبقة الرسل والأنبياء ولكن إلى طبقة الأصفياء : " يا مريم إن الله اصطفاك"•

وهؤلاء الملائكة الذين يحملون رسالات الله ذوى أجنحة • ويجب ألا نخطئ في فهم المقصود بأجنحة الملائكة، فتقفز أمام أعيننا أجنحة الطير • لغة القرآن رمزية مجازية ويجب ألا تفسر تفسيرا حرفيا ماديا، تجنبا للخلط بين مألوف الطبيعة ومجهول ما وراء الطبيعة•

يقول شيخنا الإمام أحمد حسن الباقوري: إنها مجرد أجنحة روحانية وليست أجنحة كأجنحة الطير • وقد قال أهل العلم في أجنحة الملائكة : إنها ليست كما يُتوهم من أجنحة

الطير، ولكنها صفات ملكية لا تفهم إلا بالمعانية واحتجوا لذلك بقوله تعالي " أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع "، فكيف تكون كأجنحة الطير على هذا، والناس لم يروا طائرا له ثلاثة أجنحة أو أربعة، فكيف بستمائة جناح، كما جاء فى صفة جبريل عليه السلام؟ إن ذلك ليدل على أنها صفات لا تنضبط كيفيتها للفكر، لأنه لم يرد في بيانها خبر[٣٦].

وعلى ذلك فإنه من الخطأ الفاحش أن نخلط بين أجنحة الملائكة وأجنحة الطير، فالجناح في حالة الملائكة ما هو إلا مجرد رمز للقوة والسرعة التي تؤدى بها هذه المخلوقات النورانية وظيفتها ٠ إن استخدام اللغة بصورة رمزية مألوف لنا حتى في أحاديثنا العادية، وعلى ذلك فنحن تستخدم كلمة "جناح" استعاريا لتؤدى أكثر مَن معنى، فيقال مثلا: افعل **هذا على جناح** السرعة أى في أسرع وقت ممكن، ويقال : فلان أصبح مكسور الجناح **للدلالة** على سوء حاله وانتكاس أعماله ٠ ونفس الأسلوب الاستعارى موجود في القرآن : "لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين " (سورة الحجر: ٨٨) و " واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين "(سورة الشعراء :٢١٥) ٠ وهكذا يفهم من استخدام كلمة "جناح" أنها رمز للقوة التي تتحول إلى فعل وحدث٠

في تعرضه للحديث عن الملائكة يقول أبو حسن علي: من المألوف الظن أن تلك المخلوقات النورانية — التي تنتمى إلى عالم الروح لا عالم المادة والتي نطلق عليها اسم الملائكة وتوصف بأنها ذوى أجنحة — يمكن أن تتخذ أي شكل تريده ٠ لكن لا يوجد في القرآن ما يؤيد هذه الفكرة على وجه الإطلاق، بل على العكس يؤكد القرآن المرة تلو الأخرى ردا على خصوم النبي الذين طلبوا منه أن يريهم ملكا أو أن يُرسل لهم ملكا رسولا، أن الملائكة لا يمكن رؤيتهم، وأنه كان من الممكن أن يُرسل لهم ملكا رسولا لو أن الذين يعيشون على الأرض كانوا ملائكة وليسوا بشرا [٣٧]: " وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ٠قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا "(سورة الإسراء : ٩٤-٩٥) ٠ ويشير القرآن في سورة التوبة إلى الملائكة على أنهم جنود لا يمكن للعين البشرية رؤيتها: " ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها"(سورة التوبة: ٢٦) ٠ هذا يثبت خطأ الذين يدعون أنهم رأوا الملائكة الثلاثة آلاف وهم يحاربون في صفوف المسلمين في معركة بدر٠

36- الباقوري ، ص ١٦٣ ٠

37- Abu Hasan Ali, p .1.

وعلى ذلك فإن ما يدعيه ابن سعد من أن حمزة بن عبد المطلب رأى جبريل رأى العين، قول مرفوض لا يمكن قبوله، بل ولا يمكن مجرد التفكير في احتمال حدوثه . يروى ابن سعد عن آخرين: أن حمزة بن عبد المطلب سأل النبي ، صلى الله عليه وسلم ،أن يريه جبريل في صورته، قال: إنك لا تستطيع أن تراه، قال: بلى . قال : فاقعد مكانك، قال: فنزل جبريل على خشبة في الكعبة كان المشركون يضعون ثيابهم عليها إذا طافوا بالبيت، فقال : ارفع طرْفَك فانظر، فنظر فإذا قدماه مثل الزبرجد الأخضر فخر مغشيا عليه[٣٨].

قدمى جبريل مثل الزبرجد الأخضر! ! هذا ما قيل إن حمزة قد رآه. أي أن الملك كان له قدمان كقدمى البشر لكنهما مثل الزبرجد. ويذكرنا هذا التصوير بتماثيل الآلهة الوثنية . ولو جُعل القدمان، كقدمى الإنسان مثلا من لحم ودم ،لقرب الملك من البشر الذي خلقه الله في أفضل صورة وكرَّمه . لكن الرواية تنقل الملك مباشرة من النورانية إلى الحجرية، والنقلة فجة مستهجنة يرفضها العقل، ونعتقد أنها من الإسرائيليات .

نكتفي بذكر مثل واحد مشابه من "العهد القديم"، كتاب اليهود " المقدس"، جاء فيه وصف لحملة العرش : " لكل واحد أربعة أوجه ولكل واحد أربعة أجنحة . وأرجلها أرْجُلُ قائمة وأقدامُ أرجُلها كقدم رجل العجل وبارقة كمنظر النحاس المصقول . . . . وفوق المقُبَّب الذي على رؤوسها شبهُ عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق وعلى شِبْه العرش شِبْه كمنظر إنسان عليه من فوق . . هذا منظر شِبْه مجْدِ الرب . ولما رأيته خررت على وجهى (حزقيال ١ : ٦ —٢٨) .

السيدة خديجة نفسها لم تر الملك . كان النبي يكتفي بقوله : يا خديجة جبريل يقرؤك السلام . لكن ابن سعد يعود فيقول إن عائشة هى أيضا — بالإضافة إلى حمزة — قد رأت جبريل، وكان هذه المرة على فرس . وكما يروى ابن سعد، قالت عائشة : لقد رأيت جبريل واقفا في حجرتي هذه على فرس ورسول الله يناجيه، فلما دخل قلت يا رسول الله من هذا الذي رأيتك تناجيه ؟ قال : وهل رأيته؟ قلت : نعم . قال : فبمن شبَّهته ؟ قلت: بدحية الكلبي . قال : لقد رأيت خيرا كثيرا ، ذلك جبريل . قالت : فما لبثت إلا يسيرا حتى قال : يا عائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام . قلت : وعليه السلام، جزاه الله من دخيل خيرا . وفي موضع آخر يحكي ابن سعد أن عائشة قالت: رأيت جبريل ولم تره امرأة غيري [٣٩].

38- ابن سعد ، جـ ٣ ، ص ١٢ .

39- ابن سعد ، جـ ٨ ، انظر ص ٦٥ ـ ٦٨ .

ويعلق " أبو حسن علي" على ما رواه ابن سعد بقوله: هذا مالا يمكن قبوله، إذ يروى البخارى أن الرسول قال لعائشة ذات مرة :يا عائشة هذا جبريل يقرؤك السلام ٠ قالت: عليه سلام الله ورحمته . أنت ترى مالا أستطيع أن أرى ٠ وهذا يدل على أن عائشة لم تر جبريل. ولو كان بالإمكان رؤية جبريل بالعين البشرية لاستطاع الرسول في التو واللحظة أن يريها إياه [٤٠]٠

في أحيان كثيرة كان جبريل يهبط بالوحي والنبي جالس بين أصحابه، ومع ذلك لم يره أي منهم ولم يسمع صوته ٠ ما سمع أي منهم مرة كلمة واحدة من كلمات الوحي لحظة نزولها ٠ الرسول فقط هو الذي كان يسمع ويرى ٠ هذا معناه أن الرؤية في هذه الحالة لم تكن بالعين الجسدية، لكنها كانت مشاهدة بالرؤيا الروحية ٠

ويقال إن الملك كان يأتي النبي أحيانا في صورة رجل ٠ هذا ما لم يحدث أبدا من مكة طوال السنوات الثلاث عشر التي قضاها النبي في البلد الأمين، لكن يقال إنه حدث في "المدينة "فيما بعد "بدر" ٠ كان الملك يأتي في صورة دحية الكلبى، وكان دحية هذا مشهود له بعلو الهامة وشدة الوسامة ٠ وبالطبع كان كل من هم حول النبي يرون جبريل في هذه الصورة٠

هذا كلام لا يسهل قبوله لأنه يدعو للبلبلة ويثير الشبهات ٠ ماذا يفعل هؤلاء الذين رأوا جبريل في صورة " دحية" إذا ما التقوا بـ "دحية" فيما بعد؟ هل يتعاملون معه على أنه جبريل أو على أنه دحية؟وماذا عن زوجة دحية، إذا ما وصلها الخبر، وهو لابد واصل، أليس من حقها أن تتساءل عن طبيعة هذا الذي بين ذراعيها ٠ ٠ هل هو جبريل أم هو دحيه؟ ثم، ما هو الداعى لإثارة كل هذه الشكوك والنبي وجبريل في غنى عنها ٠ ويجب أن تؤكد، بل ويجب ألا ننسى، أن القرآن لم يذكر أبدا أن جبريل قد هبط بالوحي وهو في صورة رجل اسمه دحية الكلبى٠

ليس معنى هذا أنه من المستحيل على الملك أن يظهر في صورة بشرية ٠ هذا ممكن بقدرة خالقه، كما جاء في سورة مريم : " فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ٠ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ٠ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا" (سورة مريم :١٧ — ١٩) ٠ لكن المقام هنا، كما نعتقد، هو مقام رؤيا لا مقام رؤية ٠ والفرق بين الرؤيا والرؤية هو الفرق بين الروح والجسد : الرؤيا تنتمى إلى عالم الروح، والرؤية تنتمى إلى عالم الجسد٠

40- Abu Hasan Ali, p . 174 .

يفسر الإمام محمد أبو زهرة التجسد في حالة الملك بقوله : وكون روح القدس جبريل يظهر في جسد لا يقتضى أن يتحول الجسد إلى ملك. ولا أن يتحول الملك إليه. وهى روح ليست حيوانية، ولا ثمرة للحيوية الإنسانية، حتى إذا تركت الجسد لا تفارقه الحياة. لأنها ليست أمرا عضويا. ولكنها روح ملك تفيض في جسم يخلقه. أو تظهر في جسد يخلقه الله تعالي، وهو الخلاق العليم، فإذا غاب الملك غاب معه الجسد الإنسانى[41].

التفسير مقبول بصورة عامة ،وإن كنا لا نوافق على ما يراه الإمام أبو زهرة من أن الملك يستطيع أن يخلق جسما يفيض فيه، فالملك مخلوق وليس بخالق، أي أنه لا يملك مقدرة الخلق . ولو ملكت الملائكة مقدرة الخلق لخلقت ما تشاء متى تشاء وكيف تشاء . وهذا عبث مرفوض.

والقول إن جبريل أتي النبي في صورة أعرابي وسأله وهو جالس بين أصحابه عن الإسلام وعن الإيمان، ورآه كل من كان حول النبي، هو قول يجب عدم الأخذ به دون تمحيص . سأل الصحابة النبي عن الأعرابي – الذي هو جبريل حسب الرواية – بعد انصرافه، من يكون، فقال لهم النبي : هذا جبريل جاء يعلمكم أمور دينكم.

نحن لا نشكك في صحة الرواية ولا ننكرها،لكن نختلف في أسلوب تفسيرها .لماذا ينزل جبريل في صورة أعرابي كي يعلم الناس أمور دينهم ؟ القرآن كله وحي نزل به جبريل كي يعلم الناس أمور الدين،فهل كان جبريل يأتي كل مرة في صورة أعرابي أمام الجميع؟ وما هى قيمة نزوله في صورة أعرابي ؟ هل تزيد من قدره شيئا؟ هل تجعل كلماته أكثر استيعابا وأسهل فهما؟ والتفسير المقبول لكلمات النبي: " هذا جبريل جاء يعلمكم أمور دينكم"،هو أن الإجابات التي رد بها النبي على استفسارات الأعرابي هى بإلهام من جبريل.

إن مهمة الملك، ذلك المخلوق النورانى، هى أن يهبط بالوحي ويوصل الرسالة السماوية إلى الأنبياء والرسل . والنبي لا يسمع صوت الملك فقط، بل ويراه أيضا، فالملك بالنسبة للنبي في هذه الحالة حقيقة واقعة . لكن النبي يتقبل الوحي بمشاعره الروحية لا بحواسه الجسدية، ولذلك فنحن نميل إلى القول بأنه كان يرى الملك، أيضا، وهو في نفس الحالة من التجلى الروحي . وهذا معناه أنها لم تكن رؤية بالعين بل رؤيا بالروح.

41- أبو زهرة ، جـ١ ، ص ٢٨٢ .

- ٥ -
صور الوحي

يقول الرواة إن الملك نزل على محمد بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان ورسول الله يومئذ ابن أربعين سنة، وجبريل هو الذي كان ينزل عليه بالوحي ٠ وقد اختلف الرواة في تحديد اليوم فقيل في السابع والعشرين من رمضان، وقيل في السابع، وقيل في الرابع والعشرين٠

كما اختلف الرواة في المدة التي أقرن به جبريل : هل هي عشرون سنة أم ثلاث وعشرون ٠ يزعم البعض أن إسرافيل كان معه ثلاث سنين ثم عزل عنه إسرافيل وأقرن به جبريل عشر سنين بمكة وعشر سنين مهاجره بالمدينة، فقبض رسول الله، وهو ابن ثلاث وستين سنة [٤٢]٠

القول بأن إسرافيل قرن بالنبوة وكان يُعلم النبي لمدة ثلاث سنين، قول غير مأخوذ به، ولا دليل عليه، فالذي ناداه من الأفق الأعلى هو جبريل، والذي نزل عليه في الغار بأول الوحي هو جبريل ٠ ولا يذكر القرآن كلمة واحدة عن إسرافيل فيما يختص بالرسالة وتبليغ الوحي، ولم يُقرن بالنبي من بداية الوحي إلى أن قُبض سوى "الروح الأمين" أي جبريل عليه السلام٠

كان الوحي يأتي النبي على نحوين مختلفين عبَّر الرسول عنهما، عندما سئل كيف يأتيه الوحي، بقوله : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدَّه عليَّ فيُفْصِم عنى وقد وعيْتُ ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك فيكلمنى فأعى ما يقول[٤٣]٠

كما يختلف الرواة فيما يختص بأول ما نزل من القرآن : سورة "العلق" أو سورة "المدثر"، والقرآن لا يشير إلى هذا الأمر ولا يذكر عنه شيئا ٠ وسورة " المدثر"، بما جاء فيها من كلمات " قم فأنذر " وهي أمر بمباشرة الدعوة، يمكن أن تكون بداية الوحي في حالة واحدة: لو أن محمدا قام بدعوته العامة مباشرة دون أن تكون هناك فترة إعداد ٠ لكن لو كانت هناك فترة إعداد، وكان هناك وحي في تلك الفترة، فلا يمكن أن تكون سورة "المدثر" هي أول الوحي ٠ ولقد رأينا أن " اقرأ" لا تتضمن بالضرورة الجهر بالدعوة، لكنها مؤشر للبداية، أي بداية الدعوة٠

42- ابن سعد ، جـ ١ ، ص ١٩١ .
43- نفس المرجع ، ص ١٩٨ ٠

كان النبي إذا ما نزل عليه الوحي كرّب وتربد وجهه وتصبب منه عرق غزير. وكان جسده كله يرتعد ويثقل وكأنه يعاني من برودة شديدة ويحتاج إلى دثار . وقد زعم البعض أنه كان يبدو " كهيئة السكران" [44]، أي تصيبه نوبة كما لو كان ثملا.

الزعم بأن النبي مصاب بالصرع: ولقد كانت الحالة التي تصيب النبي عند نزول الوحي دافعا مغريا لبعض المستشرقين كي يزعموا أن محمدا كان مصابا بالصرع . ويفسر عدد منهم الظاهرة على أنها اضطراب عصبي دال على شخصية هستيرية.

وربما كان الوصف الذي يقدمه بعض كتاب التراث لحالة محمد عند نزول الوحي هو الذي قاد بعض كتاب الغرب إلى هذا الاعتقاد . فمن الأقوال الشائعة في التراث الإسلامي أنه، عند نزول الوحي، كان يكاد يغشى على النبي. ويربد وجهه، ويرتعد ارتعادا شديدا، ويتصبب عرقا " ينحدر منه مثل الجمان في اليوم الشاتى "، ويسيطر عليه الهم والحزن، ويقال إنه كان يخفض رأسه ويضعها بين ركبتيه من شدة الألم، وربما كان هذا الصداع الشديد هو الذي دفعه في أغلب الأحيان إلى أن " يغلف رأسه بالحناء".

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي أن " شبرنجر" قد ترجم هذه الروايات التراثية. واستخلص منها أن محمدا كان يعانى من مرض كان حين يأتيه يتملكه . .وهذا المرض يأخذ أسماء متعددة . . منها مثلا " الهيستريا العصبية". .وكالعادة فإن هذا المرض يبدو في صورة نوبة . وحين كان يصيب محمدا بشكل خفيف كان يظهر الترنح والتشنج الذي هو الصفة المميزة لهذا الألم . . وفي نفس الوقت كان يعانى كذلك آلاما في الرأس (الهيستريا المفتتة للرأس)، وعندما تكون النوبات عنيفة، يصل الأمر إلى التخشب . وكان محمد يسقط على الأرض وكأنه ثمل، ويصبح وجهه محمرا وتنفسه ثقيلا ويغط مثل "بعير "، ولكن يبدو أنه لم يكن يفقد الوعى ولذلك فإن حركاته كانت تعرف بالصرع [45].

لكن هذا الهجوم الفظ إلى "أقصى درجات المبالغة الساقطة والسفه العلمى"، كما يصفه الدكتور بدوي، لا يجد قبولا لدي بعض المنصفين من كتاب الغرب.

مونتجمري وُت، على سبيل المثال، يقول : غالبا ما يؤكد أعداء الإسلام أن محمدا كان مصابا بالصرع، ومن ثمَّ فإن تجربته الدينية عديمة المصداقية . وللحقيقة نقول: إن الأعراض كما تم وصفها لا تتفق مع أعراض الصرع، حيث أن ذلك المرض يؤدى إلى تدهور عقلى وبدنى، بينما نرى محمدا محتفظا بكامل قواه حتى النهاية [46].

44- نفس المرجع ، ص ١٩٧ .

45- د. عبد الرحمن بدوي ، دفاع عن محمد ، ص ٥٨ .

39- Montgomery Watt, **Muhammad at Mecca**, p. 57.

ويعتقد الفريد جيوم Alfred Guillaume أن الذين قاموا باختراع حكاية الصرع هذه ونشرها وتعميمها لم يكن وراءهم من دافع سوى الحقد والكراهية والخوف من سلطان الإسلام. يقول جيوم: اتّهم جيل سابق، من دارسي الإسلام، محمدا بأنه كان مصابا بالصرع، وذلك بناء على ما كان يحدث له أثناء الوحي، وبناءً أيضا على حديث شق الصدر. لقد قام كاتب بيزنطي بنشر هذا الادعاء منذ زمن طويل . وهذا اتهام باطل لا دليل عليه ولا دعامة له ويرجع في جوهره إلى تحيز وكراهية للإسلام . . إن أي دراسة للظواهر النفسية للتجربة الدينية تجعل هذا الافتراض غير محتمل إلى أقصى حد . إن الأنبياء ليسوا كعامة الناس . لكن هذا لا يعطي مجالا لتأكيد الافتراض بأن سلوكهم غير العادي يرجع إلى حالة مرضية . زد على ذلك أن محمدا كان رجلا مشهود له برجاحة العقل التي لم تخذله أبدا . وهؤلاء الذين ينكرون عليه استقراره العقلي والنفسي ينكرون ما لا يمكن إنكاره: صفاء بصيرته وعمق نظرته لما كان يجري حوله في عالم ذلك الزمان، وكذلك إصراره وقوة إرادته في مواجهة أعدائه حتى وحّد قومه باعتناقهم دين الإسلام.

ويتساءل جيوم: هل حدث وانهار محمد ولو مرة واحدة في مواجهة خصم أو في خوض معركة؟ هل أغمي عليه في مواجهة موقف صعب يستدعي العزم والحسم؟ إن كل الشواهد تدل على العكس . وموضوع الصرع هذا مرفوض بالنسبة لكاتب هذه الكلمات، كما أنه يسيئ إلى جموع المسلمين . . إن افتراض هذه النظرية على أساس أسطورة يصعب إثباتها تاريخيا، يعتبر خطيئة ضد تيار النقد التاريخي [٤٧].

اتهام النبي بأنه كان مصابا بالصرع، اتهام يتسم بالجهل والتعصب، والغباء والسذاجة . إن الذين وجهوا هذا الاتهام لم يقرأوا التاريخ، وربما قرأوا ولم يفهموا، وربما قرأوا وفهموا لكن الحقد والتعصب كان دافعا لهم إلى أن يكذبوا ويضللوا.

هل يستطيع إنسان، أي إنسان، في حالة صرع أن ينطق بأي عبارة، أو عبارات، متوازنة أو متناسقة أو مفهومة على وجه الإطلاق؟ إن المريض بالتشنج العصبي لا يمكن أن يصدر عنه إلا كل ما هو مريض وعصبي، فالإناء — كما يقولون — ينضح بما فيه . هل في كلمات القرآن ما يدل على اضطراب أو اهتزاز أو خلل ؟ السؤال ليس في حاجة إلى جدل أو نقاش: إن الحقائق والأحكام القرآنية بكل روعتها وجلالها لا يمكن أن ينطق بها إنسان مصروع أو متشنج.

40- Alfred Guillaume, p. 25 .

هـل كل هؤلاء الذين كانوا حول النبي. وهم صفوة قريش وصفوة أهل المدينة من أصحاب الذكـاء والـرأي والقوة والبأس. كانوا يعيشون خدعة كبرى اختاروها بإرادتهم. وهم يسلمون أمرهم لرجل تسيطر عليه نوبات الصرع ؟ هذا افتراض لا يطرحه إلا دعيّ أو غبى ٠ صحابة الـنبي مـن أهـل مكـة كـانوا يعرفون عنه كل شئ تقريبا منذ الميلاد إلى البعث. ولو رأوا فيه اضطرابا أو زيغا أو مرضا ما اتبعوه٠

ولـو كان النبي مصابا بنوبات صرع. أكان باستطاعته أن يُخضع بلاد العرب وينشر فيها دعوتـه بالحكمـة والموعظة الحسنة والجدل المقنع والرأي الصائب الذي لا اعتلال فيه؟ أكان من السهلَ عليه أن يقود عشرات الآلاف من رجال عرفوا بشدة الذكاء وقوة الشكيمة وصلابة الـرأي ؟ هـل باسـتطاعة مصـروع أن يؤسـس دينا يصمد شامخا طوال خمسة عشر قرنا وسط الأديـان الأخـرى، ويعتنقه من البشر أعداد فاقت في بعض الأزمنة عدد من اعتنقوا اليهودية والمسـيحية إذا مـا جمعـوا سـواء ؟ هل باستطاعة مريض بالصرع أن ينطق بما جاء في القرآن من إعجاز في اللغة وإعجاز في الفكر وإعجاز في التشريع ؟

هـذه مجـرد أسـئلة بلاغـية ليسـت في حاجـة إلى إجابـات، إذ أن الإجابـة عليها قد تم حسـمها مـنذ أمد طويل، حسمتها أحداث ووقائع فاصلة باترة سجلتها كتب التاريخ ٠ ومن يجـهل، عليه أن يقرأ بموضوعية وذكاء وفهم ٠ ٠ أو يصمت، ولا ينشر جهله على الناس٠

نكـتفي في هـذا المجـال بذكـر عـدة أحداث وقعت في حياة النبي، وهى أحداث يؤكدها الـتاريخ ويشـهد علـيها، ولا يستطيع أن ينكرها مكابر حتى ولو بلغ من الغباء والسفه أعلى الدرجات٠

في معـركة " أُحُـد " تفـوق المشـركون وفر المسلمون من حول النبي، وسقط النبي في حفرة وشـج وجهـه وسـال دمـه، وتـنافس المشـركون في طغيانهم أيهم يحوز رضاء أصنام الحجارة بقـتل محمد ٠ في هذا الموقف شديد الحرج، شديد الصعوبة، شديد الخطر، هل سقط النبيّ في نوبة صرع ففقد وعيه وغاب عن الوجود؟ في موقف كهذا شديد الهول، موقف قد ينخلع لـه قلـب أعتى الرجال، هل فرَّ النبي أو انخلع قلبه؟ لم يفقد النبي وعيه، لم ينخلع قلبه، لم ينـتابه صـرع، لم يحاول الفرار ٠ صمد النبي مدعوما بقوة إيمانية رهيبة، وأصاب بحربة ذلـك الـذي حاول أن يقتله، وكانت الإصابة قاتلة ٠ ورغم ذلك يزعم السخفاء أن النبي كان مصابا بالصرع ! !

وفي معـركة الأحـزاب (الخـندق) والمسـلمون يومـئذ قلة، وقد أتت قريش بحلفائها، فيما يقـرب من عشرة آلاف مقاتل، كيف تصرف النبي القائد، خصوصا بعد أن عرف أن اليهود

داخل المدينه هم أيضا قد تآمروا ضده وانقلبوا عليه؟ ماذا فعل وهو يواجه هذا الموقف : قريش وحلفاؤها بالآلاف من أمامه، واليهود المدججون بأقوى الأسلحة من ورائه؟ هل انهار وافترسته حالة صرع ؟ لو كان مريضا كما يدعي السفهاء، لحدث ٠ لكن شيئا من ذلك لم يحدث ٠ لقد تشاور وفكر وخطط ودبر بعقلية القائد والنبي الملهم ٠

وعندما فقد ولديه القاسم وعبد الله في مكة وتطاول أحد سفهاء المشركين فأذاع أن محمدا قد أصبح أبتر، وعندما مات ولده إبراهيم في المدينة وكان يحبه حبا جما، هل ارتعد النبي حزنا ويأسا وسقط في نوبة صرع؟ دمعت العين وحزن القلب، واكتفى النبي بالقول: يا إبراهيم إنا لفراقك لمحزونون!!

أخيرا، وليس آخرا لأننا فقط نضرب بعض الأمثال، ربما تعيها القلوب الصمم وتستوعبها النفوس المارقة ٠ هل اهتز النبي وهلع قلبه وهو جالس تحت شجرة، عندما فاجأه أعرابي وقد جرد سيفا يريد قتله؟ من يمنعك مني الآن، صاح الأعرابي في نبرة جاهلية متغطرسة ٠ لقد حانت بالنسبة له لحظة النهاية التي لا مفر منها: إنه القتل٠

نظر إليه النبي بعينيه الواسعتين العميقتين، نطق بكلمة واحدة، قال: الله٠

سقط السيف ٠ ما كان الأعرابي يتوقع كل هذا الثبات، كل هذا الهدوء، كل هذه القوة، وكل هذا الإيمان ٠ لم يرتعد النبي، لم يهتز، لم يتشنج، والتشنج أمر طبيعي في أمثال هذه المواقف في حالة أي مريض بالصرع ٠ الذي اهتز وارتعد هو الأعرابي ٠ عجزت يده عن حمل السيف، فسقط ٠

تناول النبي السيف، وجهه إلى الأعرابي، وألقى عليه نفس السؤال الذي سأل: من يمنعك الآن مني؟ الإجابة واضحة : لا أحد ٠ ٠ لا شئ ٠ ٠ آلهة الحجارة لا تستطيع أن تحمي أحدا ٠ وعفا عنه النبي٠

وبعد كل ما ذكرنا، وهو قليل من كثير، يتوقح السفهاء فيزعمون أن محمدا كان مريضا ٠ ٠ كان يتشنج ٠ ٠ كان ضحية لنوبات الصرع !!

نختتم هذه النقطة بعبارة شديدة البساطة، شديدة الصدق، نطق بها موريس جود فروا دبمومبين، يقول : إن الصرع يسلب ذاكرة المريض، بينما القرآن كتاب معبر ويدل على انتباه وفصاحة [٤٨]٠

48- د. عبد الرحمن بدوي ، دفاع عن محمد ، ص ٦٤ ..

- ٦ -

فترة انقطاع الوحي

نـزل الوحـي أول ما نزل في غار حراء بصدر "سورة العلق" ، " إقرأ ٠ ٠" ، بعدها غاب جـبريل فـترة لم ينزل فيها بوحي على محمد ٠ ولقد أطلق كتاب السيرة على هذه الفترة : " فـترة انقطـاع الوحـي" ٠ وقـد اخـتلفوا في تحديـد مدتهـا، فمـن قـائل إنها امتدت لثلاث سـنوات، وقـائل إنهـا سـنتين، ويـروى عـن ابـن عباس أنها كانت عدة أيام: لما نزل عليه الوحـي بحـراء مكـث أياما لا يرى جبريل، فحزن حزنا شديدا حتى كان يغدو إلى ثبير مرة وإلى حراء مرة يريد أن يلقي نفسه منه[٤٩] ٠

لقـد اسـتولت المخـاوف حقـا عـلى الـنبي: ربمـا لم يكن وحيا، ربما لم يكن ملكا، ربما أصـيب بمـس مـن جـني، ربمـا اعترتـه حالـة كهانـة ٠ ٠ إنه في حاجة إلى ما يثبت فؤاده ويبعث في نفسه طمأنينة اليقين٠

يـروى الطـبري — عـن آخـرين — أنـه لـما أبطـأ جبريل على النبي، قالت له خديجة: ما أرى ربك إلا قد قلاك [٥٠]٠

ونحـن نسـتبعد أن يصـدر قـول كهـذا مـن خديجـة، وهى التي صدقته وثبتته ولم تشك لحظـة واحـدة في صـدق مـا قـال بعـد لقائـه الأول بجـبريل ٠ مـن المسـتحيل أن تقول له "ربـك قـلاك" وهـى الـتي طمأنـته وهـدأت مـن روعـه عندما قص عليها ما حدث وعبر عن مخاوفـه، قالـت : أعـيذك بـالله مـن ذلـك يـا أبـا القاسم! ما كان الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وحسن خلقك، وصلة رحمك ! فوالذي نفس خديجـة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة "[٥١] ٠ فهل من المعقول أن تنطق بعد ذلك بالعـبارة المحـبطة الخاذلـة : ما أرى ربك إلا قد قلاك؟ ٠ لو حدث ونطقت بهذه الكلمات فعـلا، لأظهـر ذلـك تناقضـا في أقوالهـا، وتضـاربا في سلوكها، وعدم استواء في شخصيتها ٠ وهذا ما نستبعده٠

الشـيخ محمـد على الصابونى يرجع العبارة السابقة إلى زوجة عم النبي: أم جميل زوجة أبـي لهـب، وكانـت امـرأة متكـبرة متجـبرة، تكـن للـنبي كراهية شديدة، وكانت هى التي دفعـت ولديهـا لتطليـق ابـنتي الـنبي رقـية وأم كلـثوم ٠ يقـول الشـيخ الصـابونى: اشـتكى

49- ابن سعد ، جـ ١ ، ص ١٩٦ .
50- الطبري ، جـ ١ ، ص ٥٣٢
51- نفس المرجع ، ص ٥٣٣ .

رسول الله فلم يقم ليلتين أو ثلاثا فجاءت امرأة — وهي أم جميل زوجة أبي لهب — فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك !! لم أره قربك ليلتين أو ثلاثا، فأنزل الله عز وجل " والضحى والليل إذا سجى ٠ ما ودعك ربك وما قلى"[٥٢].

أن يصدر هذا القول عن أم جميل — أيضا — أمر مستبعد،فلقاء جبريل بمحمد وما حدث له في قلب الغار لم يكن قد انتشر وشاع بين الناس ٠ لم يكن هناك أمر بالجهر بالدعوة ٠ ولا يذكر أي مصدر من المصادر أن النبي تحدث في تلك الآونة عن خبر جبريل مع أي من أعمامه أو زوجاتهم ٠ فكيف عرفت أم جميل عما أسمته " شيطان محمد"، وكيف عرفت أنه لم يقربه ليلتين أو ثلاث؟ تقول — كما يَذكر الصابونى — "لم أره قربك"، فهل معنى هذا أنها من قبل قد رأته ؟

تفسير الشيخ الصابونى غير منطقي ٠ وما جاء في الطبري عن السيدة خديجة — في هذا المجال — أيضا غير منطقي٠

الهاجس كان في قلب محمد ٠ ٠ خوفه ألا يكون ما حدث حقيقة ٠ ٠ألا يكون هو المختار هاديا ومبشرا ونذيرا ٠ ٠ أن يكون به مسٌّ من جن، أو ميل للكهانة، أو تخيلات واهم، أو أن ما حدث حقيقة لكن ربه قلاه بعد أن اصطفاه٠

كان يخرج هائما على وجهه إلى الغار ٠ ٠ ينتظر الملك، ولا ملك هناك ٠ ٠ يتسلق قمم الجبال الشواهق، يجيل بصره في كل أنحاء السماء علّه يراه كما رآه من قبل، لكن ما واجهت عيناه على مرمى البصر إلا الفراغ٠

ويدعي بعض السخفاء من ضعاف العقول أن النبي كان يتسلق قمم الجبال وقد سيطرت عليه فكرة الانتحار ٠ ٠ أن يلقى بنفسه ٠ ٠يتخلص من تمزقه ٠ ٠ يستريح٠

جاء في الطبري أن النبي قال : ولم يكن من خَلْق الله أحد أبغض إليَّ من شاعر أو مجنون، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما ٠ ٠ لا تحدث بها عني قريش أبدا ! لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها فلأستريحن [٥٣]٠ كما جاء في ابن سعد أن النبي: كان يغدو إلى ثَبير مرة وإلى حراء مرة يريد أن يلقي نفسه منه [٥٤].

ونعتقد أن ما جاء ذكره في الطبري وابن سعد ومن نقل عنهما من المحدثين — دون تدبر أو تفكير — يعتبر ضربا من ضروب السخافات الغبية ٠ النبي يحاول الانتحار !!

52- محمد على الصابوني ، **صفوة التفاسير**، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٩٨١ ، جـ٢٠ ، ص ٧١ ٠

53- الطبري ، جـ ١ ، ص ٥٣٢ ٠

54- ابن سعد ، جـ ١ ، ص ١٩٦ ٠

إن أشد المتخلفين عقليا لا يمكن أن تراوده فكرة بكل هذا السفه، ذلك لأن محاولة الانتحار أو مجرد التفكير فيه يتعارض تعارضا كليا مع التركيبة الجسدية والنفسية والفكرية لمحمد عليه السلام ٠ لقد كان قوى الجسد، نقى النفس، مستقيم الفكر، جلدا صبورا في بحثه عن الحقيقة ٠ ومن الصعب،إن لم يكن من المستحيل على رجل كهذا أن يلقى بنفسه من قمة جبل كي ينتحر ٠ ٠ يموت يأسا ٠ خامة اليائسين لا يمكن أن يصنع منها نبي٠

نؤكد مرة أخرى أن تسلقه قمم الجبال إنما كان تلهفا وتشوقا لسماع صوت السماء الذي كان عليه أن يبشر به أهل الأرض٠

في هذا المجال يقول محمود بن الشريف : إن الرسول لم يقلق بتلك الكيفية التي زعموا أنه كان عليها من الانزعاج والسير على غير هدى في شعاب مكة، حتى تغالى البعض فزعم أن الرسول لم يعد معضدا بإلهام الله!! وأنه من شدة شوقه إلى الوحي فكر في أن يقذف بنفسه من ارتفاع شاهق وأن ينتحر، وما كان للداعية الذي صنعه الله أن يلجأ إلى ما يخالف تعاليم الله وإلى ما يغضب ٠ ٠ فالرسول لم يلح أن ينزل عليه الوحي، فما الوحي إلا من عند الله وبإرادة الله [٥٥]٠

الواقع أن فترة انقطاع الوحي التي نرفض تقديرها — كما يزعم أكثر كتاب السيرة — بثلاث سنوات، كانت فضلا كبيرا من أفضال الله ٠ والسبب في رفضنا فترة الثلاث سنوات تلك،هو أنه في خلال السنوات الثلاث الأولى بعد " اقرأ "أسلم مالا يقل عن أربعين شخصا٠ وهذه الحقيقة الثابتة تكذب الادعاء السابق بأن فترة انقطاع الوحي امتدت إلى ثلاث سنوات، ذلك لأنه لو كان الادعاء صحيحا لتأخرت بداية الدعوة حتما إلى العام الرابع٠

فترة الانقطاع هذه كانت ضرورية، ولا نبالغ إذا قلنا إنها كانت حتمية وذلك لإعداد النبي لما هو مقبل عليه من تكليف٠ لقد أثّرت الرؤيا الأولى في جسد النبي، وما كان جسده ليتحمل تكرارها تباعا أو في فترات متقاربة٠ كان لابد — كما يقول خالد محمد خالد — أن يتمكن الجسد والروح من استيعاب القوة الإلهية الجديدة التي أفرغها الوحي فيهما، وحتى تتكيف طبيعته البشرية بذلك المد العلوي الذي نقلته إليه الضمات الثلاث الضاغطة التي احتواه بها ملك الله جبريل[٥٦]٠

كانت فترة هائلة مهولة تذهل لها أقوى العقول ٠ ٠ فترة التأرجح بين الشك واليقين ٠٠ لكن اليقين في أعماق محمد كان أقوى من الشك وأشد رسوخا ٠ بصره دوما ما فوق القمم

55- محمود بن الشريف ،**الرسول في القرآن** ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ،١٩٦٧ ، ص ١٢.

56- خالد محمد خالد ، **عشرة أيام في حياة الرسول**، المقطم للنشر والتوزيع ، القاهرة ،١٩٩٤ ، ص ٣٦ ٠

كـان في اتجـاه السـماء ٠ ٠ يقيـنه يهمـس في أعماقـه : لن يخذله من أوحى إليه ٠ ٠ لابد للغائب أن يعود٠

فجـأة سمع الصوت ٠ ٠ كان الصوت من السماء ٠ ٠ خرَّ محمد صعقا ٠ ٠ ناداه الصوت ٠ ٠ في عـناء رفـع محمـد رأسه، فإذا جبريل على كرسى بين السماء والأرض متربعا عليه، يقول : يا محمد أنت رسول الله حقا ! !

مـا عـاد هـناك شـك ٠ ٠ تبلور اليقين في أعماق محمد : يا محمد أنت رسول الله حقا، وأنـا جـبريل ! ! هكـذا أقرَّ الله عينه، ورَبَط جأشه، وثبَّت يقينه، ومنَّ عليه بنور البصيرة ٠ مـا هـو بشـاعر، ولا بكـاهن، ولا بمجنون، وما هذا بهمس الشياطين ٠ إنه رسول الله حقا، وعلـيه أن يـتحمل عبئ الرسالة بكل أثقالها ومخاطرها وأهوالها ٠ ٠ إنه هو المختار، وليس له هو حق الاختيار٠

أسـرع إلى خديجة، ملاذه الدنيوي، إرتمى في حجرها يرتعد ٠ ٠ دثروني، دثروني ٠ ٠ لكـنه لم يـنعم بـدفء الدثـار ٠ ٠ هـبط جـبريل بـالوحي : يـا أيهـا المدثـر قم فأنذر ٠ عاد الوحـي، ثـم تـتابع بعـد ذلـك وحَمِـيَ، وما انقطع حتى موت النبي وهو في الثالثة والستين من عمره٠

هـبَّ مـن رقدتـه واقفا ٠ توسلت إليه خديجة أن ينام ساعات ويرتاح، لكنه قال وكانت كلماته فاصلة: لقد انقضى عهد النوم والراحة يا خديجة ! ! " قم فأنذر"، كان عليه أن يبدأ رسالته، أن يدعو الناس إلى عبادة إله واحد٠

يـرفض سـبرنجر Sprenger أي دعـوى لمحمـد بالأصـالة أو الصـدق، ويعلـن عن شكه الصـريح فـيما يقـال عـن فـترة انقطـاع الوحـي، كمـا يعلـن أن هـذه الفـترة كانـت بالنسـبة لمحمـد مجـرد قـناع للقرار الذي اتخذه بالبحث في الكتب المقدسة لليهود والمسيحيين، وأنه قضى تلك الفترة في القراءة والاستماع لمن كانوا يعلمونه ما في تلك الكتب[٥٧].

سفاهة جديدة من سفاهات الأدعياء في حلقات الجهل ٠

هـل نسـى هـذا الدعـى أن محمـدا كـان أمامـه أكـثر مـن عشـرين عاما يستطيع خلالها — لـو أراد — أن يسـتمع ويتعـلم، ويذهب لمن يشاء، ويناقش في أمور العقيدة من يشاء؟ هل كانـت تلـك الفترة القصيرة كافية كي يقوم — كما يقول الدعى — بالبحث في الكتب المقدسة لليهود والنصارى ؟ لـو كانـت دراسـة كتب اليهود والنصارى هى هدفه ومبتغاه، لبدأ ذلك مـنذ سـنين طويلـة ولأعـد نفسـه في هـاتين الديانـتين إعـدادا كافـيا ومـا انتظر حتى ينقطع

57 - Johnstone, p. 56 .

الوحي- عدة أيام أو عدة شهور أو حتى ثلاث سنوات كما يبالغ البعض - كي يبدأ الدراسة والتحصيل.

لقد ناقشنا هذه النقطة باستفاضة في صفحات سابقة. ونشير إليها هنا فقط كي نؤكد أن هؤلاء الذين يوجهون الاتهامات جزافا إلى النبي، إنما يفعلون ذلك وهم غارقون في عماء الجهل الحقود والخوف المرتعد. إنهم لا يعرفون شيئا عن الإسلام ويخشون عدالة سلطانه، لذلك نراهم يندفعون في حماقة واضحة - حتى للبسطاء - ويهاجمون الإسلام ونبي الإسلام، دون أن يقدموا دليلا واحدا يثبت صدق ما يقولون، ولو أراد سبرنجر هذا أن يكون محترما في نظر قارئه، لقدم أدلة ثابتة قاطعة لا يرقى إليها شك كي يبرهن على صدق ما يقول. لكنه لم يفعل.

- ٢ -

أول من آمن

السيدة خديجة بنت خويلد، زوجة النبي، كانت أول من آمن برسالته. آمنت بالله ورسوله وصدقته، ولم تكتف بذلك بل وقفت طوال حياتها إلى جانبه تشد من أزره وتثبته وتخفف عنه، وتؤكد بواقع سلوكها من إيمانها بما جاء به: أبشر يا بن عم وأثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. فالتقاها بخديجة قبل أن يوحي إليه "بسورة المدثر" التي صدر فيها الأمر: "قم فأنذر".

ويرى البعض أن ورقة بن نوفل كان أول من آمن مباشرة بعد خديجة. إنه هو الذي قال دون تردد، بعد أن استمع إلى كلمات محمد عن ما حدث في الغار: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتُكذَّبنَّه ولتُؤذَيَنَّه ولتُخْرَجنَّه ولتُقاتَلنَّه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه.

هذا ما دفع " مولاي محمد على " إلى القول: ويلى خديجة في قائمة المؤمنين الأولين ورقة بن نوفل الذي قضى نحبه خلال فترة انقطاع الوحي قبل أن يُكلَّف النبيّ بنشر الدعوة، لذلك لم تتح له فرصة الإعلان عن دخوله في دين الله. ومع ذلك فقد شهد في المقابلة التي سبق ذكرها. أن محمدا هو النبي المرتجى بلا شك، وهذه الشهادة كافية لتجيز ذكره بين المؤمنين الأولين [٥٨].

58- مولاي محمد علي، محمد رسول الحرية، ترجمة مصطفي فهمي وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٥٩.

والرأي السابق رأي له وجاهته ولا نرى داعيا لرفضه . أما ما كتبه الشيخ خليل عبد الكريم عن العلاقة بين ورقة ومحمد، وبين موت ورقة وانقطاع الوحي[59] ، فلن نحفل بمناقشته أو حتى بمجرد ذكره، ذلك لأنه بالغ الانحطاط، بالغ التدني، ولا نعرف في أي حالة من حالات الوعي كان الشيخ . . وهو يكتب .

أول امرأة أسلمت بمكة بعد خديجة كانت أم الفضل، وهي لُبابة ابنة الحارث، زوجة العباس عم النبي، وكان محمد يزورها كثيرا قبل النبوة و " يقيل في بيتها " . ولقد أتت بعد ذلك بثلاث من أخواتها إلى محمد فآمن به: ميمونة أختها الشقيقة وقد تزوجها النبي فيما بعد، وأختين غير شقيقتين هما سلمي وأسماء . وفي بيت أم الفضل تربى جعفر بن أبي طالب وفي بيتها أيضا أحب أسماء وتزوجها، وتزوج حمزة أختها سلمي.

يجب أن نذكر أيضا أنه كان من بين المسلمات الأوليات بركة، أم أيمن، حاضنة محمد ومربيته، التي قال عنها النبي: من يريد أن يتزوج امرأة من نساء الجنة فليتزوج أم أيمن. ولقد سمع زيد بن حارثة هذه العبارة وفكر فيها مليا . كانت أكبر منه سنا، لكن هذا لم يفت في عضده وتحدث إلى النبي في أمرها، ولم يجد النبي صعوبة في إقناعها بالزواج من زيد . وأثمر هذا الزواج طفلا أسمياه أسامة، نشأ على أنه حفيد النبي، وكان النبي يحبه كثيرا .

كانت بيعة النبي للنساء بالكلام فقط، لا بالمصافحة، ويروى البخاري عن عائشة قولها: والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، ما بايعهن إلا بقوله : قد بايعتك على ذلك[60].

مع بداية الوحي افترضت الصلاة، وكانت أول ما افترضت — كما يروى ابن إسحاق — ركعتين ركعتين في كل صلاة . ويقال إن جبريل هو الذي علم النبي الوضوء كي يتطهر للصلاة، ثم علمه كيف تكون الصلاة . وعلم النبي زوجته ما تعلمَّ ، فتوضأت وتطهرت للصلاة كما رأته يفعل، ثم صلي بها النبي، فصلت بصلاته . هكذا بدأت العبادة في بيت النبي.

كان " علي " قد بلغ التاسعة — وربما العاشرة — من عمره وهو في بيت النبي . فوجئ بمحمد وزوجته يصليان صلاة ما ألفها من قبل . سيطرت عليه مفاجأة الموقف وهيبته فتسمر في مكانه دون حراك . ويصف الدكتور محمد حسين هيكل الموقف في بلاغة أخاذة وينشئ حوارا لا نعتقد أن أحدا قد سبقه إليه، فلا يوجد فيما بين أيدينا من كتب التراث

59- خليل عبد الكريم، انظر ص ١٩٦ .

60- محمد علي الصابوني، تفسير آيات الأحكام، الجزء الثاني، مكتبة الغزالي، دمشق، سورية، الطبعة الثانية، ١٩٧٧، ص ٥٦٥ .

أي ذكر لما جاء به الدكتور هيكل: وقف الشاب دهشًا حتى أتما صلاتهما، ثم سأل: لمن تسجدان؟ فأجابه محمد: إنما نسجد لله الذي بعثني نبيا وأمرني أن أدعو الناس إليه ٠ ودعا محمد ابن عمه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ،وإلى دينه الذي بعث به، وإلى إنكار الأصنام من أمثال اللات والعزى، وتلا محمد ما تيسر من القرآن، فأُخِذ على عن نفسه وسحره جمال الآيات وإعجازها، واستمهل ابن عمه حتى يشاور أباه ٠ ثم قضى ليله مضطربا حتى إذا أصبح الصبح أعلن إليهما أنه اتبعهما من غير حاجة لرأى أبي طالب وقال: لقد خلقني الله من غير ان يشاور أبا طالب،فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله [٦١]٠

هكذا أصبح علي أول صبي يعتنق الإسلام ٠ ويؤكد ابن إسحاق هذه الحقيقة بقوله: ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله وصلي معه وصدق بما جاءه من الله تعالى علي بن أبي طالب ٠ ٠ وهو ابن عشر سنين يومئذ ٠ ٠ وكان في حجر رسول الله قبل الإسلام٠

ويُحكى أن عليا كان يخرج مع النبي إلى شعاب مكة إذا حضرت الصلاة، مستخفيا من أبيه أبي طالب وسائر قومه، فيصليان الصلوات حتى إذا حل المساء رجعا إلى بيت النبي حيث تنتظرهما خديجة فيصلون جميعا صلاة العشاء ٠ ويقال إن أبا طالب التقي بهما يوما مصادفة وهما يصليان، فسأل أبو طالب ابن أخيه: ما هذا الذي أراك تدين به؟ فأجاب النبي : أي عَمِّ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ٠ ٠ بعثني الله به رسولا إلى العباد ٠ ودعا محمد عمه إلى الإيمان بما جاء به، لكن عمه رفض في رفق قائلا: أى ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يُخْلَصُ إليك بشئ تكرهه ما بقيت [٦٢]٠

يجمع معظم الإخباريين على أن النبي وخديجة وعلي كانوا يصلون سرا ولا يقيمون صلاتهم أمام الناس، ذلك لأن الدعوة كانت ما تزال في بدايتها، ولم يكن النبي قد أُمر بالجهر بها٠

لكن ابن سعد يروى عكس ذلك تماما٠ ٠ يقول إن النبي وخديجة وعلي، ولم يكن في مكة كلها من أسلم غيرهما، كانوا يصلون علنا أمام الكعبة، وينقل عن من يُسمى عفيف الكندي قوله : جئت في الجاهلية إلى مكة وأنا أريد أن أبتاع لأهلي من ثيابها وعطرها، فنزلت على العباس بن عبد المطلب، قال فأنا عنده وأنا أنظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس فارتفعت إذ أقبل شاب حتى دنا من الكعبة فرفع رأسه إلى السماء فنظر ثم استقبل الكعبة

61- هيكل ، ص ١٢٥ ٠

62- ابن هشام ، جـ١ ، ص ٢٩٥ .

قائما مستقبلها. إذ جاء غلام حتى قام عن يمينه. ثم لم يلبث إلا يسيرا حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما. ثم ركع الشاب فركع الغلام وركعت المرأة. ثم رفع الشاب رأسه ورفعت المرأة رأسها، ثم خرَّ الشاب ساجدا وخر الغلام ساجدا وخرت المرأة ٠ قال فقلت: يا عباس إني أرى أمراً عظيما ٠ فقال العباس : هل تدري من هذا الشاب ؟ قلت :لا. ما أدرى ٠ قال : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي ٠ هل تدرى من هذا الغلام؟ قلت: لا، ما أدرى ٠ قال : علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن أخي ٠ هل تدرى من هذه المرأة؟ قلت : لا، ما أدرى ٠ قال : هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخي هذا ٠ إن ابن أخي الذي ترى حدثنا أن ربه رب السموات والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، فهو عليه،ولا والله ما علمت على ظهر الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة[٦٣]٠

الرواية السابقة، لو ثبتت صحتها، تخبر بأمرين قاطعين، أولهما : أن عليا كان أول من آمن من الذكور ولا خلاف عليه، ثانيهما : أن النبي لم يخف صلاته، بل أقامها علنا على مرأى ومسمع من الجميع وفي مواجهة الكعبة ٠ وهذا يدحض الرأي القائل إنه كان يصلى سرا بعيدا عن أعين الناس ٠

بعد إسلام علي، أسلم زيد بن حارثة، بذلك أصبح زيد أول ذكر أسلم وصلى بعد علي ابن أبي طالب ٠ وكان زيد في حوالي الثلاثين من عمره عند بدأ الوحي، وهذا معناه أنه كان في وضع يسمح له بالتفكير والاختيار، ومن المحتمل أن يكون هو أول ذكر بالغ اعتنق الإسلام٠

توجه النبي بدعوته إلى أعز صديق له في مكة وهو أبي بكر بن أبي قحافة، واسمه عتيق، واسم أبي قحافة عثمان بن عامر التيمى ٠ واسم أبي بكر — كما يقول ابن هشام — عبد الله، وعتيق لقب لحسن وجهه وعتقه ٠ ولم يتردد أبو بكر لحظة، آمن في الحال بما جاء به محمد، اعترف به نبيا رسولا٠

كان أبو بكر، وهو أحد تجار مكة الذين يتمتعون بقدر معقول من الثراء، محبوبا محترما، وصاحب تجربة وعلاقات اجتماعية طيبة ٠ وربما تصادق محمد وأبو بكر أثناء لقائهما في حلف الفضول، حيث أن أعضاء هذا الحلف كانوا يجتمعون في أحد بيوت عشيرة تيم وهى عشيرة أبي بكر، هذا إلى جانب أن أبا بكر كان مختصا بالقضاء في الدية والغرامات في مجلس قريش ٠ وكان أبو بكر أصغر من النبي بعامين٠

63- ابن سعد ، جـ ٨ ، ص ١٧ – ١٨ ٠

لم يخف أبو بكر إسلامه. بل أظهره. ولم يكتف بإظهاره بل قام بالدعوة إلى الله وإلى الرسول ٠ وكان أبو بكر — كما يصفه ابن إسحاق — مؤلفا لقومه. محببا سهلا، وكان أنْسَبَ قريش لقريش، وأعلمَ قريش بها وبما كان فيها من خير وشر. وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر. لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته [٦٤].

وبحماس شديد، نابع من اقتناع عميق. بدأ أبو بكر يدعو إلى الدين الذي جاء به محمد، فهو الحق ولا مراء ٠٠ لا عبادة للأصنام ولا سجود لحجر، بل الركوع والسجود والابتهال لله الواحد الأحد الذي لا شريك له والذي اصطفى محمدا نبيا ورسولا ،كي يقوِّم ما اعوج في نفوس البشر من أمور العقيدة ويطهرها مما علق بها من أدران٠ ويقال إنه قد أسلم بدعاء أبي بكر: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، والزبير بن العوام بن خويلد، وعبد الرحمن بن عوف ٠ ٠ بن زهرة، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمى ٠ وصلي الثمانية المؤمنون — هؤلاء الخمسة بالإضافة إلى أبي بكر وعلي وزيد — خلف النبي، وكانوا أول الدعامات القوية التي قام عليها الإسلام ٠ ولقد أثبتت الأحداث أنهم أصبحوا فيما بعد من صناع التاريخ ٠ ٠ الأبطال٠

بعد أن أسلم أبو بكر، أسلمت زوجته أم رومان وابنه عبد الله وابنته أسماء، وهما من زوجة أخرى من المحتمل أن تكون قد ماتت ٠ وقد ولدت أم رومان إبنة أخرى لأبي بكر سميت عائشة ٠ ورغم أن أبا بكر نجح في أن يقنع بعض من حوله باعتناق الإسلام، إلا أنه لم ينجح في إقناع أكبر أبنائه، عبد الكعبة، الذي قاوم كل محاولات أبيه وأمه — إذ أنه كان ابن أم رومان — وتمسك بوثنيته وشركه٠

ولقد بلغت مكانة أبي بكر عند النبي شأوا لم يبلغه أحد ممن آمن به من الرجال لدرجة أن أسماه الصديق ٠ وعنه قال النبي كلمات ما قال مثلها عن أحد غيره، قال: ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبْوةٌ [تأخير وقلة إجابة] ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عَكَمَ عنه حين ذكرته له وما تردد فيه٠

يعتقد الفريد جيوم Alfred Guillaume أن أبا بكر يستحق شرف الحصول على لقب: " أول من آمن" (من الرجال): المرشحان اللذان يتنافسان على انتزاع هذا اللقب هما أبو بكر أول الخلفاء والصديق المخلص لمحمد وأبو زوجته، والآخر هو على ابن عمه وزوج ابنته فيما بعد ٠ ومن المؤكد أن أبا بكر هو الذي يستحق هذا الشرف، ذلك لأن اسم " علي"

64- ابن هشام، جـ ١، ص ٢٦٨ ٠

قد وضع — كمنافس لأبي بكر — فيما بعد بواسطة الشيعة الذين كان ابن إسحاق — دون أدنى شك — يتعاطف معهم . وإذا ما نحينا العوامل الأسرية والأسباب السياسية فإن هذه النقطة لا قيمة لها على وجه الإطلاق. ذلك لأن عليا — باعتراف الجميع — كان في ذلك الوقت مجرد صبي لا يقدر على شئ. بينما كان إسلام تاجر ثرى له مكانته وشعبيته واحترامه ذا قيمة كبيرة بالنسبة لمحمد[٦٥].

ويعبِّر مونتجمري وُت عن وجهة نظر لا تختلف كثيرا عما قال به جيوم، يقول مونتجمري : إن القول بأن عليا هو أول من أسلم ربما يكون هو الحقيقة، لكنه لا قيمة له بالنسبة للمؤرخ الغربي، حيث أن عليا كان في التاسعة أو العاشرة من عمره، أي مجرد صبي لا يقدر على شئ . . بينما كان أبو بكر هو أهم مسلم بعد محمد مباشرة [٦٦].

هكذا خرج الإسلام من بيت النبوة وبدأ يتسرب إلى قلوب أهل مكة . وبعد الأولين السابقين المعدودين ثمانية، أسلم أبو عبيدة : عامر بن عبد الله بن الجراح، وأبو سلمة : عبد الله بن عبد الأسد المخزومى، والأرقم بن الأرقم: عبد مناف بن أسد،وعثمان بن مظعون وأخواه قُدامة وعبد الله ابنا مظعون، وعبيدة بن الحرث بن المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وامرأته فاطمة بنت الخطاب بن نفيل أخت عمر بن الخطاب .

ويضيف ابن إسحاق إلى من أسلموا في **بداية الدعوة** : أسماء بنت أبي بكر، **وعائشة** بنت أبي بكر[٦٧].

هذه نقطة شديدة الأهمية فيما يختص بعائشة، فإسلامها في **بداية الدعوة " وهى يومئذ صغيرة"**، كما يقول ابن إسحاق، معناه أنها أسلمت وهى في الخامسة أو السادسة على أقل تقدير،وإلا ما صح إسلامها وهى لا تدرك ما الإسلام وما الإيمان، فالإسلام والإيمان لابد وأن يكونا عن إدراك وتمييز . ومعنى إسلامها في بداية الدعوة وهى في الخامسة أو السادسة هو أنها هاجرت إلى يثرب (المدينة) وهى في حوالي السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها،على أقل تقدير، ولم يتزوجها النبي وهى في التاسعة ،كما يزعم بعض كتاب السيرة.

ثم تتابع دخول القرشيين —رجالا ونساءً — في الإسلام، حتى انتشر ذكره في مكة وتحدث به الناس . عندها قرر محمد أن يبتعد بأتباعه مؤقتا عن الكعبة . ليس معنى هذا

57- Alfred Guillaume, p . 32.

58 - Montgomery Watt, **Muhammad at Mecca**, p. 86 .

67- ابن هشام ، جـ ١ ، ص ٢٦٩ .

أن الكعبة التي بناها جده الأكبر إبراهيم قد فقدت مكانتها بالنسبة له ٠ لا ٠ فقط في بداية دعوته أراد أن يميز بين دينه ودين قريش ،وأن ينأى بتعاليم الله عن "هبل " وما حوله من أصنام ٠ وعلى ذلك فقد اتخذ من أورشليم قبلة روحية يتجه إليها في صلاته هو ومن معه ٠

كانوا يصلون ركعتين في الصباح وركعتين في المساء. وكانوا يفعلون ذلك في الشعاب المحيطة بمكة بعيدا عن مجمع الأصنام، وتجنبا لإثارة نفور المشركين وعدائهم٠

ورغم ذلك لم يسلموا من عداء المشركين واستهزائهم ٠ يقول ابن إسحاق: كان أصحاب رسول الله إذا صلّوْا ذهبوا في الشعاب. واستخْفوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاصَ في نفر من أصحاب رسول الله في شِعْب، من شعاب مكة إذْ ظهر عليهم نفر من المشركين، وهم يصلون فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلَحْى (العظم الذي على الفك) بعير فشجه (جرحه) فكان أول دم أَهَريق في الإسلام [٦٨]٠

وما شُرِّع في مكة من عبادات كالصلاة والزكاة لم يكن على التفصيل والبيان الذي عرف في المدينة، فالزكاة في مكة — في رأي الأستاذ أحمد أمين — كانت بمعني الصدقة والإنفاق في سبيل الخير من غير أن يحدد لها جزء معين ولا نظام خاص ٠ كذلك الصلاة، إنما أمر المسلمون أول أمرهم بنوع من الصلاة لم يحدد بأنه خمس في اليوم[٦٩] ٠

يعتقد الأستاذ محمود بن الشريف أن المسلمين في مبدأ أمرهم كانوا يؤدون صلواتهم على هيئة أدعية وابتهالات من غير عدد محدود أو وقت متعارف عليه، إلى أن فرضت الصلاة على محمد عليه السلام وعلي أمته في حضرة القدوس الأعلى[٧٠] ٠

هذا الرأي بالطبع لا يتفق مع ما جاء من قبل من أن جبريل قد علم الرسول كيفية التطهر للصلاة وكيفية الركوع والسجود، فعلم النبي أتباعه ما تعلم من جبريل ٠ كان هذا في بداية الدعوة وقبل أن تفرض الصلوات الخمس٠

اختار النبي دار الأرقم بن أبي الأرقم مقرا يجتمع فيه بأصحابه إذ كانت على الصفا، أي لا تبعد كثيرا عن الكعبة ٠ أطلق عليها : دار الإسلام، ومنها انتشرت الدعوة سرا بين بعض ثراة القوم وبين كثرة من المستضعفين والعبيد الذين وجدوا فيها أملهم الوحيد في التحرر والخلاص٠

68- ابن هشام ، جـ ١ ، ص ٢٧٥ .
69- أحمد أمين ، **فجر الإسلام** ، ص ٣٦٢ .
70- محمود بن الشريف ، ص ٣٢ .

- ٨ -
الجهر بالدعوة

بعد ثلاث سنوات من الدعوة إلى الله سرا، أي في الخفاء، أمر الله رسوله أن يجهر بالدعوة إلى دين الله . كان عليه أن يبشر وينذر علنا دون أن يخشي بشرا . . وكان عليه أن يبدأ بعشيرته الأقربين : " وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إنني بريئ مما تعملون " (سورة الشعراء : ٢١٤ — ٢١٦).

دعا النبي الأقربين، ومن هم في دائرتهم، إلى قبول دعوته إلى الله وإلى الوقوف إلى جانبه وتأييده في نشر هذا الدين الذي يدعو إلى عبادة إله واحد لا شريك له، والتسليم له تسليما كليا، والخضوع له خضوعا مطلقا — وهذا هو الإسلام . ولا يتطلب الإسلام سوى الحق والعدل في مجتمع تسوده روح المودة والتعاطف والتكافل، لا يهان فيه الضعفاء ولا يسحق فيه العبيد، وتكون الكلمة العليا فيه لله، لا لتماثيل الحجر.

في البداية لم يكترثوا . . لم يبتعدوا عنه . . لم يردوا عليه . . لم يحاولوا حتى مجرد مناقشته في جدية ما يقول . ربما اعتراهم بعض العجب أو الاندهاش لحظات انغمسوا بعدها فيما هم فيه . . ونسوا . لقد رأوه — كما يقول الأستاذ الشرقاوي — صغيرا يتيما في شوارع مكة، يحمل الحجر . . ورأوه يافعا مسكينا يقضي نهاره تحت الشمس في شعاب مكة يرعى غنم السادة وينبش عن لقمة العيش . . فما باله اليوم يحاول أن يسودهم وأن يجردهم من كل ما أصبحوا به سادة [٧١].

لقد عظم ثراء بعض أهل مكة وتكدست لديهم الأموال من نمط الحياة الذي مارسوه، وكان من الصعب عليهم — إن لم يكن من المستحيل — أن يغيروه، واشتهرت أسماء: الوليد بن المغيرة، وأبو أحيحة بن سعيد بن العاص (الذي شارك في قافلة أبي سفيان بثلاثين ألف دينار)، وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، والعباس بن عبد المطلب . وكان عبد الله بن جدعان، من بني تيم، هو أيضا من أثرى أثرياء مكة وقد تعود أن يشرب في كؤوس من ذهب.

هل يكترث أمثال هؤلاء بما يقوله محمد ؟!!

اكتفوا أول الأمر بتجاهل كلماته . .لم يناصبوه العداء. . كانوا أحيانا إذا مر عليهم يشيرون إليه في استخفاف . . ربما في دعابة . . يقولون: إن غلام بني عبد المطلب ليُكلَّم من السماء .

71- الشرقاوي ، ص ٨١

موقف أبي لهب : كان على محمد أن يصدع بما يؤمر ٠ صعد الصفا ٠ صاح بأعلى صوته: يا صباحاه !! يا معشر قريش ! قالت قريش : محمد على الصفا يهتف فأقبلوا واجتمعوا، سألوا: مالك يا محمد ؟ قال أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أما كنتم تصدقونني! قالوا: نعم. أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط٠

قال: فإني نذير لكم بين يَدَيْ عذاب شديد، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة، حتى عدَّد الأفخاذ من قريش، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله٠

جاء أول رد فعل من أبي لهب، صاح في غضب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله عز وجل : تبت يدا أبي لهب وتب، السورة كلها [٧٢]٠

هكذا أعلن أبو لهب عن عدائه، صريحا دون خفاء، وكان تعليقه على دعوة النبي ساخرا مستنفرا جامعا ما بين الاستعلاء والازدراء ٠ لقد أحبه صغيرا يتيما فقيرا، بل لقد بلغ فرحه بمحمد يوم مولده أن أعتق إحدى جواريه، فما باله اليوم قد تغير من النقيض إلى النقيض؟

الإجابة على السؤال ليست في حاجة إلى كثير من التفصيل ٠ كان أبو لهب من الأثرياء، ولقد أحسَّ بذكائه المتقد أن الدين الذي جاء به هذا اليتيم الفقير لابد وأن ينادى بإنصاف الفقراء، ولن يكون هذا بالطبع إلا على حساب الأغنياء، وربما نادى بما هو أكثر ٠ سادة مكة في حاجة إلى عبيد وإماء، إنهم ليسوا في حاجة إلى دين يجمع — وربما يساوى — ما بين الأغنياء والفقراء، إن قريشا بكل عتاتها سعيدة بعيشها هانئة بما هى فيه ٠ لقد بدا لهم الأمر مضحكا إلى حد السخرية : أن يتخلوا وهم الكبار العتاة عن دين الآباء والأجداد من أجل دين " غلام بني عبد المطلب" !!

ويبدو أن أبا لهب قد أخذ على عاتقه، دون تكليف من أحد، أن يقوم بإسكات محمد ووضع حد لما يدعو إليه٠

النبي يدعوهم إلى بيته : اغتم النبي وضاق صدره ٠ لقد أمره الوحي بوضوح قاطع: وأنذر عشيرتك الأقربين ٠ ويزعم الرواة أنّه جلس في بيته كالمريض، فأتته عماته يعدنه، فقال: ما اشتكيت شيئا، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي، فقلن له: فادعهم ولا تدع أبا لهب، فإنه غير مجيبك٠

72- الطبري، جـ١، ص ٥٤١، وابن سعد، جـ ١، ص ٢٠٠.

فدعاهم إلى طعام ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا خمسة وأربعين ٠ فبادرهم أبو لهب فقال: هؤلاء عمومتك، وبنو عمك، فتكلم ودع الصبأة. وأعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك فحبسك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب، فما رأيت أحدا جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم[٧٣] ٠

ماذا كان باستطاعة محمد أن يقول مقابل كل هذا العنف وكل هذه العدوانية الشرسة؟ أبو لهب، أمام الجميع، أعلن — بمنطق الجاهلية — تهديده بأخذ محمد وحبسه، لم يستمع، لم يفكر، لم يناقش، إن محمدا في رأيه سيجلب لهم كوارث ليسوا في حاجة إليها ولا قبل لهم بها، وهذا بلاء ما جاءهم به أحد من قبل٠

في حكمة بالغة، لم يتكلم النبي ٠ ترك الغضب الناقم للعم الساخط يمر في هدوء ٠ كانوا ضيوفا في بيته، وللضيف في بيته ترحاب وأمن وسلام ٠ قرر أن ينتظر ٠ ٠ أن يدعوهم مرة أخرى ٠

جاء في تاريخ الطبري أن النبي أمر عليا أن يعد لهم طعاما وأن يجمعهم إليه ٠ قال علي: ففعلت ٠ ٠ فأكلوا حتى مالهم بشئ حاجة ٠ ٠ ثم تكلم رسول الله فقال: يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شابا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووَصِيِّي وخليفتي فيكم ؟ ٠ ٠ فأحجم القوم عنها جميعا، وقلت (المتحدث هو علي) وإني لأحدثهم سنا، وأرمضهم عينا، وأعظمهم بطنا، وأحمشهم ساقا: أنا يا نبي الله، أكون وزيرك عليك ٠ فأخذ برقبتي، ثم قال : إن هذا أخي ووصيِّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[٧٤] ٠

يعلق الأستاذ محمد سعيد العشماوى على هذا النص بقوله : والتلفيق في هذا النص، أو إعادة صياغته بمفهوم السلطة والملك، ومنظور الخلافة والوراثة، أمر جليٌ بيِّن، ذلك أن النص ينسب إلى النبي أنه كلم عشيرته الأقربين — بني عبد المطلب — عن " الأمر "، لا عن الدين ٠ والأمر — في القرآن الكريم — يغلب أن يكون الرياسة والسلطة ٠ وهو يجعل ممن يبايعه أخا له وصاحبا ووارثا (وفي رواية وخليفةً)، في حين أن النبيّ هو الذي قال إن

73- الإمام محمد أبو زهرة، جـ ١، ص ٣٠١ ٠
74- تاريخ الطبري، جـ ١، ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣ ٠

الأنبياء لا يورثون، فضلا عن أن النبوة أصلا لا تورث. إذ هي اصطفاء من الله سبحانه وتعالي لمن يشاء من البشر. وإنما يمكن توريث السلطة والخلافة . . وإذا فرض وكان الحاضرون جميعا قد بايعوا النبي. فكيف يكون الجميع، أو حتى بعض منهم. وارثا له أو خليفة له، وماذا يرث و فيم يستخلف[٧٥].

ويبدو أن الأستاذ العشماوى كان في عجلة من أمره وهو يقرأ النص، لذلك أساء الفهم . "الأمر" الذي كلم النبي عنه عشيرته هو "الدين"، وليس "الرياسة والسلطة". كما يزعم الأستاذ العشماوى والنص في هذه النقطة بالذات واضح لا يبدو فيه أي غموض أو تحريف . يقول النبي : امرني الله أن أدعوكم إليه . . فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟ " أي أيكم يعينني على تنفيذ أمر الله بالدعوة إلى دين الله، فأين الرياسة والسلطة في هذا الكلام ؟ نعتقد أن التلفيق ليس في النص، ولكن في إساءة تفسير النص.

أما الزعم بأن النبي قد أخبر من حوله من كبار بني هاشم، وبينهم أعمامه أبو طالب والعباس وأبو لهب، أن عليا هو وصية وخليفته فيهم،وعليهم أن يسمعوا له ويطيعوا، ولم يكن عليا قد بلغ الثالثة عشرة من عمره، فهذه — إن لم نكن مخطئين — إضافة غير منطقية من إضافات الشيعة، كي يثبتوا أن عليا بعد موت النبي كان أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان .

انتهى اللقاء الثاني بموقفين متناقضين لأبي طالب وأبي لهب : قال أبو طالب وقد سبق أبا لهب بالحديث : ما أحب إلينا معاونتك . . . . وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت، فوالله لا أزال أحوطك وأنفعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب .

ولم يسكت أبو لهب، بل قال : هذه والله السوءة، خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم.

فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما حيينا[٧٦].

لقد أعلن أبو لهب عداءه ولا نكوص : إن محمدا يهدد كل ما يمثله أبو لهب من فكر وسلوكيات . . يهدد أيامه القادمة . . يهدد وجوده كله . . ولن يسمح أبو لهب بذلك . لذلك قرر أبو لهب أن يقف في طريق محمد، وأن يدمر ما جاء به من دين جديد ، أو يدمر محمدا نفسه إن استطاع.

75- المستشار محمد سعيد العشماوي ، **الخلافة الإسلامية** ، ص ٧٧ .
76- الإمام محمد أبو زهرة ، جـ١ ، ص ٣٠١ .

أمـا أبو طالب، وهو الذي كفل محمدا طفلا يتيما وأحبه وحنا عليه، فما كان باستطاعته أن يـتخذ نفس الموقف ٠ كان على تمام الثقة من صدق محمد، بل إن قريشا كلها ما كانت لتشك في صدقه، وهى التي وصفته بالأمين، ولم يطلق هو الصفة على نفسه٠

لكـن تصـديق محمـد شئ، وتـرك ديـن الآباء شئ آخر ٠ إن نفس أبي طالب لا تطاوعه عـلى فـراق ديـن عـبد المطلـب، لكـنه رغـم ذلك أعلن بوضوح قاطع أنه لن يتخلى أبدا عن محمـد، سيقف إلى جانبه يؤازره ويدافع عنه ويمنعه ٠ ٠ لن يصاب محمد بأذى من قريش — أو غير قريش — مادام أبو طالب على قيد الحياة٠

وتـبدو صلابة موقف أبي طالب، في دفاعه عن محمد، عندما سأل عنه يوما فلم يجده ٠ سـاورته الشـكوك ٠ ٠ ربما أصابت قريش محمدا بأذى ٠ ٠ ربما سجنوه ٠ ٠ ربما طردوه ٠ ٠ ربمـا قـتلوه ٠ وفي مواجهـة حاسمـة لـلموقف جمع عبد المطلب فتيانا من بني هاشم وبني عـبد المطلب، وطلب منهم أن يحمل كل منهم سلاحه وليتبعه إذا دخل المسجد، ثم ليجلس كـل مـنهم إلى كـبير مـن كبراء قريش، وخاصة أبي جهل فلقد كان — في رأي أبي طالب — يمثل رأس الشر ضد محمد ٠ وفعل الفتية ما أمروا به، لكن زيد بن حارثة دخل المسجد في تلـك الـلحظة وطمـأن أبـا طالـب : محمـد بخـير، وهـو في بيـت عـند الصـفا ٠ ولم يـرجع أبو طالب إلى بيته حتى اطمأن بنفسه على ابن أخيه ٠

فـلما أصـبح الصـبح غـدا أبو طالب على النبي: فأخذ بيده فوقف به على أندية قريش، ومعـه الفتيان الهاشميون والمطلَّبيون، فقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به؟ قالوا: لا، فأخـبرهم الخـبر، وقـال للفتـيان: اكشفوا عما في أيديكم، فكشفوا، فإذا كل رجل منهم معـه حديـدة صـارمة، فقـال: والله لو قتلتموه ما بقيت منكم أحدا حتى نتفانى نحن وأنتم، فانكسر القوم وكان أشدهم انكسارا أبو جهل[٧٧]٠

هذا الموقف يظهر صلابة أبي طالب وجديته في مواجهة قريش، دفاعا عن ابن أخيه وهو في بداية دعوته ٠

كـان أبو طالب مهيبا، قويا، رائعا، وهو يعلن استعداده للقتال حتى يفنى أحد الفريقين ٠ ٠ عهد وميثاق معلن : أبدا لن يتخلى عن محمد٠

عـتاة مكـة يعلـنون العـداء: لقـد استخف عتاة مكة، أول الأمر، بما جاء به محمد ٠ اعـتقدوا أنـه لـن يـزيد في تـأثيره عـن حديـث الرهـبان، يسـتمع إليه الناس فترة ثم يطويه النسـيان ٠ لكن تأثير محمد فيمن حوله كان قويا عميقا، وكان من المستحيل على من استمع

77- ابن سعد ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ٠

إليه، وآمن بما جاء به من الحق. أن يرتد ويسجد ثانية للأصنام، بل إن هؤلاء الذين أعلنوا إيمانهم كانوا على استعداد للموت في سبيل هذا الدين.

لقد آمن بعض الأثرياء وصفْوة القوم من قريش، من أمثال أبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص. كما آمن الكثير من الفقراء والعبيد والإماء .

العبادة لله الواحد الأحد . . العدل والمساواة حق للجميع : الأبيض والأسود، السيد والعبد . . لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا سجود لصنم . . آلهة الحجارة، والخشب، والحلوى، ما هي إلا أضحوكة تثير السخرية، ولا يمكن أن يؤمن بعبادتها إلا عقل جاهل قاصر، لا يدرك معنى العبادة، ولا يعرف شيئا عن طبيعة الخلق وسلطان الخالق.

بدأت قريش تشعر بالخطر . . لقد عاب آلهتها وسخر منها وسبَّها، وفي هذا تهديد مباشر لمكانة مكة الدينية والاقتصادية، فالحج للكعبة وما حولها من أصنام كان مصدرا من مصادر الثراء . لقد اشتهرت مكة — في رأى قريش — بسبب أصنامها وأوثانها، فهي مجمع الآلهة بالنسبة لعرب شبه الجزيرة أجمعين . القضاء على سلطان الآلهة معناه القضاء على سلطان قريش . . وهذا ما لن يسمحوا به ، حتى ولو أدى إلى تدمير محمد.

سلطوا على محمد، في بادئ الأمر، شعراءهم فهاجموه في ضراوة وهَجَوْه قدر ما مكنتهم بلاغتهم وَسُفْه أخلاقِهم . تصدى من شعرائهم، لهجاء محمد، أبو سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص وعبد الله بن الزِّبَعْرِيَ . لم يرد محمد على سفاهاتهم، بل تولي ذلك بعض شعراء المسلمين، وكانت الكثرة القرشية المشركة هي الأعلى صوتا والأكثر ضجيجا.

لم يكتف القرشيون بإثارة الرجال من شعرائهم، بل سمحوا أيضا للنساء بالاشتراك في الذم والهجاء، فرفعت أم جميل، زوجة عبد العزى (أبي لهب) صوتها الذميم ببعض العبارات الموزونة المقفاة، تهجو النبي وتسخر منه وتدعوه مذمما :

مذمما قلينا ودينه أبينا وأمره عصينا

كان النبي يكتفي بالتبسم ضاحكا من قولها : إنها تسب مذمما . . لتسب وتهجو ذلك المذمم كما تشاء . . إنه محمدا . . ويكفي أنها لم تجرؤ على أن تذكر اسم محمد بسوء.

على رأس القرشيين المعادين لمحمد والمظهرين خصومتهم له ،كان أبو جهل بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، والوليد بن المغيرة، وأمية وأُبيّ ابنا خلف، والنَّضر بن الحارث، وزهير بن أمية ،والعاص بن سعيد بن العاص ،وعقبة بن أبي مُعَيط،والحكم بن أبي العاص .

وكان عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب مع جماعة أعداء النبي لكنهم لم يعملوا على إيذائه أو المساس به.

في حديث للنبي ذكرته عائشة قالت: قال رسول الله: كنت بين شر جارين ، بين أبي لهب وعقبة بن أبي مُعَيْط إن كانا ليأتيان بالفَرُوث فيطرحونها على بابي حتى إنهم ليأتون بعض ما يطرحون من الأذى فيطرحونه على بابي،فيخرج به رسول الله، فيقول: يا بني عبد مناف أي جِوارِ هذا !ثم يلقيه بالطريق[٧٨].

كان من أشدهم إغلاظًا في القول للنبي أبو لهب بن عبد المطلب، لكنه لم يحاول إيذاءه أو الاعتداء عليه . أما أحطهم فجورا في عدائه فقد كان عمرو بن هشام الملقب بأبي جهل الذي لم يترك وسيلة، قولا أو عملا لإيذاء المسلمين إلا أقدم عليها.

لكن قريشا كانت ما تزال تخشى بأس أبي طالب وسطوته . ورغم أنه ربما كان من أقلهم مالا، إلا أنه كان من أكثرهم نفوذا واحتراما بين قومه وعشيرته . قرر سادة قريش أن يذهبوا إليه . لقد بدأ المسلمون يظهرون حول الكعبة، يعبدون ربهم دون اكتراث بآلهة قريش، وهذا أمر يستحيل تحمله أو السكوت عليه.

ذهبوا إلى أبي طالب ومعهم عُمارة بن الوليد، أنهدفتى في قريش وأشْعره وأجمله، دخلوا عليه فقالوا : أنت سيدنا وأفضلنا في أنفسنا .وقد رأيت هذا الذي فعل السفهاء مع ابن أخيك من تركهم آلهتنا وطعنهم علينا وتسفيههم أحلامنا . . قد جئناك بفتى قريش جمالا ونسبا ونهادة وشعرا ندفعه إليك فيكون لك نصره وميراثه وتدفع إلينا ابن أخيك فنقتله، فإن ذلك أجمع للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبة .

قال أبو طالب : والله ما انصفتموني . تعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابن أخي تقتلونه؟ ما هذا بالنَّصف تسومونني العرير الذليل !

قالوا : إذن، انصفنا من ابن أخيك، فمرْه فلْيكف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه.

أرسل أبو طالب إلى محمد . وجاء النبي .

قال أبو طالب : يا بن أخي، هؤلاء مشيخة قومك وسَرَواتهم، وقد سألوك النَّصْف، أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك .

قال: أي عم، أوَلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها؟ قال: وإلام تدعوهم ؟ قال: أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب،ويملكون بها العجم . قال أبو جهل من بين القوم: ما هي وأبيك ؟ لنعطينَّها وعشرا أمثالها . قال : تقول : لا إله إلا الله.

78- ابن سعد ، جـ ١ ، ص ٢٠١ .

فنفروا، وقالوا : سلنا غير هذه.

فقال : لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها.

هبوا غضبى، وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذي يأمرك بهذا[٧٩].

هنا ينهى الله رسوله والمؤمنين عن سب ما يعبد المشركون وإن كان فيه مصلحة، ذلك لأنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها وهى مقابلة المشركين بسب ما يعبده المؤمنون، وهو الله، قال تعالى " ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زيَّنَّا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعُهُم فينبئُهُم بما كانوا يعملون" (سورة الأنعام : ١٠٨).

اجتمع إلى الوليد بن المغيرة نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم . تحاوروا فيما يجب فعله تجاه محمد . إن أمره قد شاع وانتشر وسمع به الناس . موسم الحج على الأبواب، ولابد أن يسأل هؤلاء القادمون، ولو من باب حب الاستطلاع، عن هذا النبي . بماذا تجيب قريش من يتوجه لها بالسؤال عن نبي مكة ؟ لابد وأن يجمعوا فيه رأيا واحدا، لأن اختلافهم معناه أن قد يكذب بعضهم بعضا، وتتناقض الأقوال فلا يصدقهم أحد.

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقِم لنا رأيا نقُلْ به .

قال : بل أنتم فقولوا أسمع.

قالوا : نقول كاهن.

قال : لا والله، ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة (كلام خفى لا يفهم) الكاهن ولا سجعه.

قالوا : فنقول : مجنون.

قال: ما هو بمجنون،لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخَنْقِه ولا تخالُجه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول : شاعر.

قال : ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر .

قالوا : فنقول : ساحر .

قال : ما هو بساحر، لقد رأينا السحاَر وسحرهم، فما هو بنفْثِهم ولا عَقْدِهم.

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة،وإن أصله لَعَذق (كثير الماء) وإن فرعه لجنَاة (فيه ثمر)،وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل .وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر

79- الطبري، جـ ١، ص ٥٤٤ .

جاء بقول هو سحرٌ يفرِّق بين المرء وأبيه ،وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ،وبين المرء وعشيرته ٠

فتفرقوا عنه بذلك [٨٠]٠

قرر عتاة قريش القضاء على دعوة محمد في مهدها ، لن يسمحوا له بلقاء القبائل ، لن يعطوه فرصة للحديث مع القادمين مهما كلفهم الأمر ، حتى الكعبة لن يسمحوا له بالحديث عن دعوته وهو في جوارها ٠ لابد من منعه بكل الوسائل حتى لو استدعى الأمر استخدام القوة ٠ وبالفعل نفذوا ما اتفقوا عليه ٠

ذهب النبي يوما إلى الكعبة ٠ رفع صوته عاليا معلنا وحدانية الله ٠ تملك الفزع قريشا ٠ تحول الفزع إلى رغبة في الانتقام ٠ تجمهروا حول النبي ٠ هاجموه في عنف ٠ حاول الحارث بن أبي هالة أن يحمي النبي ، أن يدافع عنه ، فما كان منهم إلا أن جلدوه بالسياط حتى الموت ، وكان أول شهداء الإسلام [٨١]٠

هكذا بدأت قريش طغيانها بسفك دم المسلم ٠ وكأن منظر الدم بعد أن سفكته قد أصابها بالسعار ، فبدأت فترة من أسود وأحط فترات تاريخها ، ألا وهي فترة اضطهاد النبي ومن أسلم معه ، وتعذيب من استطاعت أن تعذبه منهم حتى الموت ٠ وربما تخيل عتاة الجاهلية في طغيانهم أن جذور وجودهم لن ترتوي إلا بدم هؤلاء ٠

80- ابن هشام ، جـ ١، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ٠

81- Athar Husain , p. 10 .

الفصل الرابع :
الاضـطهاد والهجـرة

الفصل الرابع
الاضطهاد والهجرة
-١-
محاورات وجدل
مع النبي

الحكمة والموعظة الحسنة: النبي جاء هاديا ومبشرا ونذيرا، لم يرسله الله لإثارة عداء قومه أو نشر الانقسام في صفوفهم أو تدمير حياتهم، بل أرسله لكسب مودتهم والتأليف بين قلوبهم وإرشادهم إلى حياة أفضل وأرقى وأجَل من تلك التي يحيونها . إنه لا يريد تنابذا أو قتالا، بل مودة ورحمة.

لذلك كان من الطبيعي أن يظهر بعض اللين وشيئا من المرونة في تعامله مع من حاول هدايتهم إلى دين الله من مشركي أم القرى وما حولها . ويحكى الرواة أن الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الغزاري توجها إلى النبي فوجداه مع صهيب وبلال وعمار وخباب، قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي حقروهم في نفر من أصحابه فأتوه فخلوا به وقالوا : إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت.

قال: نعم .

قالوا: فاكتب لنا عليك كتابا.

فدعا بصحيفة ودعا عليا ليكتب[1] . . فنزل جبريل بقوله تعالى: "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين" (سورة الأنعام: ٥٢) .

التوجيه هنا واضح، والأمر قاطع . إن الله يرى . وإذا ما همَّ النبي بالإقدام على أمر يبتعد ولو مثقال ذرة عن روح دين الله فلابد من توجيهه في الحال . الوحي لم يبطئ وجبريل لم يمهله حتى يملي على "عليّ" الكلمات التي طلبها بعض المشركين.

في هذا الدين الكل سواء، لا سادة لهم مجلس خاص يشعرون فيه بالاستعلاء، ولا عبيد

1- محمد على الصابوني، **مختصر تفسير ابن كثير**، جـ ١، ص ٥٨١ .

أرقاء وفقراء في مجلس آخر يشعرون فيه بالدونية والهوان، بل مجلس واحد لمن أراد، والكل أمام الله سواء.

موقف آخر نزل فيه الوحي بالعتاب لأن النبي. طمعا في إسلام أحد كبار قريش، عبس في وجه أحد المسلمين وانصرف عنه . كان يتحدث إلى الوليد بن المغيرة كبير مخزوم. والمعترف به بصورة غير رسمية زعيما لمكة، عندما مر بهما الأعمى عبد الله بن أم مكتوم الذي طلب من النبي أن يتلو عليه بعض آيات القرآن، والنبي مشغول بحديث يثير اهتمامه وبرجل كبير يطمع في إسلامه . لكن ابن أم مكتوم يلح في السؤال . هنا يبدو الضيق على وجه النبي، شئ من العبوس وربما قليل من الغضب.

وفي الحال ينزل جبريل بآيات تعاتب النبي : " عبس وتولي . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى . فأنت له تصدى" (سورة عبس : ١ — ٦).

لم يخطئ عبد الله بن أم مكتوم، كل ما طلبه — كما يحكي الشيخ الصابوني نقلا عن الرواة — هو: علمني مما علمك الله، وكرر ذلك وهو لا يدري أن النبي مشغول مع "هؤلاء المشركين"، فكره رسول الله قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه وقال في نفسه: يقول هؤلاء إنما أتباعه العميان والسَّفلة والعبيد، فعبس وجهه وأقبل على " القوم" يكلمهم . . وبعد نزول آيات العتاب، كان النبي دائما ما يرحب بعبد الله بن أم مكتوم، إذا جاءه بقوله: مرحبا بمن عاتبني فيه ربي، ويبسط له رداءه [2].

وما جاء به الوحي حدث، فالوحي هو الحق :" أما من استغنى فأنت له تصدى" . لم يسلم الوليد بن المغيرة، بل أخذته العزة بالإثم فتساءل في غطرسة جاهلية لماذا ينزل الوحي على محمد وهو اليتيم الفقير، ولا يتنزل عليه هو، وهو كبير قريش وسيدها؟!!

هذا اللين من جانب النبي لم يكن ضعفا تجاه المشركين، فأبدا ما ضعف النبي لحظة واحدة من لحظات حياته، لكنه كان إظهارا للمودة والتراحم وحب الخير لأهله وعشيرته . إن ما يدعوهم إليه من نبذ عبادة الأصنام لن يضيرهم في شئ لأنه الحق، والمنطق العاقل والفكر السليم يؤيدان ما يدعو إليه.

ثلاثمائة صنم — ربما أكثر — حول الكعبة، وأصنام وأوثان مبعثرة في كل مكان، أي قدسية لها، وأيها أحق بأن يقدس؟ ما جدوى عبادة الحجارة ؟ وأي هذه الأصنام أحق بأن يكون هو المعبود ؟وإذا كانت هذه الأصنام تمثل إلها أو آلهة، فأي إله أو أية آلهة تمثل ؟

2- محمد علي الصابوني ، **صفوة التفاسير** ، جـ٢٠ ، ص ١٨ .

وكيف يتسق إيقاع هذا الكون الهائل بكل ما فيه لو كان له أكثر من إله ٠ ٠ كيف لا يضطرب؟

يا أهل أم القرى وما حولها. تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ٠ جوهر الدعوة واضح: إله واحد لا إله إلا هو، خالق مبدع مسيطر هو الله ٠ من المستحيل أن تتعدد الآلهة، أن يكون هناك أكثر من إله ٠ التأمل في طبيعة الخلق يثبت ذلك، والفطرة السليمة والفكر السوي يرفضان ماعداه ٠ يقول الدكتور محمد حسين هيكل في تحليله لهذه النقطة: لابد لهذا الكل الكوني من روح يمسكه، منه نشأ وعنه تطور، وإليه يعود ٠ هذا الروح وحده هو الذي يجب أن يخضع له الإنسان، أما سائر ما في الكون فهو خاضع لهذا الروح كالإنسان سواء ٠ الإنسان والكون والزمان والمكان وحدة، وهذا الروح جوهرها ومصدرها، وإذا فلتكن لهذا الروح وحده العبادة، ولهذا الروح يجب أن تتجه القلوب والأفئدة [٣]٠

ماذا كان ثراة مكة يخشون ؟ المال والتجارة وأرباح مواسم الحج؟ لن يتغير من ذلك شئ٠ مكة هى مكة وستظل مركزا حيويا للمال والتجارة والكسب الحلال، لكن بلا رقص أو مجون أو دعارة ٠ إن الدعوة إلى الخير والعفاف أمر محبب لكل نفس عفيفة شريفة ولا يجب محاربته ٠ هل تملكهم الخوف أن يتوقف الناس عن الحج إذا ما أزيلت أصنام مكة وتم القضاء على وثنيتها؟ هذا لن يكون، فالحج قائم منذ إبراهيم عليه السلام وسيظل إلى ما شاء الله، كل ما في الأمر هو أن الكعبة سوف تتطهر من أصنامها وأرجاسها وتصبح كما كانت أيام إبراهيم بيت طهر وعبادة لا يذكر فيها إلا اسم الله٠

يعتقد " مولاي محمد علي" أن النبي لم يتبع أسلوب السب أو التنديد بآلهة قريش، فقط أشار إلى عجزها فهى لا تضر ولا تنفع ولا قيمة لها ٠ يقول محمد علي: لاشك أن الاتهامات التي ألصقت بالنبي كانت مبالغ فيها، فإنه لم يندد بآلهتهم، لأن القرآن الكريم ينهى عن ذلك: " ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله " ٠ ٠ ولمن شاء البحث في القرآن الكريم من أوله إلى آخره، فلن يجد فيه كلمة واحدة من السباب لآلهة المشركين ٠ كل ما يقوله: إنهم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، وأن تعدد الآلهة وعبادة الأصنام عمل بغيض: " يعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم" [٤]٠ وهى وجهة نظر، رغم عدم دقتها، لا اعتراض عليها٠

كان جهاد النبي في بداية الدعوة، كما أوضحنا، جهادا جدليا خالصا، يتسم بالحكمة

3- الدكتور محمد حسين هيكل ، **حياة محمد** ، ص ١٣٣ ٠

4- مولاي محمد علي ، ص ٨٥ ٠

والموعظة الحسنة . ويدعو إلى الخير والعدل بين البشر، وإلى راحة النفس وطمأنينة الروح وهي تتأمل بديع خلق السماوات والأرض وما بينهما، وتخضع في إيمان مطلق لسلطان مالك الملكوت الذي لا إله إلا هو ٠

العنجهية الجاهلية : لكن العنجهية الجاهلية، رغم وضوح الحق، ترفض أن تلين أو تستجيب ٠ كيف يتساوى السيد والعبد ؟ هذا من وجهة نظرهم ترفضه الأعراف ٠ إن محمدا يريد أن يهدم تراثا تربّوا عليه جيلا بعد جيل ٠ ٠ السيد هو السيد صاحب المال والسلطان وبيده السيف والسوط، والعبد يعمل ليل نهار ويُضرب ويهان ويستذل ٠

وكيف تتوحد الآلهة فتصبح إلها واحدا؟ أمر مستغرب ألاّ يوجد إله— كما يقول محمد— سوي الله ٠ إنها في رأيهم إحدى البدع الغريبة على حياتهم وعلى مجتمعاتهم ٠ إن عبادة " بنات الله" واجب مقدس ، إنه جوهر عقيدتهم، هذا ما كان عليه الآباء، وهذا ما يجب أن يظل عليه الأبناء : " هذا ما وجدنا عليه آباءنا"، وما وجدوا عليه آباءهم في حد ذاته عقيدة ودين يجب — طبقا لمنطقهم القاصر — ألا يغيره محمد أو غير محمد ٠ وعلى من يحاول ذلك أن يُعد نفسه لمواجهة البلاء٠

تعلق كارين أرمسترونج على موقف قريش من النبي بقولها : إن محمدا حينما طلب من أهل مكة أن يعبدوا الله وحده ويتركوا عبادة الآلهة الأخرى، طلب منهم أن يتبنوا اتجاها دينيا جديدا لم يكن الكثير من أهل قبيلته مستعدين لقبوله ٠ ٠ إن المذهب التوحيدي لا يتطلب الموافقة العقلية فقط،بل أيضا تغيير الوعي ٠ وقد أدي طلب النبي إلى إذكاء مشاعر الخوف العميق،لأنه كان يهدد مقدسات اعتقد القوم أن بقاء مجتمعهم يعتمد على بقائها ٠٠ الحياة البدوية محافظة لأنها محفوفة بالمخاطر ٠ ٠ ومن السهل إذًا أن نفهم قلق قريش العميق من "إلحاد" محمد[٥]٠

ويرى مونتجمري وُت أن معارضة سادة قريش لمحمد كانت تقوم على مضامين سياسية لا يمكن تجاهلها أو إنكارها ٠ وهو لا يتفق مع أولئك الذين يعتقدون أن أهم دافع وراء المعارضة هو الخوف من أنه لو تركت مكة وثنيتها واعتنقت الإسلام، فإنه يُخشى أن ينصرف البدو عن زيارة الكعبة وبذلك تُدمر تجارة أهل مكة ٠ ويُصر مونتجمري على أن هذا السبب غير مقنع : ذلك لأنه لم يرد أي هجوم على التعبد عند الكعبة، لا في القرآن ولا في غير القرآن ٠ وعند فتح مكة ظلت الكعبة محتفظة بمكانتها، كل ما حدث هو تطهير ما بداخلها وما حولها ٠ لقد كان الهجوم أساسا على الأصنام ٠ ٠ وما كان التخلي عن

5- كارين أرمسترونج ، ص ١٦٨ ــ ١٦٩ ٠

الأصنام ليقود تجارة مكة إلى البوار. ذلك لأن الجزء الأكبر من تجارة مكة كان لا يعتمد على زيارات البدو إلى الكعبة أو إلى أي مكان آخر مقدس . وبناء عليه فإن هذه النظرية، القائمة على أساس الخوف من التدهور الاقتصادي بسبب الهجوم على الوثنية، من الأفضل أن تنسى تماما.

إن السبب الأساسي للمعارضة، على أية حال، كان بصورة شبه مؤكدة هو أن قادة قريش رأوا أن دعوى محمد بأنه نبي، لو أخذت مأخذ الجد، لابد وأن يكون لها مضامين سياسية . . فلو أن أهل مكة آمنوا بما جاء به محمد، ثم أرادوا أن يعرفوا كيف يتدبرون أمرهم في ضوء ما جاء به، من سيكون مرشدهم ورائدهم إن لم يكن محمدا ؟!!

ليس معنى هذا – يقول مونتجمري وُت – أن هجوم القرآن على الأوثان لم يقابل بمقاومة . لقد كان العرب بطبيعتهم محافظين . إنهم يتمسكون بعبادة الأوثان لأنها كانت ما يعبد آباؤهم . . ومما زاد في عدائهم هو أن الهجوم على الأوثان كان مصحوبا بتأكيد أن آباءهم الوثنيين مصيرهم النار.

ولقد رأي بعض الخصوم أن الإسلام يحدث انقساما حادا في الأسرة الواحدة . . وهذا يقود إلى عواقب وخيمة . وبدا لهم أنه يدمر البنية الاجتماعية تدميرا كاملا . وعلى ذلك فإن الأساس الذي قامت عليه المعارضة للإسلام، بجانب المصالح الشخصية، كان الخوف من مضامينه السياسية والاقتصادية، هذا بالإضافة إلى النزوع إلى الإبقاء على ما هو قائم ومقاومة التغيير[٦].

رؤوس المعارضة : كان على رأس المعارضين الساخرين من محمد وما جاء به، أمية بن أبي الصلت، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل . كان أمية بن أبي الصلت من بين من توقعوا ظهور نبي في شبه الجزيرة العربية . ورغم أنه كان شاعرا فذا تغلب الحكمة على شعره ويشع منه ورع يكاد يصل إلى مرتبة الإيمان بإله واحد، إلا أنه لم يؤمن بما جاء به محمد . كان يطمع في أن يكون هو المختار نبيا، لا ذلك الذي لم يعرف عنه في سابق حياته علم أو تعلم أو شعر أو موعظة . لقد أخذته العزة بالكبر فمال قلبه عن الحق . قال النبي يوما وشعر أمية بن أبي الصلت يروى على مسمعه : آمن شعره وكفر قلبه.

أما الوليد بن المغيرة، فقد أكلت الغيرة قلبه . كان كبير قريش وسيدها، فكيف يتجاهله الوحي ويختار " سائق الإبل" ؟! وكثيرا ما سُمع وهو يقول: " أينزل على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ونحن عظيما

6- Montgomery Watt , **Muhammad at Mecca**, pp. 134 – 136 .

القريتين" . أي مكة والطائف . ونزل القرآن بما يدحض قول الوليد: "وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقْسمون رحمة ربك . نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا " (سورة الزخرف : ٣١ — ٣٢).

وفيما يختص بأبي جهل وعداوته للنبي التي وصلت إلى حد التفكير في القتل ووضع حد لحياته ودعوته، فقد كان دافعها التنافس غير الشريف والحقد الدفين والغطرسة الجاهلية التي لا تعرف حدا لنوازع شرورها وآثامها . يقول أبو جهل والحقد يعتصر فؤاده: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا الرُّكب وكنا كفرسَيْ رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه[7].

كانوا يزدرون بالنبي — كما يقول ابن كثير — بغيا وحسدا، وعنادا واستكبارا كقوله تعالي مخبرا عنه: " وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا، أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون " ، وقوله تعالى: " وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا"[8].

المال والملْك: رغم كل الاستهانة والسخرية والاستهزاء، ازداد عدد أتباع النبي . اجتمع سادة قريش ، تحاوروا : ماذا يجب عليهم أن يفعلوا كي يوقفوا امتداد نفوذ محمد؟ قال لهم عتبة بن ربيعة، وهو من كبارهم : ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها يشاء ويكف عنا.

قالوا : بلي يا أبا الوليد.

فقام عتبة حتى جلس إلى النبي فقال : يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السَّطة (المنزلة الرفيعة) في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم، وعبْت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرْت به من مضي من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضا .

قال له النبي : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد به شرفا سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكنْاك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه

7- د. محمد حسين هيكل ، ص ١٥٣ .
8- مختصر تفسير ابن كثير ، جـ ١ ، ص ٦١٥ .

ولا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ٠ ٠ ٠ ٠

وعندما فرغ عتبة من كلامه، سأله النبي: أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم ٠

قال : فاستمع مني ٠

وأخذ النبي يقرأ: " بسم الله الرحمن الرحيم، حَم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون" ٠

استمر النبي يقرأ، وكان عتبة يستمع إليه في انتباه وتركيز ٠ وعندما انتهى النبي من قراءته، قال لعتبة:

قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك ٠

وعاد عتبة لقومه ٠ سألوه : ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال : ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة ٠ يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم: فإن تصبه العرب فقد كُفيتُمُوه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكُه ملككم وعزُّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به ٠

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد[9] ٠

ونرى أن ما عرضته قريش على النبي من شرف وجاه وملك ومال، ما هو إلا خدعة ذهب بها عتبة بن ربيعة إلى النبي وهو مدرك — أو غير مدرك — لما يتضمنه فحواها ٠

قريش تعرض مالا، وجاها، وملْكا، على " نبي " بشرط أن يتخلي عن رسالته وينكر نبوته ! !

في هذه الحالة، إما أن يكون النبي نبيا حقا — كما هو في حالة محمد – فيقابل عرضهم برفض قاطع لأن الجاه والثراء والملك لا قيمة لأي منها في حياة الأنبياء، وإما — في حالة القبول — أن يكون المتحدث دعيا يقول بوحي ولا يوحى إليه، ويتحدث عن رسالة ولا رسالة له، ويدعو الناس إلى اتباعه مدفوعا بنعرة تفخيم الذات والسعي إلى سلطان دنيوي، كما حدث في حالة مسيلمة الكذاب الذي دعا النبي يوما إلى أن يقتسما السلطة والنفوذ فيما بينهما ٠

9- ابن هشام، جـ ١، ص ٣١٣ ـ ٣١٤ ٠

أخطأت قريش في عرضها، إذ تحدثت بلغة كان من المستحيل أن يقتنع بها محمد أو أن يتقبلها · لقد صورت لهم خيالاتهم المريضة أن محمدا قد يوافق ويخضع لإغراء المال والسلطان، عندها تكون نقطة الوثوب والافتراس · · الفضيحة الكبرى · · أهذا هو النبي؟ · · أهذا هو صاحب الرسالة ؟ · · أهذا هو الذي يوحى إليه؟!!

كانت الخدعة دنيئة · وما كان باستطاعة محمد إلا أن يتصرف كنبي لا تهزه الدنيا بكل متاعها وإغراءاتها وسلطانها ·

يطلبون معجزات : فشلت الخديعة، وكان على سادة قريش أن يسلكوا طريقا آخر · النبي لابد وأن تكون له معجزات · إن كان نبيا حقا فعليه أن يثبت لهم ذلك، واقعا بمعجزات يرونها أمامهم رأي العين ·

لقد رفض ما عرضوا عليه · لم يهتز · أصر على موقفه · إذن فعليه أن يظهر لهم من علامات النبوة إعجازا لا يمكنهم أمامه إلا الإيمان بما جاء به · طلبوا منه، ضمن ما طلبوا:

– أن يسأل ربه الذي أرسله أن يُسيِّر الجبال التي ضيقت عليهم ويبسط لهم في الأرض ويفجر فيها أنهارا فتصبح ذات شجر وثمر، كما الشام والعراق ·

– وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يبعث الموتى من آبائهم، وعلى رأسهم قصي بن كلاب فإنه كان "شيخ صدق"، فيسألونهم عما يقول أهو حق أم باطل، فإن صدقه الموتى صدقوه هم أيضا واعترفوا به نبيا رسولا·

– إذا لم يستطع ذلك فعليه أن يسأل ربه أن يبعث معه ملكا يصدقه، وعندها سوف يصدقون·

– وليسأل ربه أيضا أن يجعل له جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيه بها، فلا يذهب إلى الأسواق ولا يسعى التماسا للرزق كما يفعل، وعندها سيعترفون بنبوته وقد أظهر لهم أن له عند ربه فضلا ومنزلة·

– أما إذا لم يستطع طلب ذلك من ربه، أو إذا لم يجبه ربه إلى ما طلب، فلماذا لا ينفذ تهديده ووعيده لهم بالعقاب والعذاب ؟ لماذا لا يسأل ربه فيسقط عليهم السماء كِسَفاً، كما يزعم أن ربه لو شاء فعل ؟ إن فعل ذلك آمنوا، وإذا لم يفعل فعليه ألا يتحدث إليهم عن الإيمان بما جاء به لأنهم لم يصدقوا ولن يصدقوا ·

– وتطاول بعضهم، في عنجهية جاهلية متدنية، معلنين أنهم لن يؤمنوا به حتى يأتيهم بالله والملائكة قبيلا · فإذا لم يأتهم بالله والملائكة فهذا معناه — من وجهة نظرهم — أنه دَعِيٌّ بلا وحي وبلا نبوة، إنما يعلمه رجل باليمامة يدعى " الرحمن"، وأنهم لن يؤمنوا

بالرحمن هذا أبدا . بل وزعموا أيضا أنه يتعلم من غلام نصراني اسمه" جبر" . وكان النبي كثيرا ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني . . عبد لابن الحضرمي . وكانوا يقولون: والله ما يُعلِّم محمدا كثيرا مما يأتي به إلا جبر النصراني غلام ابن الحضرمي، فأنزل الله تعالي في ذلك من قولهم: " ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يُلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين" (سورة النحل : ١٠٣).

– أما ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، وهو عبد الله بن أبي أمية، فقد طلب منه، كي يؤمن به، أن يتخذ إلى السماء سلما ثم يرقي فيه وهو ينظر إليه حتى يأتيها . ولم يكتف ابن أبي أمية بهذا الطلب، بل زاد عليه: أن يأتي " النبي " معه بأربعة من الملائكة يشهدون له أنه كما يقول.

كان رد النبي عليهم جميعا: ما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم [10].

يسألون يهود يثرب : لم يكتف طغاة قريش بما قالوه في معارضة محمد ومحاولة تسفيه ما جاء به، بل أرسلوا النضر بن الحارث ومعه عقبة بن أبي مُعَيْط إلى أحبار يهود يثرب، قالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء [11].

التقى النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط بأحبار اليهود في يثرب، طلبا منهم المشورة على أساس أنهم هم أهل العلم وأصحاب الكتاب . قال لهم أحبار اليهود: اسألوه عن ثلاث فإن أخبر بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو متقوِّل غير صادق . وكانت المسائل الثلاث عن : فتية ذهبوا في الدهر الأول، وما كان من أمرهم ؟ ورجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وما كان نبؤه ؟ أما الثالثة فهى عن الروح، ما هى ؟ فإن أجاب بما يتفق مع علمهم فهو نبي، وإن لم يفعل فهو دعي، وعليهم أن يفعلوا به ما بدا لهم .

توجه القرشيون بالمسائل الثلاث إلى محمد يطلبون منه إجابة وتفسيرا . طلب منهم أن يمهلوه يوما، على أمل أن يهبط عليه جبريل بالوحي فيجيبهم إلى ما سألوا . وبدلا من أن يجيبهم " الغد " كما وعد، تأخرت إجابته خمسة عشر يوما، ولا حيلة له في ذلك، فما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى . وقد تأخر الوحي، ولم ينزل جبريل، واشتد

10- انظر ابن هشام، جـ ١، ص ٣١٧، ص ٤٢٠ .
11- نفس المرجع، ص ٢٢٠ .

حـزن الـنبي ٠ وتكـلم مشـركو مكـة وتـبجحوا وتطاولوا، وقد بدا لنفوسهم الهزيلة أنهم قد نجحوا أخيرا في إسكات محمد٠

ثـم هـبط جـبريل بسورة أصحاب" الكهف" وفيها خبر ما سألوا عنه من أمر الفتية الذين آمـنوا بـربهم، والـرجل الـذي طـاف الأرض شرقا وغربا ٠ عن الفتية يقول سبحانه وتعالى: "إنهـم فتـية آمنوا بربهم وزدناهم هدي وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا " (سورة الكهف : ١٣ — ١٤)٠

وعـن الـرجل الطواف يقول : " ويسئلونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا ٠ إنـا مكَّـنا له في الأرض وءاتيـنه مـن كـل شئ فأتبع سببا" (الكهف : ٨٣ — ٨٥) ٠ وفيما يخـتص بأمـر الـروح يقـول تعالي : " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" (سورة الإسراء : ٨٥) ٠

كمـا رد القـرآن عـلى تـبجح المشـركين وتطـاولهم وطلـبهم مـن المعجـزات مـا هو ملموس ومحسـوس: " وقـالوا مـا لهـذا الرسـول يـأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فـيكون معـه نذيـرا أو يلقـي إلـيه كـنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ٠ انظر كيف ضربوا الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ٠ تبارك الذي إن شـاء جعـل لـك خـيرا مـن ذلـك جـنات تجـري مـن تحـتها الأنهـار ويجعـل لـك قصـورا" (سورة الفرقان: ٧ — ١٠)٠

وفي الـرد عـلى مـا قالـه عـبد الله بـن أبـي أمية، نزل قوله تعالي: " وقالوا لن نؤمن لك حـتى تفجـر لـنا مـن الأرض ينـبوعا ٠ أو تكـون لـك جـنةٌ من نخيل وعنب فتُفجِّر الأنهار خلـلها تفجـيرا ٠ أو تسـقط السماء كمـا زَعَمـت عليـنا كِسَفًا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ٠ أو يكـون لـك بيـت مـن زخـرف أو تـرقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تُنزِّل علينا كتابا نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا " (سورة الإسراء : ٩٠ — ٩٣) ٠

رغـم كـل مـا جـاءهم بـه القـرآن لم يؤمـنوا، بل تمادوا في غيهم وتعاليهم واستخفافهم ٠ ويحكـى الـرواة أن أُبـي بـن خلـف مشـى يومـا إلى الـنبي بعظـم بـال قد أرْفَتَّ، أي تحطم وتكسـر، فقـال : يـا محمـد أنـت تـزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرَمَّ (أي بلي)، ثم فتَّه بـيده، ثـم نفخه في الريح نحو النبي ٠ قال النبي : نعم ٠ أنا أقول ذلك ٠ يبعثه الله وإياك يـوم القيامة بعد ما تكونان هكذا ٠ ثم يُدْخلك الله النار[١٢]٠ فأنزل الله تعالي فيه: " وضرب لـنا مثلا ونسي خلقه ٠ قال من يحيي العظام وهى رميم ٠ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة

12- نفس المرجع ، ص ٣٨٥ ٠

وهو بكل خلق عليم " (سورة يس :٧٨ — ٨٠)٠

وعندما نزل الوحي بذكر شجرة الزقوم تخويفا للمشركين، بادر أبو جهل عمرو بن هشام بتقديم تفسير مضحك، وكأنه لا يبغي من ورائه إلا أن يسري عن القوم في مجالسهم ٠ إن شجرة الزقوم ، طبقا لفكره السقيم، ما هى إلا عجوة يثرب بالزبد، فهل هناك ما هو أشهى من ذلك؟: " والله لئن استمكناً منها لنتزقمنَّها تَزَقماً "، أي لنبتلعنها ابتلاعا ٠ هذا ما أضافه أبو جهل في استظراف العاجزين. وهو مدرك تمام الإدراك أنه لا يملك في محاجاة ما جاء به القرآن حجة أو دليلا أو يقينا ٠ وأنزل الله فيه ما يلجمه: " إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلْي الحميم "٠

ومن بين صفوف قريش أيضا خرج النَّضْر بن الحارث بن علقمة يروى حكايات وأساطير عن ملوك فارس وأبطالها ٠ وكلما جلس النبي إلى جماعة يدعو إلى الله ويحذر مما أصاب الذين من قبلهم لما كفروا وكذبوا الرسل،كان النضر بن الحارث يخلفه في مجلسه إذا قام، يروى من الأساطير ما يشد به انتباه مستمعيه،ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثا مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتَتَبْتُها كما اكتتبها ٠ ونزل الوحي بقوله تعالي:" وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تُملي عليه بكرة وأصيلا ٠ قل أنزله الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض إنه كان غفورا رحيما" (الفرقان : ٥ — ٦)٠

أخيرا، توصل القرشيون المشركون إلى حل اعتقدوا أنه قد يرضي الجميع: محمد وإلهه. وقريش وآلهتها، ثم عرضوا على النبي عرضا: التقى به الأسود بن عبد المطلب بن أسد ابن عبد العزى، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا من أصحاب الكلمة في قومهم٠ عرضوا عليه أن يعبدوا إلهه عاما ويعبد معهم آلهتهم عاما، وبذلك يشترك هو وهم في الأمر، كل يأخذ بحظه من عبادته : فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه [١٣]٠

كان الرد قاطعا، حسمه الوحي في سورة فارقة : " قل يٰأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ٠ ٠ لكم دينكم ولي دين" : أبدا لن يلتقي ما أومن به مع ما تؤمنون٠

كانت هذه هى النهاية ٠ ٠ نهاية الحوار والجدل بين محمد وعتاة قريش ٠ لقد تفوق عليهم في جهاده الجدلي ٠ كان يقوم بذلك وحده في مواجهة كثرة عاتية متجبرة: يجادلهم بالقرآن، ويقارعهم بآياته البينات المحكمات، فيلجمهم ويعييهم ويشعرهم بالإحباط واليأس والعجز٠

13- ابن هشام ، جـ١ ، ص ٣٨٦ ٠

ودفعهم اليأس المتخبط إلى اتخاذ قرار كان في الواقع هو بداية النهاية بالنسبة لهم وما يعبدون : قرروا اضطهاد المسلمين وتعذيبهم — إن أمكن — حتى الموت . وأعلن أبو جهل أمام قومه أنه سيقوم هو نفسه بقتل محمد.

- ٢ -

الإضطهاد
والتعذيب حتى الموت

كانت رقية ابنة النبي وأختها أم كلثوم من أول ضحايا الإضطهاد الذي وجه إلى محمد ومن اتبعه . أم جميل، زوجة أبي لهب وأخت أبي سفيان، كانت تكره النبي . . خاصمته، وهجته، وآذته، وأشاعت عنه أنه " مذمم مجنون" .

أما زوجها أبو لهب، عم النبي، فلم يختلف موقفه عن موقفها، وذلك استرضاءً لعشيرة زوجته، عبد شمس. وعلى رأسها أبو سفيان أهم رجالاتها وقائد مكة كلها فيما بعد . ومن المحتمل — إلى حد كبير — أن سلوك أبي لهب تجاه محمد كان متأثرا بعلاقاته التجارية مع عبد شمس، تلك العلاقات التي ما كان ليضحي بها حتى ولو دفعته إلى عداء ابن أخيه وتكذيبه واضطهاده . ما كان أبو لهب ليكترث بأمور العقيدة . كان المال أهم لديه من الدين.

وعلي ذلك فقد أرغمت أم جميل — بالاتفاق مع زوجها — ولديها على أن يتخليا عن ابنتي النبي: رقية وأم كلثوم . ولا نعرف على وجه التحديد إن كان الزواج قد تم فعلا أم أنهما كانتا مخطوبتين فقط، إذ أنه طبقا لعادات القوم كانت الفتاة تعيش فترة ما قبل الزواج في بيت الرجل الذي سوف يتزوجها . وتم لأم جميل ما أرادت: أعادت الفتاتين إلى أبيهما بطريقة غير مشرِّفة.

لكن فرحة أم جميل لم تكتمل، ذلك لأن عثمان بن عفان وهو من أبناء عمومتها الأمويين، وكان من كبار الأثرياء، طلب رقية وتزوجها فعلا . ولقد سعد النبي وزوجته السيدة خديجة بهذا الزواج، وفرحت ابنتهما به . وكان عثمان وفيا شديد الوفاء لزوجته ولوالديها، ولم يتزوج غيرها في حياتها، وحتى بعد مماتها تزوج أختها أم كلثوم — وهذا يدل على شدة حبه لبيت النبوة — ولذلك سُمي " ذو النورين" . ولما ماتت عنده أم كلثوم، سُمع النبي يقول : لو كان عندي ثالثة زوجتها عثمان .

اعتبار آخر كان مدعاة لهذا السرور : كانت رقية أجمل أخواتها، وواحدة من أجمل جميلات جيلها في مكة كلها، وكان عثمان وسيما بدرجة ملحوظة، وكانت رؤيتهما معا

تبعث البهجة في النفوس.

حاول بعض أصحاب النفوذ في مكة أن يفعلوا نفس الشيء مع ابن العاص الذي كان زوجا لزينب كبري بنات النبي. لكنه طلب منهم أن ينسوا هذا الموضوع تماما وألا يناقشوه معه، ذلك لأنه لن يرضى بأية امرأة في مكة غير زوجته . كان الحب بينهما قويا عميقا من الصعب أن تنفصم عراه.

لم ينجُ عثمان بن عفان من الإهانة والضرب. رغم أنه كان من سادة قريش ومن بيت له مكانته، إلا أن ذلك لم يشفع له عند قومه . يحكي الرواة أنه لما أسلم عثمان أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطا . ويقال إنه ضربه ضربا مبرحا، آمرا إياه أن يترك " هذا الدين"، مهددا إياه ببوار تجارته وخسارة أمواله . ولم ينجح التهديد، أو القيد، أو الضرب، في ثني إرادة عثمان . كان إيمانه أقوي من قيد عمه وسوطه:

" أترغب عن ملَّة آبائك إلى دين محْدَثٍ ؟ "،صرخ فيه عمه بعد أن أحكم وثاقه، " والله لا أحُلُّك أبدا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين" وكانت إجابة عثمان رغم قيده: "والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه" . فلما رأي الحكم صلابته في دينه تركه[14].

وثَبَتْ كل قبيلة على مستضعفيها تسومهم العذاب . وكان التنكيل باطشا وحشيا يبعد كل البعد — في أحيان كثيرة — عن أي سلوك إنساني مهما كانت درجة انحطاطه أو تدنيه . ألقوا العبيد على الرمال الملتهبة،تحت أشعة شمس حارقة،ووضعوا على صدورهم الصخر . ربطوهم بالسلاسل في صخور تذيب حرارتها الأجساد وكأنها جحيم أرضي، انهالوا عليهم بالسياط فسالت دماؤهم تصبغ الصخور والرمال، وكأنها تترك علامة تشهد على جبروت قوم أعمي قلوبهم الضلال.

طلبوا منهم، وهم يمزقون أجسادهم، أن يعلنوا كفرهم بما جاء به محمد، وسمح لهم النبي أن يقولوا بألسنتهم، مع إيمان قلوبهم، ما ينقذهم من العذاب . كانوا يعلمون إنما قال ذلك رفقا بهم وكي يخفف عنهم ما هم فيه من بلاء.

رفضت الكثرة أن تنكسر أمام إرادة الشرك، فالإيمان لا ينكر والعقيدة لا تستباح، حتى ولو كانت النهاية الدنيوية موجعة فاجعة . استقبل بعضهم الموت بصورة كانت تثير جنون الطغاة . أي إيمان هذا، وأي نبي، وأي إله؟ هذا ما لا يصدقه عقل بشر! !

وكلما ازدادت صلابة مقاومة المستضعفين المؤمنين، كلما ازداد خبل الطغاة الكافرين . وما فعلوه بآل ياسر مثير للغثيان والاشمئزاز، ولا يقدم عليه أدنأ أنواع الحيوان.

14- ابن سعد ، جـ ٣ ، ص ٥٥ .

كان ياسر بن عامر وأخواه الحارث ومالك قد قدما من اليمن إلى مكة يطلبون أخا لهم. فرجع الحارث ومالك إلى اليمن وأقام ياسر بمكة وحالف أبا حذيفة بن المغيرة، وزوجه أبو حذيفة أمةً تدعى سمية بنت خياط فولدت له عمارا فأعتقه أبو حذيفة[15]. وقد أسلم آل عمار، ثلاثتهم، وكانوا من المستضعفين الذين يعذبون بمكة أشد العذاب، ينكل بهم طغاة قريش إلى درجة فقدان الوعي والهذيان، ومعهم عُذب صهيب وأبو فكيهة وبلال وعامر بن فهيرة وآخرون.

أحرق المشركون عمار بن ياسر بالنار، فكان النبي يدعو ويقول يا نار كوني بردا وسلاما على عمار كما كنت على إبراهيم . ومر النبي بثلاثتهم: عمار وزوجته سمية وولدهما ياسر وهم يجلدون بالسياط، قال، وما كان يملك لهم آنذاك إلا الدعاء : أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة.

لم يصدق المتجبرون ما تراه أعينهم : هذا الإيمان المطلق الذي لا يكترث بسوط أو سهم أو نار . كيف السبيل إلى تدميره ووأده في قلوب أصحابه ؟ ما كان لهم على المؤمنين من سبيل، وما كان لهم بكل عتوهم غلبة على المستضعفين . ولقد بعث هذا الموقف في نفوسهم إحساسا خفيا بالتعاسة والضآلة والخوف.

ومدفوعين بما في داخلهم من يأس محموم، أطلقوا آخر ما في جعبتهم من سهام: الموت البشع . رُبطت ساقا ياسر إلى بعيرين وانطلق الحيوانان بكل قوتهما في اتجاهين مختلفين، وتمزقت أوصال ياسر بوحشية تذيب القلوب وتفتت الأكباد.

أما سمية فقد قتلت هي الأخرى بأسلوب أقبح وأبشع . جردها أبو جهل من ثيابها وطرحها أرضا .أمر عبيده أن يفتحوا ما بين ساقيها . غرس حربته في فرجها . طلب منها أن تكفر بما جاء به محمد .لم تكترث بقوله أو فعله . أصابته صلابتها بخبل محموم. ظل يطعنها في ملمس العفة من جسدها حتى نطقت بالشهادة وصعدت روحها إلى بارئها.

لم يبق أمامهم من آل ياسر سوي عمار . ظلوا يحرقونه بالنار حتى فقد صوابه فردد ما أملوا عليه: نال من النبي وذكر آلهتهم بخير . عندها أطلقوه . ذهب إلى النبي في حزن منكسر . حكى له ما حدث، قال : والله ما تُركت حتى نِلتُ منك وذكرت آلهتهم بخير . سأله النبي: فكيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان . قال النبي: فإن عادوا فعد . لقد أُكره وقلبه عامر بالإيمان.

وما أُبيح لعمار أُبيح لبقية المؤمنين . وكما يروى ابن إسحاق، سأل السعيد بن جبير،

15- نفس المرجع ، ص ٢٤٦ .

عبد الله بن عباس قال: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله من العذاب ما يُعذِّرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم والله. إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهُك من دون الله ؟ فيقول: نعم، حتى إن الجُعْل لَيَمُرُّ بهم فيقولون له: هذا الجُعْل إلهُك من دون الله، فيقول: نعم. افتداءً منهم مما يبلغون من جَهْده [16].

وكما هُزم أبو جهل أمام إيمان سمية، هُزم أمية بن خلف — المهول المخوف — أمام إيمان عبده بلال بن رباح . كان إذا حميت الظهيرة أمر بإخراج بلال إلى بطحاء مكة فيطرح على ظهره وتوضع على صدره صخرة هائلة، ويخبره السيد أنه سيظل هكذا حتى يموت بلهب الشمس القاتل أو بضرب السياط . أما إذا أراد الخلاص فكل ما عليه هو أن يعلن كفره بإله محمد . وكانت صيحة بلال من أثر العذاب — ورغم العذاب — تدوي في آذان جلاديه فتزلزلهم : واحد أحد . . أحد أحد . لن يحيد عن عبادة الله الواحد الأحد الذي لا إله غيره، حتى ولو مزقوا جسده إربا ورموا به لكواسر الوحوش وجوارح الطيور.

يقال إن ورقة بن نوفل كان يمر ببلال وهو يُعذب بذلك، وهو يقول : أحد أحد، فيقول أحد أحد والله يا بلال، ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بني جُمح، فيقول : أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا (أي لأجعلن قبره مزارا كمزار القديسين أستمطر عنده رحمة الله وأتبرك به وألوذ بجواره) [17].

ونستبعد حدوث هذه الرواية، بل ونؤكد استحالتها، ذلك لأن ورقة بن نوفل — كما ذكرنا من قبل — كان قد مات قبل أن يقوم النبي بالجهر بالدعوة . وهذا معناه أنه لم يكن على قيد الحياة في فترة تعذيب المشركين للمسلمين.

لم ينقذ بلالا من عذاب أمية بن خلف وعشيرته من بني جمح، سوى أبي بكر، وكانت داره هناك في بني جمح . رأي ما يفعلون ببلال، قال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟ حتى متى ؟

قال أمية: أنت الذي أفسدته، فأنقذه مما ترى.

قال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجْلَدُ منه، وأقوى على دينك أعْطِيكه.

قال: قد قبلت . وأخذ أبو بكر بلالا وأعتقه.

16- ابن هشام، جـ ١، ص ٣٤٢ .

17- نفس المرجع، ص ٣٤٠ .

ويروى الإخباريون أن أبا بكر أعتق ست رقاب غير بلال قبل أن يهاجر إلى المدينة: أعتق عامر بن فهيرة، وأم عُبيس. وزنِّيرة. والنهدية وبنتها، وجارية كان عمر بن الخطاب، قبل إسلامه، يعذبها لإسلامها حتى يعتريه الكلال فاشتراها أبو بكر وأعتقها.

يدعي البعض أن ثروة أبي بكر، التي بلغت حوالي أربعين ألف درهم، قد تناقصت إلى حد ملحوظ بسبب شرائه العبيد والإماء وعتقهم، فأصبحت خمسة آلاف درهم.

هذا رأي ضعيف ويجب ألا يؤخذ به. لقد حرر أبو بكر بلالاً بأن بادله بعبد آخر أعطاه لأمية بن خلف، أما الرقاب الست الباقية فما كان عتق أي منها ليزيد عن أربعمائة درهم. وهذا معناه أن كل ما دفعه أبو بكر لا يزيد عن الألفي درهم إلا قليلا. ولا يمكن أن يقال إن هذا هو السبب الرئيسي في تدهور حالته المادية. ورغم ذلك فقد تدهورت بالفعل، لا بسبب شراء العبيد وتحريرهم، ولكن لأن قريشا حاصرته وقاطعته وفعلت كل ما في وسعها كي تبور تجارته وينهار مركزه المالي فلا تقوم له بعد ذلك قائمة، وقد كان له في الدعوة إلى الإسلام دور ذو خطر.

لكن أبا بكر الذي دافع عن المستضعفين وحاول منع تعذيبهم، تعرض هو نفسه من قريش للإهانة والضرب. انتهز المشركون فرصة وجود أبي بكر في المسجد وجهره بالدعوة إلى الله وإلى رسوله، فحاصروه وانهالوا عليه ضربا وركلا، ويقال إنه وطئ وضرب ضربا شديدا [18].

ولا تكتفي قريش بما فعلت بأبي بكر في المسجد. لقد ربطوه هو وطلحة بن عبيد الله بالحبال، ورموهما في هجير الصحراء على أمل أن يهلكا. واستمر اضطهادهم لأبي بكر حتى فكر في ترك مكة، لولا أن أجاره ابن الدغنَّه سيد الأحابيش. ويقال إن الذي قرن أبا بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله في حبل— فكانا يسميان القرينين — هو نوفل بن خويلد بن أسد وكان من شياطين قريش. وقد قتل يوم بدر. قتله علي بن أبي طالب.

هكذا طالت أيدي المشركين رجالا حول النبي كان على رأسهم أبو بكر، ثم امتد أذاهم بعد ذلك إلى أول من جهر بالقرآن في مكة — بعد النبي — وهو عبد الله بن مسعود. ويروى ابن إسحاق أن أصحاب النبي اجتمعوا يوما فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يُسْمِعُهُموه. قال

عبد الله بن مسعود: أنا.

18- أبو زهرة، جـ ١، ص ٣١٢.

عبروا عن خشيتهم ٠ إنهم يريدون رجلا له عشيرة تمنعه من القوم إن إرادوه ٠ قال: دعوني فإن الله سيمنعني ٠

وغدا ابن مسعود حتى أتي المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام، ثم قرأ " بسم الله الرحمن الرحيم ٠ الرحمن علم القرآن " ٠ ثم استقبلها يقرؤها٠

وتأملوه، فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ ٠ ٠ إنه يتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربون وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثروا في وجهه ٠ فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون علىَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينَّهم بمثلها غدا، قالوا : لا، حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون[19]٠

محاولات إيذاء النبي: أصبحت لغة الحوار عند قريش هى لغة الإيذاء والتعذيب، وهى لغة العجز ٠ وفي يأسهم العاجز، وعجزهم المحموم إمتدت ألسنتهم وأيديهم كي تنال من النبي ٠ لقد طال الأذى كل من حوله ٠ لم يتبق سواه ٠ فلتمتد أيديهم إليه، وليكن بعدها ما يكون ٠

كان على رأس الكفر أبو جهل بن هشام المخزومي، وقد أظهر عداءه وأعلن بغضاءه في سفور أحمق مندفع ٠ رأي النبي يصلي يوما خلف المقام، فأشار إليه في غطرسة جاهلية وارتفع صوته كي يسمع الجميع: ألم أنهك عن هذا ؟

هذه العبارة وجهها الجاهلي الجاهل الجهول إلى النبي، وكأنه هو صاحب الأمر والنهى في من يصلي ومن لا يصلي ٠ونزل الوحي بقوله تعالى: " أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ٠ أرأيت إن كان على الهدي أو أمر بالتقوى ٠ أرأيت إن كذب وتولى ٠ ألم يعلم بأن الله يرى" (سورة العلق : ٩ — ١٤)٠

لم يكترث به النبي وداوم على الصلاة حيث اعتاد أن يصلي ٠ وما كان لأبي جهل أن يسكت على ذلك ٠ قال لأصحابه : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ – يريد هل يصلي ويسجد أمامكم — قالوا: نعم ٠ فقال: واللات والعزي لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن رقبته ولأُعفرن وجهه في التراب ٠ فجاء يوما فوجد رسول الله يصلي، فأقبل يريد أن يطأ رقبته، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه ٠ فقيل له: مالك ؟ فقال: إن بيني وبينه خندق من نار، وهولا وأجنحة [20]٠

19- ابن هشام، جـ ١، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ ٠

20- الصابوني، **صفوة التفاسير**، جـ ٢٠، ص ٨٠ ٠

من الواضح أنه كان للنبي هيبة. ولصلاته جلال. ولقوة إيمانه رهبة، فلم يستطع رأس الكفر أن يقترب. وعاد خائبا وكأنه قد أصيب في إرادته . كان انكساره أمام قومه ذلا لا يحتمله مثله من طواغيت الجاهلية . وبدلا من أن يتراجع ويعرف قدر نفسه في وجود النبي. سيطر عليه شيطان الكفر فأعلن على الملأ أنه قد نوى قتل محمد.

كان هذا — طبقا لمنطق فكره السقيم — هو طريق الخلاص، خلاص قريش من محمد ودعوته. قال لمن حوله: لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فَضَخْتُ به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .

أيَّد مشركو قريش أبا جهل، قالوا : والله ما نُسْلمك لشئ أبدا، فامض لما تريد . . وغدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد النبي احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما مُنْتَقِعا لونه (أي متغيرا) مرعوبا، قد يبست يداه على حجره . . وقامت إليه رجال قريش قالوا : ما لك يا أبا الحكم؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل . . فهمَّ بي أن يأكلني [21].

هذا الموقف، كسابقه، إن دل على شئ فإنما يدل على ضعف الكفر أمام قوة إيمان، واهتزاز الخواء العقائدي أمام ثبات اليقين الإيماني .

كان أبو جهل يعلم في قرارة نفسه أنه لا يستطيع، وأنه أعجز من أن يقدم على تنفيذ ما أعلن وقفز عجزه ويأسه من أعماقه فشلاً يديه فيبستا على الحجر، ثم تمثلا لخياله المعلول وحشا لو دنا خطوة لافترسه.

حاول عقبة بن أبي مُعَيْط أن ينجح فيما فشل فيه أبو جهل . انتظر النبي حتى جاء إلى حجر الكعبة . . يصلي . . ثم وثب فوضع ثوبه على عنق النبي فخنقه خنقا شديدا، لكن أبا بكر اندفع نحوه بكل قوته حتى أخذ بمنكبيه وأبعده عن النبي وهو يقول : " أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم".

في غزوة بدر، تم أسر عقبة بن أبي معيط، ولم يتردد النبي لحظة في إصدار الأمر بقتله . وسأله ابن أبي معيط : أتقتلني من بين سائر قريش ؟قال النبي: نعم . وكأن ابن أبي معيط قد نسي أنه هو نفسه قد حاول قتل النبي وهو يصلي في ساحة مسجد، لا وهو يقاتل في ساحة حرب ونزال . والتفت النبي إلى أصحابه، قال: أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام،فوضع رجله على عنقي، فما رفعها حتى ظننت أن عيني تسقطان.

21- ابن هشام ، جـ ١ ، ص ٣١٨ ـ ٣١٩ .

كان طبع النبي هو اللين والرحمة والمودة في دعوته إلى الله، طمعا في أن تلين قلوب من عبدوا الحجارة فيهتدوا . لكنهم استمروا في غيهم وإيذائهم وسفاهاتهم وقد طمعوا في لينه فظنوه ضعفا . كان خطأ فادحا يضاف إلى جملة أخطائهم . ولقد فاجأهم النبي يوما بما لم يتوقعوا أبداً أن يصدر عنه .

اجتمع أشراف قريش يوما في الحجر — كما يروى الطبرى — فذكروا النبي .. فبيناهم كذلك إذ طلع رسول الله فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفا بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول .. ثم مضي . فلما مر بهم الثانية غمزوه مثلها .. ثم مضي، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف فقال :

أتسمعون يا معشر قريش !! أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح!!

فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه الطير واقع، وحتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم راشدا ، فوالله ما كنت جهولا [٢٢].

وما قال به النبي، حدث : قُتل أغلب عتاة قريش وعلي رأسهم أبو جهل في معركة "بدر".

إسلام حمزة: لم يعد أبو جهل يردد " هلوسته" بأنه لابد وأن يقتل محمدا ويضع حدا "للفتنة " التي اتقدت جذوتها في مكة . تخاذلت نفسه وجبنت روحه أمام هيبة النبوة وسلطانها، فاكتفي بأن يفعل ما لا يقدم عليه إلا سفلة الرعاع كأن يلقي على النبي سلا شاة (أي ما يكون مع جنينها من القذر) وهو يصلي، أو أن يسُبَّه بصوت مرتفع ثم يمضي في طريقه أو يجلس متبجحا مع قومه.

وأتي هذا السلوك المبتذل من أبي جهل بنتيجة لا يتوقعها ولا يتوقعها أحد،ألا وهى إسلام حمزة بن عبد المطلب. ويروى ابن إسحاق ما حدث بقوله: مر أبو جهل برسول الله عند الصفا، فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره،فلم يكلمه رسول الله صلي الله عليه وسلم،ومولاة لعبد الله بن جُدعان .. في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة،فجلس معهم، فلم يلبث حمزة ابن عبد المطلب ..أن أقبل متوشحا قوسه راجعا من قنص (صيد) له ، وكان صاحب قَنَص يرميه ويخرج له،وكان إذا رجع من قَنَصِه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة.. وكان أعَزَّ فتى في قريش،وأشد شكيمة، فلما مرَّ بالمولاة، وقد رجع رسول الله إلى بيته، قالت

22- الطبري ، جـ١ ، ص ٥٤٨ .

لـه: يـا أبـا عُمـارة ٠لـو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم بن هشام! !وجده ههنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره،ثم انصرف عنه،ولم يكلمه محمد ٠٠

فاحـتمل حمـزة الغضـب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى، ولم يقف على أحد، مُعِدًا لأبـي جهـل — إذا لقيه — أن يوقع به ٠ فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم، فأقـبل نحـوه. حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجَه شجَّة منكرة، ثم قال: أتشـتمه ؟ فأنـا عـلى ديـنه أقـول مـا يقول، فرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعت ٠ فقامت رجال من بـني مخـزوم إلى حمـزة لينصـروا أبـا جهـل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عُمارة فإني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا ٠ ٠

فـلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله قد عَزَّ وامتنع وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه [٢٣].

أعلـن حمـزة إسـلامه فجأة — دون روية — أمام الملأ من قريش مناصرة لابن أخيه ٠ شج رأس أبـي جهـل أخذا بثأر محمد، وما كان له أن يقبل الضيم ويترك سيل الشتائم والسباب يـنهال عـلى رأس الـنبي سـواء كـان ذلـك مـن أبـي جهل أو غير أبي جهل ٠ بدأ بكبيرهم فضـربه بقوسـه وتحـداه أن ينازله لو استطاع ٠ جبُن رأس الكفر، تجنبا لملاقاة بطل قريش وفارسـها، إذ كان يعرف مقدما نتيجة هذا النزال، وتمادي في خنوعه فهدَّأ من تواثبوا حوله في محاولة للدفاع عنه٠

انصرف حمزة وقد هدأ غضبه ٠اختلى بنفسه وبدأ يفكر٠ ما هذا الذي قال ؟ما هذا الذي نطـق بـه؟ وكيف نطق هكذا فجأة،ومن الذي أنطقه؟ كانت إرادة السماء تعتمل في أعماق حمزة وهو لا يدري ٠كان شعاع من نور الله يتسرب إلى أعماقه المظلمة فيضيئ بعض جنباتها٠

وتملكـه صـراع لم يقـو، وهـو القوى، عل احتماله، فتوجه من فوره إلى النبي ٠ قال: يا ابـن أخـي، إني قد وقعت في أمر ولا أعرف المخرج منه ٠ ٠ فحدثني حديثا، فقد اشتهيت يـا ابـن أخـي أن تحدثـني ٠ فأقـبل رسول الله فذكره ووعظه، وخوفه وبشره، فألقى الله في قلـبه الإيمـان بمـا قـال رسـول الله ٠ فقـال : أشـهد أنـك لصـادق، فأظهـر يـا ابـن أخـي دينك، فوالله ما أحب أن لي ما أظلته السماء وأني على ديني الأول ٠ فكان حمزة ممن أعز به الدين[٢٤].

23- ابن هشام ، جـ ١ ، ص ٣١٢ ـ ٣١٣ ٠

24- أبو زهرة ، جـ١ ، ص ٣٢٩ ٠

- ٣ -

الهجرة إلى الحبشة

رأي النبي ما نزل بأصحابه من بلاء وما لاقوه من صنوف الفتنة والإهانة والعذاب ٠ وما كان بمقدورهم رد الإهانة بالإهانة، والتعذيب بالتعذيب، وما أمروا بقتال ، وما كان باستطاعتهم وهم قلة أن يفعلوا ٠ ولم يكن باستطاعة النبي أن يوفر لهم الحماية وأن يمنع عنهم السوء، فقد كان هو هو نفسه معرضا للإهانة والأذى ولولا حماية عمه أبي طالب له لناله من أذى قريش الكثير٠

ما كان أمام النبي إلا أن قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظْلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه٠

طلب منهم الهجرة إلى الحبشة، فلا وثنية فيها ولا نفوذ لقريش وملكها وأهلها يعبدون الله، فقد كانت الحبشة تدين بالمسيحية وهى دين لم ينكره الإسلام ٠ وذكر القرآن المسيح وأمه مريم وجعل لهما مكانا عَليًّا ٠ وهناك في أرض الحبشة، بعيدا عن وثنية قريش وطغيان سادتها، وفي ظل ملك عادل يعرف الله ويعرف ما الإيمان، كان باستطاعتهم أن يعبدوا الله في حرية كاملة؛ لا يخشون الفتنة ترغيبا كانت أو تهديدا٠

أول المهاجرين: يروى الطبري أن الذين خرجوا للهجرة كانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة، خرجوا متسللين سرا،حتى انتهوا إلى الشعيبة (ميناء مكة قديما على البحر الأحمر)؛ منهم الراكب والماشي، ووفق الله للمسلمين ساعة جاءوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار،وكان مخْرَجَهم في رجب في السنة الخامسة من حين نُبئ رسول الله، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر،حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدا٠

هؤلاء الذين هاجروا من الرجال والنساء هم: عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت النبي،وأبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة معه امرأته سهْلة بنت سهيل بن عمرو؛ والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، ومُصعب بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار؛ وعبد الرحمن بن عوف بن الحارث بن زهرة، وأبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم معه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عمر بن مخزوم؛ وعثمان بن مظعون الجُمَحىِّ، وعامر بن ربيعة العنْزي معه امرأته ليلي بنت أبي جَثْمة؛ وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم بن عبد العزى العامري، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس.

وسهيل بن بيضاء من بني الحارث بن فِهْر، وعبد الله بن مسعود حليف بني زهرة[٢٥].

وهؤلاء اثني عشر رجلا، لا أحد عشر . وتختلف أقوال الرواة فيما يختص بعدد أول من هاجر من الرجال، فهناك من يقول : كانوا عشرة ومنهم من يقول : أحد عشر، ومنهم من يقول: اثني عشر.

استمرت هجرة المسلمين على دفعات صغيرة إلى الحبشة، حتى وصل عدد الذين هاجروا إليها من الرجال اثنين وثمانين رجلا، بالإضافة إلى الأبناء الذين خرجوا بهم صغارا أو الذين ولدوا بها.

أبو بكر يحاول الهجرة: حتى أبو بكر، الصديق الصدوق للنبي، ضاقت به السبل وتظاهرت عليه قريش، فبارت تجارته وتدهور مركزه المالي . هو أيضا استأذن النبي في الهجرة، وأذن له النبي، فخرج مهاجرا إلى الحبشة، حتى إذا كان على مسيرة يوم أو يومين من مكة قابله ابن الدغنّة سيد الأحابيش الذي طلب منه أن يعود إلى مكة على أن يكون في جواره . هذا معناه أن ابن الدغنة سيوفر لأبي بكر الأمن والحماية فلا تستطيع قريش إيذاءه . وقد عدد ابن الدغنة بعض مناقب أبي بكر التي من أجلها يجب ألا تخسره مكة : "والله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع فإنك في جواري " . وأعلن ابن الدغنة على ملأ قريش أنه أجار أبا بكر فلا يعرض له أحد بسوء.

لم ينعم أبو بكر طويلا بهذا الجوار، إذ قام هو نفسه برد الجوار على ابن الدغنة . والخبر كما نقله الإمام محمد أبو زهرة يقول : أقام أبو بكر في منزله، وكان له مسجد عند باب داره فكان يصلي فيه، وكان رقيقا، إذا قرأ القرآن استبكى، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيبته، فمشي رجال من قريش إلى ابن الدغنة، فقالوا: يا ابن الدغنة إنك لم تجر هذا الرجل لتؤذينا، إنه رجل إذا صلي وقرأ ما جاء به محمد يرق، وله هيبة، ونحن نتخوف منه على صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتنهم فأْته فمره أن يدخل بيته فليصنع ما شاء .

فمشي ابن الدغنة إليه، فقال: يا أبا بكر إني لم أجرك لتؤذي قومك، وقد كرهوا مكانك الذي أنت به وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت، قال أبو بكر: أوْ أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله. قال: فاردد على جواري . قال: قد رددته عليك . فقام ابن الدغنة، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد رد على جواري، فشأنكم بصاحبكم[٢٦].

25- الطبري، جـ١، ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧ .

26- أبو زهرة، جـ ١، ص ٣٦ .

رفض أبو بكر الجوار المشروط، وقد رأى فيما اشترطه ابن الدغنة قهرا، وفضل الجهر بصلاته وبتلاوة القرآن، مهما كان من إيذاء قريش له ٠ كان يشعر في أعماقه أنه في جوار الله الذي لا يطاوله جوار بشر، وأن الله لن يتخلى عنه٠

تحليل لأسباب الهجرة: يحاول مونتجمري وُت Montgomery Watt ، في كتابه **محمد في مكة**، أن يحلل أسباب الهجرة إلى الحبشة وأن يبيِّن ما وراءها من دوافع، ويبدأ بالتساؤل: لماذا هاجر عدد كبير من المسلمين إلى الحبشة؟ ثم يقدم عدة إجابات ويناقش مدي مصداقيتها:

١- الإجابة الأولي المحتملة هى أنهم ذهبوا إلى الحبشة لتجنب الاضطهاد الذي فرض عليهم في مكة ٠ ويعترض مونتجمري وُت على هذه الإجابة قائلا : هناك اعتراض مفحم على هذه الإجابة: إذا كان المسلمون قد ذهبوا إلى الحبشة لمجرد تجنب الاضطهاد، فلماذا ظل بعضهم في الحبشة حتى العام السابع الهجري، بينما كان بإمكانهم اللحاق بمحمد في "المدينة" وهم آمنون؟ لا يوجد ما يدل على أن محمدا، بعد هجرته إلى المدينة (يثرب)، قد أمرهم أن يظلوا في الحبشة حتى يوفر لهم ما يناسبهم من أسباب المعيشة، ولو كان قد طلب منهم ذلك لذكره الرواة وكتاب التراث ٠ إن أمرا كهذا ما كان ليفوتهم بكل تأكيد ٠

والإجابة على السؤال: لماذا ظلوا في الحبشة حتى العام السابع الهجري، تشير في مضمونها إلى أن المهاجرين كان لديهم سبب آخر بخلاف الاضطهاد، ومن المحتمل أنه كان أكثر أهمية٠

٢- هناك سبب آخر محتمل للهجرة اقترحه بعض الدارسين الغربيين : لو أن المسلمين مكثوا في مكة معرضين لضغط أسرهم، خصوصا أبناء الأسر الثرية، فلربما ارتدوا وأنكروا دينهم الجديد٠

هذا السبب الثاني ليس أكثر إقناعا من السبب الأول، ذلك لأن بعض هؤلاء الذين هاجروا كانوا من النوع الصامد القوى، وهناك احتمال كبير أنه لم يكن من السهل إغوائهم كي يرتدوا عن عقيدتهم ٠ ألم يكن من الأفضل أن يظلوا في مكة كي يكونوا مثلا وقدوة تلهم الآخرين ؟

٣- سبب ثالث محتمل وهو أنهم ذهبوا إلى الحبشة كي يعملوا بالتجارة ٠ وحيث أن بعضهم عاش هناك قرابة اثنتي عشر عاما، فإنه كان لابد وأن يكون لهم مصدر رزق يعيشون منه ٠ هذا المصدر بالتأكيد هو نوع ما من أنواع المعاملات التجارية٠ ٠

لكن هذا السبب في حد ذاته ليس كافيا، إلا إذا افترضنا أنهم يئسوا تماما من الإصلاح

الديني في مكة، وهذا غير محتمل. لذلك علينا أن نبحث عن أسباب أخرى.

٤- هل من الممكن أن تكون هذه الهجرة خطة بارعة لمحمد ؟ هل كان يأمل في الحصول على مساعدة عسكرية من الحبشة ؟ . . أم أن محمدا كان يأمل في أن يجعل من الحبشة قاعدة لتهديد تجارة قريش، كما فعل فيما بعد وهو في المدينة؟ أم أنه كان يحاول أن يجد طريقا تجاريا بديلا إلى الإمبراطورية البيزنطية، بعيدا عن نفوذ أهل مكة، وبذلك يكسر احتكار الرأسمالية القرشية؟ . .

كل هذه الاحتمالات رغم وجاهتها لا تشرح ولا تفسر بقاء المسلمين هذه المدة الطويلة في الحبشة.

٥- ويضيف مونتجمري وُت أنه من الصعب عدم ذكر سبب خامس له ثقل كبير في ميزان الأحداث وهو : أنه كان هناك انقسام حاد في الرأي في المجتمع الإسلامي بداية نشأته . كان عثمان بن مظعون — كما ذكر ابن هشام — على رأس المجموعة الأولى من المهاجرين . وكان في الجاهلية — كما يشير ابن سعد — يتنسك ويتجنب الخمر . ولقد حاول أن يضيف إلى الإسلام سمة تنسكية، ولم يوافق محمد على ما ارتآه عثمان.

وعن تنسك عثمان بن مظعون يروى ابن سعد في **الطبقات الكبرى**: أن عثمان بن مظعون اتخذ بيتا فقعد يتعبد فيه فبلغ ذلك النبي، صلي الله عليه وسلم،فأتاه فأخذ بعضادتى باب البيت الذي هو فيه فقال : يا عثمان إن الله لم يبعثني بالرهبانية، مرتين أو ثلاثا، وإن خير الدين عند الله الحنيفية السمحة [٢٧].

ويواصل مونتجمري وُت شرح وجهة النظر السابقة بقوله: لقد أتي عثمان إلى النبي ومعه أربع أصدقاء، رجال على قدر من الأهمية، وكان هو في مقدمتهم . وعلى ذلك فمن المؤكد أنه كان قائد مجموعة داخل المجتمع الإسلامي يمكن اعتبارها منافسة للمجموعة التي يقودها أبو بكر . ويلمح " وُت " إلى وجود بعض الخلافات بين المسلمين : فخالد بن سعيد (من عبد شمس)، على سبيل المثال، كان من المسلمين الأول، ويقال إنه أول من رحل إلى الحبشة ولم يغادرها إلى المدينة حتى غزوة خيبر، ويبدو أنه بعد موت محمد أظهر بعض العداء لأبي بكر . وهذه دلالة على أنه كان هناك شقاق . . مجموعة من المسلمين تعارض نفوذ أبي بكر .

لكن مونتجمري وُت يستدرك، وكأنه قد أدرك أن افتراضه هذا غير مقنع، يقول: إن المصالحة التي تمت بسرعة ملحوظة مع عثمان والآخرين — الذين عادوا إلى مكة — قبل

27- ابن سعد ، جـ ٣ ، ص ٣٩٥ .

الهجـرة إلى المدينـة، تشـير إلى أنـه لم تكـن هـناك قطـيعة كاملة ٠ ٠ وبالتأكيد انتهى الأمر بقبول الوضع الخاص بأبي بكر ٠ ٠ ولقد حاربوا بشجاعة في معركة بدر[٢٨].

تشـير كـارين أرمسـترونج إلى موضوع الخلاف بين المسلمين الذي افترضه بعض الباحثين الغربـيين واعتـبروه سـببا من أسباب الهجرة، وترد عليه بقولها : أوحى هؤلاء الباحثون أن قائمـة أسماء المهاجرين تشي باحتمال وجود خلاف داخل جماعة المسلمين، ذلك لأن بعض المهاجـرين مـن أمـثال عـثمان بـن مظعـون وعُبـيد الله بـن جحـش – الذين كانوا قد وجدوا بأنفسـهم طـريقهم إلى الوحدانـية — ربمـا شـعروا بـالغيرة من التأثير الذي كان يمارسه قادم جديـد نسـبيا مـثل أبـي بكـر عـلى محمـد ٠ لكـن، إن كانـت تلـك الخلافـات هى الدافع إلى الهجـرة، فلابد وأنها لم تكن جدية، فرغم أن عبيد الله تحول إلى المسيحية أثناء وجوده في الحبشـة، فقـد عـاد عـثمان مسـرعا إلى مكـة حالمـا سـاد الأمـن واسـتمر في ولائـه لمحمد وأبي بكر[٢٩].

ونـرى أن الافتراضـات الـتي أثارها مونتجمري وُت، وترددت في كتابات بعض المؤرخين في الغـرب، لا تـزيد عن كونها مجرد افتراضات لا صلة لها بواقع من هاجر من المسلمين إلى أرض الحبشة ٠

لقـد كـانوا قلة ، تركوا مكة خفية كي يحافظوا على بقائهم ونقائهم بعيدا عن أوثان مكة وفسـوق سـادتها ٠ لقـد فـروا بدينـهم إلى حيـث الطمأنينـة والأمـان، ولم يحدث أبدا طوال إقامـتهم في أرض الحبشـة أن هـاجموا أو اسـتولوا على تجارة لمكة، كما أنه لم يجل بخاطر أي مـن المهاجـرين أن النجاشـي سـيقدم للمسـلمين مساعدة عسكرية، بل أن هذه الفكرة لم تجـل بخاطـر الـنبي نفسه، ولو راودته لباح بها لأقرب المقربين إليه من المهاجرين وقد كان بينهم زوج ابنته عثمان بن عفان، وابن عمه جعفر بن أبي طالب٠

كمـا أن افـتراض وجـود خـلاف بـين عـثمان بـن مظعـون و "جماعـته" وأبـي بكـر و"جماعـته"، افتراض خاطئ تماما، ومصداقيته منعدمة بصورة مطلقة ٠ فلو حدث مثل هذا الخـلاف في الواقـع — كمـا يدعـي بعـض المتشـككين — هـل كـان من الممكن أن تدور بخلد أبـي بكر، ولو للحظة واحدة، فكرة أن يهاجر هو أيضا إلي الحبشة حيث يوجد "خصمه" عـثمان بـن مظعـون؟ هـذه الافتراضـات وغيرهـا ابتدعـتها العقلية الغربية كي تظهر الإسلام مشوها منذ بداياته الأولي٠

28- Montgomery Watt , **Muhammad at Mecca** , pp . 114 - 117 .

29- كارين أرمسترونج ، ص ١٨٦ .

هجـرة واحدة لا هجرتان : يرى بعض الكتاب، من بينهم الدكتور شوقي ضيف، أنه كانـت هـناك هجـرتان إلى الحبشـة. الأولى في رجـب سـنة خمسـة مـن المبعـث وكـان عدد المهاجـرين أحـد عشر رجلا وقيل بل اثني عشر، ومع أربعة رجال منهم — وقيل بل خمسة — زوجـاتهم . وبعـد ثلاثـة أشـهر مـن هجرتهم جاءتهم أخبار كاذبة بأن قريشا قد أسلمت فعـادوا إلى مكـة حيـث اكتشـفوا أن قريشـا مـا تزال على كفرها، وتم إيذاؤهم إيذاءً شديدا، فـرجع نفـر مـنهم في ثلاثة وثمانين من الصحابة إلى الحبشة فرارا بدينهم من إيذاء قريش . وكـان مـن المهاجـرين في هـذه الهجـرة الثانية جعفر بن أبي طالب[٣٠]. ويقرر الدكتور محمد حسين هيكل، هو أيضا، أن المسلمين خرجوا في هجرتين [٣١].

ونعـتقد أن هـيكل وضـيف قد نحا كل منهما منحى ابن سعد في **الطبقات الكبرى** حيث يـتحدث عـن " ذكـر الهجـرة الثانـية إلى أرض الحبشة"، ويقول : لما قدم أصحاب النبي، مكـة مـن الهجرة الأولي (كانوا قد خرجوا في رجب سنة خمس فأقاموا شعبان وشهر رمضان وكانت السجدة في شهر رمضان وقدموا في شوال سنة خمس) اشتد عليهم قومهم وسَطَت بهم عشـائرهم ولقوا منهم أذى شديدا فأذن لهم رسول الله، صلي الله عليه وسلم، في الخروج إلى أرض الحبشـة مـرة ثانية . . وكان عدد من خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجـلا، ومـن النسـاء إحـدى عشـرة امـرأة قرشـية، وسـبع غرائـب، فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشي بأحسن جوار[٣٢].

هـذا الـرأي القـائل بأنـه كانـت هناك هجرتان إلى الحبشة، لا هجرة واحدة، كان محل تسـاؤل ونقـاش . مونـتجمري وُت، عـلى سـبيل المثال ، يرفض هذا الرأي، والسبب الذي يقدمـه هـو أن ابـن إسـحاق، كمـا يـروى عنه ابن هشام والطبري، لا يذكر أنه كانت هناك هجـرتان، إنمـا يقـول كـان أول مـن خـرج مـن المسـلمين مـن بـني أمـية بـن عـبد شمـس: عـثمان بـن عفـان بن أبي العاص بن أمية، معه امرأته رقية بنت رسول الله . ."، ويعطي قائمـة بأسمـاء من هاجروا معه، وهم عشرة رجال كان عليهم عثمان بن مظعون . . ثم خرج جعفـر بـن أبـي طالـب رضي الله عنه، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة فكانوا بهـا، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه . . فكان جميع من لحـق بـأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين — سوي أبنائهم الذين خرجوا صغارا وولدوا

30- شوقي ضيف، ص ٩٩ .
31- هيكل، ص ١٣٥ .
32- ابن سعد، جـ ١، ص ٢٠٧ .

بها — ثلاثة وثمانين رجلا، إن كان معهم عمار بن ياسر[٣٣].

ولا يخرج الطبري عن هذا النهج. فهو لا يشير إلى هجرة أولي ثم إلى هجرة ثانية. بل يكتفي بالقول إن الهجرة إلى الحبشة كانت أول هجرة في الإسلام، ثم يذكر ما قاله ابن إسحاق وما رواه ابن هشام[٣٤].

هذا معناه أنه لم تكن هناك مجموعتان كبيرتان سافرت كل منهما على حدة، لكن كان هناك عدد من المجموعات الصغيرة التي توالت هجرتها . وعلى هذا الأساس يمكن القول إنه كان هناك دفق متواصل من المهاجرين استمر لعدة سنين، ولم تكن مجموعتان ابتدأت وانتهت بهما الهجرة إلى الحبشة.

وعندما سمع هؤلاء المهاجرين إلى الحبشة بهجرة النبي إلى يثرب (المدينة)، رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا، ومن النساء ثماني نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحُبس بمكة سبعة نفر، وشهد بدر منهم أربعة وعشرون رجلا.

في شهر ربيع الأول سنة سبع من الهجرة إلى المدينة، كتب النبي إلى النجاشي كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام، ويطلب منه أن يبعث إليه من بقي عنده من أصحابه، ففعل وحملهم في سفينتين . وعندما وصلوا المدينة وجدوا النبي وقد فتح خيبر، فكلم النبي المسلمين أن يدخلوهم في سُهمانهم، ففعلوا [٣٥].

أصحاب الهجرتين : لكن هناك من قاموا بالفعل بهجرتين، لكنهما لم تكونا إلى الحبشة، أولئك هم الذين هاجروا إلى الحبشة لفترة قصيرة وعادوا إلى مكة، ثم هاجروا مع النبي من مكة إلى المدينة . هذا ما جعلهم يتمسكون بحق أنهم من أصحاب الهجرتين.

وهناك مجموعة أخرى كانت تتمسك بنفس الحق — أي أنهم من أصحاب الهجرتين — وهؤلاء هم الذين هاجروا من مكة إلى الحبشة ثم من الحبشة إلى المدينة.

خطاب موضوع : يشير الإمام محمد أبو زهرة إلى كتاب أرسله النبي إلى النجاشي يوصيه فيه بالمهاجرين إلى الحبشة ويدعوه إلى الإسلام وترك التجبر وقبول النصيحة.

وهو خطاب — في رأينا يرفضه المنطق، ولا يمكن أن يكون النبي قد أرسله في تلك الآونة . هذا هو نص الخطاب:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة: سلام

33- ابن هشام، جـ١، ص ٣٤٥ وما بعدها .
34- الطبري، جـ١، ص ٥٤٧ .
35- ابن سعد، جـ١، ص ٢٠٨ .

عليك. فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة ٠ ٠ وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له. والموالاة على طاعته، وأن **تتبعني** فتؤمن بي وبالذي جاءني. فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرا، ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاءوك فأقرهم، **ودع التجبر**، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحته، والسلام على من اتبع الهدي٠

ويدعي الإمام محمد أبو زهرة أن النجاشي قد استجاب لدعائه. **وآمن** بمحمد ورسالته، وقد أجاب دعوة النبي عليه الصلاة والسلام إلى الإسلام وكتب إليه عليه الصلاة والسلام يقول، **بعد المقدمة**:

فقد بلغني كتابك يا رسول الله، فيما ذكرت من أمر عيسى. فورب السماء والأرض إن عيسى عليه السلام ما يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صدقا ومصدقا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وأرسلت إليك بأريحا بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت آتيك فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقول حق [٣٦]٠

نعتقد أن الخطاب إلى النجاشي ورد النجاشي عليه يخلوان من المصداقية ولا نعرف كيف قبل ولم يناقش مصداقية ما جاء بهما عالم متبحر ومفكر رفيع المستوي مثل الإمام محمد أبو زهرة ٠ ويوجد من الأسباب المنطقية ما يدعونا إلى إنكارهما :

أولا: أن النبي وأتباعه كانوا يعانون حالة من الضعف والاضطهاد لا تسمح لهم إلا بالتفكير في أمن المعذبين منهم وإيجاد ملاذ آمن لهم٠

ثانيا: النبي نفسه كان مضطهدا من قومه، يهينونهه ويعاملونه باستخفاف وازدراء، فكيف وهو في هذه الحالة من الضعف والمهانة وتكذيب قومه له يرسل خطابا لأحد الملوك يطلب منه الإيمان بما أوحي إليه؟ إذا كان قومه لم يؤمنوا به وهم يعرفونه جيدا، فكيف يؤمن به من لم يعرفه لمجرد أنه أرسل إليه خطابا ؟

ثالثا: من غير المعقول أن يرسل النبي أصحابه كي يعيشوا في حماية النجاشي ويأمنوا على أنفسهم، ثم يأمره بأن يدع التجبر ويقبل النصح؟ إن مجرد استخدام عبارة "دع التجبر" فيه إثارة للاستفزاز والعداء٠

---

[٣٦] أبو زهرة، جـ١، ٣٦٢، ٣٦٣ ٠

رابعا: إذا كان النجاشي قد أسلم بالفعل. كما ورد في نص الخطاب. فلماذا لم يرسل إلى النبي جيشا يخلصه مما هو فيه من بلاء ويعينه على جبروت قريش؟ ألم يؤمن به نبيا. كما جاء في الخطاب ؟ إذن، لماذا يترك النبي الذي آمن به مضطهدا مستضعفا ولا يسرع إلى نجدته إن كان حقا قد اعتنق الإسلام؟

خامسا: وهذا هو الأهم، إذا كان النبي قد أرسل إلى النجاشي خطابا من مكة يدعوه إلى الإسلام وأسلم النجاشي بالفعل — كما هو موجود في نص الخطاب — فلماذا أرسل النبي وهو في المدينة خطابا إلى النجاشي في شهر ربيع الأول سنة سبع من الهجرة [٣٧] يدعوه فيه إلى الإسلام؟

هل معنى هذا الخطاب الثاني المرسل من المدينة — مع افتراض صحة الخطاب الأول المرسل من مكة — أن النجاشي بعد أن آمن كفر أو ارتد عن الإسلام وأعلن ذلك فكتب إليه النبي ثانية يدعوه إلى الإسلام ويطلب منه أن يهتدي ؟ هذا بالطبع افتراض غير منطقي، وبناء عليه فهو مرفوض.

أما ما يدعيه الإمام محمد أبو زهرة من أن النجاشي أرسل ابنه في وفد من الحبشة للقاء النبي، وبيان الخضوع لطاعة الله ورسوله، وقد قام النبي بخدمتهم بنفسه، فإن هذا مجرد ادعاء لا صلة له بواقع الأحداث لأنه لم يحدث أصلا . الإمام أبو زهرة ينقل عن البيهقي : " قدم وفد النجاشي على رسول الله صلي الله تعالي عليه وسلم، فقام يخدمهم عليه الصلاة والسلام، فقال أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله، فقال إنهم كانوا لأصحابي مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم"[٣٨] . ونسي الإمام — ربما سهوا — أن هذا لم يحدث في مكة، بل حدث فيما بعد في المدينة.

قريش تطارد المهاجرين إلى الحبشة: ليس من الواضح تماما ذلك السبب الذي دفع قريشا كي تطارد تلك المجموعة القليلة التي هاجرت إلي الحبشة، بدلا من أن تشكر "هبل" — كما تقول بيتي كيلين Betty Kelen – أن خلصها منهم . كانت الحبشة مركزا تجاريا لتوزيع الثروات الأفريقية من عاج وقردة وطواويس ومعادن وأحجار كريمة، وكانت كلها تمر عبر مكة إلى عشاق الترف في فارس وبيزنطة . وربما أصاب قريش الفزع من أن يمسك أتباع محمد بهذا الخيط الذهبي في أيديهم [٣٩]، وبذلك تحرم قريش من أحد مصادر ثروتها.

37- ابن سعد ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ .

38- أبو زهرة ، جـ ١، ص ٣٦٣ .

39- Betty Kelen . p. 71.

وربما خشي جبابرة مكة أن يتكاثر المسلمون في الحبشة، وأن ينجحوا في نشر تعاليم دينهم هناك، وكسب عدد قد لا يستهان به من رجال الحبشة، وبذلك يشكلون قوة تساند محمدا، ويصبحون خطرا يهدد سلامة قريش وأمنها واستقرارها.

لذلك أرسلوا إلى النجاشي رجلا من أشد رجال قريش خسَّة ولؤما، ذلك عمرو بن العاص الذي كان يجد لذة في إيذاء المسلمين والسخرية منهم، ومتعة في كتابة قصائد يهجو بها النبي ويحط من قدر رسالته . وفي صحبته أرسلوا عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وحملوهما هدايا وافرة للنجاشي وبطارقته.

التقى الرجلان بالبطارقة، وقدما الهدايا بسخاء، ومع الهدايا كل ما يقدر عليه لؤم ابن العاص ووضاعته من نفاق ومعسول كلام . لابد وأن يكسبهم إلى جانبه حتى إذا ما التقي بالنجاشي للوقيعة والإيقاع بالمهاجرين، لا يعترض من البطارقة أحد: صور لهم المهاجرين على أنهم غِلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، وبدلا من أن يعتنقوا النصرانية — دين البلد الذي هاجروا إليه — جاءوا بدين مبتدع لا يعرف أحد عنه شيئا . وعلى ذلك فهم بذور فتنة يجب أن تُجتث، أي يجب القضاء عليها قبل أن تصبح خطرا مدمرا . من أجل هذا جاء هو وصاحبه وقد كلفهما أشراف قومهما ألاَّ يعودا إلا ومعهما هذا الجمع المارق، كي يتم تأديبهم وإعادتهم ثانية إلى دين آبائهم الذي كفروا به.

إن عمرو وصاحبه لا يريدان من البطارقة سوي تأييد موقفهما في حضرة الملك، وذلك بأن يشيروا أن يسلمهما هؤلاء الذين هاجروا إليه . ووافق البطارقة.

هكذا نجح اللئيم ، عمرو بن العاص، في أول خطوة خطاها.

كانت خطوة عمرو بن العاص التالية هى أن يقنع الملك، كما أقنع البطارقة . لكن لؤمه هذه المرة تبدي ضئيلا، حقيرا، وضيعا، مهانا . تحدث اللئيم أمام الملك عن المارقين أصحاب الدين "البدعة " الذي لا يعرفه أحد ، ورجاه أن يأمر بردهم إلى قومهم، وكما يقول الرواة، أيده البطارقة دون تردد لأنهم كانوا قد ارتشوا.

هنا غضب النجاشي، لكن غضبه لم يفقده توازنه . كان ملكا عادلا . لقد استمع إلى أحد الطرفين، ولكي يصدر حكما غير جائر كان لابد وأن يستمع إلى الطرف الآخر . هذا ما كان يخشاه اللئيم وصاحبه.

مثل المسلمون أمام الملك وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب . سألهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟

كان الذي تحدث هو جعفر بن أبي طالب. قال في اعتزاز المؤمن وثقته المطلقة في خالقه:

يـا أيها الملك. كنا قوما أهل جاهلية. نعبد الأصنام. ونأكل الميتة. ونأتي الفواحش. ونقطع الأرحـام ، ونسـئ الجـوار، ويأكل القوى منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسـولا مـنا نعـرف نسـبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعا إلى الله لنوحده. ونعبده. ونَخْلعَ ما كـنا نعـبد نحـن وآباؤنـا مـن دونـه مـن الحجـارة والأوثـان، فأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانـة، وصـلة الـرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء،ونهانا عن الفواحش، وقـول الـزور، وأكـل مـال اليتيم ، وقذْف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا، و أمرنا بالصلاة والزكاة والصيام[٤٠].

وأشـار جعفـر إلى ظلم قومهم لهم وتعذيبهم ومحاولة فتنتهم عن دينهم ليردوهم إلى عبادة الأوثـان، وأكـد أنهـم اخـتاروا الهجـرة، راضـين مستبشـرين، إلى بـلاد النجاشـي لأنه ملك لا يُظـلم عـنده أحـد . وتلا جعفر على النجاشي — حسب طلبه — بعض آيات من القرآن، يقال إن النجاشي تأثر بها ولم ينكر صدق ما جاء بها.

هكذا استمع الملك .وبعد أن استمع ،فكر وتدبر، ثم أصدر حكمه: والله لا أسلمهم إليكما.

خـاب مكـر الخسـيس اللئـيم، عمـرو بـن العـاص، لكـن لؤمـه الذي لا يجاري دفعه إلى المحاولـة مـرة أخـرى . قـال في خسـة متأصـلة : والله لآتينـه غـدا عـنهم بما أستأصل به خضراءهم ، أي بما يقضي عليهم أجمعين.

ولم يسـتطع رفـيقه عـبد الله بـن أبي ربيعة — وكان أتقى الرجلين — أن يجاريه في هذه الخسـة المتدنية، قال : لا تفعل، فإن لهم أرحاما وإن كانوا خالفونا . لكن الوضيع كان قد اتخذ قراره: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد.

وذهب بمكره إلى الملك الذي قرر أن يستمع بنفسه إلى قولهم كي يتأكد من صدق ما ادعاه القرشـي . وثانـية تكـلم جعفـر بـن أبـي طالب، قال: نقول في عيسي ابن مريم ما جاءنا به النبي: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى العذراء مريم.

لم يجـد النجاشـي في قـول جعفر ما يدينهم به، فلم يتردد في أن يصدر حكمه وهو يشير في اطمئنان كامل إلى المسلمين : اذهبوا فأنتم آمنون .

كانـت لطمـة لا نعـرف كـيف تحملها اللئيم عمرو بن العاص . لكن يبدو أن جذور الشر الضاربة في أعماقه العفنة كان من الممكن أن تتحمل أي شئ.

ويعلق الأستاذ أحمد أمين على مـا قاله جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي بأنه قصة يغلب الظن أنها موضوعة،بدليل أن الصيام ورد فيها،وهو لم يشرع إلا بعد الهجرة إلى الحبشة[٤١].

40- ابن هشام ، جـ ١ ، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

41- أحمد أمين ، ص ١١٩٠

إسلام عمر : صمد محمد في مكة وحوله قلة من المؤمنين الحريصين على بقاء دعوته وانتشارها مهما كلفهم الأمر، وتضاءل دور أبي جهل. رغم شراسته، في عدائه للنبي، بعد أن شج حمزة رأسه.

هنا يبرز دور عمر . لقد قرر أن يقوم هو بما لم ينجح أبو جهل في القيام به : أن يقتل محمدا . لكنه لن يقتله بحجر يلقيه فوق رأسه، أو بثوب أو بحبل يلفه حول عنقه . لا . سيقتله بالسيف . هكذا قر قرار عمر.

لكن عمر، في جاهليته، رغم عنفه وسكره وشدة إيذائه للمسلمين، كان يتمتع برقة لا تظهر إلا نادرا وفي لحظات خاطفة، ثم تختفي كي يسيطر عليه من جديد تجهمه وعنفه وقسوته . يقول مارتن لينجز Martin Lings : كان عمر في تلك الآونة في السادسة والعشرين من عمره، قوى الشكيمة وليس من السهل كبح جماحه، لكنه على عكس أبي جهل كان يتسم بالتقوى، وربما كان هذا هو السبب الرئيسي الذي جعله يعارض الدين الجديد . لقد نشّأه الخطاب على تقديس الكعبة وكل ما يتصل بآلهتها.

وتبدو رقة عمر في موقف قصير سريع لم يستغرق سوي لحظات ، ولكن دلالته ما كانت لتخفى على الروح الشفافه والنفس اللماحة والعين الفاحصة.

تروى أم عبد الله بنت أبي حَثْمة، وهي في طريقها مع زوجها للهجرة إلى أرض الحبشة، وقد ذهب زوجها عامر لقضاء بعض الحاجات، أن عمر بن الخطاب أقبل حتى وقف عليها، وهو ما يزال على شركه، وكانوا يلقون منه البلاء أذى وشدة . قال لها عمر: إنه الانطلاق يا أم عبد الله.

قالت: نعم،والله لنخرجن في أرض الله،آذيتمونا وقهرتمونا،حتى يجعل الله لنا مخرجا.

قال لها عمر : صحبكم الله.

وتعلق أم عبد الله على الموقف بقولها : ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه — فيما أري — خروجنا . قالت لزوجها عندما عاد بحاجته : يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا.

قال : أطمعت في إسلامه ؟

قالت : نعم.

قال : فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب.

نطق زوجها بهذه الكلمات يأسا منه لما كان يرى من غلظة عمر وقسوته على الإسلام[٤٢].

---

42 - ابن هشام ، جـ ١ ، ص ٣٦٥ .

وكانت أم عبد الله أنفذ بصيرة من زوجها، إذ بعدها — بوقت لم يطل — أسلم عمر ٠ لكن الأمر المثير للدهشة هو أنه لم يرد بخاطر عمر أبدا أنه قد تأتي لحظة يعتنق فيها الإسلام، مما يدل على وجود أمور قدرية لا دخل فيها لإرادة الإنسان أو نواياه٠

خرج عمر في إحدى نوبات غضبه الجامح كي يقتل محمدا، ذلك الذي فرَّق قريشا وأهان آلهتها٠وفي سبيل آلهة قريش كان لابد وأن يهون كل شئ حتى مقتل محمد وما ينتج عنه٠ ما حمل محمد سيفا يوما، أبدا ما هدد بالسيف أحد، قتله إذن ليس بالأمر العسير، ضربة واحدة بسيف عمر وبكل عنفوانه وتكون نهاية ما بدأ٠

أما عن حمزة، وكان ابن الخطاب يعرف جيدا من هو حمزة، فليبارزه عمر إذا ما تعرض له دفاعا عن محمد، وليقتله عمر أو فليقتل هو عمر ٠ في ثورة الغضب الأعمى ما عاد يهم٠

خرج عمر متقلدا سيفه والغضب شرر في عينيه ٠ كان من السهل على من يراه أن يدرك أنه ما خرج لخير ٠ أوقفه رجل من بني زهرة — نُعَيم بن عبد الله — كان قد أسلم، سأله: إلى أين يا عمر؟

قال : أريد أن أقتل محمدا ! !

لقد حدد هدفه، وهو مسرع إليه٠

أدرك رجل بني زهرة الموقف وتعامل معه بما يتطلبه من فطنة وذكاء ٠ إن محمدا — في رأي عمر — ما هو إلا ذلك الصابئ الذي فرَّق أمر قريش، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها : لابد من قتله٠

حاوره رجل بني زهرة في محاولة لتشتيت فكره، وجذب انتباهه إلى أمور أخري ربما تصرفه عما انتوى، قال : كيف تأمن في بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمدا؟

قال عمر : ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذي أنت عليه ٠ لقد تحول عمر بغضبه إلى الرجل الواقف أمامه٠

كانت هذه خطوة ، تبعها رجل بني زهرة بخطوة أشد منها ذكاءً وأعمق أثرا ٠ قال: أولا أدُلَّك على العجب يا عمر ؟

هكذا نجح رجل بني زهرة في السيطرة على انتباه عمر ٠ أي عجب ؟ هل هناك ما هو أعجب من سلوك محمد وأصحابه؟ وفاجأه الرجل بما جعله يترنح وينسي تماما ما خرج من أجله، قال : أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

شئ ما في أهل بيت عمر في حاجة إلى تقويم، خطأ ما، إعوجاج، خروج عن تقاليد بيت الخطاب،عرفه الناس وما دري به عمر ٠ مستحيل ! ! صرخ ابن الخطاب: أي أهل بيتي؟

هنا فاجأه رجل بني زهرة بكلمات أطارت صوابه وأنسته تماما ما خرج من أجله ٠ قال الرجل: خَتنُك (زوج أختك)، وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه، فعليك بهما!!

تغيرت ملامح وجه عمر، وتغيرت وجهته. فبدلا من أن يواصل سيره في اتجاه البيت الذي كان فيه محمد وأصحابه، أسرع إلى حيث أخته وزوجها ٠ كان عندهما خبّاب بن الأرت — حداد مسلم — ومعه صحيفة فيها " طه" يقرئهما إياها ٠ وعندما أحسوا بمقدم عمر، أسرع خباب فتوارى داخل البيت خشية بطش عمر٠

وقف عمر، وقد تملكه غضب جامح، في مواجهة أخته وزوجها ٠ سأل: ما هذه الهيْنمة التي سمعتها عندكم ؟ لقد سمع قراءة خباب ٠ وكانت فاطمة قد أخفت الصحيفة تحت فخذها٠

قالت هى وزوجها : ما سمعت شيئا، ماعدا حديثا تحدثناه بيننا٠

قال : فلعلكما قد صبوتما٠

قال ختنه: أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك؟

ودون تفكير بطش عمر بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجّها ٠ وغير مبالية بالدم الذي سال من وجهها، قالت: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك ٠

نظر عمر إلى الدم الذي سال من وجه أخته ٠ وقف بكل جبروته ساكنا ينظر ما فعل ٠ فجأة أنبتت تلك البذرة الكامنة في أعماق قلبه — بذرة التقوى — زهرا من الرقة والتعاطف والندم ٠٠ فارعوى٠

قال وقد رق صوته : أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم أقرأه٠

قالت له : اغتسل!!

أخذ عمر الكتاب فقرأ " طه" حتى انتهى إلى قوله تعالى : " إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى . " عندها اهتزت أعماق عمر،وكأنها قد زلزلت ٠ وصادقا مع نفسه، كما هى دوما طبيعة تكوينه، انطلق إلى الدار التي في أصل الصفا حيث النبي ٠ كان على الباب حمزة وسط جمع من الصحابة ٠ قال حمزة:

هذا عمر ٠ فإن يُرد الله بعمر خيرا يسلم ويتبع النبي ٠ ٠وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيِّنا٠

خرج النبي حتى أتي عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، وقال : أما أنت منتهيا

يـا عمـر حـتى يـنزل الله بـك مـن الخِـزى والـنكال مـا أنـزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهم هذا عمـر بن الخطاب ٠ اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب ٠ فقال عمر: أشهد أنك رسول الله، فأسلم٠

هـناك روايـة أخـرى تقـول إن عمر استمع إلى النبي خلسة وهو يتلو القرآن فخشع قلبه، فلم يـتردد في أن يعلـن إسـلامه ٠ ويذكـر ابـن سـعد أن عمـر أسـلم في ذي الحجـة، السنة السادسـة مـن النـبوة، وهو ابن ست وعشرين سنة، وينقل عن ابن مسعود قوله: كان إسلام عمـر فـتحا وكانـت هجـرته نصـرا وكانـت إمارتـه رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا [٤٣]٠

ومـن الطـرائف التي تُروى صباح إسلام عمر، أنه ذهب إلى بيت خاله أبي جهل وضرب عليه بابه ٠ خرج إليه أبو جهل مرحبا : مرحبا وأهلا بابن أختي، ما جاء بك ؟

قال عمر : جئت لأخبرك أني آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به٠

ضرب أبو جهل الباب في وجه عمر، وهو يقول : قبحك الله، وقبح ما جئت به[٤٤]٠

قصـة الغرانـيق : قـوى الإسـلام واعـتز المسـلمون بإسلام حمزة ومن بعده عمر، وجدوا في إسـلام هذيـن الـرجلين — وهمـا مـن أعـلام مكـة — عزة وقوة وبأسا، وما كان باستطاعة قـريش أن تنال منهما ٠ لكن قريشا لم تغير موقفها واستمرت في عدائها السافر العنيد لمحمد وأتباعه٠

شـق ذلك على نفس النبي فقد جاء مؤلفا للقلوب، لا مفرقا بين البشر ٠ ما كان يود أبدا أن يعاملـه قومـه بكـل هـذا العداء ٠ في قلبه كان رجاء: أن ينزل عليه من الوحي ما يقربهم إلـيه ويحبـبهم في ديـن الله، وبذلـك تنـتهي الفـرقة ويـزول الـتمزق ويـتم الوفـاق ٠ ولا يتوقع غير هذا من نبي٠

يـروى الطـبري في " تاريخه" إنه لما رأي رسول الله تولِّيَ قومه عنه، وشق عليه ما يرى مـن مـباعدتهم مـا جـاءهم بـه من الله، تمني في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومـه، وكـان يسـره مـع حـبه قومه ، وحرصه عليهم أن يلين له بعض ما قد غلِظ عليه من أمـرهم، حتى حدَّث بذلك نفسه، وتمناه وأحبه، فأنزل الله عز وجل: " والنجم إذا هوى ٠ مـا ضل صاحبكم وما غوي ٠ وما ينطق عن الهوى " ، فلما انتهى إلى قوله " أفرأيتم اللات والعـزى ٠ ومـناة الثالـثة الأخـرى" (سورة النجم : ١ — ٢)، ألقي الشيطان على لسانه، لما

43- ابن سعد ، جـ٣ ، ص ٢٦٧ ـ٢٦٩ ، ابن هشام ، جـ١ ، ص ٣٦٤ ـ ٣٧١ ٠

44- ابن هشام ، جـ١ ، ص ٣٧١ ٠

كان يحدث به نفسه، ويتمني أن يأتي به قومه: " تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى" . فلما سمعت قريش ذلك فرحوا، وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم، فأصاخوا له ٠٠ والمؤمنون مصدقون بينهم فيما جاءهم به عن ربهم، ولا يتهمونه على خطإ ولا وهم ولا زلل — فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها، فسجد المسلمون بسجود نبيهم. تصديقا لما جاء به، واتباعا لأمره، وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم، لما سمعوا من ذكر آلهتهم، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد ٠٠ ثم تفرق الناس من المسجد، وخرجت قريش، وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم، يقولون: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، قد زعم فيما يتلو : " أنها الغرانيق العلا، وأن شفاعتهن ترتضى "

وأتي جبريل رسول الله (ص)، فقال : يا محمد، ماذا صنعت! لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل، وقلت ما لم يُقل لك ! فحزن رسول الله (ص) عند ذلك حزنا شديدا ٠٠ فأنزل الله عز وجل : " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمني ألقي الشيطٰن في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطن ثم يُحْكم الله آياته والله عليم حكيم" (سورة الحج : ٥٢)، فأذهب الله عز وجل عن نبيه الحزن، وآمنه من الذي كان يخاف منه، ونسخ ما ألقي الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم : "إنها الغرانيق العلا وأن شفاعتهن ترتضي "، بقوله عز وجل حين ذكرت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: "ألكم الذكر وله الأنثي ٠ تلك إذا قِسْمة ضيزى "، أي عوجاء، " إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم "، إلى قوله ، "لمن يشاء ويرضي" (سورة النجم : ٢١ — ٢٦)، أي فكيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده !

رأينا أن نذكر القصة كما جاءت بنصها تقريبا في **تاريخ** الطبري[٤٥]، وسنجد نفس القصة بنفس المعنى ، مع اختلاف الأسلوب، في **الطبقات الكبرى** لابن سعد٠

هنا يجدر بنا أن نقول إن هذه الرواية كانت سببا في نشر المستشرقين للكثير من التعليقات الجارحة التي تنال من الإسلام ومن نبي الإسلام ٠ يقول مونتجمري وُت، على سبيل المثال : لقد عرض قادة قريش على محمد الكثير من المكاسب الدنيوية، وفي مقابل ذلك كان عليه ألا يذكر آلهتهم بسوء، وكان عليه أيضا أن يشير ولو مجرد إشارة إلى الاعتراف بها ٠٠ ويمكن أن تكون هناك صله بين الآيات الشيطانية وهذا العرض٠

وطبقا لهذا الرأي، فإن نسخ الآيات الشيطانية يمكن، بطريقة مشابهة، أن يعزي إلى

45- الطبري ، جـ ١ ، ص ٥٥٠ ـ ٥٥١ ٠

الفشل في الوصول إلى اتفاق يرضي الطرفين. ولا يوجد هناك ما يدعو إلى افتراض أن القرشيين قد خدعوا محمدا ٠ لكن حانت لحظة تيقن فيها محمد أن اعترافه ببنات الله ٠٠ ما هو إلا حط من قدر الله وهبوط بمنزلته إلى منزلتهم ٠ وهذا معناه أن رسول الله، في هذه الحالة، لا يزيد في المنزلة عن أي كاهن من كهنتهم، وليس هناك احتمال أن يكون له أي نفوذ يذكر ٠ وبناء عليه فإن الإصلاح الذي هو جوهر رسالته لن يتحقق ٠ وهذا يدل على أن رفض محمد لعرض أهل مكة لم يكن وراءه دافع دنيوي، لكنه كان لسبب ديني خالص ٠ إن اعترافه بآلهة قريش كان لابد وأن يقود إلى فشل الرسالة التي كلفه الله بها[٤٦]٠

ويضيف مونتجمري وُت : هذه قصة غريبة ومثيرة للدهشة، إذ تظهر نبي الديانة التوحيدية المتشددة وقد أباح الشرك ٠ ومن المستحيل أن نعتقد أن أحدا قد اخترع هذه القصة وحث جمهور المسلمين على قبولها ٠ زد على ذلك أن هناك نص في القرآن يتحدث عن شئ من هذا القبيل : " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمني ألقى الشيطن في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطن ثم يُحْكم الله آياته والله عليم حكيم "(سورة الحج :٥١) ٠ ٠وسواء قبلنا هذه القصة — التي ربما يكون فيها شئ من الصواب — أو لم نقبلها، فمن المؤكد أن محمدا تلا "الآيات الشيطانية" كجزء من القرآن، ثم تلا بعد ذلك آيات أخرى نسختها ٠ ٠ ولا نستطيع أن نحدد كم مر من الوقت قبل النسخ، ربما كان أسابيع أو شهور، لكنه كان طويلا بما فيه الكفاية كي يتحقق محمد أنه لن يصل مع قريش إلى حل وسط ٠ ربما وجد أن حركته الدينية الجديدة لن تجد ما يميزها عن الوثنية، وبناءً على ذلك تلا الوحي الجديد الذي أنزل عليه، وهو ينسخ الآيات الشيطانية ويحل محلها آيات أخرى[٤٧]٠

ينكر جونستون Johnstone أن نسخ الآيات الشيطانية قد تم في اليوم التالي مباشرة كما يدعى البعض : يقول كتاب التراث المسلمين أن محمدا أصلح الخطأ الذي وقع فيه في اليوم التالي مباشرة، وهذا غير محتمل ٠ لقد استغرق ذلك بعض الوقت ٠ لقد شعر محمد بغريزته أنه فقد كل شئ باعترافه بأن لله شركاء ٠ ٠ ولقد رفض هذه القصة وأنكرها كثير من كتاب المسلمين الذين تناولوا حياة محمد لأنهم رأوا فيها إساءة لشرف النبي[٤٨]٠

ويرى إ ٠ ر ٠ بايك E . R . Pike أن عبدة الأصنام دهشوا وتملكهم إحساس بالفرح عندما ذكر محمد آلهتهم بخير وأشار إلى أن " شفاعتهن لترتجى " : ذلك الذي يقول بأنه

46- Montgomery Watt, **Muhammad at Mecca,** p. 102.
47- Montgomery Watt, **Muhammad Prophet and Statesman,** pp. 60 –62 .
48- P . De Lacy Johnstone, pp . 73 – 74 .

نبي قد اعترف بخطئه ٠ يجب ألا يخشوه حتى ولو أصبح صاحب سلطان ٠ إنه لن يدمر أصنامهم ولن يضع نهاية لعمليات الحج المربحة إلى المزار الوثني ٠ بدا أن التصالح قد أصبح ممكنا ٠ وتنازل بعض كبارهم فخاطب " غلام بني هاشم" بطريقة ودودة .

ربما كانت تلك النظرات المتعالية المتفضلة هى التي صدمته وجعلته يدرك خطورة ما فعل ٠ سيطر عليه أسي مرير لهذا التنازل الذي أقدم عليه في لحظة ضعف٠

انتهز أول فرصة كي يصحح خطأه ٠ ومحلقا فوقهم جميعا في عنفوان غضبه، أشار باحتقار إلى آلهتهم، وهو يقول : ٠ ٠ اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى :" إن هى إلا أسماء سميتموها أنتهم وءاباؤكم ما أنزل الله بها من سلطٰن إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس " (سورة النجم : ٢٣) ٠ ٠صرخوا في وجهه ٠ ٠ بصقوا عليه ٠ ٠ لوحوا بقبضاتهم مهددين[٤٩]٠

أما كارين أرمسترونج فتقول : إن مسلمين كثيرين يعتقدون أن هذه القصة مشكوك في صحتها، ويشيرون إلى إنه لا توجد إشارة واضحة إليها في القرآن، وأن ابن إسحاق لم يذكرها ٠ ٠ كما أنها لم تذكر في مجموعات الأحاديث الكبيرة عن محمد والتي جمعها البخاري ومسلم في القرن التاسع ٠ وحينما يرفض المسلمون شيئا من التراث فإنهم لا يفعلون ذلك بدافع احتمال التأويلات النقدية لما يرفضون، لكن لعدم كفاية الأدلة ٠ لكن الأعداء الغربيين للإسلام رأوا في القصة مناسبة كي يشككوا في محمد ويبرهنوا على عدم إخلاصه ٠ فكيف لرجل قام بتغيير الكلمات السماوية طبقا لما ارتآه أن يكون نبيا حقا ؟ فالنبي الحق هكذا يقولون — لابد وأن يكون قادرا على التمييز بين الإيحاء السماوي والشيطاني[٥٠]٠

وحكاية الغرانيق هذه حكاية شديدة الغرابة، فالذي يقال هنا هو أن النبي أشار لـ "اللات والعزى و مناة " بكلمة " الغرانيق " وهى جمع " غرنوق " ٠ ويقال إن الغرنوق طير أبيض أو طير من طيور الماء،ويستخدم مونتجمري وُت في ترجمتها إلى الإنجليزية كلمة " Swans " ومعناها " البجع " ، لكنه يستدرك قائلا: إن الكلمة غامضة ومن المحتمل أنها تعني نوعا من الكائنات الملائكية٠

تلك الغرانيق — طبقا للرواية — لها شفاعة ترتجى، وهذا معناه أن النبي امتدحها وجعل لها مكانة عند الله، أي أنه بصورة أوضح قد اعترف بأصنام قريش وأوثانها ٠

وهذا — بالنسبة لنا — أمر يستحيل تصديقه، لأنه يعني دون مواربة أن النبي الذي جاء

---

49 - E . R. Pike, P. 28 .

50- كارين أرمسترونج ، ص ١٧١ ٠

بديانة التوحيد قد أشرك وانقلب على ما جاء به وأنكره ٠ وفي هذه الحالة لا يمكن أن يكون مثل " هذا النبي" نبيا٠

أما القول بأن الشيطان قد سيطر عليه وأوحي إليه فنطق بما أوحي به الشيطان على أنه وحي من عند الله، فهذا أيضا — بالنسبة لنا — أمر مرفوض، ذلك لأن النبي لا يمكن أن يخضع لسيطرة الشيطان أو أن يتلو وحيه ٠ الله في هذه الحالة هو الذي يعصمه ٠ ولو خضع لإرادة الشيطان ودخل منطقة نفوذه ونطق بكلماته، لغامت رؤاه واضطرب فكره واعوج منطقه وسقط — وما يدعو إليه — في متناقضاته وكذَّبه من حوله٠

يعلق الإمام محمد أبو زهرة على حكاية الغرانيق بقوله إن ذلك باطل بلا ريب ومستحيل أن يقع لأن الشيطان لا يتسلط على النبي، وفي شأن التنزيل والقرآن الكريم، وإلا جاء الشك الباطل في القرآن الكريم، وجوز الفاسقون على مقتضاه أن يكون القرآن قد اعتراه التغيير والتبديل، والزيادة، وتجويز أن يكون النبي قد اعتراه خرف، وابتعاد عن مؤداه، وذلك باطل فما يؤدي إليه باطل بلا ريب ٠ ٠ إن الذين يقولون هذا القول يسندونه إلى تفسير قوله تعالى :" وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان، ثم يحكم الله آياته، والله عليم حكيم " (سورة الحج:٥٢)، فزعموا أنه ألقي في أمنيته زيادة " تلك الغرانيق العلا، وأن شفاعتهن لترتجى"، ثم نسخت تلك الزيادة التي ألقاها الشيطان في أمنيته وأحكم الآيات ٠ وذلك من شأنه أن يشكك في أصل القرآن الكريم، ويبني عليه المفترون قولهم إن في القرآن الكريم زيادة ونقصا، وذلك قول قائله كافر، لأنه ينكر ما جاء به القرآن الكريم من أنه محفوظ إلى يوم القيامة ٠ ٠ " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" (سورة الحجر : ٩)[٥١]٠

وما كان على الإمام أبو زهرة أن يضيفه، لكنه — رغم علمه الغزير — أغفله، هو أن "سورة الحج"، التي وردت بها الآية " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ٠ ٠ ٠"، سورة مدنية ٠ ومن الغباء أن يدلل هؤلاء على حدث وقع في مكة بآية أو آيات نزلت في سورة مدنية أي بعد هجرة النبي إلى المدينة، ذلك لأن التصحيح أو النسخ في هذه الحالة كان لابد وأن يكون مباشرا ومتصلا بالحدث٠

وتفسير هذه الآية المدنية، كما أورده الشيخ محمد على الصابوني في **صفوة التفاسير**، هو: وما أرسلنا رسولا ولا نبيا فحدث نفسه بشئ وتمنى لأمته الهداية والإيمان إلا ألقى الشيطان الوساوس والعقبات في طريقه بتزيين الكفر لقومه وإلقائه في نفوسهم مخالفة لأمر

51- أبو زهرة، جـ١، ص ٣٧٠ ٠

الرسول وكأن الآية تسلية للرسول، يقول له: لا تحزن يا محمد على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين. " فينسخ الله ما يلقى الشيطان" ، أى يزيل الله ما يلقيه الشيطان من الوساوس والأوهام (في نفوس قومك) [٥٢].

هناك آية أخرى يستشهد بها الزنادقة كي يدللوا على صحة حكاية " الغرانيق"، وهي: " وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ٠ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركَنُ إليهم شيئا قليلا ٠ إذا لأذقناك ضعف الحيوٰة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا " (سورة الإسراء : ٧٣ — ٧٥)٠

استشهاد الزنادقة بهذه الآيات، كي يثبتوا صدق ادعائهم. واضح التضليل، فالآيات تثبت عكس ما يدعون: لقد ثبَّت الله نبيه وعصمه فلم يركن إليهم ولم يخضع لقولهم، ورواية " الغرانيق " تشير إلى أنه خضع وامتدح وأشرك، وهذا ما لا صلة له بما يستشهدون به من سابق الآيات ٠ الآيات تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن النبي لو كان قد خضع للمشركين، أو أبدي لهم أقل تهاون فيما يختص بجوهر رسالته التوحيدية، لأذاقه الله ضعف الحياة وضعف الممات، أي لضاعف له الله عذاب الدنيا والآخرة، ولن يجد له نصيرا ولا منقذا من بطش الله٠

فيما يختص بغرابة استخدام كلمة " الغرانيق" ينقل الدكتور هيكل رأيا للإمام محمد عبده، يقول : إن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق لم يرد في نظمهم ولا في خطبهم، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جاريا على ألسنتهم، وإنما ورد الغرنوق والغرنيق على أنه اسم لطائر مائي أسود أو أبيض. والشاب الأبيض الجميل، ولا شئ من ذلك يلائم معني الآلهة أو وصفها عند العرب[٥٣].

قصة الغرانيق إذن، كما سبق وأوضحنا، قصة مكذوبة من وضع الزنادقة للتشكيك في جوهر الإسلام ويقينية الوحي ونقاء القرآن، ولا يوجد في القرآن أو السنة أي دليل — أو حتى مجرد إشارة — لإثبات صحتها ، ولم يترك لنا الصحابة — على كثرتهم وكثرة ما تركوه من مأثور أقوالهم — ما يدل على أن ما يدعيه الزنادقة قد حدث٠

وما ورد في **الطبقات الكبرى** لابن سعد، **وتاريخ الأمم والملوك** للطبري، كلام مرسل، وكل كلام مرسل — لا يقوم عليه دليل — لا قيمة له ٠ كما أن ابن سعد والطبري عرضة لأن يخطئا ولا عصمة لهما، ويجب مراجعة ما كتبا وتنقيته من الشوائب التي تسئ

52- محمد على الصابوني ، **صفوة التفاسير** ، جـ٩ ، ص ٤٣ ٠

53- د. هيكل ، ص ١٤٤ ٠

إلى الإسلام وإلى نبي الإسلام. كما يجب فعل ذلك أيضا بما جاء في **سيرة ابن هشام**.

يدعي الزنادقة أن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة سمعوا عن قصة " الغرانيق". وما تلاها من صلح مزعوم بين محمد وقريش. فقرروا العودة . وهذا زعم قائم على الزعم الأول . وبما أن الزعم الأول باطل، فالقائم عليه هو أيضا باطل.

لقد علم المسلمون في الحبشة بعد ثلاثة شهور من هجرتهم أن عمر قد أسلم، وبذلك أصبح المسلمون في عزة ومنعة بإسلام حمزة وعمر، فعاد منهم ثلاثة وثلاثون رجلا، كما يذكر ابن هشام، ويقال إنهم عادوا جميعا، في رواية أخري . لكنهم فوجئوا بعكس ما كانوا يتوقعون : اشتد العداء وازداد الإيذاء، فعاد متهم إلى الحبشة من عاد، ومن دخل مكة دخلها بجوار أو فضَّل الاستخفاء حتى يرفع الله الغمة ويزيل البلاء.

- ٤ -

المقاطعة وعام الحزن

قريش في حالة غضب هائج . . دعوة محمد مازالت قائمة وهى تدخل عامها السابع . . محمد مستمر في تبليغ رسالته، لم ينجح في إيقافه وعيد أو تهديد . . كثير من أتباعه هاجروا إلى الحبشة حيث الأمان، وربما أصبحوا في المستقبل قوة تهدد قريشا نفسها . . حمزة أسلم ومن بعده عمر وهما مع أبي بكر وبقية الصحابة — رغم ضعف الكثرة منهم — مصدر عزة لا يستهان به . . الإسلام، رغم بطء انتشاره، بدأ يفشو في القبائل . . وما كانت قريش لتستطيع على ذلك صبرا.

اجتمعوا جوار الكعبة، ائتمروا، أو بأسلوب أدق، تآمروا، قرروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب على أن لا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعون منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوا في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال النَّضْر بن الحارث[٥٤].

ما كان أبو طالب ليتخلى عن ابن أخيه مهما فعلت قريش، فلتخرج قريش كل ما في جعبتها ولتلق بكل سهامها، فالشيخ له مواقفه، وله مهابته، وله على من حوله سلطان . في الحال قر قرار بني هاشم وبني المطلب على الانضمام إلى شيخهم الكبير والوقوف إلى جانبه. دخلوا معه جميعا في شِعْبه، لم يخرج على إجماعهم سوى أبي لهب بن عبد العزى، الذي غلبته مصالحه ومكاسبه وخضوعه لزوجته، فظاهر قريشا على أبناء عشيرته.

54- ابن هشام، جـ ١، ص ٣٧٢ .

استمر الحظر عاما ومن بعده عاما آخر، يقال امتد لعام ثالث، والنبي صامد هو ومن معه . لقد اعتقد عتاة قريش أن التجويع سيكون أكثر فتكا من الإيذاء والتعذيب. لكن حتى هذه فشلوا في تفعيلها . لقد خرج عليهم من بينهم من اعترض ورفض : هذا سلوك تأباه مروّة العرب وترفضه تقاليدهم المتوارثة.

خرج حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد ومعه من يحمل قمحا يريد به عمته خديجة وهي مع النبي في شعب أبي طالب مشاركة بقوة وشجاعة في عبء المقاومة وما ينتج عنها من معاناة . لقيه أبو جهل بن هشام . أوقفه . صاح به : أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة.

ربما كان بإمكان أبي جهل أن يوقف حكيم بن حزام ويمنعه من أن يصل بالقمح إلى حيث يريد، لكن تصادف أن ظهر فجأة أبو البَخْتَري بن هشام بن الحرث بن أسد الذي سأل أبا جهل في غلظة: ما لك وله ؟ أجاب أبو جهل: يحمل الطعام إلى بني هاشم . قال أبو البختري في حزم: طعام كان لعمته عنده بعثت إليه أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خلِّ سبيل الرجل.

رفض أبو جهل، فما كان من أبي البختري إلا أن أخذ لَحَي بعير فضربه به فشجه، ووطئه وطئا شديدا ، وحمزة بن عبد المطلب يرى ذلك . وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله وأصحابه فيشمتوا بهم[٥٥].

لم يكن حكيم بن حزام وحده هو الذي فعل ذلك،بل أقدم عليه أيضا هشام بن عمرو. حمل بعيره طعاما قدر ما استطاع حمل البعير، توجه به إلى الشعب، أطلقه ودفعه تجاه محمد وأصحابه . . لن يموت المحاصرون بهذا الأسلوب الرخيص الذي اتبعته قريش، وصلة الرحم لابد وأن تعلو فوق الكراهية والأحقاد.

كان يسمح للمحاصرين بالخروج في الأشهر الحرم،عندما تنام الخصومات ويحرم القتال. كان النبي — صامدا — يخرج إلى القبائل يدعوهم إلى الله، فيتبعه عمه أبو لهب كظله يكذبه ويسخر منه . كان يقول، فيما يقول : يعدني محمد أشياء لا أراها، يزعم أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع في يدي بعد ذلك ؟ ثم ينفخ في يديه بعد ذلك، ويقول تبا لكما، ما أري فيكما شيئا مما يقول محمد.

وكان النبي يُقابل بالصد من مختلف القبائل، بحجة أنه لو كان صادقا لكان قومه أول من صدقه.

55- نفس المرجع ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .

لكن قريشا، لسوء حظها وحسن طالع المسلمين. وجدت من يعارضها من داخلها ٠ خرج من بينها من شق صفوفها ٠ ارتفع صوت هشام بن عمرو بن ربيعة، لائما ومعاتبا وهو يقول لزهير بن أبي أمية بن المغيرة، وكانت أمه عاتكه بنت عبد المطلب: يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يُباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا يُنكح إليهم، أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا٠

استجاب زهير بن أبي أمية في الحال لدعوة هشام بن عمرو، ووجدا من يعينهما على ما يريدان فقد كان هناك من هو مستاء من سلوك طغاة قريش ٠ انضم إليهما المطْعم بن عدي وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ٠ اجتمعوا خمستهم ليلا، أجمعوا أمرهم، تعاهدوا على أن يثيروا أمر الصحيفة ولا ينفض لقاؤهم بقريش إلا وقد نقضوها ٠ ووعد زهير أن يكون هو أول من يتكلم ٠ فلما أصبحوا أقبل زهير بن أمية على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يُباعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة٠

قام أبو جهل في عنجهيته يعترض ٠ تصدى له أبو البختري في جرأة قادرة وكان قد ضربه من قبل بلحي بعير، وناصره زمعة بن الأسود والمطعم بن عدي وهشام بن عمرو ٠ وتيقن أبو جهل في الحال أن الأمر قد اتفق عليه من قبل، وأنه لا جدوى من المقاومة ٠ وقام المطعم إلى الصحيفة، تناولها ليشقها، لكنه — كما يقول الرواة — وجد الأَرَضَة قد أكلتها إلا "باسمك اللهم"[٥٦]٠

هكذا انتهى أمر الصحيفة، ولم ينتج عن المقاطعة إلا خيبة أمل جديدة لقريش، فقد انشقت صفوفها وتفرقت كلمتها، وخرج عليها من رجالها من ينازع عتاتها القرار في عدائهم لمحمد٠

يقول مونتجمري وُت إنه يمكن المجازفة بتخمين دوافع هؤلاء الذين أنهوا المقاطعة ٠ ٠ ربما تيقنوا بمرور الوقت أن التحالف الجماعي والمقاطعة الكلية كانا يزيدان من نفوذ العشائر القوية التي كانت تهدف إلى فرض سيطرتها واستئثارها بتجارة مكة، وكان في هذا بالطبع إضعاف لموقف العشائر الأخرى[٥٧]٠

أبداً لم ينس النبي موقف أبي البختري وحسن صنيعه بالمسلمين أثناء الحصار وموقفه

56- ابن هشام، جـ ١، ص ٣٩٩ ٠

57 - Montgomery Watt, **Muhammad at Mecca**, p. 122.

النبيل المؤثر في نقض الصحيفة، وربما أحزنه كثيرا أن أبا البختري لم يؤمن، لكنه عندما علم أن أبا البختري قد خرج مع المشركين للقتال يوم بدر، أوصي المسلمين ألا يقتله أحد ، وهكذا قابل المروءة بالمروءة، لكن مما يؤسف له أن أحد المسلمين قتل أبا البختري! ! ربما لم يسمع بما قاله النبي، وربما سمع لكن كانت ما تزال في أعماقه بقايا وحشية جاهلية فأراد سلبه.

عام الحزن، موت أبي طالب وخديجة: ما كاد النبي يخرج هو والمسلمين من حالة الحصار التي فرضتها قريش، حتى وجد نفسه يواجه موقفا مأساويا فاجعا: عمه أبو طالب الذي كفله ورباه يتيما ووفر له الأمن والحماية ودفع عنه شر قريش كل تلك السنوات الطوال، أصبح لا حول له ولا قوة وهو راقد على فراش الموت في انتظار قضاء الله. أسرع النبي بالتوجه إلى عمه. وجد عنده عبد الله بن أبي أمية وأبا جهل بن هشام. جلس النبي إلى جوار عمه وقد حدته الرغبة في أن يسلم وتملكه الأمل، قال : يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله.

كانت هذه هي رغبة النبي الجامحة : أن يموت عمه على الإسلام، وبذلك يطمئن قلب النبي، لأن في إسلامه خير جزاء على ما قدم لابن أخيه، وما قدمه ما كان أبدا بقليل . لكن اللعينين، أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية، قاما بدور الشيطان، قالا وفي صوتهما فحيح الأفعى ونعومتها : يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ قال : لا . أنا على ملة عبد المطلب.

وفي حكاية أخرى يُروى أن أبا طالب قال: يا ابن أخي والله لولا رهبة أن تقول قريش دَهَرَني الجزع فيكون سُبَّة عليك وعلى بني أبيك لفعلت الذي تقول ، وأقررت بها عينك. لما أرى من شكرك ووجْدك بي ونصيحتك لي.

ويقال إن أبا طالب دعا بني عبد المطلب وقال لهم: لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم أمره فاتبعوه وأعينوه ترْشُدوا.

فقال له النبي: أتأمرهم بها وتَدَعُها لنفسك؟ فقال أبو طالب: أما لو أنك سألتني الكلمة وأنا صحيح لتابعتك على الذي تقول، أما لو أنك سألتني الكلمة وأنا صحيح لتابعتك على الذي تقول "، فكوك في مصداقيتها، فهي تعني أن النبي قد ترك عمه طوال عشر سنين لم يدعه للإسلام

58- ابن هشام ، جـ٢ ، ص ٢٧ .

ثم دعاه فقط وهو على فراش الموت، وهذا قول مرفوض حتى ولو قُدم على أنه مجرد افتراض.

قد يدعي البعض أن عدم إسلام أبي طالب طوال تلك السنين كان في مصلحة محمد، لأنه حفظ لأبي طالب مكانته ومهابته بين قومه وبذلك استطاع أن يوفر للنبي ما هو في حاجة إليه من أمن . لو أسلم أبو طالب لاتخذته قريش عدوا، ولما نجا هو نفسه من اضطهاد قريش وإيذائها، ولفقد محمد حماية عمه وهو في أشد الحاجة إليها.

هذا معناه أن عدم إسلام أبي طالب كان في مصلحة محمد، وكان محمد يدرك ذلك . وهذا كلام رخيص.

كان أبو طالب يعلم أن ابن أخيه صادق، وأن ما يدعو إليه حق ، لكنه في نفس الوقت تمسك بدين عبد المطلب، أي بدين الآباء . كان صادقا مع نفسه حتى الموت، ومات كما أراد على مِلّة أبيه . كان ذلك في منتصف شوال في السنة العاشرة من النبوة، وقد تخطى الثمانين من عمره.

تقول بيتي كيلين Betty Kelen : مات أبو طالب (في عام ٦١٩ ميلادية) وهو على دينه، رافضا الإسلام . ولم يحضر محمد جنازته.

وتضيف بيتي كيلين: قال أبو طالب لولده علي: إلزم ابن عمك فهو لن يدعوك إلا لما فيه الخير . ومات أبو طالب . لكن عليا ظل يذكر مدى الحياة كلمات أبيه الأخيرة وقد انطلقت كالسهام: لا يمكنني أبداً أن أعتنق دينا يجعلني أخفض رأسي إلى ما تحت مستوى مؤخرتي[٥٩].

يروى أن علي بن أبي طالب عندما أخبر النبي بموت عمه أبي طالب، بكي النبي، ثم قال : اذهب فاغسله وكفنه وواره، غفر الله له ورحمه ! وفعل علي كما أمر النبي . واعتكف النبي في بيته يستغفر لعمه وقد تملكه حزن شديد، حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية: " ما كان للنبي والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى".

ويقال إن العباس سأل النبي يوما بعد وفاة أبي طالب، قال : يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشئ ؟ فإنه قد كان يحوطك ويغضب لك، قال: نعم وهو في ضحضاح من النار ولولا ذلك لكان في الدرك الأسفل من النار.

ورث أبا طالب ولداه طالب وعقيل،ولم يرث جعفر أو علي شيئا، ذلك لأنه لا يرث

---

59 - Betty Kelen , p 51.

المسلم الكافر ولا يرث الكافر المسلم[٦٠].

لم يكد النبي يفيق من صدمة موت عمه أبي طالب، حتى فوجئ بصدمة أخرى أكثر إيلاما لأنها كانت وجعا على وجع: ماتت السيدة خديجة — زوجته وسنده وملاذه في أحرج لحظات حياته — وهي بنت خمس وستين سنة . وقد توفيت — كما يروى ابن سعد — بعد موت أبي طالب بشهر وخمسة أيام.

أبو لهب سيد بني هاشم: بعد موت أبي طالب أصبح أبو لهب سيد بني هاشم . ورغم أنه كان قد انضم إلى حلف قريش في حصارهم لبني هاشم أثناء فترة المقاطعة، إلا أنه بعد موت أبي طالب وتوليه زعامة العشيرة وعد أن يقوم بحماية محمد كما فعل أبو طالب من قبل.

يعلق مونتجمري وُت على موقف أبي لهب هذا بقوله : إن هذه الرواية يمكن قبولها على أساس أن احترام السيد العربي لنفسه يملي عليه هذا السلوك . ولو بدا أن هذا السلوك يتعارض مع ما أظهره في السابق من عداء، فإن هذا التناقض يمكن التقليل من شأنه بافتراض أن عداءه لمحمد قبل موت أبي طالب قد بولغ فيه[٦١].

المدهش في الأمر أن أبا لهب كان في مستوي المسئولية التي قُدر له أن يتحملها كسيد لعشيرة لها ثقلها في مجتمع مكة : إن إهانة محمد هى إهانة لأبي لهب، ومن يجسر على إيذاء محمد عليه أن يتحمل نتيجة فعله.

كان النبي قد لزم بيته، بعد أن ثقل قلبه وتضاعفت أحزانه، واشتد بلاء قريش في معاملته فأصابه من الأذى ما لم يصبه من قبل . ما أن بلغ ذلك أبا لهب حتى توجه بنفسه إلى النبي وأقسم أمامه أن لن يناله أحد بسوء مادام هو (أبو لهب) على قيد الحياة، ولولا قسمه باللات والعزى لتصورنا أنه أسلم واتبع النبي . قال أبو لهب : يا محمد امض لما أردت وما كنت صانعا إذ كان أبو طالب حيا فاصنعه، لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت !!

ويقال إن ابن الغيطلة سب النبي فأقبل عليه أبو لهب فنال منه، فولى وهو يصيح: يا معشر قريش، صبأ أبو عتبة !! فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب، فقال: ما فارقت دين عبد المطلب، ولكني أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد، قالوا: قد أجملت وأحسنت ووصلت الرحم.

60- ابن سعد ، جـ ١ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٥ .

61- Montgomery Watt, **Muhammad at Mecca**, p . 137 .

لكن هذه الحماية لم تستمر طويلا . استخدمت قريش الخديعة في تعاملها مع أبي لهب. وبدهاء أثاروا فيه نعرة الولاء للآباء والأجداد .اتجه إليه عقبة بن أبي معيط وأبو جهل بن هشام، طلبا منه أن يسأل ابن أخيه عن مصير عبد المطلب.

أسرع أبو لهب إلى ابن أخيه. سأله : أين مدخل عبد المطلب ؟ أجاب النبي دون تردد: مع قومه.

وجه أبو لهب السؤال بصورة مباشرة : يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟

إن أبا لهب يسأل عن مصير أبيه الذي هو جد النبي، والذي حمل محمدا يوم ولادته وطاف به حول الكعبة، والذي كان يجلسه وهو طفل على فراشه مفضلا إياه على أبنائه، والذي كان يشير دوما إلى محمد ويقول : ولدي هذا سيكون له شأن عظيم . " أيدخل عبد المطلب النار" ؟!!

ويزعم الرواة أن النبي قال : نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار.

كانت الإجابة فاصلة قاصمة . أصبح من السهل، بعد ما تفوه به محمد، أن يتخلى عنه أبو لهب دون أن يفقد احترامه لنفسه، بل وأن يبادر هو نفسه بإيذاء ابن أخيه جزاءً لما أعلن عن مصير عبد المطلب . قال أبو لهب وهو لا يكاد يصدق ما سمعت أذناه : والله ما برحت لك عدوا أبدا وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار ! واشتد عليه هو وسائر قريش[٦٢].

ولا نجد في أنفسنا ميلا لتصديق ما سبق من حوار، ولا نصدق أيضا أن النبي قال يوما إن أمه هو هي أيضا في النار، كما جاء في رواية ذكرها ابن سعد، يقول : سأل رجلان النبي، قالا : يا رسول الله، إن أمنا مُلَيْكة بنت الحلو كانت تفك العاني وتطعم البائس وترحم المسكين، وإنها ماتت وقد وأدت بنية لها صغيرة فما حالها؟ قال : الوائدة والموؤودة في النار فقاما مغضبين، فقال : إلى فارجعا ! فقال : وأمي مع أمكما[٦٣].

لقد ناقشنا هذه النقطة في فصل سابق وقدمنا من الأسباب ما يثبت عدم اقتناعنا بها، ونضيف لما قدمناه من قبل حديثا للنبي يقول نصه: أنا رسول من أدركت حيا ومن يولد بعدي.

النص شديد الوضوح، لا لبس ولا غموض فيه، ولا مجال لتفلسف أو تأويل أو تحوير: إنه رسول من أدرك حيا ومن يولد بعده، بمعنى أنه ليس برسول لمن جاء قبله، ولا يحاسب من جاء قبله على ما لا علم له به، إذ أنه لم يكن قد ظهر ونادى بتعاليم الإسلام.

62- ابن سعد ، جـ ١ ، ص ٢١١ .
63- نفس المرجع ، ص ٣٢٥ .

إذن فلماذا: عبد المطلب في النار؟ ولماذا: أم النبي نفسها في النار؟ لقد ماتا قبل بدء الرسالة، ولم يدعهما أحد إلى دين غير دين الآباء. ولا يمكن أن يتبجح دعي غبي فيقول إنهما ماتا كافرين بالإسلام. لم يكن هناك إسلام. وكانا في غيبة من الرسل . وكلمات النبي وضاءة تطمئن لها القلوب. نعيدها للمرة الثالثة: أنا رسول من أدركت حيا ومن يولد بعدي . هو نبي المرحمة، لا نبي المشأمة . ومن كان له أذنان للسمع فليسمع . إنها لا تعمى الأبصار، لكن تعمى القلوب التي في الصدور فتصور الإسلام على أنه دين النقمة والعذاب.

على أية حال، نجحت قريش فيما سعت إليه من وقيعة . انقلب أبو لهب في ضراوة ضد ابن أخيه وخليٍّ ما بينه وبين قريش التي لم يتوان سفهاؤها عن ملاحقته بالمضايقة والإيذاء في تبجح وجرأة ما كانوا يقدرونها أيام عبد المطلب . ألقوا عليه التراب، قذفوه بالروث، وضعوا فضلات ذبيحة منتنة في الوعاء الذي يطبخ فيه . . بكت فاطمة وهي تزيل عن ثوبه ما علق به من أقذار، وقد فتّت قلبها ما تراه من سيل الإساءات والإهانات، لكنه طلب منها ألا تبكي فلن يخذله الله: لا تحزني يا بنية، فإن الله مانع أباك.

إذا كانوا قد فعلوا ذلك بالنبي، فلابد وأنهم قد فعلوا ما هو أسوأ بمن التف حوله من المسلمين وعلى رأسهم أبي بكر . ويذكر أبو حسن على أن أبا بكر تجرأ ذات صباح على دعوة بعض المشركين للإيمان، لكنهم بدلا من أن يؤمنوا انقضوا عليه وأوسعوه ضربا بلا رحمة . . وأحدث عتبة بن ربيعة جروحا دامية في وجه أبي بكر بعد أن ظل يطلمه على وجهه بفردتي حذائه لدرجة أنه أصبح من الصعب تمييز العينين من الأنف في وجه أبي بكر المتورم.

سقط أبو بكر مغشيا عليه ونقله إلى بيته رجال من عشيرته — بني تيم — وهو بين الحياة والموت .وعندما استعاد وعيه ما بعد الظهيرة كان أول ما سأل عنه هو ما إذا كان النبي قد وصل بيته سالما أم لا[٦٤].

هذا معناه أن عشيرة " تيم" التي كان أبو بكر ينتمي إليها لم يكن باستطاعتها حمايته فتركته يهان ويضرب بهذه الطريقة الهمجية دون أن يجرؤ أحد من أبناء " تيم" على التقدم لنجدته . هكذا هانت "تيم " وهان رجالها، فتمادت قريش في سطوتها وفرض جبروتها.

---

64 - Abu Hasan Ali , p . 117.

- ٥ -
الخروج إلى الطائف

ضاقت السبل بالنبي في مكة ٠ قرر الخروج إلى الطائف علّه يجد فيها من يؤمن به وينصره ٠ ربما شجعه على ذلك علمه أن لعمه العباس بعض صداقات هناك، ربما استمعوا إليه، وربما اقتنعوا بما يقول ٠ لم يكن متأكدا، لكنه قرر أن يحاول في سبيل رسالته مهما كانت المخاطرة٠

خرج راجلا على قدميه من مكة إلى الطائف، وهي مسافة بعيدة تبلغ ما يقرب من سبعين ميلا، وربما تزيد ٠ كان ذلك في آخر شوال من العام العاشر للنبوة ٠ يقول ابن سعد إنه خرج إلى الطائف في صحبة زيد بن حارثة ، أما ابن إسحاق والطبري فيقرران أنه خرج وحده، لم يصحبه أحد٠

عندما وصل الطائف توجه إلى ثلاثة إخوة هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافها : عبد يا ليل ابن عمرو بن عُمَيْر، ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير ٠ ٠ وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جُمَح ٠ جلس إليهم النبي، ودعاهم إلى عبادة إله واحد. وترك عبادة الأصنام التي تأباها الفطرة الذكية والنفس الأبية والإدراك السوي — ليس هناك ما هو أكثر إهانة للإنسان من أن يسجد لحجر٠

كانت الطائف مركزا لعبادة اللات ، وكان معنى كلام النبي بالنسبة لهم، هو أنه جاء كي يقضي على مركز عبادتهم، وفي هذا بالطبع قضاء على سلطتهم كرعاة لأحد معابد الآلهة ٠ لقد جاء إذن كي يدمر ما آمنوا به هم وآباؤهم الأولون ٠ ثم : من هذا الذي جاء بهذا ؟ من يكون ؟!!

استهانوا به ٠ سخروا منه ٠ ازدروه ٠ قال أحدهم: هو يمْرُط (أي يمزق) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك٠

وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك؟

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك[٦٥]٠

لم يكن هناك ما يدعو للمزيد ٠ الصورة واضحة شديدة الوضوح : لا خير في ثقيف ٠ وفي يأس من إيمانهم قال لهم : "إذْ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني" ٠ كره النبي أن يبلغ قومه ما حدث فيزدادوا إيذاءً٠

65- الطبري ، جـ١ ، ص ٥٥٤ .

لكنهم للأسف لم يكتموا عنه، بل لم يتركوه كي يعود إلى مكة، كما جاء منها . في سلام . . أغروا به سفهاءهم يسخرون منه . وطوال عشرة أيام، مرت طويلة مريرة، لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة.

أخيرا حدث ما لم يكن أبدا يتوقعه . أمسك العبيد والسفهاء بالحجارة وبدأوا في رميه بها . كان الحدث مفاجئا وصادما : حشد من العبيد والسفهاء يسخرون ويسبون ويلعنون — حسب أوامر السادة — ثم يمسكون بالحجارة يقذفون بها النبي.

أذهلته المفاجأة . سال الدم من قدميه . شُجَّ رأسه . وكان السادة يضحكون وهم يحرضون العبيد . النبي؟!! اضربوا النبي كي لا يعود . وكان النبي وهو يسرع الخطا منصرفا يتجه ببصره إلى السماء . . من بعثه من المستحيل أن يتخلى عنه.

لجأ إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيْبة بن ربيعة، وهما فيه . رجع عنه سفهاء ثقيف . جلس في ظل كرمة . لا ملجأ له سوى رحمة الله وعونه ونصره . رفع يديه إلى السماء، وارتفع صوته بالدعاء : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي . إلى من تكِلُني ؟ إلى بعيد يتجهَّمُني أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتُك هى أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك أو يحلَّ عليَّ سَخَطُك، لك العتبي (الرضى) حتى ترضي، ولا حول ولا قوة إلا بالله[٦٦].

لم يجد أمامه إلا القوى القادر، فلجأ إليه في وحدته يطلب منه القوة والمقدرة . وكان ابنا ربيعة ينظران ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، فأشفقا عليه . دَعُوا عبدا لهما يقال له عدّاس، كان نصرانيا . أمراهُ أن يأخذ عنقودا من العنب ، يضعه في طبق ويقدمه له . واكتشف عداس النصراني من كلام ذلك الجالس أمامه وسلوكه أنه نبي : أنه يعرف ما لا يعرفه إلا الأنبياء.

أكبَّ عداس، وقد أذهلته لحظة الحضور، على النبي يقبل رأسه ويديه وقدميه، وابنا ربيعة يرقبان الموقف . سألا العبد عندما عاد : مالَكَ تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال : لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي . وكان النبي قد أخبره عن يونس بن متى، عندما علم أنه من أهل نينوَي ، وأنه نبي مثله.

الجن يستمعون : لم يجد النبي في الطائف نصرة ولا عزاء . وُوجه بالاستهانة

66- ابن هشام ، جـ٢ ، ص ٣٠ ز

والسخرية والاستهزاء. ثم بالحجارة أدماه بها سفهاء الرعاع . أخذ طريق العودة وحيدا، حزينا. منكسر الفؤاد. حتى وصل مكانا يقال له " نخلة" . هناك قام في جوف الليل، وحده. يصلي ، وكأنه رجل الأحزان. يتضرع لمن بعثه بالحق نبيا أن يفرج كربه، وأن يزيل همه. وأن يخرجه من كل هذا الضيق.

ارتفع صوته في سكون الليل ورهبته وهو يرتل في صلاته القرآن، فازداد الخشوع وازدادت الرهبة . وكأن خالقه ومرسلة قد أراد له بعض العزاء، فسيَّر إليه نفرا من الجن، استمعوا إليه ، رقَّت قلوبهم، آمنوا به . وعندما انتهى من صلاته ولَّوْا إلى قومهم منذرين . وقد أخبر الله رسوله بخبرهم في " سورة الأحقاف " : " وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم".

في سورة "الجن" تتأكد حقيقة استماع الجن إلى النبي، رغم أن القرآن ليس في حاجة إلى تأكيد، إنما يهديء الله من روع النبي ويواسيه : إن يكن الإنس قد جحدوا وأنكروا ما جاء به وسفهوه فهذا نفر من الجن يستمع ويؤمن ويبشر بما جاء به النبي: " قل أوحى إليَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا " (١- ٢).

يدعي ابن إسحاق أنهم كانوا سبعة نفر من الجن، ويحدد مكان إقامتهم : كانوا من أهل نصيبين اليمن . ولا يكتفى بذكر عددهم وموطنهم، بل يزيد على ذلك بأن يذكر أسماءهم . وهي، كما يزعم : حسًّا، ومسًّا، وشاصر. وناصر. وإينا الأرد، وأينين، والأحقم[٦٧].

لا نعرف — ولا نعتقد أن أحدا يعرف وعلى من يعرف أن يدلنا على ما يعرف مقرونا بالدليل — من أين أتي ابن إسحاق بأسماء هؤلاء الجن أو بعددهم ، فهذا غير مذكور في القرآن، كل ما ذكره القرآن هو أنهم نفر من الجن، ولم يحدد عددهم ولا أسماءهم . فما هو مصدر ابن إسحاق وحجته في ذلك؟

في الحقيقة، لا يوجد مصدر، ولا توجد حجة، بمعنى أنه يطلق كلاما مرسلا وبلا دليل، يكتفى بالقول : " فيما ذكر لي" و " فيما بلغني " ولا يذكر لنا من الذي ذكر له ولا من الذي أبلغه . وهذا بيان يرفضه المنطق لأنه لا منطقي، وأسلوب يرفضه الفكر لأنه لا يقوم على دليل.

النبي يطلب الجوار : أقام النبي بنخلة عدة أيام، يفكر . لابد وأن يدخل مكة

67- الطبري ، جـ ١ ، ص ٥٥٥ .

ويلتقي بالقبائل في موسم الحج . لكن كيف يدخل مكة وما حدث في الطائف قد شاع أمره؟ وغدت قريش تعرف أنه لا ملجأ ولا نصير له . كان لابد وأن يطلب الجوار، أي أن يطلب من أحد سادة مكة أن يجيره ويحميه حتى يقيض الله له فرجا ويجعل له مخرجا.

انتهى إلى حراء .مرَّ به بعض أهل مكة .اختار النبي رجلا من خزاعة،سأله: هل أنت مبلغ عني رسالة؟ قال الرجل: نعم. فأرسله إلى الأخنس بن شريق من بني زهرة يطلب جواره،لكن الأخنس رفض. فأرسله إلى سُهَيل بن عمرو من بني عامر،فرفض هو أيضا. فأرسله إلى المطعم بن عدي سيد بني نوفل،ولم يتردد المطعم بن عدي في أن يجير النبي،رغم عدم إسلامه. وهذا موقف لم ينسه النبي أبدا،وما كان له أن ينساه.

وقد ثبت عن النبي أنه قال في أساري بدر: "لو كان المطعم بن عدي حيا وكلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له "، والمراد بالنتنى " الأسري من المشركين " . وقد قال النبي ذلك مكافأة للمطعم بن عدي على جميله وإحسانه [٦٨].

توجه النبي إلى دار المطعم بن عدي حيث قضى ليلته . وفي الصباح طلب المطعم من بنيه وقومه أن يتلبَّسوا السلاح وأن يكونوا على أهبة الاستعداد عند أركان الكعبة، ذلك لأنه قد أجار محمدا.

ودخل النبي حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام مطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش إني قد أجرت محمدا فلا يهجْهُ أحد منكم . وصلى النبي في أمان ثم انصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي وولده محيطون به[٦٩].

يروى الطبري أنه بعد أن دخل النبي مكة وأقام بها، دخل يوما المسجد الحرام والمشركون عند الكعبة،فلما رآه أبو جهل قال: هذا نبيكم يا بني عبد مناف!كان يسخر من النبي . ويقال إن عتبة بن ربيعة رد عليه قائلا: وما تُنْكر أن يكون منا نبي أو ملك. فأُخبر بذلك النبي — أو سمعه — فأتاهم فقال: أما أنت يا عتبة بن ربيعة فوالله ما حميت لله ورسوله، ولكن حميت لأنفِك، وأما أنت يا أبا جهل بن هشام، فوالله لا يأتي عليك غير كبير من الدهر حتى تضحك قليلا وتبكي كثيرا. وأما أنتم يا معشر الملأ من قريش،فوالله لا يأتي عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون،وأنتم كارهون[٧٠].

السؤال الذي لابد وأن يثار هنا،هو: لماذا طلب النبي الجوار من الأخنس بن شَريق، ومن سُهَيْل بن عمرو، ثم من المطعم بن عدي،ولم يفكر مطلقا في طلب الحماية من عشيرته؟

68- الصابوني ، **تفسير آيات الأحكام** ، ص ٦٠٦ .
69- ابن سعد ، جـ١ ، ص ٢١٢ .
70- الطبري ، جـ١ ، ص ٥٥٥ .

من الواضح أنه عند عودة النبي من الطائف، لم يكن بين المسلمين من يمتلك القوة الكافية لحمايته، ولا حتى عمر • أما أبو بكر فكان هو وعشيرته — بني تيم — في موقف بالغ الضعف لدرجة أن أبا بكر نفسه أُهين. وضُرب، ورُبط بالحبال، ورُمي تحت وهج الشمس الحارقة ولم تستطع عشيرته حمايته•

لكن، ماذا عن حمزة والعباس ؟!! هل خضعت عشيرة النبي بأكملها لتأثير أبي لهب، وقد أصبح سيدها وقائدها، فتركت محمدا يواجه مصيره وحده؟

هذا ما لا نملك إجابة واضحة عليه، لكن الواقع يثبت أنهم لم يفعلوا شيئا من أجله • لم يستطع النبي دخول مكة إلا بعد أن أجاره المطعم بن عدي • ولقد كان من المتصور أن حمزة، وقد اعتنق الإسلام، سيستل سيفه ويعلن أنه سيقاتل حتى الموت كي ينصر ابن أخيه ويعلي كلمة الدين الذي آمن هو به • ويمكن القول إن حمزة كان ما يزال يعيش أيام جاهليته غارقا في لهوه وخمره، ولم تكن روحه قد تشبعت بعد بنور الإيمان•

أما العباس فقد كان تاجرا ومرابيا، وهو في الواقع لم يؤمن بما جاء به محمد • كل ما كان يهمه هو جمع المال من التجارة والربا، ووقوفه إلى جانب ابن أخيه مخاطرة بأرباحه من الربا ومكاسبه من التجارة، وهذا بالنسبة له ضرب من ضروب المستحيل • فليذهب محمد إلى الطائف أو لا يذهب، وليعد أولا يعود، ما كان هذا ليهمه في قليل أو كثير • إن العباس ليس أبا بكر، الذي أنفق أغلب أمواله وتحمل بوار تجارته في سبيل الدعوة إلى دين الله • هناك فرق بين هذا وذاك •

العباس هو العباس فقط: التاجر المرابي، الانتهازي، الحصيف، الذكي، الذي يجري وراء مصالحه ولا يهمه محمدا ولا دين محمد • وسنرى، فيما بعد، كيف سيتخلى عن قريش ودين قريش عندما تصبح كفة النبي هى الراجحة•

قد يصاب بعض " المتنطعين " بالدهشة، يصرخون : كيف تقول هذا الكلام عن عم النبي؟ وأقول لهم: وما رأيكم فيما قاله القرآن الكريم عن أبي لهب، وهو أيضا عم النبي؟!!

- ٦ -
الإسراء والمعراج

بعد عام الحزن الذي مات فيه أبو طالب وخديجة، وبعد رحلة الطائف التي أدميت فيها قدما النبي وشج رأسه، وبعد عودته إلى مكة التي لم يستطع دخولها إلا بجوار، زادت معاناة النبي • كان دائما ما يرفع وجهه إلى السماء، يتوسل إلى خالقه أن يفرج كربه وأن

يمده بآية تعينه على ما هو فيه من عناء.

الإسراء : وكان الإسراء . وكان المعراج : " سُبْحٰن الذي أسري بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذي بٰركنا حوله لنريه من ءايتنا إنه هو السميع البصير" (سورة الإسراء: ١).

من هنا تبدأ معجزة الإسراء . وقبل أن نتحدث عن تفاصيلها، نري أنه من المفيد أن نحدد تاريخ حدوثها . وفي هذا المجال هناك عدة آراء: ينص ابن سعد في **الطبقات الكبرى** أنها كانت ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة[٧١] . ويقول البعض: لقد حدث ذلك في السنة التي بعث فيها النبي، وقيل: سنة خمس من النبوة، وقيل: في ٢٧ رجب سنة عشر من النبوة، وقيل : في ١٧ رمضان سنة اثنتي عشرة من النبوة، وقيل: في ١٧ ربيع الأول سنة ثلاثة عشرة من النبوة، وقيل: في العام التاسع من البعثة وفي الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول[٧٢] . ويتفق ابن حزم مع ابن سعد في أن الإسراء كان قبل الهجرة بعام، ويحدد التاريخ: كان في رجب سنة اثنتي عشرة من النبوة.

لا يهمنا كثيرا اختلاف علماء السيرة في تحديد التاريخ، ما يهمنا هو منطق الأحداث وكيفية تتابعها بلا شذوذ أو افتعال . ونرجح أن الإسراء كان بعد عام الحزن، وبعد العودة المفجعة من الطائف، وبعد الانكسار عند دخول مكة في حماية أحد الكفار . كان لابد وأن تحدث انفراجة . وكان الإسراء.

البداية، كما يحكى بعض الرواة، كانت في بيت أم هانئ : هند بنت أبي طالب، وكانت أمها فاطمة زوجة أبي طالب قد اعتنقت الإسلام، وكذلك فعلت ابنتها أم هانئ أخت علي وجعفر . لكن زوج أم هانئ لم يتقبل دعوة النبي وظل على دين قريش، ورغم ذلك كان يرحب بالنبي إذا ما زاره في بيته، وكان لا يعترض على صلاتهم خلف النبي.

في إحدى الليالي بعد أن صلى بهم النبي صلاة العشاء، طلبت منه أم هانئ أن يقضي الليل معهم، وقبل النبي الدعوة . لكنه بعد أن نام فترة قصيرة قام وخرج إلى المسجد . كان يحب زيارة الكعبة أثناء الليل . وبينما هو هناك اعترته الرغبة ثانية في النوم، فنام في الحجر.

في الحجر جاءه جبريل وهو نائم فهمزه بقدمه عدة مرات حتى أيقظه، فأخذ بعضُده إلى باب المسجد، فإذا دابة بيضاء بين البغل والحمار في فخذيها جناحان، تلك الدابة هى

71- ابن سعد ، جـ ١ ، ص ٢١٤ .
72- الشعراوي ، **الإسراء والمعراج**، ص ٧٥ .

البراق، كما سماها جبريل ٠ كانت طويلة الظهر. طويلة الأذنين ٠ ركبها النبي ٠ ويقال إن الأرض قد قُبضت لها حتى كان منتهى وقْع حافرها طَرَفها ٠ وسبحت البراق بالنبي في الهواء تطوي المسافات طيا، وجبريل مع النبي لا يفوته حتى انتهى البراق إلى "بيت المقدس" ، فأمرها جبريل بالهبوط ٠ وانتهت الدابة إلى موقفها التي كانت تقف فيه، فربطها جبريل ٠ ويقال إنه كان مربط الأنبياء قبل رسول الله [٧٣]٠

هناك رواية أخرى لا تشير مطلقا إلى نوم النبي في بيت أم هانئ ثم خروجه إلى المسجد ونومه في الحجر حيث أيقظه جبريل. بل تنص على أن جبريل جاءه بعد صلاة العتمه (العشاء) مباشرة ومعه دابة بيضاء طلب منه أن يركبها ٠ ويروى الشيخ الشعراوى عن شداد بن أوس ٠ ٠ قال : قلت يا رسول الله كيف أسري بك ليلة أسرى بك ؟ قال: صليت لأصحابي صلاة العتمة بمكة معتما، فأتاني جبريل بدابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل، فقال : اركب ، فاستصعب عليَّ فدارها بأذنها، ثم حملني عليها، فانطلقت تهوي بنا، يقع حافرها حيث أدرك طرفها (أي تضع رجلها عند منتهى ما يرى بَصَرُها) حتى بلغنا أرضا ذات نخل، فقال : انزل ، فنزلت، ثم قال : صلِّ، فصليت ،ثم ركبنا، فقال أتدري أين صليت؟ قلت : الله أعلم، قال صليت بيثرب، صليت بطيبة، ثم انطلقت تهوي بنا، يقع حافرها حيث أدرك طرفها حتى بلغنا أرضا بيضاء ، فقال : انزل ، فنزلت ، ثم قال: صلِّ، فصليت ، ثم ركبنا فقال : أتدري أين صليت ؟ قلت : الله أعلم، قال: صليت بمدين ، صليت عند شجرة موسى، ثم انطلقت تهوي بنا، يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضا بدت لنا قصورها، فقال : انزل، فنزلت ، ثم قال: صلِّ، فصليت، فقال : أتدري أين صليت ؟ قلت : الله أعلم، قال صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام المسيح ابن مريم، ثم انطلق بنا حتى دخل المدينة من بابها اليماني، فأتى قبلة المسجد ، فربط دابته، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس ، فصليت من المسجد حيث شاء الله[٧٤]٠

وقد جاء في صفة " البراق" أنها دابة دون البغل وفوق الحمار، وجهها وجه إنسان ، وخفها خف حافر، وذنبها ذنب ثور، وعرفها عرف الفرس، لها جناحان، وإذا أتت على جبل ارتفعت رجلاها وإذا هبطت ارتفعت يداها.[٧٥]

ومن الغريب، بل من المتناقض، في سلوك تلك الدابة، أنه عندما اقترب منها النبي

73- ابن سعد ، جـ١ ، ص ٢١٤ ٠
74- الشعراوي ، ص ١١٩ ـ ١٢٠
75- نفس المرجع ، ص ١٢٨ ٠

— كما يحكي الرواة — نفرت منه مع علمها أنه نبي وصاحب شفاعة وأنها تريد أن تكون في شفاعته يوم القيامة.

هذا سلوك متضارب، لا يستقيم فهمه . ومن حديث ابن عباس، كما ينقله الشيخ الشعراوي، قال : قال رسول الله . . فلما أدناها مني جبريل عليه السلام نفرت، ونفشت عرفها، فمسحها جبريل عليه السلام، وقال يا برقة لا تنفري من محمد. فوالله ما ركبك ملك مقرب، ولا نبي مرسل أفضل من محمد، ولا أكرم على الله منه، قالت :قد علمت أنه كذلك، وأنه صاحب الشفاعة، وإني أحب أن أكون في شفاعته.

وإذا كانت البرقة قد علمت " أنه كذلك" ، فلماذا فعلت ذلك؟ هل كانت تتدلل؟!!

يحكي بعض الرواة أن جبريل هو أيضا ركب البراق، وأن النبي ركب خلفه: " أتيت بالبراق فركبت خلف جبريل" ، جاء هذا في حديث ابن مسعود، وفي حديث حذيفة :"أتي رسول الله بالبراق فلم يزايل ظهره هو وجبريل،حتى انتهيا إلى بيت المقدس".

ورواية حذيفة تتناقض مع رواية شداد بن أوس، التي أشرنا إليها من قبل، والتي تنص على أن النبي هبط وصلى في يثرب، ثم في مدين، ثم في بيت لحم، قبل أن يصلي في بيت المقدس.

وهناك من ينكر ركوب جبريل البراق ويدعي أن جبريل كان فقط مجرد قائد أو سائق أو دليل، ذلك لأن قصة المعراج كانت كرامة للنبي فلا دخل لغيره فيها[٧٦].

ويُحكى — كما سبق وأشرنا — أنه بعد أن وصل النبي إلى المسجد الأقصى، ربط جبريل البراق . وفي رواية أخرى أن جبريل أتى الصخرة التي في بيت المقدس فوضع إصبعه فيها، فخرقها، فشد بها البراق.

هذا قول مستغرب . لماذا ربط جبريل البراق ؟ هل خاف أن تهرب الدابة؟ هل "البرقة" — كما سماها جبريل — دابة كسائر دواب الأرض لو تركت دون رباط سوف تفر، أو تخرج فترعى في أرض الله الواسعة، وقد لا تعود؟

هذه أحداث يرفضها العقل، ولقد كان من الواجب على السادة الرواة أن يفكروا فيها قبل النطق بها . وما يؤكد قولنا هذا، حديث لحذيفة — أورده الشيخ الشعراوى — قال تحدثون أنه ربطه، أخاف أن يفر منه، وقد سخره عالم الغيب والشهادة ؟"

ويحكى الرواة — فيما يروون — أن النبي بعد أن ركب البراق سمع نداء عن يمينه: يا محمد على رسلك حتى أسألك، فمضي ولم يعرج، ثم سمع نداء عن يساره : يا محمد

76- نفس المرجع ، ص ١٣١ .

على رسلك، يريد أيضا أن يسأله، فمضي ولم يعرج. ثم استقبلته امرأة عليها كل زينة الدنيا رافعة يديها، تقول : على رسلك حتى أسألك. فمضي ولم يعرج. حتى أتى بيت المقدس فنزل عن الدابة.

سأله جبريل : ما سمعت يا محمد؟ فأخبره . فأوضح له جبريل أن ذلك النداء عن يمينه هو داعي اليهود، ولو وقف لتهودت أمته . وذلك النداء على يساره هو داعي النصارى، ولو وقف لتنصرت أمته، أما المرأة التي استقبلته بكل زينتها رافعة يديها وأرادت أن تسأله فهذه هي الدنيا، لو وقف لاختار الدنيا على الآخرة.

نعتقد أن الرواية لا تزيد عن كونها مجرد موعظة، خلاصة مدلولها حض على اختيار الطريق القويم المستقيم، دون تعريج إلى يمين أو يسار، مع عدم الخضوع للدنيا وإغراء لهوها وملذاتها . ولا نعتقد أن للرواية أي مدلول آخر، فهناك استحالة بالطبع أن يختار النبي أن يصبح يهوديا أو نصرانيا أو أن يخضع لزخرف الحياة الدنيا ولهوها، لأن من يفعل ذلك لا يمكن أن يكون نبيا، ولا يجب أن يكون.

المسجد الأقصى : أسرى الله بعبده محمد ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . هنا لابد أن تكون لنا وقفة، وسؤال: هل كان هناك ما يسمى بالمسجد الأقصى أيام النبي؟ هل كان هناك مبني قائم في مكان محدد تقام فيه الصلاة ويعرفه الناس باسم المسجد الأقصى؟ وإذا كان هذا المسجد له وجود حقيقي أيام النبي فمن الذي بناه وفي أي عهد؟

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي : ليس هناك اتفاق على تحديد المسجد الأقصى. ولكن التفسير الإسلامي في عمومه يحدده بيت المقدس، وهذا يتفق مع قول ابن إسحاق: ثم أسرى برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس[77] . هنا يثور سؤال : أي قدس يقصد، القدس السماوية، أو القدس الأرضية الموجودة في فلسطين؟ وهذا سؤال عبثي . ذلك لأن القدس السماوية وهْم اخترعته كتابات يهودية متأخرة . لتبين أن هناك قدسا أبديا شيده الله في السماء وسوف يكون الملاذ الأخير للمؤمنين[78].

إن المنطق المقبول لدي أي إنسان يتميز بالعقلانية والحكمة هو أن النبي أسرى به إلى المكان الذي قد كان فيه هيكل سليمان يوما في أورشليم القدس، وحيث يوجد الآن المسجد الأقصى الذي تم بناؤه فيما بعد في العصر الإسلامي، ولم يكن قائما قبل الإسلام.

77- ابن هشام ، جـ ٢ ، ص ٢ .

78- عبد الرحمن بدوي ، **دفاع عن القرآن** ، ص ٧٩ ـ ٨٠ .

ولقد كان مكان هيكل سليمان أيام النبي، وذلك بشهادة التاريخ، مجرد خراب، أطلال وحجارة، مكان تلقى فيه القاذورات إذلالا لمن تبقى من يهود، وظل على هذه الحالة حتى الفتح الإسلامي ووصول عمر بن الخطاب إلى القدس.

إذن كيف أطلق على هذه الأطلال اسم "المسجد" ؟ يجيب على هذا السؤال الشيخ الشعراوي بقوله : إن المسجد في حالة هدمه يسمى مسجدا، باعتبار ما كان عليه، وما وضع له، كما أطلق المسجد على حرم مكة، وهو لم يكن يومئذ مسجدا، وإنما كان بيتا للأصنام. لكن إبراهيم وإسماعيل، لما بنيا الكعبة للعبادة الصحيحة، كما بني سليمان هيكله هذا لها، سمي مسجدا بهذا الاعتبار . أو يقال : إنه أطلق عليهما اسم المسجد للإشارة إلى ما يؤول إله أمرهما، وهو كونهما مسجدين للمسلمين [٧٩].

لقد كان الهيكل في بداية " العهد الجديد"، أي بعد ميلاد المسيح، في قمة مجده كحرم ديني مقدس، ذائع الصيت . كان هيرود "العظيم" قد جدد بناءه بصورة رائعة . على أن ذلك الهيكل — كما يعتقد اليهود — كان في البدايات الأولي مجرد خيمة تجلى فيها الرب لموسى، ثم تحول الهيكل الخيمة إلى هيكل من خشب يمكن فكه ونقله إلى أي مكان . حدث هذا أيام التيه . وكان اليهود يصحبونه معهم في حروبهم الدموية، إشارة إلى أن الرب في وسطهم، يحارب معهم . ثم بني سليمان هيكله حوالي القرن العاشر قبل الميلاد . وقد ارتفع قدره وسما شأنه حتى هدمه البابليون في القرن السادس قبل الميلاد (نبو خذنصر ٥٨٦ ق . م)، بعد أن ظل شامخا قرابة أربعة قرون.

في عام ٥٣٦ ق . م . أمر " قورش" ملك فارس بإعادة بناء الهيكل، وبعد خمسة قرون جدده "هيرود" وأضاف إليه (٦٣ — ٦٧ ق.م)، ثم تم تدميره تدميرا كاملا ولم يعد له وجود عام ٧٠ بعد الميلاد، بعد سقوط أورشليم في أيدي الرومان . وبذلك أصبح الهيكل مجرد خرائب وأطلال [٨٠].

يوجد حديث للنبي، يقول: إن سليمان لما بني "بيت المقدس" سأل ربه ثلاثا، فأعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة :

سأله حكما يصادف حكمه فأعطاه.

وسأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه.

وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد – يعني بيت المقدس

79- الشعراوي ، ص ٦٩ .

80- انظر كتابنا ، **لا تصلبوا المسيح** ، ص ٣٧ .

— خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه ٠قال النبي: ونحن نرجو أن يكون الله أعطاه ذلك [٨١]

هذا معناه أن النبي نفسه قال بوضوح لا لبس فيه أن الذي بني " بيت المقدس" هو سليمان ٠ وهذا معناه أيضا أنه قد مر ما يقرب من تسعة قرون ما بين بناء الكعبة و "بيت المقدس"، حيث أن إبراهيم عليه السلام . وهو الذي بني الكعبة، عاش في القرن التاسع عشر قبل الميلاد،وبيت المقدس بناه سليمان الذي عاش في القرن العاشر قبل الميلاد، وبذلك يصبح ما بين بناء الكعبة و "الهيكل"، أي "بيت المقدس" ، حوالي تسعمائة عام٠

وما سبق يدحض رأي الذين يدعون أن ما بين بناء الكعبة وبيت المقدس أربعون عاما فقط ٠ ولكي يثبتوا صدق رأيهم ادعوا أن الذي بني "بيت المقدس" هو يعقوب بن إسحق المسمى بإسرائيل٠

يعقوب هذا، **كما تصفه " التوراة "**، كاذب ومخادع ولص ولئيم، جرَّد أخاه "عيسو" من كل شئ، ثم فر هاربا خشية أن يقتله أخوه، وفي طريق هربه، إلى خاله " لابان " نام في العراء ووضع تحت رأسه قطعة من حجر، أقسم عندها قسما مشروطا وهو أنه لو ساعده الرب على النجاة فإنه سيصلي له ويعبده: "إن كان الله معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه وأعطاني خبزا لآكل وثيابا لألبس ورجعت بسلام إلى بيت أبي يكون الرب إلها لي" (تكوين ٢٨ : ٢٠ — ٢١)، أي أن عبادته للرب كانت بشروط: إن أعطاه خبزا ليأكل وثيابا ليلبس وأعاده بسلام إلى بيت أبيه، عبده ٠ أما إذا لم يقم الرب بذلك، فهو بالتأكيد لن يعبده ٠ وكأن يعقوب "التوراتى" يعقد مع الرب صفقة، وبشروطه هو ٠ وبعد سنين قضاها عند خاله "لابان" تزوج ابنتيه، أي تزوج الأختين ابنتي خاله، ثم سرق غنم خاله وفر هاربا٠

ولا تشير التوراة مطلقا إلى أن يعقوب بني هيكلا أو معبدا أو أي شئ من هذا القبيل٠

يُقر الشيخ الشعراوي في أكثر من موضع من كتابه **الإسراء والمعراج** أن الذي بني "بيت المقدس" في أرض فلسطين هو سليمان، ثم يعود فيقول: وأما بيت المقدس [الذي هو في فلسطين] فله قدسية مع موسى وعيسى وأنبياء بني إسرائيل٠

وهذا خطأ٠

ونفس الخطأ يقع فيه الدكتور محمد حسين هيكل عندما يقول: إن النبي كان حين يصلي يجعل قبلته المسجد الأقصى ببيت المقدس، مقام سلفيه موسى وعيسى[٨٢]٠

81- الشعراوي ، ص ٨٥ ـ ٨٦ ٠

82- هيكل ، ص ١٦٩ ٠

ونؤكد أن ما يسميه الدكتور هيكل " المسجد الأقصى ببيت المقدس " لم يكن أبدا مقاما لموسى. ذلك لأن موسى مات قبل أن يَغْزُ العبرانيون أرض فلسطين . الذي قاد بني إسرائيل إلى أرض فلسطين ودخلها معهم هو يشوع بن نون الذي خلف موسى في قيادة بني إسرائيل . أما موسى فقد حُرِّم عليه دخول هذه الأرض. كما جاء في النص التوراتي: "وكلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلا . اصعد إلى جبل عباريم هذا جبل نَبُو الذي في أرض موآب الذي قبالة أريحا وانظر أرض كنعان التي أنا أعطيها لبني إسرائيل مُلْكا . ومُتْ في الجبل الذي تصعد إليه وانضمَّ إلى قومك كما مات هٰرون أخوك في جبل هور وضُمَّ إلى قومه . لأنكما خُنْتُماني في وسط إسرائيل عند ماء مريبة قادش في بريَّه صين إذ لم تُقدِّساني في وسط بني إسرائيل . فإنك تنظر الأرض من قُبالتها ولكنك لا تدخل إلى هناك إلى الأرض التي أنا أعطيها لبني إسرائيل، (تثنية ٣٢ : ٤٨ — ٥٢).

أُسْرى بالنبي، إذن، إلى حيث كانت أنقاض " هيكل سليمان، ولقد سُمي المكان رغم ذلك مسجدا، لأنه فيما سبق كان مكانا للعبادة، والمسجد حسب التعريف الإسلامي هو مكان السجود وسُمى بالأقصى وذلك لبعده عن مكة.

ويدعي كعب الأحبار أن الحكمة من الإسراء بالنبي إلى ذلك المكان بالذات تكمن في أن "بيت المقدس" يقع في مقابل باب في السماء يسمى " مصعد الملائكة".

هذا كلام يصعب تصديقه، ويستحيل تحقيقه . ولم يقل لنا كعب الأحبار هذا، من أين له بهذه المعلومة ومن الذي أمده بها ؟ هل كان يوحي إليه، أم ألهمه بها عفريت من الجن؟ نحن لا نعرف، وهو للأسف لم يصرح.

نورد في هذا المجال تعليقا للجاحظ على ما رواه كعب الأحبار، وهو لا يتفق معه . وليس معنى هذا أننا نتفق مع ما قاله الجاحظ، فالجاحظ يرد على ادعاء بعلم المجهول بادعاء بعلم مجهول آخر، ولا يخبرنا من أين أتي بهذا العلم، الذي لا علم لنا به، ولا ذكر له في القرآن الكريم.

يقول الجاحظ: روى كعب الأحبار أن باب السماء الذي يقال له " مصعد الملائكة" يقابل بيت المقدس، فأخذ منه العلماء أن الحكمة من الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج **ليحصل العروج مستويا** من غير تعريج . وفيه نظر، لورود أن في كل سماء بيتا معمورا وأن الذي في السماء الدنيا حيال الكعبة . **وكان من المناسب أن يصعد من مكة إلى البيت المعمور بغير تعريج**، لأنه صعد من سماء إلى سماء إلى البيت المعمور[٨٣].

83- الشعراوي ، ص ١٦٣ .

القول بأن العروج يجب أن يكون مستويا بغير تعريج. هو مجرد قول غبي يغلبَ عليه طابع التهريج . لقد نسي هؤلاء الأدعياء أنهم أمام قدرة إلهية قادرة لا يعجزها استواء أو التواء أو تعريج.

وما يحكيه بعض الرواة عن أن النبي قد صلى في بيت المقدس، وأنه أمَّ الأنبياء جميعا في الصلاة، قول يرفضه رواة آخرون . فحذيفة. على سبيل المثال، ينكر أن النبي صلى في بيت المقدس. واحتج بأنه لو صلى فيه لكتب على المسلمين الصلاة فيه. كما كتب عليهم الصلاة في البيت العتيق . لكن روايةِ يزيد بن أبي مالك تشير إلى عكس ما يقول به حذيفة: " فلم ألبث إلا يسيرا حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن، فأقيمت الصلاة، فقمنا صفوفا ننتظر من يؤمنا فأخذ جبريل بيدي، فقدمني فصليت[٨٤].

هذا الكلام لا يتفق مع منطق الأحداث في سيرة النبي . إذا كان قد أُذِّن للصلاة في بيت المقدس، فهذا معناه أن النبي قد عرف أن للصلاة أذانا وأن للأذان صيغة معينة سمعها بكل تأكيد وما كان لينساها أبدا، ورغم ذلك نراه في المدينة — أي بعد الهجرة — يستشير أصحابه في كيفية دعوة الناس للصلاة، هل يستخدم البوق كما اليهود، أو الجرس كما النصارى، حتى اقترح عليه أحد المسلمين صيغة الأذان كما نعرفها اليوم، والتي قال الصحابي إنه قد استمع إليها في حلم له.

ويروي ابن إسحاق — فيما يروي — أنه في بيت المقدس أُتي للنبي بآنية ثلاث: إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم" فسمعت قائلا يقول حين عُرضت عليَّ: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته، وإن أخذ الخمر غَوي وغوت أمته، وإن أخذ اللبن هُدِى وهُديت أُمته" ، قال: " فأخذت اللبن فشربت منه. فقال لي جبريل عليه السلام: هُديت وهُديتْ أمتك يا محمد"[٨٥].

واضح من الكلام السابق أن اختيار النبي لإناء اللبن لم يكن اختيارا حرا، بل تمَّ بناء على تنبيه وتحذير.

ونرى عكس ذلك، ذلك لأنه في حالة النبي لابد وأن يكون الاختيار حرا غير خاضع لتحذير أو توجيه أو إملاء، فالنبي يهتدي بنور إيمانه بالله، وإيمانه بالله يقين، ومن يهده الله يجعل له نورا . الاختيار هنا — إن لم نكن على خطأ — لابد وأن ينبع من أعماق النبي، معبرا عن طهر الفطرة . وطهر الفطرة لابد وأن يختار طهر الفطرة ، واللبن فطرة.

84- نفس المرجع ، ص ١٣٧ .
85- ابن هشام ، جـ٢ ، ص ٣ .

بقول القرطبي: يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة لأنه أول شئ يدخل بطن المولود ويشق أمعاءه، والسر في ميل النبي إليه دون غيره، لكونه كان مألوفا له. ولأنه لا ينشأ من جنسه مفسدة[٨٦].

تروي أم هانئ بنت أبي طالب، ابنة عم النبي، ما أخبرها به النبي بعد أن أُسري به، تقول: لما كان قبيل الفجر أهبَّنا (أيقظنا) رسول الله صلي الله عليه وسلم، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : " يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين"، ثم قام ليخرج فأخذْتُ بطرف ردائه . فقلت له : يا نبي الله لا تحدث بهذا الحديث الناس فيكذبوك ويؤذوك، قال : " والله لأُحَدِّثنهُمُوه[٨٧] .

حدث ما توقعته أم هانئ وحذرت منه النبي: لم يصدقه أحد ممن كان حوله في المسجد . كذبته قريش . ليس هذا فحسب، بل إن كثيرا ممن سبق وأسلموا ارتدوا عن إسلامهم، ذلك لأن الذي قصه عليهم النبي فاق ما تدركه عقولهم، فأنكروه : والله إن العير لَتَطْرُد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة وشهرا مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟!!

نسوا أن محمدا لم يفعل ذلك بقدرته، لكن القدرة الربانية هى التي فعلت . نسوا أن الله قادر على مالا يقدر عليه محمد أو غير محمد . نسوا الله.

ذهبوا إلى أبي بكر، قصوا عليه ما قاله النبي . كانوا يعتقدون أنه لن يصدق كما لم يصدقوا . قالوا له إن صاحبه : يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة !!

كان رد فعل أبي بكر : أنتم تكذبون . أبو بكر لم يصدق لأول وهلة عندما أخبروه، لكنه لم يكذب النبي بل كذبهم هم . طلبوا منه أن يذهب إلى المسجد فهو هناك يحدث الناس . وكان رد أبي بكر عليهم ردا إيمانيا مطلقا لا تعلق به ذرة شك: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدِّقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه.

لهذا سماه النبي : الصديق.

اختلفت أقوال الإخباريين حول عدد مرات الإسراء، فمنهم من قال : كان الإسراء مرة

86- الشعراوي، ص ١٧١.
87- ابن هشام، جـ٢، ص ٩

واحدة. ومنهم من قال : بل كان مرتين مرة قبل الوحي ومرة بعد الوحي. ومنهم من قال بل كان ثلاث مرات مرة قبل الوحي ومرتين بعده ٠ لكن ما ذهب إليه أكثر العلماء هو أن الإسراء كان مرة واحدة بعد المبعث، وكان ذلك قبل الهجرة بحوالي عام واحد٠

المعراج : في نفس ليلة الإسراء، كما يتفق أغلب الإخباريين، عُرج بالنبي إلى السماوات العُلا ٠ أُتي له بالمعراج وهو في " بيت المقدس" ٠ والمعراج — كما يقول ابن إسحاق — " هو الذي يمُدُّ إليه ميْتكم عينيه إذا حُضِر " ٠ ويورد الشيخ الشعراوي بعض الروايات عن تعريف ووصف المعراج، يقول : فأما العروج فلم يكن على البراق، بل رقي المعراج: وهو السلم ٠ ٠ وفي رواية كعب : فوضعت له مرقاه من فضة ومرقاة من ذهب، حتى عرج هو وجبريل ٠ وفي رواية لأبي سعيد ٠ ٠ أنه أتي بالمعراج من جنة الفردوس، وأنه منضد باللؤلؤ، وعن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة[88]٠

وحكاية السلم الذي يصل ما بين الأرض والسماء والملائكة عن يمين ويسار — والسلم من ذهب وفضة ولؤلؤ — لا أصل لها في القرآن، ولا يوجد نص يؤكد أن النبي قد قص على أصحابه كلاما من هذا القبيل،لأنه لو كان فعل لتم تدوين ما قال في أحاديث صحيحة ثابتة٠ ونعتقد أن حكاية السلم الذهب والفضة واللؤلؤ هى مجرد حكاية من حكايات الرواة٠ ربما تأثروا بحكاية سلم يعقوب كما ترويها الأساطير الإسرائيلية ٠ وتبدأ الحكاية في الليلة الأولى ويعقوب في طريقه إلى "حاران" — هاربا من أخيه عيسو — وهو في قمة خوفه وقلقه ٠ يضع يعقوب تحت رأسه حجرا وينام، وفي نومه يرى الحلم الواعد بالعطاء والأمل: "وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها، وهو ذا الرَّب واقف عليها فقال أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق ٠ الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك " (تكوين ٢٨ : ١٢ — ١٤)٠

يرى فريزر أن حكاية السلم الذي يصل ما بين السماء والأرض ما هى ببساطة إلا أسطورة متداولة منذ أقدم العصور: الاعتقاد في وجود مثل هذا السلم الذي تستخدمه الكائنات الإلهية ، أو أرواح الموتى، يصادفنا في بقاع كثيرة من أنحاء العالم، فقد حدثتنا كنجليّ في أثناء حَديثها عن آلهة غرب أفريقيا فقالت " إننا نجد في كل مجموعة من مجموعات الحكايات الشعبية الأهلية على وجه التقريب، حكايات تروي عن زمن كانت فيه الآلهة أو الأرواح التي تسكن السماء على اتصال مباشر بالناس فشعب فزنادوبو يحكي على سبيل

88- الشعراوي ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ٠

المثال أنه في زمن من الأزمنة لم تكن هناك متاعب أو اضطرابات على وجه الأرض. حيث كان هناك سلم شبيه بالسلم الذي يستخدمه الناس في الحصول على ثمار جوز الهند من أعالي الأشجار، إلا أنه كان طويلا للغاية ٠ وعن طريق هذا السلم كانت الآلهة تصعد وتهبط لتشارك في شئون الناس الدنيوية " ٠٠ ويعتقد سكان مدغشقر أن أرواح الموتى تصعد إلى السماء عن طريق سلم من الفضة، وهذا السلم تستخدمه الأرواح السماوية في تبليغ رسالات السماء إلى الأرض٠

وفي " متون الأهرام " وقد كتبت قبل ميلاد يعقوب بما يزيد عن أربعمائة عام، نجد السلم السماوي منصوص عليه في الفقرة ٩٧٤ ٠ والفكرة في أساسها، كما يقول إرمان، ما هي إلا تزويق للوجود السماوي فيما يختص بالموتى المتازين ٠٠ كيف ينتصر الميت المتميز على كل ما يعترض سبيله ٠٠ فإذا ما انتصر على كل العقبات، فإن " رع" و " حورس" ينصبان سلما يقف أحدهما على هذا الجانب ويقف الآخر على ذلك الجانب، ومن ثم "يرقي عليه إلى السماء " (متون الأهرام ، فقرة ٩٧٤) ٠ وفي " متون الأهرام " أيضا نلتقي بأبناء حورس الأربعة آخذين في صنع سلم " مصنوع كلية من مادة سماوية وشمسية"[٨٩]٠

عُرج بالنبي حتى أتي باب السماء الدنيا، وهو باب يقال له باب الْحفَظَة، وانتقل وجبريل معه من سماء إلى سماء ٠ ويقال إنه فى السماء الدنيا التقي وآدم عليه السلام، وفي الثانية وجد يحيي وعيسى، وفي الثالثة كان يوسف،وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى،وفي السابعة إبراهيم، عليهم جميعا أفضل السلام وأتم التسليم ٠ ثم انطلق به جبريل إلى الجنة، فإذا هو بنهر أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل ، بجنبتيه قباب الدر، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ فقال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، وهذه مساكنك، ثم خرج إلى " سدرة المنتهي" وهى سدرة نبْق أعْظمها أمثال الجرار، وأصغرها أمثال البيض [٩٠]٠

سدرة المنتهى: هنا نصل إلى نقطة شديدة الدقة، شديدة الحساسية وذلك لكثرة اختلاف الآراء وتباين التفاسير، في محاولة الإجابة على السؤال: ماذا حدث عند سدرة المنتهى ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال،يجب أن نعرف أولا ما " سدرة المنتهى" ولماذا سميت بهذا الاسم ٠ أما عن السدرة فهى شجرة النبق — كما سبق وأشرنا — وتم وصف نبقها

89- انظر كتابنا ، **موسى في الأساطير الإسرائيلية** ، ص ٦٣ — ٦٤ .

90- الطبري ، جـ ١ ، ص ٥٣٦ ٠

على أنه مثل" قلال هَجَر ". وورقها على أنه مثل " آذان الفيلة ". وقيل إنها في السماء السادسة. وقيل أيضا بل هي في السماء السابعة. وهناك من يوفق بين الرأيين بقوله: إن أصلها في السماء السادسة وغصونها وفروعها في السابعة. وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها[٩١].

أما لماذا سميت " سدرة المنتهى " فيقال لأنه إليها ينتهى ما يعرج من الأرض. فيقبض منها . وإليها ينتهي ما يهبط فيقبض منها . ويقال إنها سميت سدرة المنتهى لأن علم الملائكة ينتهي إليها ، ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله . ويقال أيضا بأنها التي ينتهي إليها علم كل نبي مرسل، وكل ملك مقرب، وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله. أو من أعلمه . وهناك من يرى أنها سميت سدرة المنتهى لأنه إليها منتهى أرواح الشهداء.

وتوصف السدرة بثلاثة أوصاف : ظل ممدود، وطعام لذيذ، ورائحة زكية . وهى بذلك ترمز إلى الإيمان الذي يجمع بين القول والنية والعمل، فالظل بمنزلة العمل. والطعم بمنزلة النية، والرائحة بمنزلة القول[٩٢].

عندما وصل النبي إلى سدرة المنتهى، وجد أنه قد غشي السدرة من أمر الله ما غشيها، "إذ يغشي السدرة ما يغشي " (النجم : ١٦)، أي أنها تغيرت. تلونت بألوان مختلفة فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، ويقال أيضا: يغشاها الملائكة على كل ورقة منها ملك[٩٣].

ويُزَجُّ بالنبي إلى ما بعد سدرة المنتهى، يزج به — كما يقول الشيخ الشعراوي — في سبحات النور ولم يكن جبريل معه، وهذا دليل على أن محمدا عليه السلام قد ارتقي ارتقاء آخر، ونقل من ملائكية لا قدرة لها على ما وراء سدرة المنتهى، ودون مصاحبة جبريل عليه السلام . إذن، فالرسول كان بشرا في الأرض مع جبريل. وبعد ذلك كانت له ملائكية مع الرسل ومع جبريل في السماء، وبعد ذلك كان له وضع آخر ارتقى به عن الملائكية، حتى أن جبريل نفسه وقف أمام سدرة المنتهى ولم يستطع أن يتقدم ، ولو تقدم لاحترق، أما رسول الله فقد تجاوز السدرة إلى ما شاء الله . إخترق الرسول ولم يحترق[٩٤].

هذا معناه أنه بعد سدرة المنتهى أصبح الرسول في حالة ما فوق الملائكية. وهى التي كان فيها: " قاب قوسين أو أدني " (النجم : ٩).

91- الشعراوي ، ص ١٢٧ .
92- الشعراوي ، ص ١٢٧ .
93- نفس المرجع ، نفس الصفحة .
94- نفس المرجع ، ص ١٤٣ .

هنا نصل إلى نقطة شديدة الأهمية، شديدة الخطورة : " ثم دنا فتدلى ٠ فكان قاب قوسين أو أدني ٠ فأوحي إلى عبده ما أوحي " ٠ من الذي دنا فتدلي؟؟

اختلف العلماء حول هذه النقطة ٠ قال بعضهم إن الذي دنا فتدلى هو جبريل، ويأخذون عن عائشة قولها: ذاك جبريل ٠ كان يأتيه في صورة الرجل ٠ وإنما أتي هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق ٠ وعلى ذلك فهم يفسرون "علمه شديد القوى ٠ ذو مرة فاستوي" (النجم : ٥ — ٦)، على أن الإشارة هنا إلى جبريل، لا إلى الله، فتعليم الله لا يكون بالتلقين بل يكون بالإرشاد والإيحاء، وقوله "وهو بالأفق الأعلى" يراد به جبريل عليه السلام، " ثم دنا فتدلي" أي نزل وقرب من النبي، وهو أيضا جبريل، "فأوحي إلى عبده ما أوحي"، أي أن الله هو الذي أوحي إلى عبده محمد لكن أيضا عن طريق جبريل[٩٥] ٠

بناء على هذا التفسير فإن الذي أبلغ النبي بفرائض الصلوات التي تقررت خمسا هو جبريل[٩٦] ٠ ويقال إن قوله سبحانه وتعالي "ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى"، إنما هو أيضا جبريل، رآه النبي مرتين في صورته التي خُلق عليها ٠

يعلق مونتجمري وُت على الآيات السابقة بقوله : إن الشروح الإسلامية المألوفة هى أن هذه كانت رؤى ظهر فيها جبريل، أي أن الذي " دنا فتدلي" هو جبريل، لكن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن محمدا، في الأصل، قد فسر هذه الرؤى على أنها لذات الله، أي لله نفسه، ذلك لأنه لم ترد أية إشارة أو ذكر لجبريل حتى بداية الحقبة المدنية ٠ هذا معناه أن جبريل لم يذكر في السور المكية، هناك فقط ذكر للملائكة في صيغة الجمع : " تنزل الملائكة والروح فيها" ٠ ٠ وعلى ذلك فإن كلمات الآية " فأوحي إلى عبده ما أوحي" تظهر أن " عبده" هنا معناها عبد الله، لا عبد جبريل ٠ ويبدو التركيب اللغوي للآيات مستغربا وغير مستصاغ إلا أن يكون " الله " هو الفاعل لكل هذه الأفعال[٩٧] ٠

ويرى أرثر جيفري Arthur Jeffery أن " علمه شديد القوى ٠ ذو مرة فاستوي ٠ وهو بالأفق الأعلى " وما ارتبط بها من آيات في " سورة النجم" — في رأي أغلب المفسرين المسلمين — تشير إلى أن المقصود بها هو جبريل ٠ ٠ رغم أن هذه الصفات في أماكن أخرى تدل على ذات الله ٠ ٠ ويتفق بعض الدارسين المحدثين في الرأي على أن هذه الآيات تشير

95- أبو زهرة، جـ ١، ص ٤١٨ ٠

96- شوقي ضيف، ص ١٣٠ ٠

97- Montgomery Watt , **Muhammad at Mecca**, p. 42 .

إلى تجلي الذات الإلهية للنبي[٩٨].

يتفق الدكتور عبد الرحمن بدوي مع ما قاله مونتجمري وُت و جيفري. عندما يقرر أن "سورة النجم" تتحدث عن رؤية الله من جانب محمد، وهى الرؤية التي تمت بالروح. وهذه القضية برمتها قد تناولها علماء النصوص المسلمين، وبالاعتماد على هذه السورة اعتقد متصوفة المسلمين في إمكانية رؤية الله وهى رؤية روحانية خالصة.

ويورد الدكتور بدوي رأي " بلاشير" الذي يعتقد أن المقصود في الآيات الخمس الأولي. من " سورة النجم "، وما بعدها ليس ملكا ولكنه الله نفسه، وهذا يظهر بوضوح في الآية "فأوحى إلى عبده ما أوحى" لأن محمدا ليس عبدا للملك ولكنه عبد الله وحده، وهو وحده الذي يوحي إليه، والملك ليس إلا وسيطا بينهما، لأنه لا يوحي شيئا. وما يعزز هذه الرواية أنه كيف يستوي الملك في عظمة وقوة بينما يجلس في الأفق الأعلى : " علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى "، فالملك لا يستوي في الأفق الأعلى، لأن هذه صفات لا يمكن أن تنسب إلا إلى الله ولا يمكن أن تنسب أبدا لملك[٩٩].

ما سبق من آراء لا يختلف عما رواه الطبري، وهو أن الذي " دنا فتدلي" هو رب العزة. يقول الطبري: ثم خرج إلى سدرة المنتهى وهى سدرة نبق أعظمها أمثال الجرار، وأصغرها أمثال البيض، **فدنا ربك عز وجل**: " فكان قاب قوسين أو أدنى "، أي أن الذي دنا هنا بمنتهى الوضوح هو الله، فجعل يتغشى السدرة **من نور ربها** تبارك وتعالى أمثال الدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ ألوان. فأوحى إلى عبده، أي أن الذي أوحي إلى عبده هو الله وليس جبريل، وفهمه وعلمه وفرض عليه خمسين صلاة، خففت إلى خمس صلوات بعد أن رجع محمد إلى ربه عدة مرات بناء على نصيحة موسى الذي ذكره أن أمته أضعف الأمم قوة وأقلها عمرا وأنها لن تتحمل كل هذا العدد من الصلوات[١٠٠].

هناك رأي لابن عباس نقله القرطبي يرى أن الذي دنا هو الله سبحانه وتعالى بمعنى: دنا أمره وحكمه، وأصل التدلي النزول إلى الشئ حتى يقرب منه[١٠١].

وبما أن الله هو الذي " دنا فتدلى"، أي اقترب — طبقا لما سبق من آراء — فهذا معناه احتمال أن يكون النبى قد رأي ربه. وفي هذا المجال يقول كعب الأحبار : إن الله قد قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد — عليهما السلام — وكلّمه موسى من وراء حجاب بغير

98- Arthur Jeffery , p. 5 .

99- عبد الرحمن بدوي، **دفاع عن محمد** ، ص ٥٤ — ٥٥ .

100- انظر تاريخ الطبرى، جـ ١ ، ص ٥٣٦ .

101- الشعراوي ، ص ٣٣ — ٣٤ .

وساطه مرتين. ورآه محمد بعيني رأسه مرتين [102].

نعتقد أن قول كعب الأحبار بأن النبي رأي الله بعيني رأسه مبالغة مرفوضة. فالآيات التالية تثبيت عكس ما يقوله كعب الأحبار: " ما كذب الفؤاد ما رأي ٠ أفتمرونه على ما يرى ٠ ولقد رءاه نزلة أخرى " (سورة النجم: ١١ — ١٣)٠

الرؤية هنا بالفؤاد، رأي ربه بفؤاده مرتين، أي رآه بقلبه ٠ ويروى عن ابن عباس أنه قال : لم يره رسول الله بعينيه، إنما رآه بقلبه ٠ وتقول عائشة : من زعم أن محمدا رأي ربه فقد أعظم على الله الفرية، وقد استشهدت على قولها هذا بقوله تعالي: " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير" (سورة الأنعام : ١٠٣) ٠ عائشة تنكر أن النبي رأي الله بعينيه ، وهذا حق، وابن عباس يقرر أن النبي رأي الله بقلبه، وهذا رأي يصعب تكذيبه٠

إن الطبيعة البشرية لا تتحمل التجلي، لذلك يقول الشيخ الشعراوي إن الرسول في المرحلة الأخيرة من العروج نقل نقلة أخرى فوق الملائكية ٠ لماذا ؟ لتلقي كلام الله المباشر وللرؤية[103] ٠ وبما أنه قد نقل إلى ما فوق الملائكية فقد أصبح من المستحيل أن تكون الرؤية بالعين البشرية، إنما هى رؤية روحية خالصة ٠ وهذا معناه أنها كانت رؤيا لا رؤية٠

في هذه الرحلة المعجزة التي تجاوز النبي فيها كل ما يمكن تجاوزه حتى مدارك الحواس وقوى المنطق والعقل — لدرجة أن جبريل نفسه لم يستطع أن يصحبه — وصل محمد إلى مرحلة الفناء الكامل أمام الذات الإلهية ٠تقول كارين أرمسترونج: ولكن تجربة الفناء بالنسبة لذاته،ومواجهة تجربة العدم،بعثت محمدا إلى مستوي رفيع سام من الوجود٠ ولقد تمكن فيما بعد أن يسترجع هذه التجربة بحيث يوسع من نطاق قدرة البشر على الإحساس بالقداسة ٠وأصبح المعراج نموذجا للنبرة الصوفية في الإسلام،وأصبح الصوفيون يتحدثون دائما عن الفناء في الله،وهو الذي يعقبه البقاء والإحساس الأرقى والأرفع بتحقيق الذات[104] ٠

رأى أخير نختتم به هذه النقطة الثرية في مضمونها، وفيما أثارته من جدل ومناقشات: " ثم دنا فتدلى"، نرى أن الذي " دنا فتدلى " هو محمد عليه الصلاة والسلام، بعد أن تخطي كل مراحل البشرية والملائكية، ووصل إلى حيث لا يستطيع أن يصل بشر أو ملك، دنا واقترب من قوائم العرش، عندها أوحى الله إلى عبده ما أوحى ٠ وكانت هذه أول وآخر نفحة من نوعها إذ كان الوحي مباشرا من الذات الإلهية، لا عن طريق جبريل — وكان

102- نفس المرجع السابق ، ص ٤٤ ٠
103- نفس المرجع السابق ، ص ١٥٤ ٠
104- كارين أرمسترونج ، ص ٢١١ ٠

فرض الصلاة، وهى العبادة الوحيدة، باتفاق الآراء. التي فرضها الله مباشرة على رسوله.

وقد نقل القرطبي رأيا مشابها لما نقول به. وهو : تدلّى الرفرف لمحمد حتى جلس عليه، ثم **دنا من ربه**[105].

وفي تصويره للمعراج يبدي المستشرق دِرْمَنْجم رأيا لا يختلف كثيرا عن رأينا السابق. يقول عن النبي: ثم كان في حضرة العرش، وكان منه قاب قوسين أو أدني، يشهد الله بعين بصيرته، ويرى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها وتفوق كل ما يحيط به فهم الإنسان .. وأحس النبي سكينة راضية وفناء في الله مستطاب[106].

بالروح أم بالجسد؟ فيما يختص بحالة النبي أثناء الإسراء والمعراج، اختلف العلماء. فمنهم من قال : إن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد، ومنهم من قال: بل كانا بالروح فقط، وفريق ثالث قال : كان الإسراء بالروح والجسد أما المعراج فكان بالروح فقط.

أكدت أم المؤمنين عائشة أن الله " أسرى بروحه" فقط، وأيدها في ذلك معاوية بن أبي سفيان عندما سئل عن مسرى النبي فقال : كانت رؤيا من الله صادقة. واستشهد على ذلك، كما استشهدت عائشة ، بقوله تعالي :" وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس" (سورة الإسراء : ٦٠).

رؤيا الأنبياء حق، والوحي يأتيهم في اليقظة وفي النوم سواء، كما حدث في حالة إبراهيم عليه السلام: " فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى . قال يأبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين" (سورة الصافات: ١٠٢). ولقد تم تصديق الرؤيا دون تساؤل حتى من ولده الذي هو الذبيح . لقد كان الأمر إلهيا واجب التنفيذ : يا أبت إفعل ما تؤمر.

ولا يدلي ابن إسحاق برأي قاطع في هذا الموضوع، بل يكتفي بالقول بأن ما شاهده النبي في إسرائه ومعراجه صدق وحق، سواء كان في حالة يقظة أو في حالة منام، ويستشهد بقول النبي: تنام عيني وقلبي يقظان.

وذهب معظم السلف — كما يقول الشيخ الشعراوي — إلى أن الإسراء كان بالجسد، وفي اليقظة وأن النبي ركب البراق بمكة، ووصل إلى بيت المقدس ، وصلي فيه ثم أعرج بجسده .. وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة .. ولو كان مناما لقال "بروح عبده" ولم يقل " بعبده " .. ولو كان مناما لَمَا كانت فيه آية ولا معجزة. ولما

105- الشعراوي، ص ٣٤.
106- هيكل، ص ١٦٤.

قالت له أم هانئ: لا تحدث الناس فيكذبوك، ولا فضّل أبو بكر بالتصديق، ولما أمكن قريش التشنيع والتكذيب وقد " كذبه " قريش فيما أخبر به، حتى ارتد أقوام كانوا آمنوا. فلو كان بالرؤيا لم يستنكر.

ويضيف الشيخ الشعراوي : وكيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا، مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبي ركب البراق؟ وكيف يصح وصف الروح بالركوب؟ وهكذا كيف يصح حمل الإسراء على الرؤيا مع تصريحه صلى الله عليه وسلم بأنه كان عندما أسرى به بين النائم واليقظان ؟ فالأولى ما ذهب إليه الجمهور إذ لا فضيلة للحالم ولا مزيَّة للنائم[١٠٧].

على أية حال. من أراد أن يؤمن بأن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد فله ما آمن به ،ومن يعتقد أن الإسراء كان بالروح والجسد، والمعراج كان بالروح فقط، فلا ضير فيما يعتقد.

ونرى أن الإسراء والمعراج كانا رؤيا، وكل ما حل فيهما من أحداث كان صدقا وحقا، ولا ننكر ما جاء بخصوصهما — ولا مجرد حرف — في القرآن الكريم وصحيح الحديث النبوي الشريف، ذلك لأن رؤيا الأنبياء حق، ومن يقول بغير ذلك كافر قلبه.

أما عن اختلاف الآراء، فلا ضير فيه، بل هو ثراء وإثراء للعقيدة والفكر الديني، مادام خالصا لوجه الله.

ونختتم هذه النقطة برأي صائب أورده إ. ر. بايك E . R. Pike في كتابه عن " محمد"، يقول: لا يمكن أن نعتبر النبي مسئولا عن بعض التفصيلات الحمقاء التي أضيفت من بعده إلى حدث الإسراء والمعراج . وهذا هو الحدث الإعجازي الوحيد المرتبط بحياة محمد[١٠٨]. وهو لا يرفض الإسراء والمعراج كحدث ديني، كما لا يرفضه كونستانس جيورجيو عندما يقول: إنني أحترم العقيدة الإسلامية، وأقبل كل ما جاءت به من الناحية الدينية . ولدينا نحن المسيحيين معتقدات دينية لا يقبل بها علماء الفيزياء، ومع ذلك فنحن نقبل بها، ونعتبرها من صلب معتقداتنا[١٠٩].

107- الشعراوي، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

108 - E. R. Pike , p. 29 .

109- الشعراوي، ص ٤٨ .

- ٧ -

الهجرة إلى يثرب

النبي يخطب عائشة ويتزوج سودة: مرَّ على وفاة السيدة خديجة ما يقرب من عام . فكر النبي أن يتزوج . كان بيته في حاجة إلى من ترعى شئونه، وبناته في حاجة إلى من تعتني بهن.

اقترحت عليه خولة، زوجة عثمان بن مظعون، أن يختار فالنساء من حوله تتمنى كل منهن أن تكون زوجة له . طلب منها أن تقترح عليه . قالت : إما عائشة بنت أبي بكر. أو سودة بنت زمعة . وكانت سودة، ابنه عم سهيل رئيس بني عامر وزوجة أخيه، قد أصبحت أرملة وهي في الثلاثين من عمرها . كان زوجها، السكران أخو سهيل، قد هاجر معها إلى الحبشة (عام ٦١٦ م)، وكانا بين أول من عادوا إلى مكة . ومات السكران بعد العودة بوقت قصير.

تزوج النبي سودة توثيقا للعلاقة بينه وبين من هاجروا إلى الحبشة، وقام بتزويجها من النبي أحد إخوة سهيل وهو أبو حاطب بن عمرو . في نفس الوقت خطب النبي عائشة ابنة صديقه الصدوق أبي بكر بن أبي قحافة، لكنه لم يتزوجها إلا بعد الهجرة إلى يثرب . تقول كارين أرمسترونج : لم تكن عائشة قد تجاوزت السادسة من عمرها عام ٦٢٠م، ولكنها كانت قد خطبت من قبل إلى ابن مطعم، رئيس بني نوفل، المجير الجديد للنبي .لكن مطعما كان على أتم استعداد لإلغاء الخطبة لأن زوجته كانت تخشى أن يعتنق ابنهما الإسلام .ومن ثم تمت خطبة عائشة إلى محمد في حفل لم تحضره الفتاة [١١٠].

النبي يعرض نفسه على القبائل: قرر النبي أ ن يخرج بدعوته عن حدود قريش. إنها دعوة للناس كافة، وعليه أن يتوجه بها إلى كل القادمين إلى مكة، في مواسم الحج. من مختلف أنحاء شبه جزيرة العرب . كان يتبع الحجيج حيث كانوا، ويذهب إلى منازل القبائل في أسواق مكة وعكاظ ومجنَّة وذي المجاز، يدعوهم إلى الإيمان بالله، يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تُفْلحوا وتملكوا بها العرب وتَذِلَّ لكم العجم . . إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من هذه الأنداد. وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أُبَيِّن عن الله ما بعثني به.

من خلفه كان يسير أبو لهب يكذبه، ويسخر منه، ويستهزئ به ويقلل من شانه.

110- كارين أرمسترونج، ص ٢١٩ .

يصيح في الناس : لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب ٠ ٠ إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ٠ ٠ فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه[١١١].

كان من الطبيعي أن ترد عليه القبائل ردا قبيحا. بعد سماعهم كلمات عمه أبي لهب ٠ كانوا هم أيضا يردونه ويسخرون منه : أسرتك وعشيرتك لم تتبعك ولم تؤمن بك ٠ ولو كنت على حق لاتبعوك ٠ فكيف لنا أن نصدقك ونؤمن بك؟!

وطبقا لمنطقهم الذي أملته عليهم ظروف اللحظة، اعتقدوا أنهم على حق : عمه وسيد عشيرته كذَّبه وأعلن أمام الجميع أنه صابئ، فكيف يؤمنون بمن أنكر أهله ما جاء به وقالوا شاعر مجنون ؟!

كان من القبائل التي عرض عليها النبي نفسه وأبْوا عليه: كِنْدة، وكلب، وبنو حنيفة ولم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردا منهم ٠ والتقي النبي ببني عامر بن صعصعة، ودعاهم إلى الإسلام وعرض عليهم نفسه، فساوموه ٠ رأوا أنه من الممكن أن يحققوا من خلاله مكاسب تعود عليهم بنفع مباشر، لدرجة أن قال أحدهم: والله لو أني أخذت هذا الفتي من قريش لأكلت به العرب ٠ وكان السؤال الذي تم توجيهه للنبي: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟

إنهم يريدون الميراث، وقد جهلوا أن النبوة لا تورث ٠ قال النبي : " الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء" ٠ نسوا أنه نبي يوحي إليه، وأنه لا يملك من أمر نفسه شيئا، قالوا: أفَنُهْدِفُ نُحُوَرنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه [١١٢].

والتقى النبي بسويد بن صامت أخو بني عمرو بن عوف، وقد قدم مكة حاجا أو معتمرا ٠ وكان سويد مشهورا بين العرب بجلَده وحكمته وشرفه ونسبه، لدرجة أن قومه كانوا يسمونه الكامل ٠ تصدي له النبي ودعاه إلى الإسلام ٠ وكان رد سويد طيبا، رقيقا، مهذبا، قال للنبي : فلعل الذي معك مثْلُ الذي معي ٠ سأله النبي: وما الذي معك؟ قال مجلة لقمان، يعني حكمة لقمان ٠ قال له النبي: أعْرِضها على ٠ وعرضها عليه ٠ وما أنكر النبي أنها كلام حسن، فهذا خلق الأنبياء، لكنه أضاف : والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله علىَّ هدي ونور٠

١١١- ابن هشام ، جـ٢ ، ص ٣٢ وابن سعد ، جـ ١ ، ص ٢١٦ ٠

١١٢- ابن هشام ، جـ ٢ ، ص ٣٣.

وتلا النبي على سويد القرآن. ودعاه إلى الإسلام. فلم ينفر منه. بل قال : إن هذا لقول حسن ٠ وانصرف سويد راجعا إلى يثرب حيث قتل في موقعة بعاث. قتله الخزرج ٠ ويزعم البعض أنه قتل وهو مسلم٠

أول جمع من يثرب : التقي النبي لأول مرة بجمع قدموا من يثرب : أبو الحيْسر أنسُ بن رافع ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ، جاءوا يلتمسون الحلف. يريدون أن تساعدهم قريش على الخزرج. وقد كان بين الأوس والخزرج قتال استمر على فترات متقطعة لمدة طويلة من الزمن ٠ وكان هذا بالطبع في صالح يهود يثرب، بل إن يهود يثرب أنفسهم كانوا هم الذين يزكون الوقيعة وينفخون في نار الفتنة٠

سمع النبي بقدومهم فخرج إليهم، جلس واستمع إلى ما جاءوا من أجله، ثم قال: هل لكم في خير مما جئتم له ؟ وعندما سألوه ما هو، أخبرهم أنه رسول الله، بُعث بالحق نبيا يدعو الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد الذي لا شريك له، تلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الإسلام٠

في الحال لبيَّ إياس بن معاذ، وكان غلاما حدثا، وانبري يقول لمن معه: هذا والله خير مما جئتم له ٠ ولم يستجب أبو الحيسر، وبدلا من أن يرد على إياس أو يستمع إلى وجهة نظره ضرب وجهه بحفنة من الحصى، فصمت الغلام، وقال أبو الحيسر موجها حديثه إلى النبي: ما جئنا لهذا ٠ في صمت انصرف النبي، ورحلوا هم إلى يثرب ٠ ويقال إن إياس قد انشرح قلبه للإسلام في هذا اللقاء ومات مسلما قبل أن يهاجر النبي إلى يثرب٠

ستة من الأنصار: واصل النبي الدعوة في صبر دؤوب، رغم صد القبائل، ورغم سفاهات أبي جهل وأبي لهب اللذين كلَّفا رجالا بالخروج إلى مداخل مكة كي يحذروا القادمين من الاستماع إلى " الصابئ المجنون"٠

وتشاء القدرة الربانية أن ترتد السهام إلى نحور من أطلقوها ويلتقي النبي بأول رهط يستمعون إليه ويؤمنون٠

كانت البداية الرائعة، التي قادت إلى نتائج أكثر روعة ٠ وكان أمرا مقضيا، أن يعم النور فتتفتح له القلوب العمى٠

خرج النبي في موسم الحج، كما كان يفعل دوما، عرض نفسه على القبائل كما هى عادته ٠ وعند العقبة كانت البداية: التقي بجماعة من الخزرج ٠ كانوا يحلقون رؤوسهم ٠ سألهم عمن يكونون وأجابوه : من الخزرج حلفاء يهود في يثرب٠

جلس إليهم ٠ تحدث ٠ استمعوا إليه ٠ تلا عليهم القرآن ٠ دعاهم إلى الإسلام. معلنا

أنه هو النبي الذي أرسله الله لهداية البشر.

جذبت انتباههم كلمة " النبي " . تأملوه . تجسدت أمام أعينهم كلمات يهود . كثيرا ما تحدث إليهم يهود يثرب — وهم أهل كتاب — عن نبي قادم، أظل زمانه، وأن اليهود سيتبعونه وتكون لهم اليد العليا . كان اليهود دائما ما يهددونهم، كلما شجر بينهم نزاع. مدعين أنهم تحت راية هذا النبي سيقتلون أعداءهم — وهم بالطبع الأوس والخزرج — يستأصلونهم ولا يبقون لهم من باقية.

نظروا إلى بعضهم البعض، ثم نظروا إلى محمد : هذا هو النبي الذي تحدثت عنه يهود والذي توُعِد به، والذي يحتاجونه هم أكثر مما تحتاجه يهود . لم يترددوا . صدقوا . آمنوا بما جاء به . أصبحوا مسلمين.

كانوا ستة من الخزرج وهم: من بني النجار: أسعد بن زُرارة وعوف بن الحارث بن عفراء، ومن بني رريق : رافع بن مالك، ومن بني سلمة: قطبة بن عامر بن حديدة، ومن بني حرام بن كعب: عقبة بن عامر بن نابي، ومن بني عبيد بن عدي: جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان.

ويقال إن النبي طلب منهم أن يوفروا له من الحماية ما يمكنه من نشر دين الله: تمنعون لي ظهري حتى أُبلِّغ رسالة ربي: فقالو له نحن أعداء متباغضون .. وقد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم .. فإن تَقْدَم ونحن كذا لا يكون لنا عليك اجتماع. فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا لعل الله يصلح ذات بيننا .وموعدك الموسم العام القادم [113].

عندما عادوا إلى يثرب دعوا قومهم إلى الإسلام، فاستجاب لهم البعض . وبدأت كلمات الله تُتلي وتُسمع في بيوت يثرب.

تردد الحديث في جنبات يثرب عن ظهور النبي الذي تنبأ بمقدمه أهل الكتاب . تطلعت الكثرة بقلوب خافقة إلى اليوم الذي يلتقون فيه بهذا النبي.

حالة يثرب قبل دخول الإسلام: قال الستة الذين أسلموا من أهل يثرب للنبي، عندما طلب منهم أن يكونوا له ظهيرا أي أن يوفروا له الحماية حتى يبلغ رسالة ربه، " إنا تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، ولعل أن يجمعهم الله تعالي عليك، فلا رجل أعز منك".

لقد كان أهل يثرب يعيشون — في الواقع — حالة من العداء الشديد . اليهود، وهم ثلاث قبائل رئيسية : بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، كانوا يتمتعون بالكثير من

1- انظر ابن هشام، جـ٢، ص ٣٨، وابن سعد، جـ ١، ص ٢١٨ — ٢١٩.

الثراء، ويحتكرون التجارة خاصة الذهب، والصناعة خاصة السلاح، ويزرعون مساحات واسعة من الأرض الخصبة، ويعيشون في أُطُم، أي في قلاع محصنة • ولقد تحدثنا عن كيفية وصولهم إلى يثرب في الفصل الأول من هذا الكتاب•

مع اليهود عاش بنو قيْلة الذين — كما سبق وشرحنا في الفصل الأول — هاجروا من جنوب شبه الجزيرة واستقروا في الواحة الخضراء وتعايشوا مع اليهود، ثم انقسموا بعد ذلك إلى قبيلتين مستقلتين هما : الأوس والخزرج•

كان اليهود أهل كتاب، وكان الأوس والخزرج يعبدون الأصنام، لذلك استعلي اليهود عليهم وعاملوهم في البداية كأجراء • لكن العرب — كي يأخذوا مكانتهم اللائقة — حاولوا أكثر من مرة أن يوقعوا باليهود، ونجحوا بمساعدة بعض نصارى الشام — الذين كانوا يتبعون الدولة الرومانية — في قتل عدد كبير منهم، وتمكنوا بذلك من اكتساب الأرض وبناء الحصون والقلاع ، لم يعودوا أجراء، بل أصبحوا أندادا يقفون واليهود على قدم المساواة•

لكن اليهود لم يرضوا بما وصل إليه وضعهم، كادوا للأوس والخزرج كيدا شديدا حتى أوقعوا بينهم • أصبح الذين جاءوا إخوة من أصل واحد أعداء، حملوا السلاح وقاتلوا بعضهم بعضا•

تحالفت القبائل اليهودية، بعضها مع الأوس وبعضها مع الخزرج، وكان هدف اليهود الأساسي هو بيع السلاح وتأجيج نار الحرب كي لا تتوقف، على أمل أن يُفني العربُّي العربيَّ وينفرد اليهود بالعيش سادة على أرض الواحة الخضراء•

بلغت المأساة ذروتها بين القبيلتين العربيتين في معركة بُعاث (موضع بيثرب) • انتصر الخزرج في البداية ودارت الدائرة على الأوس الذين أوشكوا على الفرار، ولكن قائدهم أبو أُسَيْد حُضَيْر الكتائب أصر على القتال حتى الموت • استجاب له أصحابه فقاتلوا قتال الموت أو النصر • إندحر الخزرج وهزموا • إنتقم الأوس منهم شر انتقام، حرقوا زروعهم ودمروا قصورهم وبيوتهم، وأصر حضير في انتقامه المروع ألا يبقي منهم أحدا، لولا تدخل بعض ذوي الشأن الذين نجحوا بحكمتهم في وقف التدمير وسفك الدماء•

بعد هذا العراك الدامي، بدأ الأوس والخزرج يدركون أن الحرب ليست هى الوسيلة الناجعة لحل ما بينهم من خلاف والقضاء على ما يعانونه من صراع • لاحت لهم فكرة أن يخضعوا جميعا لسلطة واحدة، أن يكون لهم ملك يأتمرون بأمره ويعيشون في كنفه إخوة سواء، في مودة وصفاء • توجهت الأنظار إلى عبد الله بن أُبَيّ وهو من سادة الخزرج، وكان قد رفض الاشتراك في معركة بعاث وأعلن أن الحرب لا أمل فيها ولا ينتج عنها إلا الدمار

والخراب ٠ ٠ أصبح مرموقا بحياده وحكمته. فلماذا إذن لا يكون هو الملك ؟

لكن هذا الحل لم تطمئن له كل القلوب. فقد كان بين الأوس من يرفضون أن يكون رجلا من الخزرج ملكا عليهم. كما أن بعض العشائر من الخزرج كانت لا ترغب في تتويج ابن أبي، وهو سلوك ليس بمستغرب بين عشائر القبيلة الواحدة٠

هكذا كان الوضع في يثرب عندما التقي اليثربيون الستة . عام ٦٢٠ م، بالنبي في مكة وأعلنوا إسلامهم، ولم يزيدوا ٠ وقد بينوا له السبب بكل أمانة وصدق. ووعدوا بأن يعودوا إليه بعد عام٠

بعد عودتهم إلى يثرب، تحدثوا عن النبي، وعن رسالة التوحيد التي جاء بها، وعن الكتاب السماوي الذي تلا عليهم آياته ٠ رأوا أن في اتباعه مخرجا : حلا لمشكلاتهم ونهاية لتمزقهم، إذ تحت رايته يمكن أن يتم توحدهم دون شك أو خوف أو خلاف، ذلك لأن رسالته رسالة توحيد وحق وعدل ومساواة، وميزان العدل في يده لن يميل فهو لا ينتمي إلى أي من القبائل اليثربية، وهو في حاجة إليهم كما هم في حاجة إليه، ولا أطماع له ولا طموح إلى ملك أو سلطان، إنه نبي والأنبياء لا يسعون إلى ملك أو إمارة أو ثراء٠

هذا إلى جانب أنه قد جاء بكتاب مقدس، كلماته من عند الله، وبذلك أصبح العرب لأول مرة في تاريخهم أصحاب " كتاب "، ولن يتعالى عليهم اليهود بعد ذلك، ولن يتفاخروا٠

وفيما يختص بإيمان اليثربيين يقول مونتجمري وُت : لقد آمنوا بمحمد ذلك لأنهم اعتقدوا أنه بقيادة محمد الحكيمة يمكن تحقيق وحدة يثرب دون خوض حرب أهلية تجلب معها الكوارث والخراب، وسيكون هو بلا شك حكما عادلا ومحايدا ٠ كما انهم كانوا بلا شك — أيضا — تحت تأثير الأفكار اليهودية المبشرة بمسيح قادم، وعلي ذلك فقد كانوا على استعداد للاعتراف بمحمد نبيا ٠ ولأن أهل مكة رفضوه واضطهدوه كان من المستحيل أن تثور شكوكهم في أنه سيحاول بسط نفوذ مكة على يثرب [١١٤]٠

العقبة الأولي: كانت العودة، كما وعد اليثربيون،بعد عام، أي في عام ٦٢١ ميلادية ٠ عادوا في موسم الحج ومعهم آخرون ٠ كان عددهم إثنا عشر رجلا، عشرة من الخزرج ورجلان من الأوس ٠ إلتقوا بالنبي في العقبة وبايعوه، لذلك سميت هذه البيعة بيعة العقبة الأولى، ويشار إليها على أنها " بيعة النساء" حيث لم تُفْترض عليهم الحرب، أي أنها كانت تخلو من عناصر القوة٠

114- Montgomery Watt , **Muhammad : Prophet and Statesman** , p. 87 .

عن هذه البيعة يقول الإمام محمد أبو زهرة : سمى الكثيرون من كتاب السيرة هذه البيعة بيعة النساء، وما كانت هذه التسمية فيما نحسب في وقت البيعة، إنما كانت بعد ذلك لمشابهتها لما ذكره القرآن الكريم من مبايعة النبي للنساء في أحكامها، وإن اختلف وقتها واختلف موضوعها، فتلك كانت مع النساء، أما هذه فكانت مع الرجال ، وهى للرجال وللنساء على سواء[115].

لم يفرض عليهم النبي القتال، لكنه فرض عليهم تعاليم دينية أوجب عليهم الالتزام بها وعدم الخروج عليها . يقول عبادة بن الصامت: كنت فيمن حضر العقبة الأولي وكنا اثنا عشر رجلا، فبايعنا رسول الله على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على ألا نشرك بالله شيئا،ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا أو أرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم شيئا من ذلك فأخذتم بحده في الدنيا، فهو كفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة، فأمركم إلى الله، إن شاء عذبكم، وإن شاء غفر لكم [116].

عندما عاد الاثني عشر إلى يثرب كان في صحبتهم مصعب بن عمير، وقد عرف عنه تمكنه من قراءة القرآن والتزامه الشديد بمبادئ الدين الجديد، وكان قد هاجر إلى الحبشة ثم عاد إلى مكة . أمره النبي أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في أمور الدين . وفي المدينة كانوا يسمونه " المقرئ " . كان مقره بيت أسعد بن زُرارة، أول من أسلم من الأنصار وكان من الخزرج.

كان وجود مصعب بن عمير بين الأوس والخزرج على قدر كبير من الأهمية، ذلك لأنه لا ينتمي لأي من القبيلتين، وحياده في هذه الحالة لا يرقى إليه شك ولا تشوبه شائبة . وما كان أي من الفريقين ليرضى أن يؤمه في الصلاة رجل من الفريق الآخر، أو أن يتلو عليه القرآن، أو أن يوجهه طبقا لتعاليم الدين الجديد . كانت النزعة القبلية ما تزال مسيطرة على النفوس، وما كان يوم" بعاث" ببعيد.

على يد مصعب بن عمير، في يثرب، أسلم أسيد بن حضير، ومن بعده سعد بن معاذ، رغم أن سعدا لم يرحب في البداية بهذا الزائر الجديد وكان على وشك أن يناصبه العداء، إلا أنه بعد أن استمع إلى عمير وهو يقرأ القرآن خشع قلبه وتغيرت مشاعره: سيطرت عليه روعة القرآن وتمكنت منه،وما كان باستطاعته أن يقاوم فأعلن إسلامه . وبإسلام سعد، وهو

115- أبو زهرة، جـ ١، ص ٣٤٨ .
116- الطبري، جـ ١، ص ٥٥٩ .

سيد الأوس، أسلمت العشيرة • بعدها انتشر الإسلام في يثرب، وكأنه الفتح بنور القرآن•

في يثرب كانت أول صلاة جمعة • اجتمع المسلمون عند الظهيرة، كانوا حوالي أربعين رجلا، صلوا ركعتين • صلي بهم يومئذ أسعد بن زرارة ويقال بل مصعب بن عمير • هناك من يقول إنهم أدوا صلاة الجمعة دون أن يؤمروا بها • ذلك كي يكون للمسلمين يوم يجتمعون فيه ويتعبدون، كما لليهود وللنصارى يوم • وهناك من يقول إنهم فعلوا ذلك بأمر من النبي•

تدعي كارين أرمسترونج أن النبي : كان يتطلع إلى العمل والصلاة مع أهل الكتاب القديم، بعد أن طالت فترة العزلة، فأمر مصعبا أن يعقد اجتماعا خاصا للمسلمين في عصر يوم الجمعة، في الوقت الذي يستعد فيه اليهود لشعائر يوم السبت، مما أوجد رابطة بين الصلاة الجديدة وبين الاحتفال اليهودي[117]•

ويروى أن النبي أرسل إلى مصعب يقول : انظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود لسبتهم فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله بركعتين[118]•

عاد مصعب بن عمير إلى مكة قبل موسم الحج • قدَّم للنبي بيانا واضحا عن أحوال يثرب وما فيها من رخاء ونعمة، كما بشره بأن الإسلام قد انتشر فيها وتبعه قوم ذوي بأس ومنعة، وهم قادمون في موسم الحج إلى مكة كي يلتقوا به ويبايعوه•

كانت كلمات مصعب هي الأخبار السارة التي استبشر بها النبي• طرأت على خاطره فكرة الهجرة إلى يثرب • يقول مارتين لينجز Martin Lings : لم يكن في مكة كثرة يستطيع النبي أن يثق فيهم كما كان يثق في عمته بالزواج، أم الفضل زوجة عمه العباس • ولقد كان على تمام التأكد من أن عمه العباس، رغم عدم اعتناقه الإسلام، لا يمكن أن يفشي سره، ومن ثم فقد أخبرهما عن أمله في أن يهاجر إلى يثرب ويعيش فيها، لكن هذا بالطبع يعتمد على موقف القادمين من يثرب في موسم الحج • وعندما سمع العباس ذلك، رأي أنه من الواجب عليه أن يذهب مع ابن أخيه ويلتقي باليثربيين عند حضورهم، ويتحدث إليهم • ووافق النبي[119]•

العقبة الثانية البيعة الكبرى : في موسم الحج (٦٢٢م) خرج جمع كبير من يثرب إلى مكة، يقال إنهم كانوا حوالي خمسائة، مشركون يؤدون شعائر الحج التي ألفوها

117- كارين أرمسترونج، ص ٢٢٤ •

118- شوقي ضيف، ص ١٤٢ •

119- Martin Lings , p 110 .

وتوارثوها جيلا بعد جيل، وبينهم ممن أسلموا ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان : أم عمارة نَسيبة بنت كعب من بني النجار، وأسماء بنت عمرو من بني سلمة وهى أم منيع.

كان هذا آخر موسم حج يحضره النبي بمكة ، إذ أنه بعد لقائه باليثربيين ومبايعتهم له قرر الهجرة إلى يثرب، وهاجر.

كان على رأس اليثربيين البراء بن معرور، وكان فيهم كبيرا وسيدا . ولقد أقدم البراء بن معرور أثناء السفر على ما يمكن اعتباره كشفا أو استشعارا لما سيحدث في المستقبل، ذلك أنه طلب من أصحابه أن يتجهوا في صلاتهم إلى الكعبة لا إلى بيت المقدس كما يفعل اليهود . قال لهم : يا هؤلاء إني والله قد رأيت رأيا والله ما أدري أتوافقونني عليه أم لا . سألوا: وما ذاك ؟ قال: قد رأيت ألا أدع هذه البَنِيَّة مني بظهر (يعني الكعبة) وأن أصلي إليها.

قالوا : والله ما بلغنا أن نبينا يصلي إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه [120].

صلوا إلى الشام وصلي هو إلى الكعبة . كان يشعر في داخله أنه على صواب، ولم يقاوم ما أحس به . ظل يصلي إلى الكعبة حتى وصلوا مكة، عندها أراد أن يتأكد من صحة ما أقدم عليه.

توجه البراء إلى المسجد . . سأل عن النبي . . كان لا يعرفه لأنه لم يره . . وجده جالسا مع عمه العباس . . أخبر النبي أنه خالف أصحابه وصلى إلى الكعبة بدلا من أن يصلي مثلهم إلى الشام . . طلب الرأي والنصيحة : ماذا ترى يا رسول الله؟

وأجاب النبي: كنت على قبلة لو صَبَرت عليها.

تقول كارين أرمسترونج : كانت إجابة محمد غامضة، وإن كان الرسول استمر يولي وجهه شطر بيت المقدس في الصلاة، وأطاعه البراء وحذا حذوه . وقد تذكر أبناء قبيلة البراء في مستقبل الأيام ما أبداه البراء من بصيرة نافذة . ولم يلبث أن توفي البراء بعد أن عاد إلى "المدينة"، وكان المعتقد أنه لا ينبغي الاستهانة بحدس الذين يشرفون على الموت بل يجب أخذه مأخذ الجد[121].

كان المسلمون يكتمون أمرهم على من معهم من المشركين . قابل بعضهم النبي . حدد لهم موعدا يلتقي فيه وجميع من أسلم من يثرب: اللقاء في الشِّعْب عند العقبة في أوسط أيام التشريق، وهى " ثلاثة أيام بعد يوم العيد" . لابد أن يكون اللقاء سرا وفي جوف الليل،

120- ابن هشام ، جـ ٢ ، ص ٤٧ .
121- كارين أرمسترونج، ص ٢٢٦ .

عيون قريش ترقبهم وهناك مخاوف وشكوك، يجب ألا تثار متاعب أو نزاعات في هذه المرحلة بين قريش وأهل يثرب، عليهم ألا ينبهوا نائما أو ينتظروا غائبا. يجب ألا يعرف المشركون من قومهم شيئا عن هذا الأمر.

كانت الطاعة واجبة . خرجوا يتسللون إلى المكان المتفق عليه، وكان النبي قد سبقهم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان ما يزال مشركا.

حضر اليثربيون جميعا: ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان . كان أول من تكلم — كما يروى ابن إسحاق — هو العباس . يقال إنه كان يريد أن يطمئن على ابن أخيه، وقد علم مسبقا أنه ينوي الهجرة إليهم.

قال العباس، كما تحكى الرواية : يا معشر الخزرج، وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوْسَها ، إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومَنَعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

وتكلم النبي، قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

كانت بيعة الحرب: بايعوه على حرب الأحمر والأسود من الناس نصرة لدين الله وإعلاء لكلمته، ووعدهم الجنة . لكن سأله أحدهم، وهو أبو الهيثم بن التَّيِّهان، قال: إننا بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها، يعني اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

وأجاب النبي: أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم[١٢٢].

منذ تلك اللحظة عُرف هؤلاء اليثربيون باسم " الأنصار" ، أي الذين ناصروا الله ورسوله ووهبوا أنفسهم وأموالهم فداء لدين الله ونصرة نبيه الكريم.

بسط النبي يده . تمت البيعة . انفضوا إلى رحالهم في الخفاء، كما جاءوا في الخفاء.

لكن قريشا كانت تساورها الشكوك . وهناك احتمال أنهم بثوا العيون رصدا لتحركات النبي . ولكي يتأكدوا من صحة شكوكهم، توجه كبراؤهم في الصباح إلى منازل أهل يثرب، سألوا : هل التقيتم بمحمد البارحة، هل بايعتموه على حربنا ؟

كانت قريش تخشى على تجارتها المتجهة إلى الشام، لو بايع اليثربيون محمدا على

122- ابن هشام ، جـ٢ ، ص ٥٠ ـ ٥١ .

الحرب لقطعوا عليها الطريق وأصبحت قوافلها في خطر . إنهم لا يريدون أن تكون بينهم وبين أهل يثرب عداوة أو حرب، وهم أقرب إليهم من محمد فالدين الذي يتبعونه جميعه هو دين الآباء والأجداد.

استمع المسلمون في صمت، لم ينطقوا ، انتظروا. وانبري الوثنيون من أهل يثرب ينكرون ويقسمون بآلهتهم أن ما تقول به قريش باطل ولم يحدث أبدا أن التقوا بمحمد . وكانوا في قسمهم صادقين.

رحل مسلمو يثرب، يتقدمهم البراء بن معرور . وفوجئت قريش بعد رحيلهم بأن ما كانوا يخشونه قد حدث : لقد بايع اليثربيون محمدا.

ثارت ثائرة العتاة من أهل مكة، خرجوا يلاحقون القوم، لم يدركوا إلا سعد بن عبادة، أوثقوا يديه إلى عنقه وانهالوا عليه ضربا، كان غزير الشعر، جذبوه من شعره حتى أدخلوه مكة. لم ينقذه من بين أيديهم سوي جبير بن مطعم بن عدي والحارث بن أمية بن عبد شمس وكان يجير لهما تجارتهما ويمنعهم أن يظلموا ببلده.

عندما افتقد الأنصار سعد بن عبادة فكروا في العودة ، من المستحيل أن يرحلوا بدونه . لكن سعدا أهلَّ على الطريق، لحق بهم، وعاد الجميع في أمان إلى يثرب.

كانت هذه هي بداية النهاية لعهد الاستضعاف.

يكتب الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في تعليقه على موقف العباس بن عبد المطلب يوم العقبة يقول : إن عمه العباس يقوم الآن منه مقام عمه الراحل أبي طالب . . إنه لم يؤمن به بعد، ولكنه يحرس دمه، بكل ما امتلك من مال وهيبة ونفوذ في قريش . . هو قادر دائما على أن يحميه في مكة . . وهو من أجل ذلك يخرج معه إلى لقاء سري مع وفد يثرب على تل العقبة، ليستوثق أن أهل يثرب جادون وأنهم لن يتخلوا عنه مهما يصيبهم [123].

ونعتقد – دون مبالغة — أن ما قال به الشرقاوي رأي يجانبه الصواب ويبعد كل البعد عن الحقيقة، وصحته ينكرها واقع الأحداث.

عندما عاد النبي من الطائف — كما ذكرنا من قبل — لم يستطع دخول مكة لأنه لم يكن هناك من يستطيع حمايته، لا أبو بكر ولا عمر ولا حتى حمزة، فماذا فعل العباس؟ أين كانت حمايته للنبي ودفاعه عنه " بكل ما امتلك من مال وهيبة ونفوذ "، كما يدعي عبد الرحمن الشرقاوي ؟ لم يحرك العباس ساكنا، لم يخرج وهو يحمل ولو مجرد عصا لحماية ابن أخيه، ونقول مجرد عصا" لأننا لم نسمع أنه حمل سيفا إلا عندما خرج

123- عبد الرحمن الشرقاوي ، ص ١٣٠ .

مع قريش لمحاربة ابن أخيه ووضع نهاية لدعوته وربما لحياته أيضا.

وعندما تم أسر العباس في معركة بدر، أعلن أنه قد أسلم في مكة منذ زمن طويل . كان ذلك العباس يكذب فقط كي يتجنب دفع الفديه . ولم يصدقه النبي وأرغمه على دفع الفديه كبقية من دفعها من المشركين . بعدها عاد العباس إلى شرك مكة وأصنامها حيث تتكاثر أمواله من التجارة والربا . ولو كان العباس قد أسلم - كما يدعي - لظل مع النبي وحمل سيفه دفاعا عن الإسلام بدلا من حمله لمحاربة الإسلام.

ولو كان العباس على استعداد لحماية النبي وحراسة دمه بكل ما يملك من مال وهيبة ونفوذ - كما يردد الشرقاوي - ما طلب النبي جوار، أي حماية، ثلاثة من المشركين رفض اثنان منهم واستجاب الثالث وهو المطعم بن عدي، وخرج بالفعل هو وأولاده وبعض عشيرته متقلدين سيوفهم وأعلن أمام الكعبة أنه قد أجار محمدا، ولم تعترض قريش، لأن المطعم - لا العباس - كان هو صاحب الهيبة والنفوذ في قريش.

ونتوقع أن يقفز أحد الجهلة الأدعياء المتشدقين بدون علم، يصرخ : كيف تقول هذا عن العباس وهو عم النبي ؟ والإجابة هى نفس ما سبق وقلناه : لقد كان أبو لهب أيضا هو عم النبي.

في هذا المجال، يقول فرانسيسكو جابرييلي Francesco Gabrieli : في بيعة العقبة الثانية، يُظهر التراث العباس عم النبي - رغم أنه كان وثنيا - وهو يقف في حزم إلى جوار ابن أخيه، كما فعل عبد المطلب من قبل . . ومن المحتمل أن هذا الموقف قد تمت إضافته فيما بعد تكريما وتشريفا لشخصية العباس رأس الأسرة التي أقامت الخلافة العباسية، ذلك لأن الواقع يظهر أن محمدا كان مضطرا لأن يبحث عن الحماية خارج نطاق عشيرته الهاشمية [١٢٤].

نفس الرأي يعبر عنه مونتجمري وُت عندما يقول: هناك بعض التفاصيل في بيعة العقبة الكبرى تستدعي المناقشة، لكن الصورة العامة يمكن قبولها . ومن المحتمل أن ما يخص العباس في هذا الموقف يجب رفضه كمجرد تلفيق تمت إضافته فيما بعد لإخفاء المعاملة غير الكريمة التي لاقاها محمد من بني هاشم في تلك الآونة . لقد دخل محمد مكة بعد رجوعه من الطائف في حماية سيد عشيرة نوفل، لا في حماية عشيرته . . كان العباس وثنيا، وكان يتحدث في اجتماع العقبة إلى أهل يثرب وهم يعلمون أنه وثني . . ولقد رد عليه أحد اليثربيين بقوله : إنهم يحبون محمدا ويجلونه ويبجلونه أكثر مما يحبه العباس ويجله

---

124 - F. Gabrieli , p. 59 .

ويبجله ٠ ٠ ويُعتقد أن ما قيل عن العباس في لقاء العقبة الثانية ما هو إلا مجرد ترديد لأبواق الدعاية العباسية[١٢٥].

الهجرة إلى يثرب : أذن النبي لأصحابه بالهجرة إلى يثرب. فوجودهم مع الأنصار سيكون لهم قوة ومنعة، لابد وأن تأخذها قريش في الحسبان، وأن تفكر مرة ومرة قبل أن تعاملهم على أنهم مستضعفون يمكن سحقهم أو إذلالهم في أية لحظة ٠ لقد انتهت تلك الفترة تماما — فترة الاستضعاف والإهانة والإذلال — وبدأت فترة أذن فيها للمسلمين بحمل السيف والقتال دفاعا عن أنفسهم ودفاعا عن دين الله٠

في يثرب لن يكونوا أبدا أذلة، بل ستكون كلمة الله هى العليا: " أُذن للذين يقٰتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ٠ الذين أخرجوا من ديٰرهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ٠ ولو لا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوٰت ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ٠ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ٠ الذين إن مكّنٰهم في الأرض أقاموا الصّلوٰة وآتوا الزّكوٰة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور" (سورة الحج : ٣٩ — ٤١)٠

كان أول من هاجر إلى يثرب أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، واسمه عبد الله ٠ وقد هاجر قبل بيعة العقبة الكبرى بسنة بعد أن عاد من أرض الحبشة وآذته قريش فخرج إلى يثرب مهاجرا بعد أن علم بإسلام من أسلم من أهلها ٠ خرج يقود بعيره وعليه زوجته أم سلمة وفي حجرها ولدهما سلمة ٠ رآه رجال من بني المغيرة فأوقفوه ٠ انتزعوا زوجته وفي حضنها ولده ٠ كانت تنتمي إلى بني المغيرة ولن يتركوها ترحل ٠ عليه أن يرحل وحيدا لو شاء ٠ وغضب بنو عبد الأسد الذين ينتمي إليهم أبو سلمة، إن الطفل طفلهم هم لا طفل بني المغيرة ولن يتركوه لهم ٠ تجاذبوا الطفل حتى قيل إنهم خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبس بنو المغيرة أم سلمة عندهم، وانطلق أبو سلمة وحده إلى يثرب ٠ ولحقت به أم سلمة وولدها بعد عام، وقد رق قومها لحالها وذلك لكثرة بكائها لفراق زوجها ٠وكان زوجها نازلا بقباء٠

بعد أبي سلمة هاجر عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلي بنت أبي حِثْمة، ثم عبد الله بن جحش من بني خزيمة، رحل بأهله وبأخيه عَبْد جَحْش واسمه أبو أحمد وكان ضرير البصر، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، فغُلِّقت دار بني جحش بعد هجرة أصحابها ٠ ثم تتابع أصحاب النبي إلى يثرب أرسالا٠

125- Montgomery Watt, **Muhammad at Mecca**, p. 147.

هاجر عمر بن الخطاب وأسرته ومعه زوج ابنته حفصة حُنَيْس بن حذافة السَّهمي. وعياش بن أبي ربيعة المخزومي. لكن أبا جهل بن هشام والحرث بن هشام نجحا في إعادة عياش ابن أبي ربيعة إلى مكة مستخدمين الحيلة والخديعة.

عندما حاول صهيب بن سنان الهجرة، أمسك به مشركو قريش، قالوا: أتيتنا صعلوكا حقيرا فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك! والله لا يكون ذلك . قال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتُخلون سبيلي ؟ قالوا: نعم . قال: فإني جعلت لكم مالي . فبلغ ذلك النبي، فقال: ربح صهيب ، ربح صهيب [126].

هاجر حمزة ، وزيد بن حارثة، وعثمان بن عفان وزوجته رقية . وتتابع وصول أصحاب النبي إلى يثرب . وخلال شهري يوليو وأغسطس من عام ٦٢٢م، بلغ عدد المهاجرين ما يقرب من سبعين شخصا مع أسرهم، استضافهم الأنصار وعاملوهم بكرم بالغ . لم يبق بمكة إلا النبي وأبو بكر وعلي.

بالطبع كان هناك عدد من المسلمين الذين لم يكن باستطاعتهم أن يهاجروا: مفتون محبوس ، أو مريض ، أو ضعيف عن الخروج[127].

قريش تقرر قتل النبي: أقام النبي بمكة ينتظر أن يأذن الله له بالهجرة، وكان أبو بكر كثيرا ما يطلب من النبي أن يسمح له بالرحيل ، فيستمهله النبي: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا.

في أغسطس من عام ٦٢٢م، مات المطعم بن عدي الذي أجار النبي بعد عودته من الطائف ووفر له الحماية فلم تستطع قريش الاستمرار في إيذائها له . وبعد موت المطعم أصبحت حياة النبي في خطر.

قررت قريش أن تعمل بسرعة ضد محمد وهو بين أيديهم ولا مجير له . اجتمعوا في دار الندوة كي يتخذوا قرارهم النهائي . تغيب أبو لهب عن حضور الاجتماع، ربما فعل ذلك عامدا كي لا يتحمل وزر ما هم مقدمون عليه، وربما امتنع عن الحضور كي يمنحهم حرية اتخاذ القرار وتنفيذه دون أن يحرجهم وجوده.

كان على رأس المجتمعين من أشراف قريش : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب من بني عبد شمس، وأبو البُخْتري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام من بني أسد بن عبد العزى ، وأبو جهل بن هشام من بني مخزوم .

126- ابن هشام ، جـ٢ ، ص ٨٩ .

127- ابن سعد ، جـ١ ، ص ٢٢٦ .

وأمية بن خلف من بني جُمَح.

تشاوروا فيما بينهم،وتم عرض عدة اقتراحات . قال قائل منهم: احبسوه حتى يموت . وقال آخر: أخرجوه من بين أظهرنا، أي انفوه . فإذا أخرج عنا فرغْنا منه وأصلحنا أمرنا.

تم رفض الرأي الأول لأن أصحاب محمد لن يتركوه مسجونا وقد أصبحوا كثرة يخشى بأسها . كما تم رفض الرأي الثاني لأن في نفيه خطورة لا تؤمن عواقبها، قد يكثر أتباعه ويشتد بأسه فيعود إليهم يطأهم في بلادهم، يفعل بهم ما يريد.

ثم صدر القرار بالقتل . هكذا تحدث أبو جهل : فتي من كل قبيلة يضربونه ضربة رجل واحد . . يقتلوه . . ينتهى أمره وتتخلص منه قريش إلى الأبد . . لن يستطيع بنو هاشم فعل شئ، لأن دمه بهذا الفعل يكون قد تفرق بين القبائل، وما على بني عبد مناف إلا الرضى بقبول الدية.

بدت الخطة لهم محكمة . . لن يفر محمد . .لن يفلت من بين أيديهم . .موته أصبح محتوما . . موعدهم الليل . . ليل نفس اليوم الذي اجتمعوا فيه . . لقد صبروا عليه طويلا . . نفذ الصبر . . الموت موعده الليل.

في تعليقها على خطة أبي جهل بن هشام، تقول بيتي كيلين Betty Kelen : كانت الخطة فاشلة من بدايتها إلى نهايتها . أولا وقبل كل شئ: عرف محمد السر لحظة البوح به، أي أن تفاصيل الخطة وصلته في الحال، ربما من أحد أعمامه الذين حضروا الاجتماع، وربما من إحدى عماته عن طريق زوج لها كان بين الحضور، وربما كان بين القوم جاسوس مسلم لا يعرفون شيئا عن أمر إسلامه،وبكل تأكيد كان جبريل هناك[١٢٨] ! !

ربما كان أبو البختري هو الذي نقل تفاصيل قرار القتل إلى العباس ،إذا ما افترضنا أن العباس هو أيضا لم يحضر الاجتماع . ويجب ألا ننسى أن أبا البخترى كان من أبرز الشخصيات التي عملت على نقض الصحيفة التي تعاهدت فيها قريش على مقاطعة بني عبد مناف . ويجب ألا ننسى أيضا أن النبي طلب من أصحابه في معركة بدر ألا يقتلوا أبا البخترى، لكنهم للأسف قتلوه.

في عَتَمَة الليل اجتمعوا على باب النبي،يرصدونه،يتحينون الفرصة المناسبة للوثوب والقتل. كان النبي قد أعد عدتَه،طِلب من "علي"أن يأخذ مكانه في الفراش: نم على فراشي وتسَجَّ ببُرْدي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه فإنه لن يخْلُص إليك شئ تكرهه منهم[١٢٩].

128- ابن هشام ، جـ٢ ، ص ٩٥ .

كان على عليّ أن يؤخر هجرته إلى ما بعد خروج النبي، كي يرد الودائع التي ائتمن أهل مكة محمد عليها رغم شركهم وذلك لشدة ثقتهم في وفائه وأمانته.

هجرة النبي: خرج النبي من باب خلفي.. متخفيا.. لم يشعر به أحد اتجه إلى بيت أبي بكر.. كان قد أعلمه من قبل أن وقت الهجرة قد حان، وأنه لابد وأن يكون على استعداد للخروج لحظة أن يطلب منه ذلك.

كان أبو بكر هو أيضا قد أعد للأمر عدته : راحلتان ودليل وزيادة في الحرص لم يخرجا من باب بيت أبي بكر، بل خرجا من "خوخة" في ظهر البيت.

أما علي بن أبي طالب فقد ظل في فراش النبي ينتظر قدره ولا نعتقد أنه قد غمضت له عين.. لكن عليا كان يتميز بشجاعة وثبات جنان يندر وجودهما فيمن هم في مثل سنه، وقد كان آنذاك في حوالي الحادية أو الثانية والعشرين من عمره.

ظل شباب القبائل المتحفزين وسيوفهم مسلولة، ينتظرون عند الباب، ينتظرون خروج محمد، ومحمد لا يخرج، ورغم ذلك ينتظرون.

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال: لماذا لم يقتحموا البيت ويقتلوه وتنتهى المهمة في لحظات، بدلا من كل هذا الانتظار؟

تقول كارين أرمسترونج: أنهم سمعوا أصوات سودة وبنات النبي من خلال فتحات في الدار، ولما كان من العار أن يقتلوا رجلا بحضرة نساء بيته، قرروا أن ينتظروا حتى يخرج في الصباح[130].

وفيما يختص بهذه النقطة تقول بيتي كيلين Betty Kelen : لا يوجد تفسير واضح يبين السبب الذي من أجله لم يقتحموا البيت ويذبحوا الرجل الراقد فوق الحصير. ويقدم البعض تفسيرا غير مقنع وهو أن" قانون الشرف" يمنعهم من اقتحام البيوت للقتل حتى لا يروعوا النساء اللائى قد يكن في أوضاع مخجلة. على أية حال، لابد وأن يكون هناك في تلك الآونة تحريم من نوع ما،وإلا أصبح من غير المفهوم أن يترك محمد ابن عمه عليا كي يرقد مكانه فوق الحصير.ولسبب أو لآخر ظلت جماعة الاغتيال خارج البيت وهم متأكدون أن غريمهم داخل البيت لم يغادره.. حتى بزغ الفجر وعلى لم يمسسه سوء.. عندها قام وألقى عليهم تحية الصباح[131].

سألوه عن النبي،قال: لا علم لي به.أوْ رقيبا كنت عليه! أمرتموه بالخروج فخرج.

130- كارين أرمسترونج، ص ٢٣٠.

131- Betty Kelen, p. 87.

فانتهروه وضربوه وأخرجوه إلى المسجد، فحبسوه ساعة ثم تركوه[١٣٢].

خرج النبي هو وأبو بكر في ظلمة الليل . أخذ أبو بكر معه كل ما يملك : خمسة آلاف درهم . إتجها إلى غار بثور، وهو جبل إلى الجنوب خارج مكة في اتجاه اليمن، لا إلى الشمال في اتجاه يثرب . وكان هذا إمعانا في الحرص.

أحكم أبو بكر خطة الخروج : عبد الله بن أبي بكر يتسمع ما يقوله الناس فيهما ويأتيهما في المساء بالأخبار كي يكونا على بينة من أمرهما ولا تفجأهما الأحداث، وأسماء بنت أبي بكر تأتيهما في المساء بالطعام. أما عامر بن فهيرة مولي أبي بكر فعليه أن يرعى غنمه طوال النهار وفي المساء يسوقها تجاه الغار ويعود وهكذا تزال آثار الأقدام، أما الدليل فقد اتفق معه أبو بكر على أن يلقاهما في غار ثور بعد ثلاث ليال حتى لا يسترعي انتباه أحد، وكان هذا إمعانا في الاستخفاء.

جن جنون قريش. إن خروج محمد ليس بالأمر الهين وعواقبه وخيمة . بحثوا عنه في كل مكان داخل مكة ،لم يجدوه . عندما توجهوا إلى دار أبي بكر ومعهم أبو جهل بن هشام، خرجت لهم أسماء . سألها أبو جهل عن أبيها، قالت: لا أدري . لطمها على وجهها . انصرفوا في غضب . استمروا في البحث . وصلوا إلى مدخل غار ثور والنبي وأبو بكر بداخله.

هنا حدث ما يشبه الإعجاز، إن لم يكن إعجازا بالفعل . عششت العنكبوت بعشاش كثيفة، طبقات بعضها فوق بعض قال أحدهم :"إن عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد" . ولو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرهما.

لم ينزعج النبي أثناء الأيام الثلاث التي قضاها وأبو بكر في الغار . كان يحس بالسكينة تسيطر على كيانه كله وتملأ أعماقه بسلام نفسي يؤكده الإحساس بأن الله لابد وأن ينصر رسوله ويُعْلي كلمة دينه . في هدوء الواثق طمأن أبا بكر : لا تحزن إن الله معنا . ويذكر القرآن هذا الموقف في قوله تعالى: " ألا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلي وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم" (سورة التوبة : ٤٠).

مرت الليالي الثلاث. وصل الدليل الذي استأجره أبو بكر ومعه بعيرين لهما وبعير له . أتتهما أسماء بما يلزمهما من طعام، لم تجد ما تعلق به الطعام في رحالهما فشقت نطاقها،

132- الطبري ، جـ١ ، ص ٥٦٨ .

علقت الطعام بنصفه وسترت نفسها بالنصف الآخر، فسميت ذات النطاقين.

قدم أبو بكر أقوى الناقتين إلى النبي . أصر النبي على أن يدفع ثمنها . أطلق عليها اسم " القصواء" . ظلت ناقته المفضلة طوال حياته.

بدأت لحظة الانطلاق إلى يثرب وكانت بداية التاريخ والتأريخ للأمة الإسلامية.

الجني ينشد الشعر: هناك حكاية طريفة نذكرها فقط لمجرد طرافتها، لا لأهميتها — فهي بلا أهمية على وجه الإطلاق —وقد ورد ذكرها في ابن هشام وابن سعد وتاريخ الطبري. تقول الحكاية إنه بعد رحيل النبي في صحبة أبي بكر، وقد احتارت قريش فما تدري أين ذهب، سمعوا صوتا من جنِّي من أسفل مكة، سمعوا الصوت فقط لكنهم لم يروا الجني . وكان الجني يتغنى بأبيات من الشعر غناء العرب.

أصبح الصوت (صوت الجني) بمكة عاليا بين السماء والأرض — هذا ما يقوله ابن سعد— يسمعونه ولا يرون من يقول، حتى خرج من أعلى مكة . وكان الجني يمتدح النبي وصاحبه، ويذكر أم معبد التي مَرَّ النبي بخيمتها وحلب شاتها العجفاء، وكذلك السعدين سعد الأوس وهو سعد بن معاذ وسعد الخزرج وهو سعد بن عبادة[133] .

القصيدة ، إذن، كتبها — كما تذكر كتب التراث — وتغنى بها الجني.

ونحن للأسف لا نعرف شيئا عن شعر الجن ولا عن شعراء الجن، ولا نعتقد أن غيرنا يدري عن ذلك شيئا، وإلا لكُتبت فيه الأبحاث وسُجلت فيه الرسائل، وربما تبارى شعراء الإنس وشعراء الجن لإثراء الحركة الأدبية في كل من العالمين: الإنسي والجني.

بالطبع هذا كله هراء، فالشعر منتحل، ومن يقول بغير ذلك عليه أن يبدأ التعلم والدراسة من جديد على أيدي أناس لم تصب عقولهم بعد بالخبل.

معلقا على ما يدعيه ابن إسحاق ومن إليه من أصحاب القصص، يقول الدكتور طه حسين: إنهم لا يكتفون بالشعر يضيفونه إلى عاد وثمود وتُبَّع وحمير، وإنما هم يضيفون الشعر إلى آدم نفسه . فهم يزعمون أنه رثى هابيل حين قتله أخوه قابيل . ونظن أن من الإطالة والإملال أن نقف عند هذا النحو من السخف [134].

ويضيف الدكتور طه، متحدثا عن انتحال شعر الجن: وأنت تستطيع أن تحمل على هذا لونا آخر من الشعر المنتحل لم يضف إلى الجاهليين من عرب الإنس وإنما أضيف إلى الجاهليين من عرب الجن . فقد يظهر أن الأمة العربية لم تكن أمة من الناس الذين

133- ابن سعد ، جـ ١ ، ص ٢٢٩ .

134- طه حسين، **في الشعر الجاهلي** ، ص ٧٦ .

ينتسبون إلى آدم ليس غير، وإنما كان بإزاء هذه الأمة الإنسية أمة أخرى من الجن كانت تحيا حياة الأمة الإنسية وتخضع لما تخضع له من الموروثات . . وكانت تقول الشعر. وكان شعرها أجود من شعر الإنس، بل كان شعراؤها هم الذين يلهمون شعراء الإنس . . والغرض من هذا الانتحال – فيما نرجح – إنما هو إرضاء حاجات العامة الذين يريدون المعجزة في كل شئ[١٣٥].

ويقال إن قريشا بعد أن استمعوا إلى شعر الجني، أدركوا أن محمدا وصاحبه قد توجها إلى يثرب . . رصدوا مائة بعير لمن يعيده حيا أو ميتا . خرج سراقة بن مالك بن جعشم ممتطيا جواده، متقلدا سيفه، مقتفيا أثر النبي ومن معه، مدفوعا بطمع الحصول على المائة ناقة.

الوصول إلى قباء: لكن عبد الله بن أرَيْقِط، الدليل الذي استأجره أبو بكر، سلك بهما طرقا غير مأهولة، على غير ما ألف الناس: إتجهوا إلى الجنوب، وهو اتجاه مغاير تماما لاتجاه السير إلى يثرب، ثم إلى " تهامة" على مقربة من شاطئ البحر الأحمر، ثم بعد ذلك إلى الشمال: طريق يثرب . وقد اختار الدليل أشد الطرق وعورة وأكثرها التواءً حتى وصل بهما إلى " قُباء " ، وهي منطقة في أقصى جنوب الواحة على بعد ثلاثة أميال من يثرب، تجمع فيها عدد كبير من المهاجرين الذين كانوا يوميا يتطلعون إلى الأفق ينتظرون وصول النبي .

أتم النبي وصحبه الرحلة في ثمانية أيام . وصلوا قباء في الثاني عشر من شهر ربيع الأول (٤ سبتمبر ٦٢٢ م) حين اشتد الضحى وكادت الشمس أن تعتدل.

كان أول من رأى النبي – كما يروى ابن إسحاق – رجل من اليهود، وقد " رأى ما كنا نصنع وأنا ننتظر قدوم رسول الله علينا " . صاح اليهودي بأعلى صوته: يا بني قيْلة هذا جَدُّكم قد جاء . ازدحم الناس حول النبي ولم يكن أكثرهم قد رآه من قبل، وما استطاعوا أن يعرفونه من أبي بكر، حتى زال الظل عن النبي، فقام أبو بكر فأظله بردائه، عندها عرفوا أيهما هو النبي[١٣٦].

أما عن علي بن أبي طالب فقد مكث في مكة ثلاثة أيام، رد الودائع إلى أصحابها، ثم هاجر هو أيضا ولحق بالنبي قبل أن يغادر قباء.

ويقال إن النبي أقام بقباء أربعة أيام : الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، ثم غادرها

135- نفس المرجع ، ص ٧٠ ـ ٧٢ .
136- ابن هشام ، جـ ٢، ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

يـوم الجمعـة . ويرى البعض أنه مكث أكثر من ذلك . وخلال تلك الأيام التي أقامها أسس مسجد قباء وهو أول مسجد أسس في الإسلام.

عـن عـدد السـنين التي قضاها النبي بمكة بعد أن استنبئ، إختلف كتاب السيرة . قال بعضهم : كانت مدة مقامه بها إلى أن هاجر إلى المدينة عشر سنين ينزل عليه القرآن . وهذا معناه أن القرآن أنُزل على النبي وهو ابن ثلاث وأربعين . وقال آخرون : بل أقام بمكة بعد ما استنبئ ثلاث عشرة سنة يوُحي إليه . وهذا معناه أن القرآن أنزل عليه وهو في الأربعين.

ويُفسـر هـذا الاخـتلاف بـالقول : أنزلـت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسـرافيل ثـلاث سـنوات، فكـان يعـلمه الكـلمة والشـئ، ولم يـنزل القرآن على لسانه، فلما مضـت ثـلاث سـنين قـرن بنـبوته جـبريل، فـنزل القـرآن عـلى لسـانه عشـر سـنين بمكـة وعشر سنين بالمدينة.

هـذا رأي أنكـرته الكـثرة، قـالوا : مـا سمعنا ولا علمنا إلا أن جبريل هو الذي قرن به، وكان يأتيه بالوحي من يوم نبئ إلى أن تُوفي[137].

خـلال تلـك الأعـوام الثلاثة عشر ، كان عدد الذين أسلموا واهتدوا حوالي ثلاثمائة رجل وامرأة، فضلوا الهجرة، إلا من مُنع قهرا أو أعجزه الضعف أو المرض.

غادر النبي قباء صباح يوم جمعة . عند الظهيرة توقف وصحابته في وادي"رانوناء" ليقيم الصـلاة مـع قبـيلة بـني سـالم الذين كانوا في انتظاره . كانت هذه أول صلاة جمعة يصليها النبي في البلدة التي أصبحت موطنا له.

اعـترض الأنصـار طريقه، كل يحاول أن يحظى بشرف أن يقيم النبي عنده . لكن النبي طلـب مـنهم أن يتركـوا الناقة: خلوا سبيلها فإنها مأمورة . خلَّوْا سبيلها . تركوها تسير . بركـت عـند مَـرْبد (مكـان يجفـف فيه التمر) لغلامين يتيمين من بني النجار . نزل عنها الـنبي . احـتمل أبـو أيـوب خالد زيد رحْل النبي . وضعه في بيته . نزل عليه النبي سأل عـن المـرْبد لمـن هو. قال معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهْل وسُهيْل ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما . اتخذه النبي مسجدا.

مـن مـنزل أبـي أيـوب بعـث الـنبي زيـد بـن حارثـة وأبا رافع (مولي النبي) إلى مكة . أعطاهمـا بعيريـن وخمسـمائة درهـم. عـادا بفاطمـة وأم كلثوم ابنتي النبي،وسودة بنت زمعه زوجـته . رقـيه ابـنة الـنبي كانـت قـد هاجـرت مـن قـبل مـع زوجهـا عـثمان بـن عفان. زينـب كـبرى بـنات الـنبي ظلـت في مكـة مـع زوجهـا أبي العاص بن الربيع. يقال منعها

137- الطبري ، جـ١ ، ص ٥٧٣ .

زوجها من الهجرة . حمل زيد بن حارثة امرأته أم أيمن مع ابنها أسامة بن زيد . خرج عبد الله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر وفيهم عائشة فقدموا المدينة ونزلوا في بيت حارثة بن النعمان[١٣٨].

هكذا اكتملت الهجرة . وكانت بداية التاريخ والتأريخ لأمة إسلامية شامخة، كما سنوضح بإذن الله في كتابنا القادم : **سنوات المدينة.**

نطلب من الله العون.

138- ابن سعد ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

قائمة المراجع
المراجع العربية

- القرآن الكريم.
- " الكتاب المقدس".
- الإبياري، فتحي، **محمد : مواقف من السيرة النبوية الشريفة**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٦ .
- الباقوري، الإمام الشيخ أحمد حسن، **السيرة المحمدية في ظلال القرآن الكريم**، مؤسسة أمون الحديثة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩ .
- أبو زهرة، الإمام الشيخ محمد، **خاتم النبيين**، ثلاثة أجزاء، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٣.
- أرمسترونج، كارين، **محمد**، ترجمة د. فاطمة نصر و د. محمد عناني، كتاب سطور، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٨ .
- التوني، محمد شوكت، **محمد في طفولته وصباه**، عربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٢ .
- الجرجاني، عبد القادر، **دلائل الإعجاز**، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠ .
- الشرقاوي، عبد الرحمن، **محمد رسول الحرية**، دار الهلال، القاهرة، ١٩٦٥ .
- الشريف، محمود بن . . ، **الرسول في القرآن**، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧ .
- الشعراوي، الإمام الشيخ محمد متولي، **شرح حديث الإسراء والمعراج**، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٩ .
- العشماوي، المستشار محمد سعيد، **الخلافة الإسلامية**، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢ .
- العقاد، عباس محمود، **عبقرية محمد**، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦
- " " " " ، **عبقرية عمر**، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٨ .
- " " " " ، **الله**، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٤ .
- الغزالي، الإمام أبي حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، خمسة أجزاء، دار مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٨ .

- الصابوني، محمد علي، **روائع البيان: تفسير آيات الأحكام من القرآن**، جزءان، دمشق، سورية، الطبعة الثانية، ١٩٧٧ .
- " " " " ، **النبوة والأنبياء**، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠ .
- " " " " ، **التبيان في علوم القرآن**، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠ .
- " " " " ، **مختصر تفسير ابن كثير**، اختصار وتحقيق، دار القلم، بيروت، ١٩٨١ .
- " " " " ، **صفوة التفاسير**، عشرون جزءا، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٩٨١ .
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك**، ستة أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧ .
- الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب، **كتاب الأصنام**، تحقيق أحمد زكي باشا، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنه ١٩٢٤، الطبعة الرابعة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠ .
- أمين، أحمد، **فجر الإسلام**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠ .
- بدوي، الدكتور عبد الرحمن، **دفاع عن القرآن ضد منتقديه**، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر، القاهرة، ١٩٩٩ .
- " " " "، **دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره**، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر، القاهرة، ١٩٩٩ .
- بهجت، أحمد، الله، المختار الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٦ .
- حسين، الدكتور طه، **في الشعر الجاهلي**، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٦ .
- خالد، خالد محمد، **عشرة أيام في حياة الرسول**، المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٤ .
- داوود، عبد الأحد(قيس أورميا في إيران سابقا)، **محمد: كما ورد في كتاب اليهود والنصارى**، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية ترجمة فاروق الزين، ١٩٩٦ .
- رسلان، الدكتور صلاح الدين بسيونى، **القرآن الكريم**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤ .

- سالم، الدكتور السيد عبد العزيز، **تاريخ العرب قبل الإسلام**. الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠ .
- (إبن) سعد، محمد بن، **الطبقات الكبرى**، تسعة أجزاء. دار صادر، بيروت. ١٩٦٨ .
- عبد الرحمن. الدكتورة عائشة، **أم النبي**. الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٦ .
- علي،مولاي محمد،**محمد رسول الحرية**.ترجمة مصطفي فهمي وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٨ .
- ضيف، الدكتور شوقي، **محمد : خاتم المرسلين**، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٠ .
-- لوقا، الدكتور نظمي، **محمد : الرسالة والرسول**، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٩ .
- (إبن) هشام، أبو محمد عبد الملك بن، **سيرة النبي**، أربعة أجزاء، مكتبة دار التراث، القاهرة، بدون تاريخ.
- هيكل، الدكتور محمد حسين، **حياة محمد**، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية والعشرون، ٢٠٠٠ .

المراجع الأجنبية

-**The Koran**, Translated into English by N. J. Dawood, Penguin Books, Middlesex, England, 1968 .

- Ali, Abu Hasan, **Muhammad Rasulullah (The Life of Prophet Muhammad)**, Translated by Mohiuddin Ahmad, Academy of Islamic Research And Publications, Lucknow, India, 1979.

- Ali, Maulana Muhammad, **The Religion of Islam, Acomprehensive Discussion of The sources, Principles And Practices of Islam**, National publication & Printing House, U. A. R. n. d.

-Carlyle, Thomas, **On Heroes, Hero - Worship and The Heroic in History**, J. M. Dent & Sons, London, 1910.

-Esposito, John L., **Islam: The Straight Path**, Expanded Edition, New york, Oxford University Press, 1991.

-Gabrieli, Francesco, **Muhammad and the Conquests of Islam**, translated from Italian by Virginia Luling and Rosamund Linell, World University Library, Weidenfeld and Nicolson, London, 1968.

-Guillaume, Alfred, **slam**, Penguin Books, Middlesex, England, 1971.

-Husain, Athar, **Prophet Muhammad and His Mission**, Asia Publishing House, Bombay, 1967.

-Jeffery, Arthur, ed., **Islam : Muhammad and His Religion**, The Library of Liberal Arts, The Bobbs – Merrill Company, New York, 1958.

- Johnstone, P. De Lacy, **Muhammad and His Power**, T. & T. Clark, Edinburgh, 1901.

- Kelen, Betty, **Muhammad: the Messenger of God**, Thomas Nelson Inc . , New York, 1975.

-Lings, Martin , **Muhammad, his Life based on the earliest sources**, Inner Traditions international Ltd., Rochester, Vermont, U. S. A ., 1983 .

-Moore, George Foot, **History of Religions**, T. & T. Clark, Edinburgh, 1965 .

-Pike, E. Royston , **Muhammad: Prophet of the Religion of Islam**, Weidenfeld & Nicolson LTD, London, 1968 .

- Rahman, Afzalur, **Muhammad, Encyclopaedia of Seera**, vol . I. The Muslim Schools Trust, London, 1981.

- Arbuthnot, F., **The Construction of the Bible and the Qur'än**, London, 1885 .

-Archer, John Clark, **Mystical Elements in Mohammad**, yale Oriental Series, New Haven, 1924 .

- Bell, Richard, **The Origin of Islam in its Christian Environment**, Edinburgh, 1926 .

- " " " ", **Introduction to the Qur'än**, Edinburgh, 1952 .

- Bennett, Clinton, **In Search of Muhammad** , London, 1999 .

- Besant, Annie, **The** Life **and Teachings of Muhammad** , Madras, 1932.

- Bodley, Ronald Victor, **The Messenger: The Life of Muhammad** , Washington, 1945 .

- Bucaille, **The Bible, The Qur'än and Science**, U. S. A . 1978.

- Cook, Michael, **Muhammad**, London, 1984.

- Cragg, Kenneth, **Call of the Minaret**, New York, 1956.

- Stubbe, Henry, **An Account of the Rise and Progress of Mahometanism, with the Life of Mahomet,** Afzal Chambers, Lahore, n. d.

-Tames, Richard, **Approaches to Islam**, John Murray, Publishers Ltd, London, 1987.

-Watt, W. Montgomery, **Muhammad At Mecca**, The Clarendon press, Oxford, 1953.

- " " " ", **Muhammad At Medina**, The Clarendon press, Oxford, 1956.

- " " " ", **Muhammad: Prophet and Statesman**. Oxford University Pres, London, 1980.

For Further Reading

- Ali, Maulana Muhammad, **The Holy Quran**, Lahore, 1920 .

- Ali, Syed Ameer, **The Spirit of Islam : A History of the Evolution and Ideals of Islam**, London, 1955 .

- Andrae, Tor, **Mohammad**, Translated from Swedish into English by T. Menzel as **Mohammed: The Man and His Message**, New York, 1936 .

-Arberry, A. J. , **The Holy Koran**, London, 1953.

- Davenport, John, **Apology for Muhammad and the Que'än**, London, 1969.

- Dorman, Harry, **Towards Understanding Islam** .New York, 1984.

- Duncan, Greenless, **The Gospel of Islam**, Adyar, 1948.

- Ferguson, John, **War and Peace in the World's Religions**, Sheldon Press, London, 1977 .

- " " " ", **An Illustrated Encyclopaedia of Mysticism and the Mystery of Religions**, Thames and Hudson, London, 1976.

- Gardner, W. R., **The Qur'änic Doctrine of God**, Madras, 1916.

- Gibbon, Edward, **The Decline and Fall of the Roman Empire,** Heron Books, Washington Square Press , Inc., New York, n. d.

- Gibbs, H . A . R. **Mohammedanism,** Oxford university Press, 1949 .

- Gilman, Arthur, **The Saracens**, London, 1887.

- Glubb, Sir John, **The Life and Times of Muhammad**, London, 1998.

- Grimme, H . , **Mohammed**, 2 vols, Müster, 1892.

- Guillaume, A ., **The Traditions of Islam**, Oxford 1924.

- Hart , Michael H ., **The 100 : A Ranking of the Most Influencial Persons in History**, New York, 1978.

- Irving, Washington, **Mahomet and his Successors**, London, 1909.

- Jeffery , Arthur, **The Qur'än as Scripture**, New York, 1952.

- Klein , F . A ., **Religion of Islam**, London, 1906.

- Koelle, S. W ., **Mohammed and Mohammedanism**, London, 1889.

-Lammens, H. , **L' Islam : Croyances et Institutions**, Beirut , 1926 (English Translation by Sir E. Denison Ross, **Islam : Beliefs and Institutions,** London, 1929).

-Lane – pool, Stanley, **The Speeches and Table – Talk of The Prophet Muhammad**, London , 1882.

- Leonard, Arthur Glyn, **Islam : Moral and Spiritual Values**, London, 1927.

- Lewis, Bernard, ed ., **Islam from the Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople**, London, 1987.

- Margoliouth, David S., **Mohammed and the Rise of Islam**, London, 1940.

- Marshall, G . S. , **The Venture of Islam**, London, 1974.

- Muir , William, **Life of Mahomet**, Edinburgh, 1934.

- Newby, Gordon Darnell , **The Making of the last Prophet : A Reconstruction of the Earliest Biography of Muhammad** , University of South Carolina Press, Columbia, 1989.

- Newman, N. A. , **Muhammad, the Qur'än & Islam**, London, 1996.

- Nicholson, R. A ., **The Mystics of Islam** , Cambridge, 1914.

- " " " ", **A Literary History of the Arabs**, Cambridge, 1930.

- Peters, F. E., **Muhammad and the Origins of Islam**, London, 1994.

- - Phipps, William E ., **Muhammad and Jesus : A Comparison of the Prophets and their Teachings,** London, 1996 .

- Pickthall , Marmaduke William, **The Life of Prophet Muhammad: A Brief History**, London , 1998.

- Rauf, M. , **Life and Teaching of the Prophet Muhammad**, Longmans, London, 1964.

- Rodinson, Maxime, **Mohammed**, Penguin, 1973.

- Schacht, Joseph, **Origins of Muhammadan Jurisprudence**, Oxford, 1950.

- Schimmel, Annemarie, **And Muhammad Is His Messenger: The Veneration of the Prophet in Islamic Piety** (studies in Religion) , London, 1985.

- Smith , R. Bosworth, **Mohammed and Mohammadism**, London, 1976.

- Spellberg , D. A ., **Politics, Gender and the Islamic past** , London, 1994.

- Stanton, H. U. W. , **The Teachings of the Qur'än**, London, 1919.

- Torrey, C. , **The Jewish Foundation of Islam**, New York, 1933.

- Toynbee , A. J. , **Civilization on Trial**, New York, 1948.

- Watt, Montgomery, **Islam and the Integration of Society** ,Oxford, 1961.

- Wells, H . G . , **The Outline of History**, London, 1920.

- Widgery, A . G . , **Living Religions and Modern Thought**, Round Table Press, New York, 193

محتويات الكتاب

- تصدير٠ ٧

- **الفصل الأول : مدخل**
ما قبل محمد٠ ١١

١- جغرافية بلاد العرب٠ ١٣
٢- أقسام العرب٠ ١٦
٣- الحالة الإجتماعية٠ ١٩
٤- القيم الأخلاقية٠ ٢٣
٥- المعتقدات الدينية٠ ٣٠
٦- مكة٠ ٤٦
٧- الكعبة٠ ٥٢
٨- قريش٠ ٦٢

- **الفصل الثاني :**
من الميلاد إلى الزواج٠ ٧٥

١- المختار ذبيحا٠ ٧٧
٢- زواج عبد الله وموته٠ ٨٣
٣- ميلاد محمد ونشأته٠ ٨٧
٤- خديجة : حكاية الزواج٠ ١١٨
٥- هدم الكعبة وإعادة البناء٠ ١٣٣

- **الفصل الثالث:**
بداية الدعوة ١٣٩

١- خديجة وحكايات عن قرب ظهور نبي٠ ١٤١
٢- القلق والبحث عن الحقيقة٠ ١٤٦
٣- التحنث٠ ١٥٥
٤- الوحي٠ ١٦٠
٥- صور الوحي٠ ١٧٢

٦- فترة انقطاع الوحي٠ ١٧٧
٧- أول من آمن٠ ١٨١
٨- الجهر بالدعوة٠ ١٨٨
- الفصل الرابع: ١٩٧
الاضطهاد والهجـرة
١- محاورات وجدل مع النبي٠ ١٩٩
٢- الاضطهاد والتعذيب حتى الموت٠ ٢١٠
٣- الهجرة إلى الحبشة٠ ٢١٩
٤- المقاطعة وعام الحزن٠ ٢٣٩
٥- الخروج إلى الطائف٠ ٢٤٧
٦- الإسراء والمعراج٠ ٢٥١
٧- الهجرة إلى يثرب٠ ٢٦٩
- قائمة المراجع٠ ٢٩١

مطبعة السماح الحديثة
بطنطا

رقم الإيداع
١٥٥٨٢
٢٠٠٣

المعرفة رأس مالي ، والعقل أصل ديني ، والحب اساسي ، والشوق مَرْكبي ، وذكر الله أنيسي ، والثقة كنزي ، والحزن رفيقي ، والعلم سلاحي ، والصبر ردائي ، والرضا غنيمتي ، والفقر فخري ، والزهد حرفتي ، واليقين قوَّتي ، والصدق شفيعي ، والطاعةُ حَسَبي ، والجهاد خُلُقي ، وقُرَة عيني في الصلاة .

محمد بن عبد الله

النبي ﷺ